المجلد الخامس
من
تيسير الكريم الرحمٰن
في
تفسير كلام المنان[1]

للشيخ الإمام العالم العلامة شيخنا
عبد الرحمٰن الناصر بن سعدي
غفر الله له آمين

(١) في (ب) المجلد الخامس من تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحيم الرحمٰن، لجامعه الفقير إلى ربه المعيد المبدي عبد الرحمٰن بن ناصر بن عبد الله السعدي سدده الله فيما يخفي ويبدي إنه بكل خيرٍ كفيل وعلى كل شيئٍ وكيل.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه، وأصلي وأسلم على محمد وآله وصحبه.

أما بعدُ؛ فلما كان علم التفسير للقرآن أشرف العلوم على الإطلاق وأهمها وأحقها بتحقيق معانيه وفهم مبانيه؛ لكونه تنزيلاً من حكيم حميدٍ، أنزله هدىً ورحمةً للعباد وتبياناً لكلِّ شيء وتفصيلاً لكلِّ ما يحتاجونه في دينهم ودُنياهم وأخراهم، وكان من خاصَّة علم القرآن أنَّ فَهْمَ بعضِهِ وطائفةٍ منه يعينُ على فهم جميعه؛ لأنَّ القرآن من أوَّله إلى آخره يدورُ على تقرير الأصول النافعة والحقائق والشرائع الكبار والأحكام الحسنة والعقائد الصحيحة، ويوجِّه العباد إلى كلِّ خير، ويحذِّرهم من كل شرٍّ، ويعيدُ تقرير هٰذه الأمور ويُبديها، بأساليبَ متنوِّعة وتصاريفَ مناسبةٍ في غاية اليُسر والسُّهولة والإحكام والحُسْنِ الذي لا مزيدَ عليه.

وقد تكرَّر عليَّ السؤال من كثيرٍ من الأصحاب في نشر تفسيرنا هٰذا جميعه، وألحُّوا لما يرونه من الفائدة الكبيرة، فاعتذرتُ بأنَّ ذٰلك يصعُبُ جدًّا؛ لأنَّه مبسوط، وأيضاً في هٰذه الأوقات قلَّت رغباتُ الناس في الكتب المطوَّلة؛ لذٰلك أحببتُ إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا، وهو الاقتصار على جزءٍ واحدٍ من أجزاء هٰذا التفسير(١)، ووقع الاختيارُ على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل؛ فما لا يحصُلُ جميعُه لا يُترَكُ جميعُه.

وأرجو اللّه وأسأله أن يجعل ذٰلك خالصاً لوجهه، نافعاً لنا ولإخواننا، وأن يُمِدَّنا بعونِهِ وعنايتهِ وتوفيقِهِ؛ إنَّه جوادٌ كريمٌ رءوفٌ رحيمٌ.

وأتبعته بكلِّيات وأصول من كليات التفسير؛ لاستدراك ما لعله يفوت القارئ في غير هٰذا الجزء؛ فإنَّ الأصول والكلِّيات تبنى عليها الفروع والجزئيَّات، ويحصُلُ بها من النفع والفائدة على اختصارها ما لا يحصُلُ في الكلام الطويل، وهو حسبُنا ونعم الوكيل.

المؤلف

---

(١) كانت هٰذه رغبة الشيخ وقد طبع الجزء الخامس مفرداً في حياة الشيخ، ثم طبع الكتاب كاملاً بعد وفاة الشيخ رحمه الله. انظر المقدمة.

تفسير سورة الكهف

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ[1]

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾.

﴿١﴾ ﴿الحمد﴾: هو الثناء عليه بصفاته التي هي كلُّها صفات كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينيَّة والدنيويَّة، وأجلُّ نعمه على الإطلاق إنزالُه الكتاب العظيم على عبده ورسوله محمدٍ ﷺ، فحمد نفسه، وفي ضمنه إرشادُ العباد ليحمدوه على إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم. ثم وَصَفَ هٰذا الكتاب بوصفين مشتملين على أنَّه الكامل من جميع الوجوه، وهما: نفي العِوَج عنه، وإثباتُ أنَّه مقيمٌ[2] مستقيمٌ: فنفي العِوَج يقتضي أنَّه ليس في أخباره كذبٌ، ولا في أوامره ونواهيه ظلمٌ ولا عَبَثٌ. وإثبات الاستقامة يقتضي أنَّه لا يخبر ولا يأمر إلَّا بأجلِّ الإخبارات، وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفةً وإيماناً وعقلاً؛ كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومنها الغيوب المتقدِّمة والمتأخِّرة، وأنَّ أوامره ونواهيه تزكِّي النفوس وتطهِّرها وتنمِّيها وتكمِّلها؛ لاشتمالها على كمال العدل والقِسْط والإخلاص والعبوديَّة لله ربِّ العالمين وحده لا شريكَ له. وحقيقٌ بكتابٍ موصوفٍ بما ذُكِر أن يَحْمَدِ الله نفسَه على إنزالِهِ، وأن يتمدَّح إلى عباده به.

﴿٢﴾ وقوله: ﴿لينذِرَ بأساً شديداً من لَدُنه﴾؛ أي: لينذر بهٰذا القرآن الكريم عقابَه الذي عنده؛ أي: قدره وقضاه على من خالف أمره، وهٰذا يشمَلُ عقاب الدُّنيا وعقاب الآخرة. وهٰذا أيضاً من نعمه أنْ خوَّف عباده وأنذرَهم ما يضرُّهم ويُهلكهم؛

(١) البسملة في الأصل وضعت قبل قوله: «تفسير سورة الكهف».

(٢) في (ب): «قيِّم».

كما قال تعالى لما ذَكَرَ في هٰذا القرآن وصف النار؛ قال: ﴿ذٰلك يُخَوِّفُ اللّٰه به عبادَه يا عبادِ فاتَّقونِ﴾؛ فمن رحمته بعباده أن قيَّضَ العقوباتِ الغليظةَ على من خالف أمره وبيَّنها لهم وبيَّن لهم الأسباب الموصلة إليها. ﴿ويبشِّر المؤمنين الذين يعملونَ الصَّالحاتِ أنَّ لهم أجراً حسناً﴾؛ أي: وأنزل اللّٰه على عبدِهِ الكتاب ليبشِّر المؤمنين به وبرسلِهِ وكتبِهِ الذين كمل إيمانهم، فأوجب لهم عمل الصالحات، وهي الأعمال الصالحة من واجبٍ ومستحبٍّ، التي جمعت الإخلاص والمتابعة: ﴿أنَّ لهم أجراً حسناً﴾: وهو الثوابُ الذي رتَّبه اللّٰه على الإيمان والعمل الصالح، وأعظمُهُ وأجلُّه الفوز برضا اللّٰه ودخول الجنة التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خَطَرَ على قلب بشر. وفي وصفه بالحُسْنِ دلالةٌ على أنَّه لا مكدِّر فيه ولا منغِّص بوجه من الوجوه؛ إذْ لو وُجِدَ فيه شيءٌ من ذٰلك؛ لم يكن حسنُهُ تامًّا.

﴿٣﴾ ومع ذٰلك؛ فهٰذا الأجر الحسن ﴿ماكثينَ فيه أبداً﴾: لا يزول عنهم ولا يزولون عنه، بل نعيمُهم في كلِّ وقت متزايدٌ. وفي ذكر التبشير ما يقتضي ذِكْر الأعمال الموجبة للمبشَّر به، وهو أنَّ هٰذا القرآن قد اشتمل على كل عمل صالح موصل لما تستبشرُ به النفوس، وتفرحُ به الأرواح.

﴿٤ ـ ٥﴾ ﴿وينذرَ الذين قالوا اتَّخذ اللّٰهُ ولداً﴾: من اليهود والنَّصارى والمشركين، الذين قالوا هٰذه المقالة الشنيعة؛ فإنَّهم لم يقولوها عن علم ولا يقين؛ لا علم منهم ولا علم من آبائهم الذين قلَّدوهم واتَّبعوهم، بل إن يتَّبعون إلَّا الظنَّ وما تَهْوى الأنفسُ. ﴿كَبُرَتْ كلمةً تخرُجُ من أفواههم﴾؛ أي: عَظُمت شناعتُها واشتدَّت عقوبتُها، وأيُّ شناعة أعظم من وصفه بالاتِّخاذ للولد[1] الذي يقتضي نقصه ومشاركة غيره له في خصائص الربوبيَّة والإلٰهيَّة والكذب عليه؟! ﴿فمن أظلمُ ممَّن افترى على اللّٰه كذباً﴾؟! ولهٰذا قال هنا: ﴿إن يقولون إلَّا كَذِباً﴾؛ أي: كذباً محضاً ما فيه من الصدق شيء. وتأمَّل كيف أبطل هٰذا القول بالتدريج والانتقال من شيء إلى أبطل منه: فأخبر أولاً أنه ﴿ما لهم به مِن علم ولا لآبائهم﴾: والقول على اللّٰه بلا علم لا شكَّ في منعه وبطلانه. ثم أخبر ثانياً أنَّه قولٌ قبيحٌ شنيعٌ، فقال: ﴿كَبُرَتْ كلمةً تخرج من أفواههم﴾. ثم ذكر ثالثاً مرتبته من القُبح، وهو الكذب المنافي للصدق.

---

(١) في (ب): «الولد».

﴿٦﴾ ولما كان النبيُّ ﷺ حريصاً على هداية الخلق، ساعياً في ذٰلك أعظم السعي، فكان ﷺ يفرح ويسرُّ بهداية المهتدين، ويحزن ويأسفُ على المكذِّبين الضالِّين؛ شفقةً منه ﷺ عليهم، ورحمةً بهم؛ أرشده الله أن لا يَشْغَلَ نفسه بالأسف على هٰؤلاء الذين لا يؤمنون بهٰذا القرآن؛ كما قال في [الآية] الأخرى: ﴿لعلَّك باخعٌ نفسَكَ أن لا يكونوا مؤمنين﴾، وقال: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ﴾، وهنا قال: ﴿فلعلَّك باخعٌ نفسَك﴾؛ أي: مهلكها غمًّا وأسفاً عليهم، وذٰلك أنَّ أجرك قد وَجَبَ على الله، وهٰؤلاء لو عَلِمَ اللهُ فيهم خيراً لهداهم، ولٰكنَّه علم أنهم لا يَصْلُحون إلا للنار؛ فلذٰلك خَذَلَهم فلم يهتدوا؛ فإشغالك نفسك غمًّا وأسفاً عليهم ليس فيه فائدةٌ لك.

وفي هٰذه الآية ونحوها عبرةٌ؛ فإنَّ المأمور بدعاء الخلق إلى الله عليه التبليغ والسعي بكلِّ سبب يوصِلُ إلى الهداية، وسدُّ طرق الضَّلال والغواية، بغاية ما يمكِنُه، مع التوكُّل على الله في ذٰلك؛ فإن اهتدوا؛ فبها ونعمت، وإلَّا؛ فلا يحزنْ ولا يأسفْ؛ فإنَّ ذٰلك مضعفٌ للنفس، هادمٌ للقُوى، ليس فيه فائدةٌ، بل يمضي على فعلِهِ الذي كُلِّف به وتوجَّه إليه، وما عدا ذٰلك؛ فهو خارجٌ عن قدرته. وإذا كان النبيُّ ﷺ يقولُ الله له: ﴿إنَّك لا تَهْدي مَنْ أحببتَ﴾، وموسى عليه السلام يقول: ﴿ربِّ إني لا أملِكُ إلَّا نَفْسي وأخي...﴾ الآية؛ فمن عداهم من باب أولى وأحرى؛ قال تعالى: ﴿فذكِّرْ إنَّما أنتَ مُذَكِّرٌ لست عليهم بمصيطرٍ﴾.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾.

﴿٧﴾ يخبر تعالى أنه جعل جميع ما على وجه الأرض من مآكل لذيذةٍ ومشاربَ وملابسَ طيبةٍ[1] وأشجارٍ وأنهارٍ وزروع وثمارٍ ومناظرَ بهيجةٍ ورياضٍ أنيقةٍ وأصواتٍ شجيَّةٍ وصورٍ مليحةٍ وذهبٍ وفضةٍ وخيلٍ وإبلٍ ونحوها؛ الجميع جعله الله زينةً لهٰذه الدار فتنةً واختباراً؛ ﴿لِنَبْلُوَهم أيُّهم أحسنُ عملاً﴾؛ أي: أخلصه وأصوبه.

﴿٨﴾ ومع ذٰلك سيجعلُ الله جميع هٰذه المذكورات فانيةً مضمحلَّةً وزائلةً منقضيةً، وستعود الأرض ﴿صعيداً جُرزاً﴾: قد ذهبت لذَّاتها وانقطعتْ أنهارُها واندرستْ آثارُها وزال نعيمُها.

---

(١) في (ب): «ومساكن طيبة».

هٰذه حقيقة الدُّنيا، قد جلَّاها اللّه لنا كأنَّها رأي عين، وحذَّرنا من الاغترار بها، ورغَّبنا في دارٍ يدوم نعيمها ويسعدُ مقيمها، كلُّ ذٰلك رحمةً بنا، فاغترَّ بزُخْرُفِ الدُّنيا وزينتها مَنْ نَظَرَ إلى ظاهر الدُّنيا دون باطنها، فصحبوا الدُّنيا صحبة البهائم، وتمتَّعوا بها تمتُّع السوائم، لا ينظُرون في حقِّ ربِّهم، ولا يهتمُّون لمعرفته، بل همُّهم تناول الشهوات من أيِّ وجهٍ حصلت وعلى أيِّ حالةٍ اتَّفقت؛ فهٰؤلاء إذا حضر أحدَهم الموتُ، قلق لخراب ذاتِهِ وفوات لذَّاتِهِ، لا لما قدَّمت يداه من التفريط والسيئات.

وأمَّا من نَظَرَ إلى باطن الدُّنيا وعلم المقصود منها ومنه؛ فإنَّه تناول منها ما يستعين به على ما خُلِقَ له، وانتهز الفرصة في عمره الشريف، فجعل الدُّنيا منزل عبورٍ لا محلَّ حبور، وشُقَّة سفرٍ لا منزل إقامةٍ، فبذل جهدَهُ في معرفة ربِّه وتنفيذ أوامره وإحسان العمل؛ فهٰذا بأحسن المنازل عند اللّه، وهو حقيقٌ منه بكلِّ كرامة ونعيم وسرورٍ وتكريم، فنظر إلى باطن الدُّنيا حين نظر المغترُّ إلى ظاهرها، وعمل لآخرتِهِ حين عملَ البطَّال لدُنياه، فشتَّان ما بين الفريقين! وما أبعد الفرقَ بين الطائفتين!

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿٩﴾ وهٰذا الاستفهام بمعنى النفي والنهي؛ أي: لا تظنَّ أنَّ قصَّة أصحاب الكهف وما جرى لهم غريبةٌ على آيات اللّه وبديعةٌ في حكمته، وأنَّه لا نظير لها ولا مجانس لها، بل للّه تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثيرٌ من جنس آياتِهِ في أصحاب الكهف وأعظم منها، فلم يزل اللّه يُري عباده من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم ما يتبيَّن به الحقُّ من الباطل والهدى من الضلال. وليس المراد بهٰذا النفي عن أن تكون قصَّة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات اللّه العجيبة، وإنَّما المرادُ أن جنسها كثيرٌ جدًّا؛ فالوقوف معها وحدها في مقام العَجَبِ والاستغراب نقصٌ في العلم والعقل، بل وظيفةُ المؤمن التفكُّر بجميع آيات اللّه التي دعا اللّه العبادَ إلى التفكُّر فيها؛ فإنَّها مفتاحُ الإيمان وطريقُ العلم والإيقان. وإضافتهم[(١)] إلى الكهف الذي هو الغارُ في الجبل، ﴿والرقيم﴾؛ أي: الكتاب الذي

(١) في (ب): «وأضافهم».

قد رُقِمَتْ فيه أسماؤهم وقصَّتُهم لملازمتهم له دهراً طويلاً.

﴿١٠﴾ ثم ذكر قصَّتهم مجملةً فصَّلها بعد ذٰلك فقال: ﴿إذ أوى الفتيةُ﴾؛ أي: الشباب ﴿إلى الكهف﴾: يريدون بذٰلك التحصُّن والتحرُّز من فتنة قومهم لهم، ﴿فقالوا ربَّنا آتنا من لدُنك رحمةً﴾؛ أي: ثَبِّتْنا بها وتحفظُنا من الشرِّ وتوفِّقنا للخير، ﴿وهيِّىء لنا من أمرِنا رَشَداً﴾؛ أي: يسِّر لنا كلَّ سببٍ موصل إلى الرشد، وأصلحْ لنا أمر ديننا ودُنيانا؛ فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة إلى محلٍّ يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرُّعهم وسؤالهم للّه تيسير أمورهم وعدم اتِّكالهم على أنفسهم وعلى الخلق.

﴿١١﴾ فلذٰلك استجاب اللّه دعاءهم، وقيَّض لهم ما لم يكن في حسابهم؛ قال: ﴿فضَرَبْنا على آذانهم في الكهفِ﴾؛ أي: أنمناهم ﴿سنينَ عدداً﴾: وهي ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظٌ لقلوبهم من الاضطراب والخوف وحفظٌ لهم من قومهم، [وليكون آية بينة].

﴿١٢﴾ ﴿ثم بعثْناهم﴾؛ أي: من نومهم، ﴿لنعلم أيُّ الحزبينِ أحصى لما لَبِثوا أمداً﴾؛ أي: لنعلم أيُّهم أحصى لمقدار مدَّتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وكذٰلك بَعَثْناهم ليتساءلوا بينهم...﴾ الآية، وفي العلم بمقدار لَبْثِهِم ضبطٌ للحساب، ومعرفةٌ لكمال قدرة اللّه تعالى وحكمتِهِ ورحمتِهِ؛ فلو استمرُّوا على نومهم؛ لم يحصُل الاطلاع على شيء من ذٰلك من قصتهم.

﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴿١٣﴾ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٣﴾ هٰذا شروعٌ في تفصيل قصَّتهم، وأنَّ اللّه يقصُّها على نبيِّه بالحقِّ والصدق الذي ما فيه شكٌّ ولا شبهةٌ بوجه من الوجوه. ﴿إنَّهم فتيةٌ آمنوا بربِّهم﴾: وهٰذا من جموع القلَّة، يدلُّ ذٰلك على أنَّهم دون العشرة، آمنوا باللّه وحدَه لا شريك له من دون قومهم، فشكر اللّهُ لهم إيمانَهم، فزادهم هدىً؛ أي: بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان زادهم اللّه من الهدى الذي هو العلم النافع والعمل الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿ويزيدُ اللّه الذين اهتَدَوْا هدىً﴾.

﴿١٤﴾ ﴿وربطنا على قلوبهم﴾؛ أي: صبَّرناهم وثبَّتناهم وجعلنا قلوبهم مطمئنَّة

في تلك الحالة المزعجة، وهٰذا من لطفِهِ تعالى بهم وبرِّه أنْ وفَّقهم للإيمان والهدى والصبر والثبات والطمأنينة. ﴿إذْ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السمٰواتِ والأرض﴾؛ أي: الذي خَلَقَنا ورَزَقَنا ودبَّرنا وربَّانا هو خالق السماواتِ والأرض، المنفرد بخلق هٰذه المخلوقات العظيمة، لا تلك الأوثان والأصنام، التي لا تَخْلُق ولا ترزُقُ ولا تملِكُ نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فاستدلوا بتوحيد الربوبيَّة على توحيد الإلٰهيَّة. ولهٰذا قالوا: ﴿لن نَدْعُوَ من دونِهِ إلٰهاً﴾؛ أي: من سائر المخلوقات، ﴿لقد قُلْنا إذاً﴾ ـ أي: إن دَعَوْنا معه آلهةً بعدما علمنا أنَّه الربُّ الإلٰه الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة إلَّا له ـ ﴿شططاً﴾؛ أي: ميلاً عظيماً عن الحقِّ، وطريقاً بعيدة عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبيَّة وتوحيد الإلٰهيَّة والتزام ذٰلك وبيان أنَّه الحقُّ وما سواه باطلٌ، وهٰذا دليلٌ على كمال معرفتهم بربِّهم وزيادة الهدى من الله لهم.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٥﴾ لما ذكروا ما مَنَّ الله به عليهم من الإيمان والهدى والتقوى؛ التفتوا إلى ما كان عليه قومُهم من اتِّخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم، وبيَّنوا أنهم ليسوا على يقينٍ من أمرهم، بل هم في غاية الجهل والضلال، فقالوا: ﴿لولا يأتونَ عليهم بسلطانٍ بيِّن﴾؛ أي: بحجَّة وبرهان على ما هُمْ عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلاً إلى ذٰلك، وإنَّما ذٰلك افتراءٌ منهم على الله وكذبٌ عليه، وهٰذا أعظم الظُّلم، ولهٰذا قال: ﴿فمن أظْلَمُ ممَّنِ افترى على الله كَذِباً﴾.

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٦﴾ أي: قال بعضهم لبعض: إذ حَصَلَ لكم اعتزالُ قومكم في أجسامكم وأديانكم؛ فلم يَبْقَ إلَّا النجاء من شرِّهم والتسبُّب بالأسباب المفضية لذٰلك؛ لأنَّه لا سبيل لهم إلى قتالهم ولا بقائهم بين أظهرهم وهم على غير دينهم. ﴿فأوُوا إلى الكهفِ﴾؛ أي: انضمُّوا إليه واختفوا فيه، ﴿يَنْشُرْ لكم ربُّكم من رحمتِهِ ويهيِّئ لكم من أمرِكُم مِرْفَقاً﴾: وفيما تقدَّم أخبر أنهم دَعَوْه بقولهم: ﴿ربَّنا آتنا من لَدُنْكَ رحمةً وهَيِّىء لنا من أمرنا رَشَداً﴾؛ فجمعوا بين التبرِّي من حولهم وقوَّتهم والالتجاء

إلى اللّه في صلاح أمرهم ودعائه بذلك، وبين الثقة باللّه أنه سيفعل ذلك، لا جَرَمَ أنَّ اللّه نَشَرَ لهم من رحمتِهِ وهيَّأ لهم من أمرهم مِرْفَقاً؛ فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن ما هو من رحمته بهم، ويسَّر لهم كلَّ سبب، حتَّى المحلُّ الذي ناموا فيه كان على غايةِ ما يمكنُ من الصيانة؛ ولهذا قال:

﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٧﴾ أي: حفظهم اللّه من الشمس، فيسَّر لهم غاراً إذا طلعت الشمسُ؛ تميلُ عنه يميناً، وعند غروبها تميلُ عنه شمالاً؛ فلا ينالُهم حرُّها فتفسدُ أبدانُهم بها. ﴿وهم في فجوةٍ منه﴾؛ أي: من الكهف؛ أي: مكان متَّسع، وذلك ليطرُقَهم الهواءُ والنسيمُ، ويزولُ عنهم الوخم والتأذِّي بالمكان الضيِّق، خصوصاً مع طول المكث، و﴿ذلك من آيات اللّه﴾: الدالَّة على قدرته ورحمته وإجابة دعائهم وهدايتهم حتى في هذه الأمور، ولهذا قال: ﴿مَن يَهْدِ اللّه فهو المهتدِ﴾؛ أي: لا سبيل إلى نيل الهداية إلَّا من اللّه؛ فهو الهادي المرشدُ لمصالح الدارين. ﴿ومَن يُضْلِلْ فلن تَجِدَ له وليًّا مرشداً﴾؛ أي: لا تجد من يتولَّاه ويدبِّره على ما فيه صلاحُه، ولا يرشِدُه إلى الخير والفلاح؛ لأنَّ اللّه قد حَكَمَ عليه بالضَّلال، ولا رادَّ لحكمِهِ.

﴿١٨﴾ ﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقودٌ﴾؛ أي: تحسبهم أيها الناظر إليهم كأنَّهم[1] أيقاظٌ، والحالُ أنَّهم نيامٌ. قال المفسرون: وذلك لأنَّ أعينَهم منفتحةٌ لئلَّا تفسدَ؛ فالناظرُ إليهم يحسبهم أيقاظاً وهم رقودٌ. ﴿ونقلِّبُهم ذات اليمين وذات الشمال﴾: وهذا أيضاً من حفظه لأبدانهم؛ لأنَّ الأرض من طبيعتها أكلُ الأجسام المتَّصلة بها؛ فكان من قَدَرِ اللّه أن قلَّبهم على جنوبِهِم يميناً وشمالاً بقدر ما لا تُفْسِدُ الأرض أجسامهم، واللّه تعالى قادرٌ على حفظهم من الأرض من غير تقليبٍ، ولكنَّه تعالى حكيمٌ، أراد أن تجرِيَ سنَّته في الكون ويربُطَ الأسباب بمسبَّباتها. ﴿وكلبُهُم باسطٌ

---

(١) في (ب): «كأنه».

ذراعية بالوصيد﴾؛ أي: الكلب الذي كان مع أصحابِ الكهف أصابَهُ ما أصابَهم من النوم وقتَ حراستِهِ، فكان باسطاً ذراعيه بالوصيد؛ أي: الباب أو فنائه. هٰذا حفظُهم من الأرض، وأما حفظُهم من الآدميين؛ فأخبر أنَّه حماهم بالرُّعب الذي نَشَرَهُ الله عليه؛ فلو اطَّلع عليهم أحدٌ؛ لامتلأ قلبه رعباً وولَّى منهم فراراً. وهٰذا الذي أوجب أن يبقَوْا كلَّ هٰذه المدَّة الطويلة وهم لم يعثر عليهم أحدٌ مع قربهم من المدينة جدًّا، والدليل على قربهم أنَّهم لما استيقظوا؛ أرسلوا أحدَهم يشتري لهم طعاماً من المدينة، وبقوا في انتظاره، فدلَّ ذٰلك على شدَّة قربهم منها.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٩﴾ يقول تعالى: ﴿وكذٰلك بَعَثْناهم﴾: من نومهم الطويل، ﴿ليتساءلوا بينَهم﴾؛ أي: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدَّة لبثهم. ﴿قال قائلٌ منهم كم لبِثْتُم قالوا لَبِثنا يوماً أو بعض يوم﴾: وهٰذا مبنيٌّ على ظنِّ القائل، وكأنَّهم وقع عندهم اشتباهٌ في طول مدَّتهم؛ فلهٰذا ﴿قالوا ربُّكم أعلمُ بما لَبِثْتُم﴾: فردُّوا العلم إلى المحيط علمُهُ بكلِّ شيءٍ جملةً وتفصيلاً، ولعلَّ الله تعالى بعد ذٰلك أطلعهم على مدَّة لبثهم؛ لأنَّه بَعَثَهم ليتساءلوا بينَهم، وأخبر أنَّهم تساءلوا وتكلَّموا بمبلغ ما عندَهم وصار آخر أمرهم الاشتباه؛ فلا بدَّ أن يكون قد أخبرهم يقيناً؛ عَلِمْنا ذٰلك من حكمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذٰلك عبثاً، ومن رحمته بمن طلبَ علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمُها وسعى لذٰلك ما أمكنه؛ فإن الله يوضِّح له ذٰلك، وبما ذُكِرَ فيما بعده من قوله: ﴿وكذٰلك أعْثَرْنا عليهم ليَعْلَموا أنَّ وعد الله حقٌّ وأنَّ الساعةَ لا رَيْبَ فيها﴾؛ فلولا أنَّه حصل العلم بحالهم؛ لم يكونوا دليلاً على ما ذكر. ثم إنَّهم لما تساءلوا بينهم، وجرى منهم ما أخبر الله به؛ أرسلوا أحدَهم بوَرِقِهم؛ أي: بالدراهم التي كانت معهم؛ ليشتري لهم طعاماً يأكلونه من المدينة التي خرجوا منها، وأمروه أن يتخيَّر من الطعام أزكاه؛ أي: أطيبه وألذَّه، وأن يتلطَّف في ذهابه وشرائه وإيابه، وأن يختفي في ذٰلك، ويُخفي حال إخوانه، ولا يُشْعِرَنَّ بهم أحداً.

﴿٢٠﴾ وذكروا المحذور من اطِّلاع غيرهم عليهم وظهورهم عليهم أنَّهم بين

أمرين: إما الرَّجم بالحجارة فيقتلونهم أشنع قِتلة لِحنَقهم عليهم وعلى دينهم، وإما أن يفتنوهم عن دينهم ويردُّوهم في ملَّتهم، وفي هٰذه الحال لا تفلحون أبداً، بل يخسرون في دينهم ودُنياهم وأخراهم.

وقد دلَّت هاتان الآيتان على عدة فوائد:

منها: الحثُّ على العلم وعلى المباحثة فيه؛ لكون اللّه بعثهم لأجل ذٰلك.

ومنها: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم أن يردَّه إلى عالمه، وأن يَقِفَ عند حدِّه.

ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء وصحَّة الشركة في ذٰلك.

ومنها: جواز أكل الطيِّبات والمطاعم اللَّذيذة إذا لم تخرُجْ إلى حدِّ الإسراف المنهيِّ عنه؛ لقوله: ﴿فَلْيَنظُرْ أيُّها أزكى طعاماً فليأتِكم برزقٍ منه﴾: وخُصوصاً إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذٰلك، ولعلَّ هٰذا عمدة كثير من المفسِّرين القائلين بأنَّ هؤلاء أولاد ملوك؛ لكونهم أمروه بأزكى الأطعمة التي جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها.

ومنها: الحثُّ على التحرُّز والاستخفاء والبعد عن مواقع الفتن في الدين واستعمال الكِتْمان في ذٰلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدين.

ومنها: شدة رغبة هٰؤلاء الفتية في الدين وفرارهم من كلِّ فتنةٍ في دينهم وتركُهم أوطانَهم[1] في اللّه.

ومنها: ذِكْر ما اشتمل عليه الشرُّ من المضارِّ والمفاسد الداعية لبغضِهِ وتركِهِ، وأنَّ هٰذه الطريقة هي طريقة المؤمنين المتقدِّمين والمتأخِّرين؛ لقولهم: **﴿ولن تُفلِحوا إذاً أبداً﴾**.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢١﴾ يخبر تعالى أنَّه أطْلَعَ الناس على حال أهل الكهف، وذٰلك ـ واللّه أعلم ـ بعدما استيقظوا وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعاماً وأمروه بالاستخفاء والإخفاء،

(١) في (ب): «لأوطانهم».

فأراد اللّه أمراً فيه صلاحٌ للناس وزيادةُ أجرٍ لهم، وهو أنَّ الناس رأوا منهم آيةً من آيات اللّه المشاهَدَةِ بالعيان على أنَّ وعدَ اللّه حقٌّ لا شكَّ فيه ولا مِرْيةَ ولا بُعْدَ بعدما كانوا يتنازعون بينَهم أمرَهم؛ فمن مثبتٍ للوعد والجزاء ومن نافٍ لذلك، فجعل قصَّتَهم زيادةَ بصيرةٍ ويقينٍ للمؤمنين وحجَّةً على الجاحدين، وصار لهم أجرُ هذه القضيَّة، وشهَّر اللّه أمرهم، ورفع قدرهم، حتى عظَّمهم الذين اطَّلعوا عليهم؛ قالوا: ﴿ابنوا عليهم بُنياناً﴾: اللّه أعلمُ بحالهم ومآلهم! وقال مَنْ غَلَبَ على أمرهم ـ وهم الذين لهم الأمرُ ـ:

﴿لَنَتَّخِذَنَّ عليهم مسجداً﴾؛ أي: نعبد اللّه تعالى فيه ونتذكَّر به أحوالهم وما جرى لهم. وهذه الحالة محظورةٌ نهى عنها النبيُّ ﷺ[1] وذمَّ فاعليها، ولا يدلُّ ذكرها هنا على عدم ذمِّها؛ فإنَّ السياق في شأن أهل الكهف والثناء عليهم، وأنَّ هؤلاء وصلت بهم الحالُ إلى أن قالوا ابنوا عليهم مسجداً بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم وحَذَرِهم من الاطِّلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى.

وفي هذه القصة دليلٌ على أنَّ من فرَّ بدينه من الفتن؛ سلَّمه اللّه منها، وأنَّ مَن حرص على العافية؛ عافاه اللّه، ومن أوى إلى اللّه؛ آواه اللّه وجعله هدايةً لغيره، ومن تحمل الذُّلَّ في سبيله وابتغاء مرضاته؛ كان آخرُ أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لا يحتسب، وما عند اللّه خيرٌ للأبرار.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢٢﴾ يخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدَّة أصحاب الكهف اختلافاً صادراً عن رجمهم بالغيب وتقوُّلهم بما لا يعلمون، وأنَّهم فيهم على ثلاثة أقوال: منهم من يقولُ: ﴿ثلاثةٌ رابعُهم كلبهم﴾، ومنهم من يقول: ﴿خمسةٌ سادسُهم كلبُهم﴾، وهذان القولان ذكر اللّه بعدهما أنَّ هذا رجمٌ منهم بالغيب، فدلَّ على بطلانهما، ومنهم من يقول: ﴿سبعةٌ وثامِنُهم كلبُهم﴾، وهذا ـ واللّه أعلم ـ هو

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١) عن عائشة وابن عباس رضي اللّه عنهما، وعن جندب بن عبد اللّه كما في مسلم (٥٣٢). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٦٩): «فقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ، بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه».

الصوابُ؛ لأنَّ اللّه أبطل الأوّلَين ولم يبطِله، فدلَّ على صحَّته، وهٰذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصُلُ بمعرفة عددهم مصلحةٌ للناس دينيَّة ولا دنيويَّة، ولهٰذا قال تعالى: ﴿قل ربِّي أعلمُ بعِدَّتِهم لا يعلمُهم إلَّا قليلٌ﴾: وهم الذين أصابوا الصوابَ وعلموا إصابتهم. ﴿فلا تمارِ﴾: تجادل وتُحاج ﴿فيهم إلَّا مراء ظاهرا﴾؛ أي: مبنياً على العلم واليقين، ويكون أيضاً فيه فائدةٌ، وأما المماراة المبنيَّة على الجهل والرجم بالغيب أو التي لا فائدةَ فيها: إما أنْ يكونَ الخصمُ معانداً، أو تكون المسألةُ لا أهميَّة فيها ولا تحصُلُ فائدةٌ دينيَّةٌ بمعرفتها؛ كعدد أصحاب الكهف ونحو ذٰلك؛ فإنَّ في كثرة المناقشات فيها والبحوث المتسلسلة تضييعاً للزَّمان وتأثيراً في مودَّة القلوب بغير فائدة. ﴿ولا تَسْتَفْتِ فيهم﴾؛ أي: في شأن أهل الكهف ﴿منهم﴾؛ أي: من أهل الكتاب، ﴿أحداً﴾: وذٰلك لأنَّ مبنى كلامهم فيهم على الرجم بالغيب والظنّ الذي لا يُغني من الحقّ شيئاً؛ ففيها دليلٌ على المنع من استفتاء مَنْ لا يَصْلُحُ للفتوى: إما لقصوره في الأمر المستفتى فيه، أو لكونه لا يبالي بما تكلَّم به، وليس عنده ورعٌ يحجُزُه، وإذا نُهي عن استفتاءِ هٰذا الجنس؛ فنهيُهُ هو عن الفتوى من باب أولى وأحرى.

وفي الآية أيضاً دليلٌ على أن الشخص قد يكون منهيًّا عن استفتائه في شيء دون آخر، فيُسْتَفْتى فيما هو أهلٌ له بخلاف غيره؛ لأنَّ اللّه لم يَنْهَ عن استفتائهم مطلقاً، إنَّما نهى عن استفتائهم في قصَّةِ أصحاب الكهف وما أشبهها.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٣﴾ هٰذا النهيُ كغيرِهِ، وإنْ كان لسببٍ خاصٍّ وموجه للرسول ﷺ؛ فإنَّ الخطاب عامٌّ للمكلَّفين؛ فنهى اللّه أن يقولَ العبدُ في الأمور المستقبلة: ﴿إنِّي فاعلٌ ذٰلك﴾: من دون أن يقرِنَه بمشيئة اللّه، وذٰلك لما فيه من المحذورِ، وهو الكلامُ على الغيوب(١) المستقبلة التي لا يَدْري هل يفعلُه أم لا؟ وهل تكون أم لا؟ وفيه ردُّ الفعل إلى مشيئة العبد استقلالاً، وذٰلك محذورٌ محظورٌ؛ لأنَّ المشيئة كلها للّه، ﴿وما تشاؤون إلَّا أنْ يشاءَ اللّهُ ربُّ العالمين﴾، ولما في ذكر مشيئة اللّه من تيسير الأمر وتسهيلِهِ وحصول البركةِ فيه والاستعانةِ من العبد لربِّه.

(١) في (ب): «الغيب».

﴿٢٤﴾ ولما كان العبد بشراً لا بدَّ أن يسهو عن ذكر المشيئة[١]؛ أمَرَه اللّه أن يستثني بعد ذٰلك إذا ذَكَرَ؛ ليحصُلَ المطلوب ويندفِعَ المحذورُ. ويؤخَذُ من عموم قوله: ﴿واذكُرْ رَبَّك إذا نسيتَ﴾: الأمرُ بذِكْر اللّه عند النسيان؛ فإنَّه يزيله ويذكِّر العبدَ ما سها عنه. وكذٰلك يؤمَرُ الساهي الناسي لذِكْرِ اللّه أن يَذْكُرَ ربَّه ولا يكونَنَّ من الغافلين. ولما كان العبدُ مفتقراً إلى اللّه في توفيقه للإصابة وعدم الخطأ في أقواله وأفعاله؛ أمره اللّه أن يقول: ﴿عسى أن يَـهْدِيَني ربِّي لأقربَ من هٰذا رَشَداً﴾: فأمره أن يدعو اللّه ويرجوه ويَثِقَ به أنْ يَهْدِيَه لأقرب الطرق الموصلة إلى الرشد، وحريٌّ بعبد تكون هٰذه حاله، ثم يبذل جهده، ويستفرغُ وسعه في طلب الهدى والرشد، أن يُوَفَّق لذٰلك، وأن تأتِيَه المعونةُ من ربِّه، وأن يسدِّدَه في جميع أموره.

﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٥ ـ ٢٦﴾ لمَّا نهاه اللّه عن استفتاء أهل الكتاب في شأن أهل الكهف لعدم علمهم بذٰلك، وكان اللّه عالم الغيب والشهادة العالم بكلِّ شيء؛ أخبره اللّه بمدَّة لَبثهم، وأنَّ علم ذٰلك عنده وحدَه؛ فإنَّه من غيب السماواتِ والأرض، وغيبُها مختصٌّ به؛ فما أخبر به عنها على ألسنةِ رُسُلِهِ؛ فهو الحقُّ اليقين الذي لا يُشَكُّ فيه، وما لا يُطْلِعُ رسلَه عليه؛ فإنَّ أحداً من الخلق لا يعلمه. وقوله: ﴿أبصِرْ به وأسمِعْ﴾: تعجُّبٌ من كمال سمعه وبصره وإحاطتهما بالمسموعات والمبصَرات بعدما أخبر بإحاطة علمِهِ بالمعلومات، ثم أخبر عن انفراده بالولاية العامَّة والخاصَّة؛ فهو الوليُّ الذي يتولَّى تدبير جميع الكون، والوليُّ لعباده المؤمنين؛ يخرِجُهم من الظُّلمات إلى النور، وييسِّرهم لليسرى، ويجنِّبهم العسرى، ولهٰذا قال: ﴿ما لهم من دونِهِ من وليٍّ﴾؛ أي: هو الذي تولَّى أصحاب الكهف بلطفِهِ وكرمِهِ، ولم يَكِلْهم إلى أحدٍ من الخلق. ﴿ولا يُشْرِكُ في حكمِهِ أحداً﴾: وهٰذا يشمَلُ الحكمَ الكونيَّ القدريَّ والحكم الشرعيَّ الدينيَّ؛ فإنَّه الحاكم في خلقه قضاءً وقدراً وخلقاً وتدبيراً، والحاكم فيهم بأمرِهِ ونهيِهِ وثوابِهِ وعقابِهِ.

ولما أخبر أنه تعالى له غيب السماواتِ والأرض؛ فليس لمخلوقٍ إليها طريقٌ إلَّا

---

(١) في (ب): «أن يسهو فيترك ذكر المشيئة».

عن الطريق[١] التي يُخبر بها عبادَه، وكان هٰذا القرآن قد اشتمل على كثيرٍ من الغُيوب؛ أمر تعالى بالإقبال عليه، فقال:

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٧﴾ التلاوة: هي الاتِّباع؛ أي: اتَّبع ما أوحى اللّٰه إليك بمعرفة معانيه وفهمها وتصديق أخباره وامتثال أوامره ونواهيه؛ فإنَّه الكتاب الجليل، الذي لا مبدِّل لكلماته؛ أي: لا تُغَيَّر ولا تُبَدَّل لصدقها وعدلها وبلوغها من الحسن فوق كلِّ غاية، ﴿وَتَمَّتْ كلمةُ ربِّك صدقاً وعدلاً﴾؛ فلكمالها[٢] استحال عليها التغييرُ والتبديل، فلو كانت ناقصةً؛ لَعَرَضَ لها ذٰلك أو شيءٌ منه. وفي هٰذا تعظيم للقرآن في ضمنه الترغيبُ على الإقبال عليه. ﴿وَلَن تَجِدَ من دونه مُلْتَحَداً﴾؛ أي: لن تجد من دون ربِّك ملجأ تلجأ إليه ولا مَعاذًا تعوذ به؛ فإذا تعيَّن أنَّه وحده الملجأ في كلِّ الأمور؛ تعيَّن أن يكون هو المألوه المرغوب إليه في السرَّاء والضرَّاء، المفتَقر إليه في جميع الأحوال، المسؤول في جميع المطالب.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٨﴾ يأمر تعالى نبيَّه محمداً ﷺ، وغيره أسوته في الأوامر والنواهي أن يصبر نفسه مع المؤمنين العُبَّاد المنيبين. ﴿الذين يَدْعونَ ربَّهم بالغداة والعشيِّ﴾؛ أي: أول النهار وآخره؛ يريدون بذٰلك وجه اللّٰه، فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها؛ **ففيها** الأمر بصحبة الأخيار ومجاهدة النفس على صحبتهم ومخالطتهم، وإنْ كانوا فقراء؛ فإنَّ في صحبتهم من الفوائد ما لا يُحصى. ﴿ولا تَعْدُ عيناك عنهم﴾؛ أي: لا تجاوزهم بصرك وترفع عنهم نظرك؛ ﴿تريد زينةَ الحياةِ الدُّنيا﴾؛ فإنَّ هٰذا ضارٌّ غير نافع، قاطعٌ عن المصالح الدينيَّة؛ فإنَّ ذٰلك يوجب تعلُّق القلب بالدُّنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبةُ في الآخرة؛ فإنَّ زينة الدُّنيا تروق للناظر وتَسْحَر القلب[٣]، فيغفل القلب عن ذكر اللّٰه، ويُقْبِلُ على اللَّذَّات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبديَّة والندامة السرمديَّة،

---

(١) في (ب): «إلى من الطريق».

(٢) في (ب): «فلتمامها».

(٣) في (ب): «وتسحر العقل».

ولهٰذا قال: ﴿ولا تُطِعْ من أغفَلْنا قلبه عن ذكرنا﴾: غَفَلَ عن اللّه فعاقبه بأن أغْفَلَه عن ذكره، ﴿واتَّبَع هواه﴾؛ أي: صار تبعاً لهواه؛ حيث ما اشتهتْ نفسُه فعله، وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخُسرانه؛ فهو قد اتَّخذ إلٰهه هواه؛ كما قال تعالى: ﴿أفرأيتَ مَنِ اتَّخذ إلٰهه هواه وأضلَّه اللّه على علم...﴾ الآية. ﴿وكان أمرُهُ﴾؛ أي: مصالح دينه ودنياه ﴿فُرُطاً﴾؛ أي: ضائعة معطَّلة؛ فهٰذا قد نهى اللّه عن طاعته؛ لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنَّه لا يدعو إلَّا لما هو متَّصف به.

ودلَّت الآية على أنَّ الذي ينبغي أن يُطاع، ويكون إماماً للناس مَن امتلأ قلبُه بمحبَّة اللّه، وفاض ذٰلك على لسانه، فلهج بذكر اللّه، واتَّبع مراضي ربِّه، فقدَّمها على هواه، فحفظ بذٰلك ما حَفِظَ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما منَّ اللّه به عليه؛ فحقيقٌ بذٰلك أن يُتَّبع، ويُجعل إماماً.

والصبر المذكور في هٰذه الآية هو الصبر على طاعة اللّه، الذي هو أعلى أنواع الصبر، وبتمامه يتمُّ باقي الأقسـام.

وفي الآية استحبابُ الذِّكر والدُّعاء والعبادة طرفي النهار؛ لأنَّ اللّه مدحهم بفعله، وكلُّ فعل مَدَحَ اللّه فاعله؛ دلَّ ذٰلك على أن اللّه يحبُّه؛ وإذا كان يحبه فإنَّه يأمر به ويرغِّب فيه.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿٢٩﴾ أي: ﴿قل﴾ للناس يا محمدُ: هو[1] ﴿الحقُّ من ربِّكم﴾؛ أي: قد تبيَّن الهدى من الضلال، والرُّشد من الغيِّ، وصفات أهل السعادة وصفات أهل الشقاوة، وذٰلك بما بيَّنه اللّه على لسان رسوله؛ فإذا بان واتَّضح ولم يبقَ فيه شبهةٌ؛ ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾؛ أي: لم يبق إلَّا سلوكُ أحد الطريقين بحسب توفيق العبد وعدم توفيقه، وقد أعطاه اللّه مشيئةً بها يقدِرُ على الإيمان والكفر والخير

(١) في (ب): «هذا».

والشرِّ؛ فمن آمن؛ فقد وُفِّق للصواب، ومن كَفَرَ؛ فقد قامت عليه الحجَّة، وليس بمكرهٍ على الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿لا إكْراهَ في الدِّينِ قد تَبيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾، [وليس في قوله: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ الإذن في كلا الأمرين وإنما ذلك تهديد ووعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التام كما ليس فيها تركه قتال الكافرين]. **ثم ذكر تعالى مآل الفريقين**، فقال: ﴿إنَّا أعْتَدْنا للظالمين﴾: بالكفر والفسوق والعصيان، ﴿ناراً أحاطَ بهم سُرادِقُها﴾؛ أي: سورها المحيط بها؛ فليس لهم منفذٌ ولا طريقٌ ولا مخلصٌ منها، تصلاهم النار الحامية. ﴿وإن يَسْتغيثوا﴾؛ أي: يطلبوا الشراب ليطفىء ما نزل بهم من العطش الشديد؛ ﴿يُغاثوا بماءٍ كالمهل﴾؛ أي: كالرصاص المذاب أو كعكر الزيت من شدَّة حرارته. ﴿يَشْوي الوجوهَ﴾؛ أي: فكيف بالأمعاء والبطون؟! كما قال تعالى: ﴿يُصْهَرُ به ما في بطونِهِم والجلودُ. ولهم مَقامِعُ من حديدٍ﴾. ﴿بئس الشرابُ﴾: الذي يُراد ليطفىء العطش ويدفع بعض العذابِ فيكون زيادةً في عذابهم وشدَّة عقابهم، ﴿وساءت﴾: النار ﴿مرتفقاً﴾: وهٰذا ذمٌّ لحالة النار؛ أنَّها ساءت المحلَّ الذي يرتفق به؛ فإنَّها ليس فيها ارتفاقٌ؛ وإنَّما فيها العذاب العظيم الشاقُّ الذي لا يُفَتَّر عنهم ساعةً، وهم فيه مُبْلِسونَ، قد أيسوا من كلِّ خيرٍ، ونسيهم الرحيم في العذاب كما نسوه.

﴿٣٠﴾ **ثم ذكر الفريق الثاني**، فقال: ﴿إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ﴾؛ أي: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقَدَر خيره وشرِّه وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات. ﴿إنَّا لا نُضيعُ أجْرَ مَنْ أحسنَ عملاً﴾: وإحسانُ العمل أن يريدَ العبدُ العمل لوجه الله متبعاً في ذٰلك شرع الله؛ فهٰذا العمل لا يضيِّعه الله ولا شيئاً منه، بل يحفظُه للعاملين، ويوفِّيهم من الأجر بحسب عملهم وفضله وإحسانه.

﴿٣١﴾ وذكر أجرهم بقوله: ﴿أولئك لهم جناتُ عَدْنٍ تجري من تحتها الأنهار يُحَلَّوْن فيها من أساورَ من ذهبٍ ويلبسون ثياباً خضراً من سُنْدُسٍ وإسْتَبْرَقٍ متَّكئين فيها على الأرائك﴾؛ [أولئك] أي: أولٰئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، لهم الجناتُ العالياتُ التي قد كَثُرَتْ أشجارُها فأجَنَّتْ مَنْ فيها، وكثرت أنهارُها، فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيقة والمنازل الرفيعة، وحليتُهم فيها الذهب، ولباسُهم فيها الحرير الأخضر من السُّندس، وهو الغليظُ من الدِّيباج، والإستبرق وهو ما رَقَّ منه، متَّكئين فيها على الأرائك، وهي السرر المزيَّنة المجمَّلة

بالثياب الفاخرة؛ فإنَّها لا تسمَّى أريكة حتى تكون كذلك، وفي اتِّكائهم على الأرائك ما يدلُّ على كمال الراحة وزوال النَّصب والتعب وكون الخدم يسعَوْن عليهم بما يشتهون، وتمام ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبديَّة؛ فهذه الدار الجليلة، ﴿نعم الثوابُ﴾: للعاملين، ﴿وحَسُنَتْ مرتَفَقاً﴾: يرتَفِقون بها، ويتمتَّعون بما فيها مما تشتهيه الأنفسُ، وتلذُّ الأعينُ من الحبرة والسرور والفرح الدائم واللَّذَّات المتواترة والنعم المتوافرة، وأيُّ مرتَفَقٍ أحسنُ من دارٍ، أدنى أهلها يسير في مُلكِهِ ونعيمه وقصورِهِ وبساتينه ألفي سنة؟ ولا يرى فوقَ ما هو فيه من النعيم، قد أُعْطِيَ جميعَ أمانيه ومطالبِهِ، وزيد من المطالب ما قَصَّرَتْ عنه الأماني، ومع ذلك؛ فنعيمُهم على الدوام، متزايدٌ في أوصافه وحسنه، فنسأل الله الكريم أنْ لا يحرِمَنا خيرَ ما عنده من الإحسان بشرِّ ما عندنا من التقصير والعصيان. **ودلت الآية الكريمة** وما أشبهها على أن الحِلْيَةَ عامَّةٌ للذكور والإناث؛ كما ورد في الأخبار الصحيحة؛ لأنَّه أطلقها في قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾، وكذلك الحرير ونحوه.

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾.

﴿٣٢﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: اضربْ للناس مَثَلَ هذين الرجلين: الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كلٍّ منهما من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل والثواب؛ ليعتبروا بحالهما، ويتَّعظوا بما حصل عليهما، وليس معرفة أعيان الرجلين وفي أيِّ زمان أو مكانٍ هما فيه فائدة أو نتيجة؛ فالنتيجة تحصُلُ من قصتهما فقط، والتعرُّض لما سوى ذلك من التكلُّف. فأحدُ هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة جعل الله له جنتين؛ أي: بستانَيْنِ حسنَيْنِ ﴿من أعناب وحفَفْناهما بنخل﴾؛ أي: في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصاً أشرف الأشجار العنب والنخل؛ فالعنب وسطها، والنخل قد حفَّ بذلك ودار به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح التي تكمُلُ بها الثمار وتنضج وتتجوهر، ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زَرْعاً.

﴿٣٣﴾ فلم يبق عليهما إلا أن يقالَ: كيف ثمارُ هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماءٌ يكفيهما؟ فأخبر تعالى أنَّ كلاًّ من ﴿الجنتين آتت أُكُلَها﴾؛ أي: ثمرها وزرعها ضعفين؛ أي: متضاعفاً، وأنها ﴿لم تظلم منه شيئاً﴾؛ أي: لم تنقص من أُكُلِها أدنى شيء، ومع ذلك فالأنهار في جوانبها سارحة كثيرة غزيرة.

﴿٣٤﴾ ﴿وكان له﴾؛ أي: لذلك الرجل ﴿ثمرٌ﴾؛ أي: عظيم؛ كما يفيده التنكير؛ أي: قد استكملت جنتاه ثمارهما، وارجحنَّت أشجارهما ولم تعرض لهما آفةٌ أو نقصٌ، فهٰذا غاية منتهى زينة الدُّنيا في الحرث، ولهٰذا اغترَّ هٰذا الرجل وتبجَّح وافتخر، ونسي آخرته.

﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٣٤﴾ أي: فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن وهما يتحاوران؛ أي: يتراجعان بينهما في بعض الماجريات المعتادة مفتخراً عليه: ﴿أنا أكثرُ منك مالاً وأعزُّ نفراً﴾: فَخَرَ بكثرة مالِهِ وعزَّةِ أنصاره من عبيدٍ وخدم وأقارب، وهٰذا جهلٌ منه، وإلَّا؛ فأيُّ افتخار بأمر خارجيٍّ ليس فيه فضيلةٌ نفسيَّة ولا صفةٌ معنويَّة، وإنَّما هو بمنزلة فخر الصبيِّ بالأماني التي لا حقائق تحتها؟!

﴿٣٥ ـ ٣٦﴾ ثم لم يكفِهِ هٰذا الافتخار على صاحبه، حتى حَكَمَ بجهله وظلمه، وظنَّ لما دخل جنته، ﴿فقال ما أظنُّ أن تبيدَ﴾؛ أي: تنقطعَ وتضمحلَّ ﴿هٰذه أبداً﴾: فاطمأنَّ إلى هٰذه الدنيا، ورضي بها، وأنكر البعث، فقال: ﴿وما أظنُّ الساعة قائمةً ولئن رُدِدتُّ إلى ربِّي﴾: على ضرب المثل؛ ﴿لأجِدَنَّ خيراً منها مُنْقَلَباً﴾؛ أي: ليعطيني خيراً من هاتين الجنتين! وهٰذا لا يخلو من أمرين: إمَّا أن يكون عالماً بحقيقة الحال، فيكون كلامُهُ هٰذا على وجه التهكُّم والاستهزاء، فيكون زيادةَ كفرٍ إلى كفرِهِ. وإما أن يكون هٰذا ظنَّه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس وأبخسهم حظًّا من العقل؛ فأيُّ تلازم بين عطاء الدُّنيا وعطاء الآخرة حتى يظنَّ بجهله أنَّ من أُعْطِي في الدنيا أُعْطِيَ في الآخرة؟! بل الغالب أنَّ الله تعالى يَزْوِي الدُّنيا عن أوليائِهِ وأصفيائِهِ، ويوسِّعها على أعدائه، الذين ليس لهم في الآخرة نصيبٌ. والظاهر أنَّه يعلم حقيقة الحال، ولٰكنَّه قال هٰذا الكلام على وجه التهكُّم والاستهزاء؛ بدليل قوله: ﴿وَدَخَلَ جنَّته وهو ظالمٌ لنفسِهِ﴾: فإثبات أنَّ وصفه الظلم في حال دخوله الذي جرى منه من القول ما جرى، يدلُّ على تمرُّده وعناده.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا

﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

﴿٣٧﴾ أي: قال له صاحبُهُ المؤمنُ ناصحاً له ومذكِّراً له حاله الأولى التي أوجده الله فيها في الدُّنيا ﴿من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم سوَّاك رَجُلاً﴾؛ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وواصَلَ عليك النعم، ونقلك من طَوْرٍ إلى طَوْرٍ، حتى سوَّاك رجلاً كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة والمعقولة، وبذٰلك يسَّر لك الأسباب وهيَّأ لك ما هيَّأ من نعم الدنيا، فلم تحصُل لك الدُّنيا بحولك وقوَّتك، بل بفضل الله تعالى عليك؛ فكيف يَليقُ بك أن تكفُرَ بالله الذي خلقك من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم سوَّاك رجلاً، وتجهل نعمته، وتزعم أنَّه لا يبعثك، وإن بعثك أنَّه يعطيك خيراً من جنتك؟! هٰذا ممَّا لا ينبغي ولا يليقُ.

﴿٣٨﴾ ولهٰذا لما رأى صاحبُهُ المؤمن حاله واستمراره على كفرِهِ وطغيانه؛ قال مخبراً عن نفسه على وجه الشُّكر لربِّه والإعلان بدينِهِ عند ورود المجادلات والشُّبه: ﴿لٰكنَّا هو الله ربِّي ولا أشرِكُ بربِّي أحداً﴾: فأقرَّ بربوبيَّة ربِّه وانفراده فيها والتزام[1] طاعته وعبادته، وأنَّه لا يشرك به أحداً من المخلوقين.

ثم أخبر أنَّ نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام، ولو مع قلَّة ماله وولده؛ أنَّها هي النعمة الحقيقيَّة، وأنَّ ما عداها معرَّضٌ للزوال والعقوبة عليه والنَّكال، فقال:

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٣٩﴾ أي: قال للكافر صاحبُهُ المؤمنُ: أنت وإن فخرتَ عليَّ بكثرة مالك وولدك، ورأيتني ﴿أقلَّ منك مالاً وولداً﴾؛ فإنَّ ما عند الله خيرٌ وأبقى، وما يُرجى من خيره وإحسانه أفضلُ من جميع الدُّنيا التي يتنافس فيها المتنافسون.

---

(١) في (ب): «التزم».

﴿٤٠﴾ ﴿فعسى ربِّي أن يُؤْتِيَني خيراً من جنَّتك ويرسلَ عليها﴾؛ أي: على جنَّتك التي طغيتَ بها وغَرَّتْك، ﴿حُسباناً من السماء﴾؛ أي: عذاباً بمطر عظيم أو غيره. ﴿فتصبحَ﴾: بسبب ذٰلك ﴿صعيداً زَلَقاً﴾؛ أي: قد اقتلعت أشجارها، وتلفت ثمارها وغرق زرعُها، وزال نفعُها.

﴿٤١﴾ ﴿أو يصبحَ ماؤها﴾ الذي مادتُها منه ﴿غوراً﴾؛ أي: غائراً في الأرض. ﴿فلن تستطيعَ له طَلَباً﴾؛ أي: غائراً لا يُستطاع الوصول إليه بالمعاول ولا بغيرها، وإنَّما دعا على جنته المؤمن غضباً لربِّه؛ لكونها غرَّته وأطغتْه واطمأنَّ إليها؛ لعلَّه ينيبُ، ويراجع رُشده، ويبصر في أمره.

﴿٤٢﴾ فاستجاب اللّه دعاءه، ﴿وأحيطَ بثمرِهِ﴾؛ أي: أصابه عذابٌ أحاط به واستهلكه فلم يبقَ منه شيءٌ، والإحاطة بالثمر يستلزمُ تَلَفَ جميعِ أشجارِهِ وثمارِهِ وزرعِهِ، فندم كلَّ الندامة، واشتدَّ لذٰلك أسفه. ﴿فأصبحَ يقلِّبُ كفَّيه على ما أنفق فيها﴾؛ أي: على كثرة نفقاته الدنيويَّة عليها، حيث اضمحلَّت وتلاشت، فلم يبق لها عوضٌ، وندم أيضاً على شِرْكِه وشرِّه، ولهٰذا قال: ﴿ويقولُ يا ليتني لم أشرِكْ بربِّي أحداً﴾.

﴿٤٣﴾ قال اللّه تعالى: ﴿ولم تكُن له فئةٌ ينصُرونَه من دونِ اللّه وما كان منتصراً﴾؛ أي: لما نزل العذاب بجنَّته؛ ذهب عنه ما كان يفتخرُ به من قوله لصاحبه: ﴿أنا أكثرُ منك مالاً وأعزُّ نفراً﴾، فلم يدفعوا عنه من العذاب شيئاً أشدَّ ما كان إليهم حاجةً، وما كان بنفسه منتصراً، وكيف ينتصر أو يكون له انتصارٌ على قضاء اللّه وقدرِهِ الذي إذا أمضاه وقدَّره لو اجتمع أهلُ السماء والأرض على إزالة شيءٍ منه لم يقدروا؟! ولا يُستبعد من رحمة اللّه ولطفِهِ أنَّ صاحب هٰذه الجنَّة التي أحيط بها تحسَّنت حاله، ورزقه اللّه الإنابة إليه وراجع رشدَه، وذهب تمرُّدُه وطغيانه؛ بدليل أنَّه أظهر النَّدم على شركه بربِّه، وأنَّ اللّه أذهب عنه ما يُطغيه وعاقبه في الدُّنيا، وإذا أراد اللّه بعبدٍ خيراً عجَّل له العقوبة في الدُّنيا، وفضلُ اللّه لا تحيطُ به الأوهام والعقول، ولا ينكِرُه إلَّا ظالمٌ جهولٌ.

﴿٤٤﴾ ﴿هنالك الوَلايةُ للّه الحقِّ هو خيرٌ ثواباً وخيرٌ عقباً﴾؛ أي: في تلك الحال التي أجرى اللّه فيها العقوبة على من طغى وآثر الحياة الدُّنيا، والكرامة لمن آمن وعمل صالحاً وشكر اللّه ودعا غيره لذٰلك؛ تبيَّن وتوضَّح أن الولاية الحق للّه

وحده[١]؛ فمن كان مؤمناً به تقيًا؛ كان له وليًا، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودَفَعَ عنه الشرور والمَثُلات ـ ومن لم يؤمنْ بربِّه ويتولَّاه؛ خَسِرَ دينه ودُنياه ـ فثوابُهُ الدنيويُّ والأخرويُّ خيرُ ثواب يُرجى ويؤمَّل.

ففي هٰذه القصة العظيمة اعتبارٌ بحال الذي أنعم الله عليه نعماً دنيويَّة، فألهتْه عن آخرته، وأطغتْه، وعصى الله فيها، أنَّ مآلها الانقطاع والاضمحلال، وأنَّه وإنْ تمتَّع بها قليلاً؛ فإنَّه يحرمها طويلاً، وأنَّ العبد ينبغي له إذا أعجبه شيءٌ من مالِهِ أو ولدِهِ أن يضيفَ النعمة إلى موليها ومُسْديها، وأن يقولَ: ما شاء اللهُ، لا قوَّة إلَّا بالله؛ ليكون شاكراً [لله] متسبِّباً لبقاء نعمته عليه؛ لقوله: ﴿ولولا إذْ دخلتَ جنَّتَك قلتَ ما شاء اللهُ لا قوَّةَ إلَّا بالله﴾.

وفيها: الإرشاد إلى التسلِّي عن لذَّات الدُّنيا وشهواتها بما عند الله من الخير؛ لقوله: ﴿إنْ تَرَنِ أنا أقلَّ منك مالاً وولَداً فعسى ربِّي أن يُؤتِيَني خيراً من جنَّتك﴾.

وفيها: أنَّ المال والولد لا ينفعانِ إنْ لم يُعينا على طاعة الله؛ كما قال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادُكم بالتي تُقَرِّبُكم عندنا زُلفى إلَّا مَنْ آمنَ وعملَ صالحاً﴾.

وفيه: الدُّعاء بِتَلَفِ مال مَنْ كان مالُهُ سببَ طغيانِهِ وكفره وخسرانِهِ، خصوصاً إنْ فضَّل نفسه بسببِهِ على المؤمنين، وفَخَرَ عليهم.

وفيها: أنَّ ولاية الله وعدمها إنما تتَّضح نتيجتها إذا انجلى الغبار وحقَّ الجزاء، ووجد العاملونَ أجرهم؛ فـ﴿هنالِكَ الوَلاية لله الحقِّ هو خيرٌ ثواباً وخيرٌ عُقْباً﴾؛ أي: عاقبةً ومآلاً.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٥﴾ يقول تعالى لنبيِّه ﷺ أصلاً ولمن قام بوراثته بعده تبعاً: اضرب للناس ﴿مَثَلَ الحياة الدنيا﴾؛ ليتصوَّروها حقَّ التصوُّر ويعرِفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيَّهما أولى بالإيثار. وإنَّ مَثَلَ هٰذه الحياة الدُّنيا كمثل المطر؛ ينزِلُ على الأرض، فيختلط نباتها، تُنبِتُ من كلِّ زوج بهيج، فبينا زهرتُها

---

(١) في (ب): «أن الولاية لله الحق».

وزُخرفها تسرُّ الناظرين، وتفرحُ المتفرِّجين، وتأخذُ بعيون الغافلين؛ إذ أصبحتْ ﴿هشيماً تذروه الرياح﴾: فذهب ذٰلك النبات الناضر والزهر الزاهر والمنظر البهيُّ، فأصبحت الأرض غبراء تراباً قد انحرف عنها النظرُ، وصرف عنها البصرُ، وأوحشت القلبَ؛ كذٰلك هٰذه الدُّنيا؛ بينما صاحبها قد أعْجِبَ بشبابِهِ، وفاق فيها على أقرانِهِ وأترابِهِ، وحصَّل درهمَها ودينارَها، واقتطف من لذَّتِهِ أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظنَّ أنَّه لا يزال فيها سائر أيامه؛ إذْ أصابه الموتُ أو التلفُ لماله، فذهب عنه سرورُهُ، وزالت لذَّتُه وحبوره، واستوحش قلبُه من الآلام، وفارق شبابَه وقوتَه ومالَه، وانفرد بصالح أو سيىء أعماله، هنالك يعضُّ الظالم على يديه حين يعلم حقيقةَ ما هو عليه ويتمنَّى العَوْدَ إلى الدُّنيا، لا ليستكمل الشهوات، بل ليستدركَ ما فرط منه من الغفلات؛ بالتوبة والأعمال الصالحات، فالعاقل الحازمُ الموفَّق يعرِضُ على نفسِهِ هٰذه الحالة، ويقول لنفسه: قدِّري أنَّك قد متِّ، ولا بدَّ أن تموتي؛ فأيُّ الحالتين تختارين: الاغترار بزخرِف هٰذه الدار، والتمتُّع بها كتمتُّعِ الأنعام السارحة، أم العمل لدارٍ أكُلُها دائمٌ وظلُّها، وفيها ما تشتهيه الأنفسُ وتلذُّ الأعين؛ فبهٰذا يُعْرَفُ توفيقُ العبد من خذلانِهِ، وربحُهُ من خسرانِهِ.

﴿٤٦﴾ ولهٰذا أخبر تعالى أنَّ المال والبنين ﴿زينةُ الحياة الدُّنيا﴾؛ أي: ليس وراء ذٰلك شيءٌ، وأنَّ الذي يبقى للإنسان وينفعُهُ ويسرُّه الباقيات الصالحات، وهٰذا يَشْمَلُ جميع الطاعات الواجبات والمستحبَّة من حقوق الله وحقوق عبادِهِ من صلاةٍ وزكاةٍ وصدقةٍ وحجٍّ وعمرةٍ وتسبيح وتحميدٍ وتهليل [وتكبير] وقراءةٍ وطلب علم نافع وأمرٍ بمعروفٍ ونهي عن منكرٍ وصلة رحم وبرٍّ والدين وقيام بحقِّ الزوجات والمماليك والبهائم وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق، كلُّ هٰذا من الباقيات الصالحات؛ فهٰذه خيرٌ عند الله ثواباً وخيرٌ أملاً؛ فثوابُها يبقى ويتضاعفُ على الآباد، ويؤمَّل أجرُها وبرُّها ونفعها عند الحاجة؛ فهٰذه التي ينبغي أن يَتَنافَس بها المتنافسون، ويستبقَ إليها العاملون، ويجدَّ في تحصيلها المجتهدون.

وتأمَّل كيف لما ضَرَبَ الله مثل الدُّنيا وحالها واضمحلالها؛ ذَكَرَ أنَّ الذي فيها نوعان: نوعٌ من زينتها يُتمتَّع به قليلاً ثم يزول بلا فائدةٍ تعود لصاحبه، بل ربَّما لحقته مضرَّته، وهو المال والبنون. ونوعٌ يبقى لصاحبِهِ على الدَّوام، وهي الباقياتُ الصالحاتُ.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ

صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿٤٧ ـ ٤٨﴾ يخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من الأهوال المقلقة والشَّدائد المزعجة، فقال: ﴿ويومَ نُسَيِّرُ الجبالَ﴾؛ أي: يزيلها عن أماكنها؛ يجعلها كثيباً، ثم يجعلها كالعهن المنفوش، ثم تضمحلُّ وتتلاشى وتكون هباءً منبثًّا، وتبرز الأرض فتصير قاعاً صفصفاً لا عوج فيه ولا أمتاً، ويحشُرُ الله جميع الخَلْق على تلك الأرض؛ فلا يغادِرُ منهم أحداً، بل يجمع الأولين والآخرين من بطون الفلوات وقعور البحار، ويجمعهم بعدما تفرَّقوا، ويعيدهم بعدما تمزَّقوا خلقاً جديداً، فَيُعْرَضونَ عليه صفًّا ليستعرِضَهم وينظرَ في أعمالهم ويحكم فيهم بحكمه العدل الذي لا جَوْر فيه ولا ظُلْم، ويقول لهم: ﴿لقد جِئْتُمونا كما خَلَقْناكم أولَ مرةٍ﴾؛ أي: بلا مال ولا أهل ولا عشيرة، ما معهم إلا الأعمال التي عملوها والمكاسب في الخير والشرِّ التي كسبوها؛ كما قال تعالى: ﴿ولقد جِئْتمونا فُرادى كما خَلَقْناكم أولَ مرَّة وتركتُم ما خوَّلْناكم وراءَ ظهورِكُم وما نَرى معكم شفعاءَكم الذين زعمتُم أنَّهم فيكم شركاءُ﴾، وقال هنا مخاطباً للمنكرين للبعث وقد شاهدوه عياناً: ﴿بل زعمتُم أن لن نجعلَ لكم موعداً﴾؛ أي: أنكرتُم الجزاء على الأعمال ووعدَ الله ووعيده؛ فها قد رأيتُموه وذقتموه.

﴿٤٩﴾ فحينئذٍ تُحْضَرُ كتب الأعمال التي كتبها الملائكة الأبرار[١]، فتطير لها القلوبُ، وتَعْظُم من وقعها الكروبُ، وتكاد لها الصمُّ الصلاب تذوبُ، ويشفق[٢] منها المجرمون؛ فإذا رأوها مسطرةً عليهم أعمالهم محصى عليهم أقوالهم وأفعالهم؛ قالوا: ﴿يا وَيْلَتَنا مالِ هٰذا الكتاب لا يغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلَّا أحصاها﴾؛ أي: لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة إلَّا وهي مكتوبةٌ فيه محفوظة لم ينس منها عملُ سرٍّ ولا علانية ولا ليل ولا نهار. ﴿ووجدوا ما عَمِلوا حاضراً﴾: لا يقدرون على إنكارِه، ﴿ولا يظلم ربُّك أحداً﴾: فحينئذٍ يجازَوْن بها ويُقَرَّرون بها ويُخْزَون ويحقُّ عليهم العذاب، ﴿ذٰلك بما قدَّمتْ أيديهم وأنَّ الله ليس بظلَّام للعبيدِ﴾: بل هم غيرُ خارجين عن عدلِه وفضلِه.

---

(١) في (ب): «كتبتها الملائكة الكرام». (٢) في (ب): «وتشفق».

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٥٠﴾ يخبر تعالى عن عداوة إبليس لآدم وذُرِّيَّته، وأنَّ الله أمر الملائكة بالسجودِ لآدم إكراماً وتعظيماً وامتثالاً لأمر الله، فامتثلوا ذلك؛ ﴿إلَّا إبليس كان من الجنِّ ففَسَقَ عن أمرِ ربِّه﴾، وقال: ﴿أأسجدُ لمن خَلَقْتَه طيناً﴾. وقال: ﴿أنا خيرٌ منه﴾، فتبيَّن بهٰذا عداوته لله ولأبيكم؛ فكيف تتَّخذونه ﴿وذُرِّيَّته﴾؛ أي: الشياطين ﴿أولياء من دوني وهم لكم عدوٌّ بئس للظالمينَ بدلاً﴾؛ أي: بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان الذي لا يأمرهم إلَّا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمٰن الذي كلُّ السعادة والفلاح والسرور في ولايته.

وفي هٰذه الآية الحثُّ على اتِّخاذ الشيطان عدوًّا والإغراء بذٰلك وذِكْرُ السبب الموجب لذٰلك، وأنَّه لا يفعل ذٰلك إلَّا ظالمٌ، وأيُّ ظلم أعظم من ظلم من اتَّخذ عدوَّه الحقيقي وليًّا وترك الوليَّ الحميد؟! قال تعالى: ﴿اللّٰهُ وليُّ الذين آمنوا يُخْرِجُهُم من الظُّلماتِ إلى النُّورِ والذين كَفَروا أولياؤُهُم الطَّاغوتُ يُخْرِجونَهم من النُّورِ إلى الظُّلُماتِ﴾، وقال تعالى: ﴿إنَّهم اتَّخذوا الشياطين أولياءَ مِنْ دونِ اللّٰه﴾.

﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٥١﴾ يقول تعالى: ما أشهدتُ الشياطين وهٰؤلاء المضلِّين خَلْقَ السماواتِ والأرض ولا خَلْقَ أنفسِهِم؛ أي: ما أحضرتهم ذٰلك ولا شاورتهم عليه؛ فكيف يكونون خالقين لشيء من ذٰلك، بل المتفرِّد بالخلق والتدبير والحكمة والتقدير هو اللّٰه، خالقُ الأشياء كلِّها، المتصرِّف فيها بحكمته؛ فكيف يُجعلُ له شركاءُ من الشياطين يوالَوْن ويُطاعون كما يُطاع اللّٰه وهم لم يخلُقوا ولم يشهدوا خلقاً ولم يعاونوا اللّٰه تعالى، ولهٰذا قال: ﴿وما كُنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّين عَضُداً﴾؛ أي: معاونين مظاهرين للّٰه على شأن من الشؤون؛ أي: ما ينبغي ولا يليق باللّٰه أن يجعل لهم قسطاً من التَّدبير؛ لأنهم ساعون في إضلال الخلق والعداوة لربهم؛ فاللائقُ أن يُقْصِيَهم ولا يُدنيهم.

﴿٥٢﴾ ولما ذكر حال من أشرك به في الدُّنيا، وأبطل هٰذا الشرك غاية الإبطال، وحكم بجهل صاحبه وسفَهه؛ أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة، وأنَّ اللّٰه

يقول لهم: نادوا شُرَكائِيَ بزعمكم؛ أي: على موجب زعمكم الفاسد، وإلَّا؛ فبالحقيقة ليس للّه شريكٌ في الأرض ولا في السماء؛ أي: نادوهم لينفعوكم ويخلِّصوكم من الشدائد. ﴿فَدَعَوْهم فلم يستجيبوا لهم﴾: لأنَّ الحكم والملك يومئذٍ لّله، لا أحد يملِكُ مثقال ذرَّة من النفع لنفسه ولا لغيره. ﴿وجعلنا بينهم﴾؛ أي: بين المشركين وشركائهم ﴿موبقاً﴾؛ أي: مهلكاً يفرِّق بينهم وبينهم، ويبعِدُ بعضهم من بعض، ويتبيَّن حينئذٍ عداوة الشركاء لشركائهم، وكفرهم بهم، وتبرِّيهم منهم؛ كما قال تعالى: ﴿وإذا حُشِرَ الناسُ كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتِهم كافرينَ﴾.

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿٥٣﴾ أي: لما كان يوم القيامة، وحصل من الحساب ما حصل، وتميَّز كلُّ فريق من الخلق بأعمالهم، وحقَّت كلمة العذاب على المجرمين، فرأوا جهنَّم قبل دخولها، فانزعجوا، واشتدَّ قلقهم لظنِّهم أنهم مواقعوها، وهٰذا الظنُّ قال المفسرون: إنَّه بمعنى اليقين، فأيقنوا أنَّهم داخلوها، ﴿ولم يجدوا عنها مصرِفاً﴾؛ أي: معدلاً يعدلون إليه، ولا شافع لهم من دون إذنه. وفي هٰذا من التخويف والترهيب ما ترعد له الأفئدة والقلوب.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٤﴾ يخبر تعالى عن عظمة القرآن وجلالته وعُمومه، وأنَّه صرَّف فيه ﴿من كلِّ مَثَل﴾؛ أي: من كلِّ طريق موصل إلى العلوم النافعة والسعادة الأبديَّة وكل طريق يعصِمُ من الشرِّ والهلاك؛ ففيه أمثالُ الحلال والحرام، وجزاء الأعمال، والترغيب والترهيب، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب؛ اعتقاداً وطمأنينةً ونوراً. وهٰذا مما يوجب التسليم لهٰذا القرآن وتلقِّيه بالانقياد والطَّاعة وعدم المنازعة له في أمر من الأمور، ومع ذٰلك؛ كان كثير من الناس يجادلونَ في الحقِّ بعدما تبيَّن، ويجادلون بالباطل ليُدْحِضوا به الحقَّ، ولهٰذا قال: ﴿وكانَ الإنسانُ أكثر شيءٍ جَدَلاً﴾؛ أي: مجادلةً ومنازعةً فيه، مع أنَّ ذٰلك غير لائقٍ بهم، ولا عدل منهم، والذي أوجب له ذٰلك، وعدم الإيمان باللّه، إنَّما هو الظلم والعناد، لا لقصور في بيانِهِ وحجَّته وبرهانه، وإلَّا؛ فلو جاءهم العذاب وجاءهم ما جاء قبلهم؛ لم تكن هٰذه حالهم، ولهٰذا قال:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥٥﴾ أي: ما منع الناس من الإيمان ـ والحالُ أنَّ الهدى الذي يحصُلُ به الفرق بين الهدى والضلال والحقِّ والباطل قد وَصَلَ إليهم وقامت عليهم حُجَّة اللّه، فلم يمنعهم عدم البيان، بل منعهم الظُّلم والعدوان عن الإيمان، فلم يبقَ إلَّا أن تأتيهم سنَّة اللّه وعادتُه في الأولين، من أنَّهم إذا لم يؤمنوا؛ عوجلوا بالعذاب، أو يرونَ العذاب قد أقبل عليهم، ورأوه مقابلةً ومعاينةً؛ أي: فَلْيخافوا من ذلك، ولْيتوبوا من كفرهم؛ قبل أن يكون العذاب الذي لا مردَّ له.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ٥٦﴾.

﴿٥٦﴾ أي: لم نرسل الرُّسُلَ عَبَثاً، ولا ليتَّخذهم الناس أرباباً، ولا ليدعوا إلى أنفسهم، بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كلِّ خير، وينهَوْن عن كلِّ شرٍّ، ويبشرونهم على امتثال ذلك بالثواب العاجل والآجل، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والآجل، فقامت بذلك حجة الله على العباد، ومع ذلك يأبى الظالمون الكافرون إلَّا المجادلة بالباطل لِيُدْحِضوا به الحقَّ، فسَعَوا في نصر الباطل مهما أمكنهم، وفي دحض الحقِّ وإبطاله، واستهزؤوا برسل اللّه وآياته، وفرحوا بما عندهم من العلم، ﴿ويأبى اللّهُ إلَّا أن يُتِمَّ نورَه ولو كره الكافرون﴾، ويظهر الحق على الباطل، ﴿بل نقذف بالحقِّ على الباطل فيدمَغُه فإذا هو زاهِقٌ﴾، ومن حكمة اللّه ورحمته أنَّ تقييضه المبطِلين المجادلين الحقَّ بالباطل من أعظم الأسباب إلى وضوح الحقِّ وتبيُّن شواهده وأدلَّته وتبيُّن الباطل وفساده؛ فبضدِّها تتبيَّن الأشياء.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٗاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٥٧ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلٗا ٥٨ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدٗا ٥٩﴾.

﴿٥٧﴾ يخبر تعالى أنَّه لا أعظم ظلماً ولا أكبر جرماً من عبدٍ ذُكِّر بآيات اللّه وبُيِّن له الحقُّ من الباطل والهدى من الضلال، وخُوِّف ورُهِّب ورُغِّب، فأعرض عنها، فلم يتذكَّر بما ذُكِّر به، ولم يرجِعْ عما كان عليه، ﴿ونسي ما قدَّمت يداه﴾ من الذُّنوب، ولم يراقب علَّام الغيوب؛ فهذا أعظم ظلماً من المعرض الذي لم تأتِهِ

آياتُ اللّه ولم يُذَكَّرْ بها، ـ وإن كان ظالماً ـ؛ فإنَّه أشدُّ[١] ظلماً من هٰذا؛ لكون العاصي على بصيرةٍ وعلم أعظم ممَّن ليس كذٰلك، ولكنَّ اللّه تعالى عاقبه بسبب إعراضِهِ عن آياته ونسيانِهِ لذنوبه ورضاه لنفسه حالة الشرِّ مع علمه بها، أن سدَّ عليه أبواب الهداية بأنْ جَعَلَ على قلبِهِ أكنَّةً؛ أي: أغطية محكمةً تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعها؛ فليس في إمكانه الفقهُ الذي يصل إلى القلب. ﴿وفي آذانهم وقراً﴾؛ أي: صمماً يمنعهم من وصول الآيات ومن سماعها على وجه الانتفاع، وإنْ كانوا بهٰذه الحالة؛ فليس لهدايتهم سبيلٌ. ﴿وإن تَدْعُهُم إلى الهدى فلن يَهْتَدوا إذاً أبداً﴾: لأنَّ الذي يُرجى أن يجيبَ الداعي للهدى من ليس عالماً، وأما هٰؤلاء الذين أبصروا ثم عَموا، ورأوا طريق الحقِّ فتركوه، وطريق الضلال فسلكوه، وعاقبهم اللّه بإقفال القلوب والطَّبْع عليها؛ فليس في هدايتهم حيلةٌ ولا طريقٌ. وفي هذه الآية من التخويف لمن ترك الحقَّ بعد علمه أن يُحالَ بينه وبينه، ولا يتمكَّن منه بعد ذٰلك ما هو أعظم مرهبٍ وزاجرٍ عن ذٰلك.

﴿٥٨﴾ ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته، وأنَّه يغفر الذنوب ويتوب الله على من يتوب فيتغمده برحمته ويشمله بإحسانه، وأنه لو آخذ[٢] العباد على ما قدَّمت أيديهم من الذُّنوب؛ لعجَّل لهم العذاب، ولٰكنَّه تعالى حليمٌ لا يَعْجَلُ بالعقوبة، بل يُمْهِلُ ولا يُهْمِلُ، والذُّنوب لا بدَّ من وقوع آثارها، وإنْ تأخَّرت[٣] عنها مدة طويلة، ولهٰذا قال: ﴿بل لهم موعدٌ لن يَجِدوا من دونِهِ موئلاً﴾؛ أي: لهم موعد يجازون فيه بأعمالهم، لا بدَّ لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه، ولا ملجأ ولا محيد عنه.

﴿٥٩﴾ وهٰذه سنَّته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجِلَهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة؛ فإنْ تابوا وأنابوا؛ غَفَرَ لهم ورحمهم وأزال عنهم العقاب، وإلَّا؛ فإن استمرُّوا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقتُ الذي جعله موعداً لهم؛ أنزل بهم بأسه، ولهٰذا قال: ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا﴾؛ أي: بظلمهم، لا بُظلم منَّا. ﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾؛ أي: وقتاً مقدَّراً لا يتقدَّمون عنه ولا يتأخَّرون.

---

(١) في (ب): «أخف». وقد أعاد الشيخ كتابتها بخطه في هامش (أ): «أشد».
(٢) في (ب): «وَاخَذَ». (٣) في (ب): «تأخر».

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾
فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ
ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ
ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا
نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ
مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن
تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ
صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا
﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ(١) قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا
﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ
أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا
نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا
فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟
أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾
قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ
لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا
ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا
خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ
كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن
رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿٦٠﴾ يخبر تعالى عن نبيِّه موسى عليه السلام وشدَّة رغبته في الخير وطلب العلم أنَّه قال لفتاه؛ أي: خادمه الذي يلازمه في حضره وسفره، وهو يُوشَعُ بن

(١) في (النسختين) إلى قوله: ﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾.

نون، الذي نبَّأه الله بعد ذلك: ﴿لا أبرَحُ حتى أبْلُغَ مجمع البحرين﴾؛ أي: لا أزال مسافراً وإن طالت عليَّ الشُّقة ولحقتني المشقَّة حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أوحي إليه أنَّك سَتَجِد فيه عبداً من عباد الله العالمين، عنده من العلم ما ليس عندك، ﴿أو أمضيَ حُقُباً﴾؛ أي: مسافة طويلة. المعنى أنَّ الشوق والرغبة حَمَلَ موسى أن قال لفتاه هذه المقالة.

﴿٦١﴾ وهذا عزمٌ منه جازم، فلذلك أمضاه، ﴿فلما بلغا﴾؛ أي: هو وفتاه ﴿مَجْمَعَ بينهما نسيا حوتَهما﴾: وكان معهما حوتٌ يتزوَّدان منه ويأكلان، وقد وُعِدَ أنَّه متى فقد الحوت؛ فثَمَّ ذلك العبد الذي قصدته. ﴿فاتَّخذ﴾: ذلك الحوت ﴿سبيلَه﴾؛ أي: طريقه ﴿في البحر سَرَباً﴾. وهذا من الآيات، قال المفسرون: إنَّ ذلك الحوت الذي كانا يتزوَّدان منه لما وصلا إلى ذلك المكان أصابه بللُ البحر، فانسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حيًّا.

﴿٦٢﴾ فلما جاوز موسى وفتاه مجمعَ البحرين؛ قال موسى لفتاه: ﴿آتِنا غداءنا لقد لَقينا مِن سَفَرِنا هذا نَصَباً﴾؛ أي: لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط، وإلَّا؛ فالسفر الطويل الذي وصلا به إلى مجمع البحرين لم يجدا من التعب فيه، وهذا من الآيات والعلامات الدالَّة لموسى على وجود مطلبِهِ، وأيضاً؛ فإنَّ الشوق المتعلِّق بالوصول إلى ذلك المكان سهَّل لهما الطريق، فلمَّا تجاوزا غايتهما؛ وجدا مسَّ التعب.

﴿٦٣﴾ فلما قال موسى لفتاه هذه المقالة؛ قال له فتاه: ﴿أرأيتَ إذْ أوَيْنا إلى الصخرة فإنِّي نسيتُ الحوتَ﴾ [أي: ألم تعلم حين آوانا الليل إلى تلك الصخرة المعروفة بينهما فإني نسيت الحوت]، ﴿وما أنسانيهُ إلَّا الشيطانُ﴾: لأنَّه السببُ في ذلك، ﴿واتَّخذ سبيلَه في البحر عَجَباً﴾؛ أي: لما انسرب في البحر ودخل فيه؛ كان ذلك من العجائب. قال المفسرون: كان ذلك المسلك للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً.

﴿٦٤﴾ فلما قال له الفتى هذا القول، وكان عند موسى وعدٌ من الله أنَّه إذا فَقَدَ الحوت؛ وَجَدَ الخَضِرَ، فقال موسى: ﴿ذلك ما كُنَّا نَبْغِ﴾؛ أي: نطلب. ﴿فارْتَدَّا﴾؛ أي: رجعا ﴿على آثارِهما قصصاً﴾؛ أي: رجعا يَقُصَّان أثرهما [إلى المكان] الذي نسيا فيه الحوت.

﴿٦٥﴾ فلما وصلا إليه؛ ﴿وجدا عبداً من عبادنا﴾: وهو الخضر، وكان عبداً

صالحاً لا نبيًا على الصحيح. ﴿آتيناه رحمةً من عندنا﴾؛ أي: أعطاه الله رحمةً خاصَّة، بها زاد علمه وحسن عمله، ﴿وعلَّمناه من لَدُنَّا﴾؛ أي: من عندنا ﴿عِلماً﴾: وكان قد أُعطي من العلم ما لم يعطَ موسى، وإنْ كان موسى عليه السلام أعلمَ منه بأكثر الأشياء وخصوصاً في العلوم الإيمانيَّة والأصوليَّة؛ لأنَّه من أولي العزم من المرسلين، الذين فضَّلهم الله على سائر الخلق بالعلم والعمل وغير ذٰلك.

﴿٦٦﴾ فلما اجتمع به موسى؛ قال له على وجه الأدب والمشاورة والإخبار عن مطلبه: ﴿هل أتَّبِعُك على أن تُعَلِّمَني مما عُلِّمْتَ رُشداً﴾؛ أي: هل أتَّبِعك على أن تُعَلِّمني مما علَّمك الله ما به أسترشدُ وأهتدي وأعرف به الحقَّ في تلك القضايا، وكان الخضر قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة ما به يحصُلُ له الاطلاع على بواطن كثيرٍ من الأشياء التي خَفِيَتْ حتى على موسى عليه السلام.

﴿٦٧﴾ فقال الخضر لموسى: لا أمتنع من ذٰلك، ولكنَّك ﴿لَن تَستطيعَ معيَ صبراً﴾؛ أي: لا تقدر على اتِّباعي وملازمتي؛ لأنَّك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من الأمور، التي ظاهرها المنكَر وباطنها غيرُ ذٰلك.

﴿٦٨﴾ ولهٰذا قال: ﴿وكيفَ تصبر على ما لم تُحِطْ به خُبْراً﴾؛ أي: كيف تصبر على أمرٍ ما أحطتَ بباطنه وظاهره وعلمتَ المقصودَ منه ومآله.

﴿٦٩﴾ فقال موسى: ﴿سَتَجِدُني إن شاء اللهُ صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾: وهٰذا عزمٌ منه قبل أن يوجد الشيء الممتَحَن به، والعزمُ شيء ووجودُ الصبر شيء آخر؛ فلذٰلك ما صَبَرَ موسى عليه السلام حين وقع الأمر.

﴿٧٠﴾ فحينئذٍ قال له الخضر: ﴿فإنِ اتَّبَعْتَني فلا تَسألْني عن شيءٍ حتَّى أحدِثَ لك منه ذِكراً﴾؛ أي: لا تبتدئني بسؤال منك وإنكارٍ حتى أكون أنا الذي أخبرك بحالِهِ في الوقت الذي ينبغي إخبارُك به، فنهاه عن سؤالِهِ، ووعَدَه أن يوقفه على حقيقة الأمر.

﴿٧١﴾ ﴿فانطلقا حتى إذا رَكِبا في السفينةِ خَرَقَها﴾؛ أي: اقتلع الخضِرُ منها لوحاً، وكان له مقصودٌ في ذٰلك سيبيِّنه، فلم يصبرْ موسى عليه السلام؛ لأنَّ ظاهره أنه منكرٌ؛ لأنه عَيْبٌ للسفينة وسببٌ لغرق أهلها، ولهٰذا قال موسى: ﴿أخَرَقْتَها لِتُغرِقَ أهلها لقد جئتَ شيئاً إمْراً﴾؛ أي: عظيماً شنيعاً، وهٰذا من عدم صبره عليه السلام.

﴿٧٢﴾ فقال له الخضر: ﴿ألم أقُلْ إنَّك لن تستطيعَ معي صبراً﴾؛ أي: فوقع كما أخبرتك.

﴿٧٣﴾ وكان هٰذا من موسى نسياناً، فقال: ﴿لا تؤاخِذْني بما نسيتُ ولا تُرْهِقْني من أمري عُسراً﴾؛ أي: لا تُعَسِّرْ عليَّ الأمر، واسمح لي؛ فإنَّ ذٰلك وقع على وجه النسيان، فلا تؤاخِذْني في أول مرة، فجمع بين الإقرار به والعذر منه، وأنَّه ما ينبغي لك أيُّها الخضر الشدَّة على صاحبك، فسمح عنه الخضر.

﴿٧٤﴾ ﴿فانطلقا حتَّى إذا لقيا غُلاماً﴾؛ أي: صغيراً، ﴿فقتَلَه﴾[1]: الخضر، فاشتدَّ بموسى الغضب، وأخذته الحميَّة الدينيَّة حين قتل غلاماً صغيراً لم يُذْنِبْ. ﴿قال أقتلتَ نفساً زكِيَّةً بغير نفسٍ لقد جئتَ شيئاً نُكْراً﴾: وأيُّ نُكْرٍ مثلِ قتل الصغير الذي ليس عليه ذنبٌ ولم يقتلْ أحدا؟! وكان الأول من موسى نسياناً، وهٰذه غير نسيانٍ، ولكن عدم صبرٍ.

﴿٧٥﴾ فقال له الخضرُ معاتباً ومذكِّراً: ﴿ألم أقُلْ لكَ إنكَ لن تستطيعَ معيَ صبراً﴾؟

﴿٧٦﴾ فـ﴿قال﴾ له موسى: ﴿إن سألتُكَ عن شيءٍ﴾ بعد هٰذه المرة؛ ﴿فلا تصاحِبْني﴾؛ أي: فأنت معذور بذٰلك وبترك صحبتي، ﴿قد بَلَغْتَ من لَدُنِّي عُذْراً﴾؛ أي: أعذرت مني، ولم تقصر.

﴿٧٧﴾ ﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قريةٍ استطعما أهلها﴾؛ أي: استضافاهم فلم يُضَيِّفوهُما، ﴿فوجدا فيها جداراً يريدُ أن ينقضَّ﴾؛ أي: [قد] عاب واستهدم، ﴿فأقامَهُ﴾: الخضرُ؛ أي بناه وأعاده جديداً، فـ﴿قال﴾ له موسى: ﴿لو شئتَ لاتَّخَذْتَ عليه أجراً﴾؛ أي: أهل هٰذه القرية لم يضيفونا مع وجوب ذٰلك عليهم، وأنت تبنيه من دون أجرةٍ، وأنت تقدِرُ عليها؟!

﴿٧٨﴾ فحينئذٍ لم يفِ موسى عليه السلام بما قال، واستعذر الخضرُ منه، فَـ﴿قال﴾ له: ﴿هٰذا فراقُ بيني وبينكَ﴾: فإنَّك شرطتَ ذٰلك على نفسك، فلم يبقَ الآن عذرٌ ولا موضعٌ للصُّحبة. ﴿سأنبِّئك بتأويل ما لم تستطِعْ عليه صبراً﴾؛ أي: سأخبرك بما أنكرتَ عليَّ وأنبِّئك بأنَّ لي في ذٰلك من المآرب وما يؤول إليه الأمر.

﴿٧٩﴾ ﴿أما السفينة﴾: التي خرقتها، ﴿فكانتْ لمساكينَ يعملون في البحر﴾: يقتضي ذٰلك الرِّقَّة عليهم والرأفة بهم، ﴿فأردتُ أن أَعِيبها وكان وراءَهُم مَلِكٌ يأخذ كلَّ سفينة غَصْباً﴾؛ أي: كان مرورهم على ذٰلك الملك الظالم؛ فكلُّ سفينة صالحةٍ

(١) في (ب): «قتله».

تمرُّ عليه ما فيها عيبٌ غَصَبها وأخَذَها ظلماً، فأردتُ أن أخْرِقها ليكونَ فيها عيبٌ فتسلم من ذٰلك الظالم.

﴿٨٠﴾ **﴿وأما الغلامُ﴾**: الذي قتلتُه؛ **﴿فكان أبواه مؤمِنَيْنِ فخشينا أن يُرهِقَهما طغياناً وكفراً﴾**: وكان ذٰلك الغلام قد قُدِّر عليه أنَّه لو بَلَغَ لأرهق أبويه طغياناً وكفراً؛ أي: لحملهما على الطغيان والكفر: إمَّا لأجل محبَّتهما إيَّاه، أو للحاجة إليه؛ أو يحملهما[1] على ذٰلك؛ أي: فقتلته؛ لاطِّلاعي على ذٰلك؛ سلامةً لدين أبويه المؤمِنَيْنِ، وأيُّ فائدة أعظمُ من هٰذه الفائدة الجليلة؟!

﴿٨١﴾ وهو وإن كان فيه إساءةٌ إليهما وقطعٌ لذُرِّيَّتهما؛ فإنَّ اللّٰه تعالى سيعطيهما من الذُّرِّيَّة ما هو خيرٌ منه، ولهٰذا قال: **﴿فأرَدْنا أن يُبْدِلَهما ربُّهما خيراً منه زكاةً وأقربَ رُحْماً﴾**؛ أي: ولداً صالحاً زكيًّا واصلاً لرحِمِهِ؛ فإنَّ الغلام الذي قُتِلَ لو بلغ لَعَقَّهما أشدَّ العقوق بحملهما على الكفر والطغيان.

﴿٨٢﴾ **﴿وأمَّا الجدارُ﴾**: الذي أقمته؛ **﴿فكان لِغُلامين يتيمينِ في المدينةِ وكان تحتَهُ كنزٌ لهما وكان أبوهما صالحاً﴾**؛ أي: حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتهما؛ لكونِهما صغيرين، عدما أباهما، وحفظهما اللّٰه أيضاً بصلاح والدهما. **﴿فأراد ربُّك أن يَبْلُغا أشدَّهما ويستخرِجا كَنزَهُما﴾**؛ أي: فلهٰذا هدمتُ الجدار واستخرجتُ ما تحتَهُ من كنزِهما ورددتُهُ وأعدتُه مجاناً؛ **﴿رحمةً من ربِّك﴾**؛ أي: هٰذا الذي فعلتُه رحمةٌ من اللّٰه آتاها اللّٰه عبدَه الخضر. **﴿وما فعلتُهُ عن أمري﴾**؛ أي: ما أتيت شيئاً من قِبَلِ نفسي ومجرَّد إرادتي، وإنَّما ذٰلك من رحمةِ اللّٰه وأمره. **﴿ذٰلك﴾**: الذي فسَّرتُه لَك **﴿تأويلُ ما لم تَسْطِعْ عليه صبراً﴾**.

وفي هٰذه القصة العجيبة الجليلة من الفوائد والأحكام والقواعد شيءٌ كثيرٌ ننبِّه على بعضه بعون اللّٰه:

فمنها: فضيلة العلم والرِّحلة في طلبه، وأنَّه أهمُّ الأمورِ؛ فإنَّ موسى عليه السلام رحل مسافةً طويلةً، ولقي النَّصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذٰلك.

ومنها: البداءةُ بالأهمِّ فالأهمِّ؛ فإنَّ زيادة العلم وعلم الإنسان أهمُّ من تَرْكِ ذٰلك والاشتغال بالتعليم من دون تزوُّد من العلم، والجمعُ بين الأمرين أكمل.

---

(1) في (ب): «يحدهما».

ومنها: جواز أخذِ الخادم في الحضَرِ والسفر؛ لكفاية المؤن[١] وطلب الراحة؛ كما فعل موسى.

ومنها: أنَّ المسافر لطلب علم أو جهادٍ أو نحوه، إذا اقتضتِ المصلحةُ الإخبار بمطلبه وأين يريدُه؛ فإنَّه أكمل من كتمه؛ فإنَّ في إظهاره فوائدَ من الاستعداد له عدَّته وإتيان الأمر على بصيرةٍ وإظهار الشوق لهٰذه العبادة الجليلة؛ كما قال موسى: ﴿لا أبرحُ حتى أبلغَ مجمع البحرين أو أمضيَ حُقُباً﴾، وكما أخبر النبيُّ ﷺ أصحابه حين غزا تبوكَ بوجهه مع أنَّ عادته التَّورية، وذٰلك تَبَعٌ للمصلحة.

ومنها: إضافةُ الشرِّ وأسبابه إلى الشيطان على وجه التسويل والتزيين، وإنْ كان الكلُّ بقضاء اللّه وقدره؛ لقول فتى موسى: ﴿وما أنسانيهُ إلَّا الشيطانُ أنْ أذْكُرَهُ﴾.

ومنها: جواز إخبار الإنسان عمَّا هو من مقتضى طبيعة النفس من نَصَبٍ أو جوع أو عطش إذا لم يكنْ على وجه التسخُّط وكان صدقاً؛ لقول موسى: ﴿لقد لقينا من سَفَرِنا هٰذا نَصَباً﴾.

ومنها: استحبابُ كون خادم الإنسان ذكيًّا فطناً كيِّساً؛ ليتمَّ له أمره الذي يريده.

ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله وأكلهما جميعاً؛ لأنَّ ظاهر قوله: ﴿آتنا غداءنا﴾: إضافة إلى الجميع: أنَّه أكل هو وهو جميعاً.

ومنها: أنَّ المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به، وأنَّ الموافق لأمر اللّه يُعان ما لا يُعان غيره؛ لقوله: ﴿لقد لَقينا من سَفَرِنا هٰذا نَصَباً﴾، والإشارة إلى السفر المجاوز لمجمع البحرين، وأما الأول؛ فلم يَشْتكِ منه التعب مع طولِهِ؛ لأنَّه هو السفر على الحقيقة، وأما الأخير؛ فالظاهر أنه بعض يوم؛ لأنَّهم فقدوا الحوتَ حين أووا إلى الصخرة؛ فالظاهر أنَّهم باتوا عندها، ثم ساروا من الغد، حتى إذا جاء وقتُ الغداء؛ قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا؛ فحينئذٍ تذكَّرَ أنَّه نَسِيَهُ في الموضع الذي إليه منتهى قصده.

ومنها: أنَّ ذٰلك العبد الذي لقياه ليس نبيًّا، بل عبداً صالحاً؛ لأنَّه وصفه بالعبوديَّة، وذكر منَّة اللّه عليه بالرحمة والعلم، ولم يَذْكُر رسالته ولا نبوَّته، ولو كان نبيًّا؛ لذكر ذٰلك كما ذكر غيره. وأما قوله في آخر القصة: ﴿وما فعلتُهُ عن أمري﴾؛ فإنَّه لا يدلُّ على أنَّه نبيٌّ، وإنَّما يدلُّ على الإلهام والتحديث؛ كما يكون

---

(١) في (ب): «المؤنة».

لغير الأنبياء؛ كما قال تعالى: ﴿وأَوْحَيْنا إلى أمِّ موسى أنْ أرْضِعيه﴾، ﴿وأَوْحى ربُّك إلى النَّحْل أنِ اتَّخِذي من الجبال بيوتاً﴾.

ومنها: أنَّ العلم الذي يعلِّمه اللّه لعبادِهِ نوعان: علمٌ مكتسبٌ يدرِكُه العبد بجدِّه واجتهاده، ونوعٌ: علمٌ لَدُنِّيٌّ يهبُه اللّه لمن يمنُّ عليه من عباده؛ لقوله: ﴿وعلَّمْناه من لَدُنَّا علماً﴾.

ومنها: التأدب مع المعلِّم وخطاب المتعلِّم إيَّاه ألطف خطاب؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿هل أتَّبِعُك على أن تُعَلِّمني مما عُلِّمْتَ رُشْداً﴾: فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنَّك هل تأذنُ لي في ذلك أم لا؟ وإقرارُهُ بأنَّه يتعلَّم منه؛ بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكِبْر، الذي لا يُظْهِر للمعلِّم افتقاره إلى علمه، بل يدَّعي أنَّه يتعاون هو وإيَّاه، بل ربَّما ظنَّ أنه يعلِّم معلِّمه وهو جاهلٌ جدًّا؛ فالذُّلُّ للمعلم وإظهارُ الحاجة إلى تعليمه من أنفع شيء للمتعلم.

ومنها: تواضع الفاضل للتعلُّم ممَّن دونه؛ فإنَّ موسى بلا شكٍّ أفضل من الخضر.

ومنها: تعلُّم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهَّر فيه ممَّن مَهَرَ فيه، وإنْ كان دونَه في العلم بدرجاتٍ كثيرةٍ؛ فإنَّ موسى عليه السلام من أولي العزم من المرسلين، الذين منحهم اللّه وأعطاهم من العلم ما لم يعطِ سواهم، ولكن في هذا العلم الخاصِّ كان عند الخضر ما ليس عنده؛ فلهذا حرص على التعلُّم منه؛ فعلى هذا لا ينبغي للفقيه المحدِّث إذا كان قاصراً في علم النحو أو الصرف أو نحوه من العلوم أن لا يتعلَّمه ممَّن مَهَرَ فيه، وإنْ لم يكنْ محدِّثاً ولا فقيهاً.

ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل للّه تعالى، والإقرار بذلك، وشكر اللّه عليها؛ لقوله: ﴿تُعَلِّمَني مما عُلِّمْتَ﴾؛ أي: مما علمك اللّه تعالى.

ومنها: أن العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير، فكلُّ علم يكون فيه رشد وهداية لطريق[1] الخير وتحذيرٌ عن طريق الشرِّ أو وسيلة لذلك؛ فإنَّه من العلم النافع، وما سوى ذلك؛ فإمَّا أن يكون ضارًّا أو ليس فيه فائدةٌ؛ لقوله: ﴿أن تُعَلِّمَني مما عُلِّمْتَ رُشْداً﴾.

ومنها: أن من ليس له قوَّة الصبر على صحبة العالم والعلم وحسن الثَّبات على

---

(١) في (ب): «الطرق».

ذٰلك؛ أنَّه [يفوته بحسب عدم صبره كثير من](١) العلم؛ فمن لا صبر له؛ لا يدرِكُ العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه؛ أدرك به كل أمرٍ سعى فيه؛ لقول الخضر يتعذر من موسى بذكر المانع لموسى من الأخذ عنه: إنَّه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر إحاطةُ الإنسان علماً وخبرةً بذٰلك الأمر الذي أُمِرَ بالصبر عليه، وإلَّا؛ فالذي لا يدريه أو لا يدري غايته ولا نتيجته ولا فائدته وثمرته ليس عنده سببُ الصبر؛ لقوله: ﴿وكيف تصبِرُ على ما لم تُحِطْ به خُبْراً﴾؛ فجعل الموجب لعدم صبرِهِ عدم إحاطته خُبراً بالأمر.

ومنها: الأمر بالتأنِّي والتثبُّت وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء حتى يعرفَ ما يُراد منه وما هو المقصود.

ومنها: تعليقُ الأمور المستقبلة التي من أفعال العباد بالمشيئة، وأن لا يقولَ الإنسان للشيء: إني فاعل ذٰلك في المستقبل إلَّا أن يقول إن شاء الله.

ومنها: أن العزم على فعل الشيء ليس بمنزلة فعله؛ فإنَّ موسى قال: ﴿سَتَجِدُني إن شاء اللّه صابراً﴾: فوطَّن نفسه على الصبر ولم يفعل.

ومنها: أنَّ المعلِّم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلِّم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء حتى يكون المعلِّم هو الذي يوقفه عليها؛ فإنَّ المصلحة تتَّبع؛ كما إذا كان فهمه قاصراً، أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهمُّ منها أو لا يدرِكُها ذهنُه، أو يسأل سؤالاً لا يتعلَّق في موضع البحث.

ومنها: جواز ركوب البحر في غير الحالة التي يخاف منها.

ومنها: أنَّ الناسي غير مؤاخذٍ بنسيانه؛ لا في حقِّ اللّه، ولا في حقوق العبادِ؛ لقوله: ﴿لا تؤاخِذْني بما نسيتُ﴾.

ومنها: أنَّه ينبغي للإنسان أن يأخُذَ من أخلاق الناس ومعاملاتهم العفوَ منها وما سمحتْ به أنفسُهم، ولا ينبغي له أن يكلِّفَهم ما لا يطيقون أو يشقَّ عليهم ويرهِقَهم؛ فإنَّ هٰذا مدعاةٌ إلى النفور منه والسآمة، بل يأخذ المتيسِّر ليتيسر له الأمر.

---

(١) في (أ): «أنه ليس بأهل لتلقي العلم». ثم عَدَل عنها الشيخ في هامش (ب) إلى ما أثبت.

ومنها: أنَّ الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتُعَلَّقُ بها الأحكام الدنيويَّة في الأموال والدماء وغيرها؛ فإنَّ موسى عليه السلام أنكر على الخضِرِ خرقَه السفينة وقتلَ الغلام، وأنَّ هٰذه الأمور ظاهرها أنَّها من المنكر، وموسى عليه السلام لا يَسَعُهُ السكوتُ عنها في غير هٰذه الحال التي صَحِبَ عليها الخضر، فاستعجل عليه السلام، وبادَرَ إلى الحكم في حالتها العامَّة، ولم يلتفتْ إلى هٰذا العارض الذي يوجب عليه الصبر وعدم المبادرةِ إلى الإنكار.

ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة، وهو أنَّه يُدْفَعُ الشرُّ الكبير بارتكاب الشرِّ الصغير، ويُراعى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما؛ فإنَّ قتل الغلام شرٌّ، ولكنَّ بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما أعظمُ شرًّا منه، وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته وإن كان يظنُّ أنه خيرٌ؛ فالخير ببقاء دين أبويه وإيمانهما خيرٌ من ذٰلك؛ فلذٰلك قَتَلَهُ الخضر. وتحت هٰذه القاعدة من الفروع والفوائد ما لا يدخُلُ تحت الحصر، فتزاحُمُ المصالح والمفاسدِ كلُّها داخلٌ في هٰذا.

ومنها: القاعدة الكبيرة أيضاً، وهي أنَّ عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة وإزالةِ المفسدةِ أنَّه يجوزُ، ولو بلا إذنٍ، حتى ولو ترتَّب على عمله إتلافُ بعض مال الغير؛ كما خَرَقَ الخضر السفينةَ لتعيبَ فتسلمَ من غَضب الملك الظالم؛ فعلى هٰذا: لو وقع حرقٌ أو غرق أو نحوهما في دار إنسانٍ أو ماله، وكان إتلافُ بعض المال أو هدمُ بعض الدار فيه سلامةٌ للباقي؛ جاز للإنسان، بل شُرِعَ له ذٰلك؛ حفظاً لمال الغير. وكذٰلك لو أراد ظالمٌ أخذَ مال الغير، ودفع إليه إنسانٌ بعض المال افتداءً للباقي؛ جاز، ولو من غير إذن.

ومنها: أن العمل يجوز في البحر كما يجوز في البرِّ؛ لقوله: ﴿يعملون في البحر﴾، ولم ينكر عليهم عملهم.

ومنها: أنَّ المسكين قد يكون له مالٌ لا يبلُغ كفايته ولا يخرجُ بذٰلك عن اسم المسكنة؛ لأنَّ الله أخبر أنَّ هٰؤلاء المساكين لهم سفينة.

ومنها: أنَّ القتل من أكبر الذنوب؛ لقوله في قتل الغلام: ﴿لقد جئتَ شيئا نُكراً﴾.

ومنها: أنَّ القتل قصاصاً غير مُنْكَرٍ؛ لقوله: ﴿بغيرِ نفسٍ﴾.

ومنها: أنَّ العبد الصالح يحفظُهُ الله في نفسه وفي ذُرِّيَّتِهِ.

ومنها: أن خدمة الصالحين أو مَنْ يتعلَّق بهم أفضل من غيرها؛ لأنَّه علَّل

استخراج كنزهما وإقامة جدارهما بأنَّ[١] أباهما صالح.

ومنها: استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ؛ فإنَّ الخضر أضاف عَيْبَ السفينة إلى نفسه؛ بقوله: ﴿فأردتُ أن أعيبها﴾، وأما الخيرُ؛ فأضافه إلى الله تعالى؛ لقوله: ﴿فأراد ربُّك أن يَبْلُغا أشدَّهما ويستخرِجا كَنزَهما رحمةً من ربِّك﴾؛ كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وإذا مرضتُ فهو يشفين﴾، وقالت الجنُّ: ﴿وأنَّا لا ندري أشرٌّ أُريدَ بِمَن في الأرض أم أرادَ بهم ربُّهم رَشَداً﴾؛ مع أنَّ الكلَّ بقضاء الله وقدره.

ومنها: أنَّه ينبغي للصاحب أن لا يفارِقَ صاحبه في حالةٍ من الأحوال ويترك صحبتَهُ حتى يُعْتِبَه ويُعْذِرَ منه؛ كما فعل الخضر مع موسى.

ومنها: أن موافقة الصاحب لصاحبه في غير الأمور المحذورة مدعاةٌ وسببٌ لبقاء الصحبة وتأكُّدها؛ كما أنَّ عدم الموافقة سببٌ لقطع المرافقة.

[**ومنها**: أن هذه القضايا التي أجراها الخضر هي قدر محض، أجراها اللّه وجعلها على يد هذا العبد الصالح ليستدل العباد بذلك على ألطافه في أقضيته، وأنه يقدر على العبد أموراً يكرهها جداً وهي صلاح دينه، كما في قضية الغلام، أو وهي صلاح دنياه كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجاً من لطفه وكرمه ليعرفوه، ويرضوا غاية الرضا بأقداره الكريهة].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾.

﴿٨٣﴾ كان أهل الكتاب أو المشركون سألوا رسولَ اللّه ﷺ عن قصَّة ذي القرنين، فأمره اللّه أن يقول: ﴿سأتلو عليكم منه ذِكراً﴾: فيه نبأٌ مفيدٌ وخطابٌ عجيبٌ؛ أي: سأتلو عليكم من أحواله ما يُتَذَكَّر فيه ويكون عبرةً، وأما ما سوى ذلك من أحواله؛ فلم يَتْلُه عليهم.

(١) في (ب): «أن».

﴿٨٤ ـ ٨٥﴾ ﴿إنَّا مَكَّنَّا له في الأرض﴾؛ أي: مَلَّكَهُ اللّه تعالى ومكَّنه من النفوذ في أقطار الأرض وانقيادهم له. ﴿وآتيناه من كلِّ شيءٍ سبباً. فأتبع سبباً﴾؛ أي: أعطاه اللّه من الأسباب الموصلة له لما وَصَلَ إليه ما به يستعين على قهر البلدان وسهولة الوصول إلى أقاصي العمران، وعَمِلَ بتلك الأسباب التي أعطاه اللّه إياها؛ أي: استعملها على وجهها؛ فليس كلُّ من عنده شيءٌ من الأسباب يسلُكُه، ولا كلُّ أحدٍ يكون قادراً على السبب؛ فإذا اجتمع القدرةُ على السبب الحقيقيِّ والعملُ به؛ حصل المقصودُ، وإن عُدِما أو أحدُهما؛ لم يحصُل، وهٰذه الأسبابُ التي أعطاه اللّه إيَّاها لم يُخْبِرْنا اللّه ولا رسولُهُ بها، ولم تتناقَلْها الأخبارُ على وجهٍ يفيدُ العلم؛ فلهٰذا لا يَسَعُنا غير السكوت عنها وعدم الالتفات لما يَذْكُرُهُ النقلة للإسرائيلياتِ ونحوها، ولكنَّنا نعلم بالجملة أنَّها أسبابٌ قويَّة كثيرةٌ داخليةٌ وخارجيةٌ، بها صار له جندٌ عظيمٌ ذو عَددٍ وعُددٍ ونظام، وبه تمكَّن من قهر الأعداء ومن تسهيل الوصول إلى مشارق الأرض ومغاربها وأنحائها.

﴿٨٦﴾ فأعطاه اللّه ما بلغ به ﴿مغربَ الشمس﴾، حتى رأى الشمس في مرأى العين كأنها ﴿تَغرُبُ في عينٍ حمئةٍ﴾؛ أي: سوداء، وهٰذا المعتاد لمن كان بينه وبين أفُقِ الشمس الغربيِّ ماءٌ؛ رآها تغرُبُ في نفس الماء، وإنْ كانت في غاية الارتفاع. ﴿ووجَدَ عندها﴾؛ أي: عند مغربها ﴿قوماً قُلْنا يا ذا القرنينِ إمَّا أن تُعَذِّبَ وإمَّا أن تَتَّخِذَ فيهم حُسْناً﴾؛ أي: إما أن تعذبهم بقتل أو ضرب أو أسرٍ ونحوه، وإما أن تُحْسِنَ إليهم؛ فخُيِّرَ بين الأمرين؛ لأنَّ الظاهر أنهم [إما] كفارٌ أو فساقٌ أو فيهم شيءٌ من ذٰلك؛ لأنَّهم لو كانوا مؤمنين غير فساق؛ لم يرخِّصْ له في تعذيبهم.

﴿٨٧﴾ فكان عند ذي القرنين من السياسة الشرعيَّة ما استحقَّ به المدح والثناء؛ لتوفيق اللّه له لذٰلك، فقال: سأجعلهم قسمين: ﴿أمَّا مَن ظَلَمَ﴾: بالكفر، ﴿فسوف نعذِّبُه ثم يردُّ إلى ربِّه فيعذِّبه عذاباً نُكراً﴾؛ أي: تحصُلُ له العقوبتان؛ عقوبة الدنيا، وعقوبة الآخرة.

﴿٨٨﴾ ﴿وأمَّا مَنْ آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحُسْنى﴾؛ أي: فله الجنة والحالة الحسنة عند اللّه جزاءً يوم القيامة. ﴿وسنقولُ له من أمرِنا يُسْراً﴾؛ أي: وسنُحْسِنُ إليه ونَلْطُفُ له بالقول ونيسِّر له المعاملة. وهٰذا يدلُّ على كونه من الملوك الصالحين [و] الأولياء العادلين العالمين؛ حيث وافق مرضاةَ اللّه في معاملة كلِّ أحدٍ بما يليق بحاله.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾.

﴿٨٩﴾ أي: لما وصل إلى مغرب الشمس؛ كرَّ راجعاً، قاصداً مطلعها، متَّبعاً للأسباب التي أعطاه الله.

﴿٩٠﴾ فوصل إلى مطلع الشمس فـ ﴿وجدها تطلُعُ على قوم لم نجعل لهم من دونها سِتْراً﴾؛ أي: وجدها تطلُعُ على أناس ليس لهم سترٌ من الشمس: إما لعدم استعدادِهم في المساكن، وذلك لزيادة همجيَّتهم وتوحُّشهم وعدم تمدُّنهم. وإما لكون الشمس دائمة عندهم لا تغرُبُ [عنهم] غروباً يُذكر؛ كما يوجد ذلك في شرقيِّ إفريقيا الجنوبي، فوصل إلى موضع انقطع عنه علمُ أهل الأرض فضلاً عن وصولهم إياه بأبدانهم.

﴿٩١﴾ ومع هذا؛ فكلُّ هذا بتقدير الله له وعلمه به، ولهذا قال: ﴿كذلك وقَدْ أَحَطْنا [بما لديه خبراً﴾؛ أي:] بما عنده من الخير والأسباب العظيمة، وعلِمْنا معه حيثما توجَّه وسار.

﴿٩٢ ـ ٩٣﴾ ﴿ثم أتبع سبباً. حتى إذا بلغ بين السَّدَّين﴾: قال المفسِّرون: ذهب متوجِّهاً من المشرق قاصداً للشمال، فوصل إلى ما بين السدَّين، وهما سدَّان كانا معروفين في ذلك الزمان، سدَّان من سلاسل الجبال المتَّصلة يمنةً ويسرةً، حتى تتصل بالبحار[1]، بين يأجوجَ ومأجوجَ وبين الناس، ﴿وجد﴾: من دون السدين ﴿قوماً لا يكادون يفقهون قولاً﴾؛ لعُجْمَةِ ألسنتهم واستعجام أذهانِهم وقلوبهم.

﴿٩٤﴾ وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب العلميَّة ما فقه به ألسنة أولئك القوم وفقههم وراجعهم وراجعوه، فاشْتَكَوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج، وهما أمَّتان

(١) في (ب): «وهما سدَّان كانا سلاسلَ جبالٍ معروفين في ذلك الزمان».

عظيمتان من بني آدم، فقالوا: ﴿إنَّ يأجوج ومأجوجَ مفسدون في الأرض﴾: بالقتل وأخذ الأموال وغير ذٰلك. ﴿فهل نَجعَلُ لك خَرْجاً﴾؛ أي: جُعْلاً؛ ﴿على أن تجعلَ بيننا وبينَهم سدًا﴾: ودلَّ ذٰلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السدِّ، وعرفوا اقتدار ذي القرنين عليه، فبذلوا له أجرةً ليفعل ذٰلك، وذكروا له السببَ الداعي، وهو إفسادهم في الأرض.

﴿٩٥﴾ فلم يكن ذو القرنين ذا طمع ولا رغبةٍ في الدُّنيا ولا تاركاً لإصلاح أحوال الرعيَّة، بل قصدُهُ الإصلاح؛ فلذٰلك أجاب طلبتهم؛ لما فيها من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجرةً، وشكَرَ ربَّه على تمكينه واقتداره، فقال لهم: ﴿ما مَكَّنِّي فيه ربِّي خيرٌ﴾؛ أي: مما تبذلون لي وتعطوني، وإنَّما أطلب منكم أن تعينوني بقوَّةٍ منكم بأيديكم؛ ﴿أجعَلْ بينَكم وبينهم رَدْماً﴾؛ أي: مانعاً من عبورهم عليكم.

﴿٩٦﴾ ﴿آتوني زُبَرَ الحديدِ﴾؛ أي: قطع الحديد، فأعْطَوْه ذٰلك، ﴿حتى إذا ساوى بين الصَّدَفين﴾؛ أي: الجبلين اللذين بُني بينهما السدُّ، ﴿قال انفُخوا﴾: النار؛ أي أوقدوها إيقاداً عظيماً واستعملوا لها المنافيخ لتشتدَّ فتذيبَ النحاس، فلما ذاب النحاس الذي يريُد أن يُلْصِقَهُ بين زُبَرِ الحديد، ﴿قال آتوني أفرِغْ عليه قِطْراً﴾؛ أي: نحاساً مذاباً، فأفرغ عليه القطر، فاستحكم السدُّ استحكاماً هائلاً، وامتنع به من وراءه من الناس من ضرر يأجوج ومأجوج.

﴿٩٧﴾ ﴿فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نَقْباً﴾؛ أي: فما لهم استطاعةٌ ولا قدرةٌ على الصعود عليه؛ لارتفاعِهِ، ولا على نقبِهِ؛ لإحكامِهِ وقوَّته.

﴿٩٨﴾ فلما فَعَلَ هٰذا الفعل الجميل والأثر الجليل؛ أضاف النعمةَ إلى موليها، وقال: ﴿هٰذا رحمةٌ من ربِّي﴾؛ أي: من فضله وإحسانه عليَّ، وهٰذه حال الخلفاء والصالحين إذا منَّ اللّه عليهم بالنِّعم الجليلة؛ ازدادَ شكرُهُم وإقرارُهُم واعترافُهم بنعمة اللّه؛ كما قال سليمانُ عليه السلام لما حَضَرَ عنده عرشُ ملكة سبأ مع البعد العظيم؛ قال: ﴿هٰذا من فضل ربِّي لِيَبْلُوَني أأشكُرُ أم أكْفُرُ﴾؛ بخلاف أهل التجبُّر والتكبُّر والعلوِّ في الأرض؛ فإنَّ النعم الكبار تزيدُهم أشراً وبطراً؛ كما قال قارونُ لما آتاه اللّه من الكنوز ما إنَّ مفاتِحَهُ لتنوءُ بالعُصْبَةِ أولي القوَّة؛ قال: ﴿إنَّما أوتيتُهُ على علم عندي﴾. وقوله: ﴿فإذا جاء وعدُ ربِّي﴾؛ أي: لخروج يأجوج ومأجوج. ﴿جَعَلَه﴾؛ أي: ذٰلك السدَّ المحكم المتقن ﴿دَكَّاءَ﴾؛ أي: دكَّه فانهدم، واستوى هو والأرض، ﴿وكان وعدُ ربِّي حقًّا﴾.

﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾.

﴿٩٩﴾ يحتمل أنَّ الضمير يعودُ إلى يأجوج ومأجوج، وأنَّهم إذا خرجوا على الناس من كثرتهم واستيعابهم للأرض كلِّها يموجُ بعضُهم ببعض؛ كما قال تعالى: ﴿حتَّى إذا فُتِحَتْ يأجوجُ ومأجوجُ وهم من كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾، ويُحتمل أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم القيامة، وأنَّهم يجتمعون فيه، فيكثرون، ويموجُ بعضهم ببعض من الأهوال والزلازل العظام؛ بدليل قوله:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾.

﴿٩٩﴾ أي: إذا نفخ إسرافيل في الصور؛ أعاد اللّه الأرواح إلى الأجساد، ثمَّ حَشَرَهم وجمعهم لموقف القيامة، الأوَّلين منهم والآخرين، والكافرين والمؤمنين؛ ليُسألوا، ويُحاسبوا، ويُجزون[١] بأعمالهم.

﴿١٠٠﴾ فأما الكافرون على اختلافهم؛ فإنَّ جهنم جزاؤهم خالدين فيها أبداً، ولهٰذا قال: ﴿وعَرَضْنا جهنَّم يومئذٍ للكافرينَ عرضاً﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وإذا الجحيمُ سعرت﴾؛ أي: عُرِضَتْ لهم لتكون مأواهم ومنزلهم، وليتمتَّعوا بأغلالها وسعيرها وحميمها وزمهريرها، وليذوقوا من العقاب ما تبكم له القلوبُ، وتصمُّ الآذان.

﴿١٠١﴾ وهٰذا آثار أعمالهم وجزاء أفعالهم؛ فإنَّهم في الدُّنيا كانت أعينُهم في غطاءٍ عن ذكر اللّه؛ أي: معرضين عن الذكر الحكيم والقرآن الكريم، ﴿وقالوا قلوبُنا في أكِنَّةٍ مما تَدْعونا إليه﴾، وفي أعينهم أغطيةٌ تمنعهم من رؤية آيات اللّه النافعة؛ كما قال تعالى: ﴿وعلى أبصارِهم غِشاوةٌ﴾. ﴿وكانوا لا يستطيعونَ سمعاً﴾؛ أي: لا يقدرون على سمع آيات اللّه، الموصلة إلى الإيمان؛ لبغضهم القرآن والرسول؛ فإنَّ المبغِضَ لا يستطيع أن يلقي سمعه إلى كلام من أبغضه؛ فإذا انحجبتْ عنهم طرقُ العلم والخير؛ فليس لهم سمعٌ ولا بصرٌ ولا عقلٌ نافعٌ؛ فقد كفروا باللّه، وجحدوا آياته، وكذَّبوا رسله، فاستحقُّوا جهنَّم، وساءت مصيراً.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾.

---

(١) كذا في النسختين وعدلت في (أ) بخط مغاير ويجزوا.

﴿١٠٢﴾ وهٰذا برهانٌ وبيانٌ لبطلان دعوى المشركين الكافرين، الذين اتَّخذوا بعض الأنبياء والأولياء شركاء للّه يعبُدونهم، ويزعمون أنَّهم يكونون لهم أولياء، ينجُّونهم من عذاب اللّه، ويُنيلونهم ثوابه، وهم قد كفروا باللّه وبرسوله[1]، يقول اللّه لهم على وجه الاستفهام والإنكار المتقرِّر بطلانه في العقول: ﴿أفَحَسِبَ الذين كفروا أن يَتَّخِذوا عبادي من دوني أولياءَ﴾؛ أي: لا يكون ذٰلك، ولا يوالي وليُّ اللّه معادياً للّه أبداً؛ فإنَّ الأولياء موافقون للّه في محبَّته ورضاه وسخطه وبغضه، فيكون على هٰذا المعنى مشابهاً لقوله تعالى: ﴿ويوم يَحْشُرُهم جميعاً ثم يقولُ للملائكةِ أهٰؤلاءِ إيَّاكُم كانوا يعبُدونَ * قالوا سبحانك أنت وَلِيُّنا من دونِهِم﴾؛ فمن زعم أنه يتَّخِذُ وليَّ اللّه وليًّا له وهو معادٍ للّه؛ فهو كاذبٌ. ويُحتمل ـ وهو الظاهر ـ أنَّ المعنى: أفحسِبَ الكفارُ باللّه المنابذون لرسلِهِ أن يتَّخذوا من دونِ اللّه أولياء ينصرونهم وينفعونهم من دونِ اللّه ويدفعونَ عنهم الأذى؟ هٰذا حسبانٌ باطلٌ وظنٌّ فاسدٌ؛ فإنَّ جميع المخلوقين ليس بيدهم من النفع والضرِّ شيءٌ، ويكون هٰذا كقوله تعالى: ﴿قل ادعوا الذين زَعَمْتُم من دونِهِ فلا يملِكونَ كَشْفَ الضُّرِّ عنكم ولا تحويلاً﴾، ﴿ولا يملِكُ الذين يدعونَ من دونِهِ الشفاعةَ﴾. ونحو ذٰلك من الآيات التي يَذْكُرُ اللّه فيها أن المتَّخِذ من دونه وليًّا ينصُرُه ويواليه ضالٌّ خائبُ الرجاء غير نائلٍ لبعض مقصودِهِ. ﴿إنَّا أعتَدْنا جهنَّمَ للكافرين نُزُلاً﴾؛ أي: ضيافة وقِرىً؛ فبئس النُّزل نُزُلهم، وبئست جهنم ضيافتهم.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿١٠٣﴾ أي: قل يا محمدُ للناس على وجه التحذير والإنذار: هل أخبِرُكم بأخسر الناس ﴿أعمالاً﴾ على الإطلاق؟

﴿١٠٤﴾ ﴿الذين ضلَّ سعيُهم في الحياة الدُّنيا﴾؛ أي: بطل واضمحلَّ كلُّ ما عملوه من عمل، ﴿وهم يحسبون أنَّهم﴾ محسنونَ في صنعه؛ فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلةٌ وأنَّها محادَّةٌ للّه ورسله ومعاداة؟!

(١) في (ب): «وبرسله».

﴿١٠٥﴾ فمن هم هٰؤلاء الذين خسرت أعمالُهم فخسروا أنفسهم يوم القيامة وأهليهم يوم القيامة(١) ألا ذٰلك هو الخسران المبين؟ ﴿أولئك الذين كفروا بآياتِ ربهم ولقائِهِ﴾؛ أي: جحدوا الآيات القرآنيَّة والآيات العيانيَّة الدالَّة على وجوب الإيمان به وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر. ﴿فحبِطَت﴾: بسبب ذٰلك ﴿أعمالُهم فلا نقيمُ لهم يوم القيامة وَزناً﴾: لأنَّ الوزن فائدته مقابلةُ الحسناتِ بالسيئاتِ والنظر في الراجح منها والمرجوح، وهٰؤلاء لا حسنات لهم؛ لعدم شرطها، وهو الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿ومَن يعملْ من الصالحاتِ وهو مؤمنٌ فلا يخافُ ظلماً ولا هضماً﴾، لكنْ تعدُّ أعمالهم، وتُحصى ويقرَّرون بها، ويُخْزَوْن بها على رؤوس الأشهاد ثم يعذَّبون عليها.

﴿١٠٦﴾ ولهٰذا قال: ﴿ذٰلك جزاؤُهم﴾؛ أي: حبوط أعمالهم، وأنَّه لا يُقام لهم يوم القيامة وزنٌ؛ لحقارتهم وخسَّتهم بكفرهم بآيات الله واتِّخاذهم آياتِهِ ورسلِهِ هزواً يستهزئون بها ويسخَرون [منها](٢)، مع أنَّ الواجب في آيات الله ورسله الإيمانُ التامُّ بها والتعظيم لها والقيام بها أتمَّ القيام، وهٰؤلاء عكسوا القضيَّة، فانعكس أمرُهم وتعسوا وانتكسوا في العذاب.

ولما بيَّن مآل الكافرين وأعمالهم؛ بيَّن أعمال المؤمنين ومآلهم، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿١٠٧﴾ أي: ﴿إنَّ الذين آمنوا﴾: بقلوبهم، ﴿وعملوا الصالحات﴾: بجوارحهم، وشمل هٰذا الوصف جميع الدين؛ عقائده وأعماله، أصوله وفروعه الظاهرة والباطنة؛ فهٰؤلاء على اختلاف طبقاتهم من الإيمان والعمل الصالح، ﴿لهم جناتُ الفردوس﴾: يُحتمل أن المراد بجنات الفردوس أعلى الجنة ووسطها وأفضلها، وأنَّ هٰذا الثواب لمن كمَّل الإيمان والعمل الصالح، وهم الأنبياء والمقرَّبون، ويُحتمل أن يُراد بها جميع منازل الجنان، فيشمل هٰذا الثواب جميع طبقات أهل الإيمان من المقرَّبين والأبرار والمقتصدين؛ كلٌّ بحسب حاله، وهٰذا [أَوْلى](٣) المعنيين؛ لعمومه، ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس،

---

(١) كذا في (أ). وفي (ب): «فخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة».

(٢) كذا في (ب). وفي (أ): «منهم».

(٣) كذا في (ب). وفي (أ): «أول».

وأنَّ الفردوس يُطلق على البستان المحتوي على الكرم أو الأشجار الملتفَّة، وهٰذا صادق على جميع الجنة؛ فجنَّة الفردوس نُزُلٌ وضيافةٌ لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأيُّ ضيافة أجلُّ وأكبر وأعظم من هٰذه الضيافة، المحتوية على كلِّ نعيم للقلوب والأرواح والأبدان؟! وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعينُ، من المنازل الأنيقة والرياض الناضرة والأشجار المثمرة والطيور المغرِّدة المشجية والمآكل اللذيذة والمشارب الشهيَّة والنساء الحسان والخدم والولدان والأنهار السارحة والمناظر الرائقة والجمال الحسيِّ والمعنويِّ والنعمة الدائمة، وأعلى ذٰلك وأفضله وأجلُّه التنعُّم بالقرب من الرحمٰن ونيل رضاه الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتُّع برؤية وجهه الكريم وسماع كلام الرءوف الرحيم فللّه تلك الضيافة؛ ما أجلها وأجملها وأدومها وأكملها! وهي أعظم من أن يحيطَ بها وصفُ أحدٍ من الخلائق، أو تخطر على القلوب؛ فلو عَلِمَ العبادُ بعض ذٰلك النعيم علماً حقيقياً يصل إلى قلوبهم لطارت إليها قلوبُهم بالأشواق، ولتقطَّعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافاتٍ ووحداناً، ولم يؤثِروا عليها دنيا فانيةً ولذاتٍ منغصةً متلاشيةً، ولم يفوِّتوا أوقاتاً تذهب ضائعةً خاسرةً، يقابل كلَّ لحظة منها من النعيم من الحقب آلافُ مؤلَّفة، ولٰكنَّ الغفلة شملت، والإيمان ضَعُف، والعلم قلَّ، والإرادة وَهَتْ[1]، فكان ما كان؛ فلا حول ولا قوَّةَ إلَّا باللّه العليِّ العظيم.

﴿١٠٨﴾ وقوله: ﴿خالدين فيها﴾: هٰذا هو تمام النعيم، أنَّ فيها النعيم الكامل، ومن تمامه أنه لا ينقطع، ﴿لا يبغون عنها حِوَلاً﴾؛ أي: تحوُّلاً ولا انتقالاً؛ لأنَّهم لا يرون إلَّا ما يعجِبُهم ويبهِجُهم ويسرُّهم ويفرحهم، ولا يرون نعيماً فوق ما هم فيه.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿١٠٩﴾ أي: قل لهم مخبراً عن عظمة الباري وسعةِ صفاتِهِ وأنها لا يحيطُ العباد بشيء منها: ﴿لو كان البحرُ﴾؛ أي: هٰذه الأبحر الموجودة في العالم ﴿مداداً لكلماتِ ربِّي﴾؛ أي: وأشجارُ الدُّنيا من أولها إلى آخرها من أشجار البلدان والبراري والبحار أقلامٌ، ﴿لَنَفِدَ البحرُ﴾: وتكسرت الأقلام ﴿قبل أن تنفَدَ كلماتُ

---

(١) في (ب): «نفذت».

ربِّي﴾: وهٰذا شيءٌ عظيمٌ لا يحيط به أحدٌ، وفي الآية الأخرى: ﴿ولو أنَّ ما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يمدُّه من بعدِهِ سبعةُ أبحرٍ ما نَفِدَتْ كلماتُ اللّه إنَّ اللّه عزيزٌ حكيمٌ﴾: وهٰذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان؛ لأنَّ هٰذه الأشياء مخلوقةٌ، وجميع المخلوقات منقضيةٌ منتهيةٌ، وأما كلام اللّه؛ فإنَّه من جملة صفاتِهِ، وصفاتُهُ غير مخلوقة ولا لها حدٌّ ولا منتهى؛ فأيُّ سعة وعظمة تصورتْها القلوب؛ فاللّه فوق ذٰلك، وهٰكذا سائر صفات اللّه تعالى؛ كعلمه وحكمته وقدرته ورحمته؛ فلو جُمِعَ علمُ الخلائق من الأوَّلين والآخرين أهل السماوات وأهل الأرض؛ لكان بالنسبة إلى علم العظيم أقلَّ من نسبة عصفورٍ وقع على حافَّة البحر، فأخذ بمنقارِهِ من البحر بالنسبة للبحر وعظمتِهِ، ذٰلك بأنَّ اللّه له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة، وأنَّ إلى ربِّك المنتهى.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

﴿١١٠﴾ أي: قل يا محمدُ للكفار وغيرهم: ﴿إنَّما أنا بشرٌ مثلُكم﴾؛ أي: لست بإله، ولا لي شركةٌ في الملك، ولا علمٌ بالغيب، ولا عندي خزائن اللّه، وإنَّما أنا بشرٌ مثلكم، عبدٌ من عبيد ربي. ﴿يوحى إليَّ أنَّما إلٰهكم إلهٌ واحدٌ﴾؛ أي: فُضِّلْتُ عليكم بالوحي الذي يوحيه اللّه إليَّ، الذي أجلُّه الإخبار لكم، ﴿أنَّما إلٰهكم إلهٌ واحدٌ﴾؛ أي: لا شريك له ولا أحد يستحقُّ من العبادة مثقال ذرَّة [غيره]، وأدعوكم إلى العمل الذي يقرِّبُكم منه ويُنيلكم ثوابه ويدفع عنكم عقابه، ولهٰذا قال: ﴿فمَن كان يَرْجو لقاءَ ربِّه فليعملْ عملاً صالحاً﴾: وهو الموافق لشرع اللّه من واجب ومستحبٍّ، ﴿ولا يُشْرِكْ بعبادةِ ربِّه أحداً﴾؛ أي: لا يرائي بعمله، بل يعمله خالصاً لوجه اللّه تعالى؛ فهٰذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما مَنْ عدا ذٰلك؛ فإنَّه خاسرٌ في دنياه وأخراه، وقد فاته القرب من مولاه ونيل رضاه.

آخر تفسير سورة الكهف. وللّه الحمد.

❋ ❋ ❋

تفسير سورة مريم

وهي مدنية(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾.

﴿٢﴾ أي: هٰذا ﴿ذِكرُ رحمةِ ربِّك عبدَه زكريًا﴾: سنقصُّه عليك، ونفصِّله تفصيلاً يُعرِّف به حالة نبيِّه زكريا وآثاره الصالحة ومناقبه الجميلة؛ فإنَّ في قصِّها عبرة للمعتبرين وأسوة للمقتدين، ولأنَّ في تفصيل رحمته لأوليائِهِ وبأيِّ سبب حصلت لهم مما يدعو إلى محبَّة اللّه تعالى والإكثار من ذكرِهِ ومعرفتِهِ والسبب الموصل إليه، وذٰلك أنَّ اللّه تعالى اجتبى واصطفى زكريًا عليه السلام لرسالتِهِ، وخصَّه بوحيه، فقام بذٰلك قيام أمثاله من المرسلين، ودعا العباد إلى ربِّه، وعلَّمهم ما علَّمه اللّه، ونصح لهم في حياته وبعد مماتِهِ كإخوانه من المرسلين ومن اتَّبعهم.

﴿٣ ـ ٤﴾ فلما رأى من نفسه الضعف، وخاف أن يموتَ، ولم يكن أحدٌ ينوب منابه في دعوة الخلق إلى ربِّهم والنُّصح لهم، شكا إلى ربِّه ضعفه الظاهر والباطن، وناداه نداء خفيًّا؛ ليكون أكمل وأفضل وأتمَّ إخلاصاً، فقال: ﴿ربِّ إنِّي وَهَنَ العظمُ منِّي﴾؛ أي: وَهَى وضَعُفَ، وإذا ضعف العظم الذي هو عماد البدن؛ ضعف غيره. ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾؛ لأنَّ الشيب دليلُ الضعف والكبر ورسولُ الموت ورائدُه ونذيرُه، فتوسَّل إلى اللّه تعالى بضعفه وعجزه، وهٰذا من أحبِّ الوسائل إلى اللّه؛ لأنَّه يدلُّ على التبرِّي من الحول والقوة وتعلُّق القلب بحول اللّه وقوَّته. ﴿ولم أكن بدعائِكَ ربِّ شقيًا﴾؛ أي: لم تكن يا ربِّ تردُّني خائباً ولا محروماً من الإجابة، بل لم تزلْ بي حفيًّا ولدعائي مجيباً، ولم تزل ألطافُك تتوالى عليَّ وإحسانُك واصلاً

---

(١) كذا في النسختين، وقد حكى الإجماع على مكيتها ابن الجوزي والقرطبي. انظر كتاب «ابن السعدي مفسراً» (ص٢٧٥).

إليَّ، وهٰذا توسُّل إلى اللّه بإنعامه عليه وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقاً أن يتمِّم إحسانَه لاحقاً.

﴿٥﴾ ﴿وإنِّي خفتُ المواليَ من ورائي﴾؛ أي: وإني خفتُ من يتولَّى على بني إسرائيل من بعد موتي أن لا يقوموا بدينك حقَّ القيام، ولا يدعوا عبادك إليك.

وظاهر هٰذا أنَّه لم يَرَ فيهم أحداً فيه لياقةٌ للإمامة في الدين، وهٰذا فيه شفقةُ زكريَّا عليه السلام ونصحُه وأنَّ طلبه للولد ليس كطلب غيره؛ قصدُهُ مجردُ المصلحة الدنيويَّة، وإنَّما قصدُه مصلحة الدين والخوف من ضياعه، ورأى غيرَه غيرَ صالح لذٰلك، وكان بيتُه من البيوت المشهورة في الدِّين ومعدن الرسالة ومظنَّة للخير، فدعا اللّه أن يرزقَه ولداً يقوم بالدين من بعدِهِ، واشتكى أنَّ امرأته عاقر؛ أي: ليست تلدُ أصلاً، وأنَّه قد بلغ من الكبر عتيًّا؛ أي: عمراً يندُرُ معه وجود الشهوة والولد. ﴿فهب لي من لَدُنكَ وليًّا﴾.

﴿٦﴾ وهٰذه الولاية ولاية الدين وميراث النبوَّة والعلم والعمل، ولهٰذا قال: ﴿يرثني ويَرِثُ من آل يعقوبَ واجعَلْه ربِّ رضيًّا﴾؛ أي: عبداً صالحاً ترضاه وتحبِّبه إلى عبادك.

والحاصل أنَّه سأل اللّه ولداً ذكراً صالحاً يبقى بعد موته ويكون وليًّا من بعده ويكون نبيًّا مرضيًّا عند اللّه وعند خلقِهِ، وهٰذا أفضل ما يكون من الأولاد، ومن رحمة اللّه بعبدِهِ أنْ يرزقَه ولداً صالحاً جامعاً لمكارم الأخلاق ومحامد الشيم، فرحمه ربُّه واستجاب دعوته فقال:

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾.

﴿٧﴾ أي: بشره اللّه تعالى على يد الملائكة بيحيى، وسمَّاه اللّه له يحيى، وكان اسماً موافقاً لمسمَّاه؛ يحيا حياة حسيَّةً فتتمُّ به المنَّة، ويحيا حياةً معنويَّة، وهي حياة القلب والروح بالوحي والعلم والدين. ﴿لم نجعل له من قبلُ سميًّا﴾؛ أي: لم يسمَّ هٰذا الاسم قبله أحدٌ، ويُحتمل أنَّ المعنى: لم نجعلْ له من قبل مثيلاً

ومسامياً؛ فيكون ذٰلك بشارةً بكماله واتِّصافه بالصفات الحميدة، وأنَّه فاق من قبله، ولٰكن على هٰذا الاحتمال؛ هٰذا العموم لا بدَّ أن يكون مخصوصاً بإبراهيم وموسى ونوح عليهم السلام ونحوهم ممَّن هو أفضلُ من يحيى قطعاً.

﴿٨﴾ فحينئذٍ لما جاءته البشارة بهٰذا المولود الذي طلبه؛ استغربَ وتعجب وقال: ﴿ربِّ أنَّى يكونُ لي غلام﴾: والحال أنَّ المانع من وجود الولد موجود بي وبزوجتي، وكأنَّه وقتَ دعائه لم يستحضرْ هٰذا المانع؛ لقوَّة الوارد في قلبه وشدَّة الحرص العظيم على الولد، وفي هٰذه الحال حين قُبِلَتْ دعوتُه؛ تعجَّب من ذٰلك.

﴿٩﴾ فأجابه اللّه بقوله: ﴿كذٰلك قال ربُّكَ هو عليَّ هيِّنٌ﴾؛ أي: الأمر مستغربٌ في العادة، وفي سنة اللّه في الخليقة، ولكن قدرة اللّه تعالى صالحةٌ لإيجاده بدون أسبابها؛ فذٰلك هيِّن عليه، ليس بأصعب من إيجاده قبلُ، ولم يك شيئاً.

﴿١٠﴾ ﴿قال ربِّ اجعل لي آيةً﴾؛ أي: يطمئنُّ بها قلبي، وليس هٰذا شكًّا في خبر اللّه، وإنَّما هو كما قال الخليل عليه السلام: ﴿ربِّ أرني كيفَ تُحيي الموتى قال أوَلَم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنَّ قلبي﴾: فطلب زيادة العلم والوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين، فأجابه اللّه إلى طِلْبَتِهِ رحمةً به. ﴿قال آيتُك أن لا تكلِّمَ الناس ثلاثَ ليال سويًّا﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿ثلاثةَ أيام إلَّا رَمْزاً﴾، والمعنى واحد؛ لأنَّه تارةً يعبِّر بالليالي، وتارةً بالأيَّام، ومؤدَّاها واحدٌ، وهٰذا من الآيات العجيبة؛ فإنَّ منعَه من الكلام مدة ثلاثة أيام وعجزَه عنه من غير خرسٍ ولا آفةٍ بل كان سويًّا لا نقصَ فيه من الأدلة على قدرةِ اللّه الخارقةِ للعوائد، ومع هٰذا ممنوعٌ من الكلام الذي يتعلَّق بالآدميِّين وخطابهم، وأما التسبيح [والتهليل] والذكر ونحوه فغيرُ ممنوع منه، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿واذكر ربَّك كثيراً وسبِّح بالعشيِّ والإبكار﴾.

﴿١١﴾ فاطمأنَّ قلبُه، واستبشر بهٰذه البشارة العظيمة، وامتثل لأمر اللّه له بالشكر بعبادته وذكرِهِ، فعكف في محرابه، وخرج على قومه منه ﴿فأوحى إليهم﴾؛ أي: بالإشارة والرمز، ﴿أن سبِّحوا بكرةً وعشيًّا﴾: لأنَّ البشارة بيحيى في حقِّ الجميع مصلحة دينية.

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةًۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٢﴾ دلَّ الكلام السابق على ولادة يحيى وشبابه وتربيته، فلما وصل إلى حالةٍ يفهم فيها الخطاب؛ أمره اللّه أنْ يأخذ الكتاب بقوَّة؛ أي: بجدٍّ واجتهادٍ، وذٰلك بالاجتهاد في حفظ ألفاظه وفهم معانيه والعمل بأوامره ونواهيه، هٰذا تمامُ أخذِ الكتاب بقوَّة، فامتثل أمر ربِّه، وأقبل على الكتاب فحفظه وفهمه، وجعل اللّه فيه من الذَّكاء والفطنة ما لا يوجد في غيره، ولهٰذا قال: ﴿وآتيناه الحكم صبيًا﴾ [أي: معرفة أحكام اللّه والحكم بها وهو في حال صغره وصباه].

﴿١٣﴾ وآتيناه أيضاً ﴿حناناً من لَدُنّا﴾؛ أي: رحمة ورأفة تيسَّرتْ بها أموره، وصلحتْ بها أحواله، واستقامت بها أفعاله. ﴿وزكاة﴾؛ أي: طهارة من الآفات والذنوب، فَطَهُرَ قلبُه وتزكّى عقلُه، وذٰلك يتضمَّن زوال الأوصاف المذمومة والأخلاق الرديئة وزيادة الأخلاق الحسنة والأوصاف المحمودة، ولهٰذا قال: ﴿وكان تَقِيًا﴾؛ أي: فاعلاً للمأمور تاركاً للمحظور.

﴿١٤﴾ ومن كان مؤمناً تقيًا؛ كان للّه وليًا، وكان من أهل الجنة التي أُعدَّت للمتقين، وحصل له من الثواب الدنيويِّ والأخرويِّ ما رتَّبه اللّه على التَّقوى، وكان أيضاً ﴿برًا بوالديه﴾؛ أي: لم يكن عاقًّا ولا مسيئاً إلى أبويه، بل كان محسناً إليهما بالقول والفعل. ﴿ولم يكن جباراً عَصِيًا﴾؛ أي: لم يكن متجبراً متكبراً عن عبادة اللّه، ولا مترفِّعاً على عباد اللّه ولا على والديه، بل كان متواضعاً متذلِّلاً مطيعاً أوَّاباً للّه على الدوام، فجمع بين القيام بحقِّ اللّه وحق خلقه.

﴿١٥﴾ ولهٰذا حصلت له السلامة من اللّه في جميع أحواله؛ مبادئها وعواقبها؛ فلذا[1] قال: ﴿وسلامٌ عليه يومَ وُلِدَ ويومَ يموتُ ويومَ يُبْعَثُ حيًا﴾: وذٰلك يقتضي سلامته من الشيطان والشرِّ والعقاب في هٰذه الأحوال الثلاثة وما بينها، وأنَّه سالمٌ من النار والأهوال ومن أهل دار السلام؛ فصلوات اللّه وسلامه عليه وعلى والده وعلى سائر المرسلين، وجعلنا من أتباعِهِم إنَّه جوادٌ كريمٌ.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ

---

(١) في (ب): «فلهذا».

يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿١٦﴾ لما ذكر قصة زكريّا ويحيى، وكانت من الآيات العجيبة؛ انتقلَ منها إلى ما هو أعجب منها تدريجاً من الأدنى إلى الأعلى، فقال: ﴿واذكُرْ في الكتاب﴾: الكريم ﴿مريمَ﴾: عليها السلام، وهٰذا من أعظم فضائلها؛ أنْ تُذْكَرَ في الكتاب العظيم الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها؛ تُذْكَر فيه بأحسن الذكر وأفضل الثناء؛ جزاءً لعملها الفاضل وسعيها الكامل؛ أي: واذْكُرْ في الكتاب مريم في حالها الحسنة حين ﴿انتبذت﴾؛ أي: تباعدت عن أهلها ﴿مكاناً شرقيًّا﴾؛ أي: مما يلي الشرق عنهم.

﴿١٧﴾ ﴿فاتَّخذتْ من دونهم حجاباً﴾؛ أي: ستراً ومانعاً، وهٰذا التباعد منها واتِّخاذ الحجاب لتعتزل وتنفرد بعبادة ربِّها، وتقنت له في حالة الإخلاص والخضوع والذلّ للّه تعالى، وذٰلك امتثالٌ منها لقوله تعالى: ﴿وإذْ قالتِ الملائكة يا مريمُ إنَّ اللّه اصطفاكِ وطهرك واصطفاك على نساءِ العالمينَ. يا مريمُ اقْنُتي لربِّكِ واسجُدي واركَعي مع الرَّاكعين﴾. وقوله: ﴿فأرسَلْنا إليها روحنا﴾: وهو جبريلُ عليه السلام، ﴿فتمثَّل لها بشراً سويًّا﴾؛ أي: كاملاً من الرجال في صورة جميلة وهيئةٍ حسنةٍ لا عيبَ فيه ولا نقص؛ لكونها لا تحتملُ رؤيته على ما هو عليه.

﴿١٨﴾ فلما رأته في هٰذه الحال، وهي معتزلة عن أهلها، منفردة عن الناس، قد اتَّخذت الحجاب عن أعزِّ الناس عليها، وهم أهلها؛ خافت أن يكون رجلاً قد تعرَّضَ لها بسوءٍ وطَمِعَ فيها، فاعتصمتْ بربِّها واستعاذتْ منه فقالتْ له: ﴿إنِّي أعوذُ بالرحمٰنِ منك﴾؛ أي: ألتجىء به، وأعتصم برحمته أن تنالَني بسوءٍ، ﴿إن كنتَ تقيًّا﴾؛ أي: إن كنت تخافُ اللّه وتعمل بتقواه؛ فاترك التعرُّض لي؛ فجمعت بين الاعتصام بربِّها وبين تخويفه وترهيبه وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية والشباب والبعد عن الناس، وهو في ذٰلك الجمال الباهر والبشريَّة الكاملة السويَّة، ولم ينطق لها بسوء أو يتعرَّض لها، وإنما ذٰلك خوف منها، وهٰذا أبلغ ما يكون من العفَّة والبعد عن الشرِّ وأسبابه، وهٰذه العفَّة خصوصاً مع اجتماع الدواعي، وعدم المانع مِن أفضل الأعمال، ولذٰلك أثنى اللّه عليها، فقال: ﴿ومريمَ ابنةَ عمرانَ التي أحصنتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فيه من روحنا﴾، ﴿والتي أحْصَنَتْ فرجَها فنفَخْنا فيه من روحنا وجَعَلْناها وابنها آيةً للعالمين﴾؛ فأعاضها اللّه بعفَّتها ولداً من آيات اللّه، ورسولاً من رسله.

﴿١٩﴾ فلمَّا رأى جبريل منها الرَّوْع والخيفة؛ قال: ﴿إنَّما أنا رسولُ ربِّك﴾؛

أي: إنما وظيفتي وشغلي تنفيذُ رسالة ربي فيك، ﴿لأهَبَ لكَ غلاماً زكيًا﴾: وهٰذه بشارةٌ عظيمةٌ بالولد وزكائه؛ فإنَّ الزكاء يستلزم تطهيره من الخصال الذَّميمة واتِّصافه بالخصال الحميدة.

﴿٢٠﴾ فتعجَّبت من وجود الولد من غير أب، فقالت: ﴿أنَّى يكونُ لي غلامٌ ولم يمسَسْني بشرٌ ولم أكُ بغيًا﴾: والولد لا يوجد إلا بذٰلك.

﴿٢١﴾ ﴿قال كذٰلكِ قال ربُّكِ هو عليَّ هيِّنٌ ولِنَجْعَلَه آيةً للناس﴾: تدلُّ على كمال قدرةِ اللّه تعالى وعلى أنَّ الأسباب جميعها لا تستقلُّ بالتأثير، وإنَّما تأثيرها بتقدير اللّه، فيُري عباده خرقَ العوائد في بعض الأسباب العاديَّة؛ لئلَّا يقفوا مع الأسباب، ويقطعوا النظر عن مقدِّرها ومسبِّبها. ﴿ورحمةً منَّا﴾؛ [أي]: ولنجعله رحمةً منَّا به وبوالدته وبالناس: أما رحمةُ اللّه به؛ فلِمَا خصَّه اللّه بوحيه، ومنَّ عليه بما منَّ به على أولي العزم. وأما رحمتُهُ بوالدته؛ فلِمَا حصل لها من الفخرِ والثناء الحسنِ والمنافع العظيمة. وأما رحمتُهُ بالناس؛ فإنَّ أكبر نعمه عليهم أن بَعَثَ فيهم رسولاً، يتلو عليهم آياته، ويزكيِّهم، ويعلِّمهم الكتاب والحكمة فيؤمنون به، ويطيعونه، وتحصُلُ لهم سعادةُ الدنيا والآخرة. ﴿وكان﴾؛ أي: وجود عيسى عليه السلام على هٰذه الحالة ﴿أمراً مقضِيًا﴾: قضاء سابقاً؛ فلا بدَّ من نفوذ هٰذا التقدير والقضاء، فنفخ جبريل عليه السلام في جيبها.

﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٢﴾ أي: لما حملتْ بعيسى عليه السلام؛ خافتْ من الفضيحة، فتباعدتْ عن الناس مكاناً قصيًا.

﴿٢٣﴾ فلما قَرُبَ وِلادُها؛ ألجأها المخاضُ إلى جذع نخلةٍ، فلما آلمها وجعُ الولادة، ووجعُ الانفراد عن الطعام والشراب، ووجعُ قلبها من قالة الناس، وخافتْ عدمَ صبرِها؛ تمنَّتْ أنَّها ماتتْ قبل هٰذا الحادث وكانت نَسْياً منسيًا؛ فلا تُذْكَر، وهٰذا التمنِّي بناءً على ذٰلك المزعج، وليس في هٰذه الأمنيَّة خيرٌ لها ولا مصلحةٌ، وإنَّما الخير والمصلحة بتقدير ما حَصَلَ.

﴿٢٤﴾ فحينئذٍ سكَّن المَلَكُ رَوْعها، وثبَّتَ جأشها، وناداها من تحتها؛ لعلَّه من[1] مكان أنزل من مكانها، وقال لها: لا تَحْزني؛ أي: لا تجزعي ولا تهتمِّي؛ فـ ﴿قد جعل ربُّك تحتك سريًّا﴾؛ أي: نهراً تشربين منه.

﴿٢٥﴾ ﴿وهُزِّي إليك بجذع النخلةِ تُساقِطْ عليك رُطَباً جنيًّا﴾؛ أي: طريًّا لذيذاً نافعاً.

﴿٢٦﴾ ﴿فكُلي﴾: من التمر، ﴿واشربي﴾: من النهر، ﴿وقَرِّي عَيناً﴾: بعيسى؛ فهٰذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة وحصول المأكل والمشرب الهنيِّ، وأما من جهة قالة الناس؛ فأمرها أنَّها إذا رأت أحداً من البشر أنْ تقولَ على وجه الإشارة: ﴿إنِّي نذرتُ للرحمٰن صوماً﴾؛ أي: سكوتاً، ﴿فلن أكلِّمَ اليوم إنسيًّا﴾؛ أي: لا تخاطبيهم بكلام لتستريحي من قولهم وكلامهم، وكان معروفاً عندهم أنَّ السكوت من العبادات المشروعة. وإنَّما لم تؤمَرْ بمخاطبتهم[2] في نفي ذٰلك عن نفسها، لأنَّ الناس لا يصدِّقونها، ولا فيه فائدة، وليكون تبرئتها بكلام عيسى في المهد أعظم شاهدٍ على براءتها؛ فإنَّ إتيان المرأة بولدٍ من دون زوج ودعواها أنَّه من غير أحدٍ من أكبر الدعاوى التي لو أقيم عدَّة من الشهود لم تصدَّق بذٰلك، فجُعِلَتْ بيِّنةُ هٰذا الخارق للعادة أمراً من جنسه، وهو كلام عيسى في حال صغره جدًّا، ولهٰذا قال تعالى:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٢٧﴾ أي: فلما تعلَّت مريمُ من نفاسها؛ أتت بعيسى قومَها تحمِلُه، وذٰلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فأتتْ غير مباليةٍ ولا مكترثةٍ، فقالوا: ﴿لقد جئتِ شيئاً فريًّا﴾؛ أي: عظيماً وخيماً، وأرادوا بذٰلك البغي حاشاها من ذٰلك.

﴿٢٨﴾ ﴿يا أخت هارونَ﴾: الظاهر أنه أخٌ لها حقيقيٌّ فنسبوها إليه، [وكانوا

(١) في (ب): «في».
(٢) في (ب): «بخطابهم».

يسمون بأسماء الأنبياء، وليس هو هارون بن عمران أخا موسى، لأن بينهما قروناً كثيرة]، ﴿ما كان أبوكِ امرأ سَوْءٍ وما كانت أمُّكِ بغيًّا﴾؛ أي؛ لم يكن أبواكِ إلَّا صالحينِ سالمينِ من الشرِّ، وخصوصاً هٰذا الشرَّ الذي يشيرون إليه. وقصدُهم: فكيف كنتِ على غير وصفهما وأتيتِ بما لم يأتيا به؟! وذٰلك أن الذُّرِّيَّة في الغالب بعضها من بعض في الصلاح وضدِّه، فتعجَّبوا بحسب ما قام بقلوبهم؛ كيف وقع منها؟!

﴿٢٩﴾ ﴿فأشارتْ﴾ لهم ﴿إليه﴾؛ أي: كلِّموه، وإنَّما أشارت لذٰلك لأنَّها أمرت عند مخاطبة الناس لها أن تقول: ﴿إنِّي نذرتُ للرحمٰن صوماً فلن أكلِّمَ اليوم إنسيًّا﴾، فلما أشارت إليهم بتكليمه؛ تعجَّبوا من ذٰلك، وقالوا: ﴿كيف نكلِّمُ مَن كانَ في المهدِ صَبيًّا﴾؛ لأنَّ ذٰلك لم تجرِ به عادةٌ ولا حصل من أحدٍ في ذٰلك السنِّ.

﴿٣٠﴾ فحينئذٍ قال عيسى عليه السلام وهو في المهد صبيٌّ: ﴿إنِّي عبد الله آتانيَ الكتاب وجَعَلَني نبيًّا﴾: فخاطبهم بوصفه بالعبوديَّة، وأنه ليس فيه صفةٌ يستحقُّ بها أن يكون إلٰهاً أو ابناً للإلٰه، تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى في قوله: ﴿إنِّي عبدُ الله﴾، ومدَّعون موافقته، ﴿آتانيَ الكتابَ﴾؛ أي: قضى أن يؤتيني الكتابَ، ﴿وجَعَلَني نبيًّا﴾: فأخبرهم بأنَّه عبدُ الله، وأنَّ الله علَّمه الكتاب وجعله من جملة أنبيائه؛ فهٰذا من كماله لنفسه.

﴿٣١﴾ ثم ذكر تكميلَه لغيره، فقال: ﴿وجَعَلَني مباركاً أينما كنت﴾؛ أي: في أيِّ مكانٍ وأيِّ زمان؛ فالبركةُ جعلها الله فيَّ من تعليم الخير والدعوة إليه والنهي عن الشرِّ والدعوة إلى الله في أقوالِهِ وأفعالِهِ؛ فكلُّ من جالسه أو اجتمع به؛ نالته بركتُه وسَعِدَ به مصاحبه. ﴿وأوصاني بالصَّلاة والزَّكاة ما دمتُ حيًّا﴾؛ أي: أوصاني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عباده التي أجلُّها الزكاة؛ مدَّة حياتي؛ أي: فأنا ممتثلٌ لوصيَّة ربِّي، عاملٌ عليها، منفذٌ لها.

﴿٣٢﴾ وأوصاني أيضاً أن أبَرَّ والدتي فأحسِنَ إليها غايةَ الإحسان، وأقومَ بما ينبغي لها؛ لشرفِها وفضلِها، ولكونها والدةً لها حقُّ الولادة وتوابعها. ﴿ولم يَجْعَلْني جبارًا﴾؛ أي: متكبراً على الله مترفِّعاً على عباده، ﴿شقيًّا﴾: في دنياي وأخراي، فلم يجعلني كذٰلك، بل جعلني مطيعاً له خاضعاً خاشعاً متذللاً متواضعاً لعباد الله سعيداً في الدُّنيا والآخرة أنا ومن اتَّبعني.

﴿٣٣﴾ فلما تمَّ له الكمالُ ومحامد الخصال؛ قال: ﴿وسلامٌ عليَّ يومَ ولِدْتُ ويوم أموتُ ويومَ أبعثُ حيًا﴾؛ أي: من فضل ربي وكرمه حصلتْ لي السلامةُ يوم ولادتي ويوم موتي ويوم بعثي من الشرِّ والشيطان والعقوبة، وذٰلك يقتضي سلامته من الأهوال ودار الفجَّار، وأنَّه من أهل دار السلام؛ فهٰذه معجزةٌ عظيمة وبرهانٌ باهرٌ على أنَّه رسول الله وعبدُ الله حقًّا.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٣٤ ـ ٣٥﴾ أي: ذٰلك الموصوف بتلك الصفات عيسى ابن مريم من غير شكٍّ ولا مِريةٍ، بل ﴿قول الحقِّ﴾ وكلام الله الذي لا أصدقَ منه قيلاً ولا أحسن منه حديثاً؛ فهٰذا الخبر اليقينيُّ عن عيسى عليه السلام، وما قيل فيه ممَّا يخالفُ هٰذا؛ فإنَّه مقطوعٌ ببطلانه، وغايتُه أن يكون شكًّا من قائلِهِ لا علم له به، ولهٰذا قال: ﴿الذي فيه يَمترونَ﴾؛ أي: يشكُّون فيمارون بشكِّهم ويجادلون بِخَرْصِهِم؛ فمن قائل عنه: إنَّه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن إفكِهِم وتقوُّلهم علوًّا كبيراً؛ فـ ﴿ما كان للّه أن يتَّخذ من ولدٍ﴾؛ أي: ما ينبغي ولا يليق؛ لأنَّ ذٰلك من الأمور المستحيلة؛ لأنَّه الغنيُّ الحميد المالك لجميع الممالك؛ فكيف يتَّخذ من عبادِهِ ومماليكه ولداً. ﴿سبحانه﴾؛ أي: تنزَّه وتقدَّس عن الولد والنقص، ﴿إذا قضى أمراً﴾؛ أي: من الأمور الصغار والكبار؛ لم يمتنعْ عليه ولم يستصعبْ، ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾؛ فإذا كان قدرتُهُ ومشيئتُهُ نافذاً في العالم العلويِّ والسفليِّ، فكيف يكون له ولدٌ؟! وإذا كان، إذا أراد شيئاً؛ قال له: كنْ فيكونُ؛ فكيف يُسْتَبْعَدُ إيجاده عيسى من غير أب؟!

﴿٣٦﴾ ولهٰذا أخبر عيسى أنَّه عبدٌ مربوب كغيره، فقال: ﴿وإنَّ الله ربِّي وربُّكم﴾: الذي خلقنا وصوَّرنا ونَفَذَ فينا تدبيرُه وصَرَفَنا تقديرُه. ﴿فاعبدوه﴾؛ أي: أخلصوا له العبادة واجتهدوا في الإنابة. وفي هٰذا الإقرار بتوحيد الربوبيَّة وتوحيد الإلٰهيَّة والاستدلال بالأول على الثاني، ولهٰذا قال: ﴿هٰذا صراطٌ مستقيمٌ﴾؛ أي: طريق معتدلٌ موصلٌ إلى الله؛ لكونِهِ طريق الرسل وأتباعهم، وما عدا هٰذا؛ فإنَّه من طرق الغيِّ والضَّلال.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿٣٧﴾ لما بيَّن تعالى حال عيسى ابن مريم الذي لا يُشَكُّ فيها ولا يُمترى؛ أخبر أنَّ الأحزاب؛ أي: فرق الضلال من اليهود والنصارى وغيرهم على اختلاف طبقاتهم اختلفوا في عيسى عليه السلام؛ فمن غالٍ فيه وجافٍ؛ فمنهم من قالَ: إنه اللّه! ومنهم من قال: إنه ابن اللّه! ومنهم من قال: إنه ثالثُ ثلاثة! ومنهم من لم يجعلْه رسولاً، بل رماه بأنَّه ولد بغيٍّ كاليهود! وكل هٰؤلاء أقوالهم باطلةٌ، وآراؤهم فاسدةٌ مبنيَّة على الشكِّ والعناد والأدلَّة الفاسدة والشُّبه الكاسدة، وكلُّ هٰؤلاء مستحقُّون للوعيد الشديد، ولهٰذا قال: ﴿فويلٌ للذين كفروا﴾: باللّه ورسله وكتبه، ويدخُلُ فيهم اليهودُ والنصارى، القائلون بعيسى قول الكفر، ﴿من مَشْهَدِ يوم عظيم﴾؛ أي: مشهد يوم القيامة، الذي يشهدُهُ الأوَّلون والآخرون، أهل السماوات وأهل الأرض، الخالق والمخلوق، الممتلىء بالزلازل والأهوال، المشتمل على الجزاء بالأعمال؛ فحينئذٍ يتبيَّن ما كانوا يُخفون، ويبْدون، وما كانوا يكتمون.

﴿٣٨﴾ ﴿أسمِعْ بهم وأبصِرْ يوم يأتوننا﴾؛ أي: ما أسمعهم وما أبصرهم في ذٰلك اليوم، فيقرُّون بكفرِهم وشركِهم وأقوالهم، ويقولون: ﴿ربَّنا أبصَرْنا وسَمِعْنا فارْجِعْنا نعملْ صالحاً إنَّا موقنونَ﴾: ففي القيامة يستيقنون حقيقة ما هم عليه. ﴿لكنِ الظالمونَ اليوم في ضلال مبيـنٍ﴾: وليس لهم عذرٌ في هٰذا الضلال؛ لأنَّهم بين معاندٍ ضالٍّ على بصيرةٍ عارف بالحقِّ صادف عنه، وبين ضالٍّ عن طريق الحقِّ، متمكِّن من معرفة الحقِّ والصواب، ولٰكنَّه راضٍ بضلاله، وما هو عليه من سوء أعمالِهِ، غير ساعٍ في معرفة الحقِّ من الباطل.

وتأمَّل كيف قال: ﴿فويلٌ للذين كفروا﴾؛ بعد قوله: ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾، ولم يقلْ: فويلٌ لهم؛ ليعود الضمير إلى الأحزاب؛ لأنَّ من الأحزاب المختلفين طائفةً [أصابت] ووافقت الحقَّ فقالت في عيسى: إنَّه عبدُ اللّه ورسولُه، فآمنوا به واتَّبعوه؛ فهٰؤلاء مؤمنون غير داخلين في هٰذا الوعيد؛ فلهٰذا خصَّ اللّه بالوعيد الكافرين.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٩ ـ ٤٠﴾ الإنذار: هو الإعلام بالمخوِّف على وجه الترهيب والإخبارُ بصفاته، وأحقُّ ما يُنْذَر به ويخوَّف به العباد يومُ الحسرةِ حين يُقْضى الأمر، فيُجْمع الأولون والآخرون في موقفٍ واحدٍ، ويُسألون عن أعمالهم؛ فمن آمن بالله واتَّبع رسله؛ سَعِدَ سعادةً لا يشقى بعدها، ومَنْ لم يؤمنْ بالله ويتَّبع رسله؛ شقي شقاوةً لا يسعدُ[1] بعدها، وخَسِرَ نفسَه وأهله؛ فحينئذٍ يتحسَّر ويندم ندامةً تنقطع[2] منها القلوبُ، وتتصدَّع منها الأفئدة، وأيُّ حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنَّتِهِ واستحقاق سخطِهِ والنار على وجهٍ لا يَتَمَكَّنُ من الرجوع لِيَسْتَأْنِفَ العمل، ولا سبيل له إلى تغيير حالِهِ بالعَوْد إلى الدُّنيا؟! فهٰذا قدَّامهم، والحالُ أنَّهم في الدُّنيا في غفلة عن هٰذا الأمر العظيم؛ لا يخطر بقلوبهم، ولو خطر؛ فعلى سبيل الغفلةِ، قد عمَّتهم الغفلة، وشملتهم السكرةُ؛ فهم لا يؤمنون بالله، ولا يتَّبِعون رسله، قد ألهتهم دُنياهم، وحالتْ بينهم وبين الإيمان شهواتُهم المنقضية الفانية؛ فالدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها ستذهبُ عن أهلها ويذهبون عنها، وسيرثُ الله الأرض ومَنْ عليها، ويرجعهم إليه، فيجازيهم بما عملوا فيها، وما خسروا فيها أو ربحوا؛ فمن عمل خيراً؛ فليحمدِ الله، ومن وَجَدَ غير ذٰلك؛ فلا يلومنَّ إلَّا نفسه.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

أجلُّ الكتب وأفضلُها وأعلاها هٰذا الكتاب المبين والذِّكر الحكيم؛ فإن ذُكِرَ فيه الأخبار؛ كانت أصدقَ الأخبار وأحقَّها وأنفعها، وإنْ ذُكِرَ فيه الأمر والنهي؛ كانت أجلَّ الأوامر والنواهي وأعدلها وأقسطها، وإنْ ذُكِرَ فيه الجزاء والوعد والوعيد؛ كان

---

(١) في (ب): «لا سعادة».
(٢) في (ب): «تتقطع».

أصدق الأنباء وأحقَّها وأدلَّها على الحكمة والعدل والفضل، وإنْ ذُكِرَ فيه الأنبياءُ والمرسلون؛ كان المذكور فيه أكملَ من غيره وأفضل، ولهٰذا كثيراً ما يُبدىء ويعيدُ في قَصص الأنبياء الذين فضَّلهم على غيرهم، ورَفَعَ قدرهم وأعلى أمرهم بسبب ما قاموا به من عبادة اللّه ومحبتِّه والإنابة إليه والقيام بحقوقه وحقوق العباد ودعوة الخَلْق إلى اللّه والصبر على ذٰلك والمقامات الفاخرة والمنازل العالية، فذكر اللّه في هٰذه السورة جملةً من الأنبياء؛ يأمر اللّه رسولَه أن يَذْكُرَهم؛ لأنَّ في ذكرهم إظهارَ الثناءِ على اللّه وعليهم، وبيانَ فضله وإحسانه إليهم، وفيه الحثُّ على الإيمان بهم ومحبتهم والاقتداء بهم فقال:

﴿٤١﴾ ﴿واذْكُرْ في الكتاب إبراهيم إنَّه كان صديقاً نبيًّا﴾: جمع اللّه له بين الصديقيّة والنبوَّة؛ فالصِّدِّيق كثيرُ الصدق؛ فهو الصادق في أقوالِهِ وأفعالِهِ وأحوالِهِ، المصدِّق بكل ما أُمِرَ بالتصديق به، وذٰلك يستلزمُ العلم العظيم، الواصل إلى القلب، المؤثِّر فيه، الموجب لليقين، والعمل الصالح الكامل، وإبراهيم عليه السلام هو أفضلُ الأنبياء كلِّهم بعد محمدٍ ﷺ، وهو الأب الثالثُ للطوائف الفاضلة، وهو الذي جعلَ اللّه في ذُرِّيَّتِهِ النبوَّة والكتاب، وهو الذي دعا الخلق إلى اللّه، وصبر على ما ناله من العذاب العظيم، فدعا القريب والبعيد، واجتهد في دعوة أبيه مهما أمكنه.

﴿٤٢﴾ وذكر اللّه مراجعته إيَّاه فقال: ﴿إذْ قال لأبيه﴾: مهجِّناً له عبادة الأوثان: ﴿يا أبتِ لم تعبدُ ما لا يسمعُ ولا يبصِرُ ولا يغني عنك شيئاً﴾؛ أي: لم تعبد أصناماً ناقصةً في ذاتها وفي أفعالها؛ فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تملِكُ لعابدها نفعاً ولا ضرًّا، بل لا تملِكُ لأنفسها شيئاً من النفع، ولا تقدِرُ على شيءٍ من الدفع؟! فهٰذا برهانٌ جليٌّ دالٌّ على أنَّ عبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستقبحٌ عقلاً وشرعاً. ودلَّ تنبيهه وإشارتُه أنَّ الذي يجبُ ويحسُنُ عبادةُ مَنْ له الكمالُ، الذي لا يَنال العبادُ نعمةً إلَّا منه، ولا يدفعُ عنهم نقمةً إلَّا هو، وهو اللّه تعالى.

﴿٤٣﴾ ﴿يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك﴾؛ أي: يا أبت لا تَحْقِرْني وتقول: إنِّي ابنُك، وإنَّ عندك ما ليس عندي، بل قد أعطاني اللّه من العلم ما لم يُعطِكَ، والمقصودُ من هٰذا قوله: ﴿فاتَّبِعْني أهْدِكَ صراطاً سويًّا﴾؛ أي: مستقيماً معتدلاً، وهو عبادة اللّه وحدَه لا شريك له، وطاعتُهُ في جميع الأحوال.

وفي هٰذا من لطف الخطاب ولينه ما لا يخفى، فإنَّه لم يقلْ: يا أبتِ أنا عالمٌ وأنت جاهلٌ، أو: ليس عندكَ من العلم شيءٌ، وإنَّما أتى بصيغة [تقتضي] أنَّ عندي

وعندك علماً، ، وأنَّ الذي وصل إليَّ لم يصِلْ إليكَ ولم يأتِكَ؛ فينبغي لك أن تَتَّبعَ الحجة وتنقاد لها.

﴿٤٤﴾ ﴿يا أبتِ لا تعبُدِ الشيطانَ﴾: لأنَّ مَنْ عَبَدَ غير الله؛ فقد عبد الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿ألم أعْهَدْ إليكُم يا بني آدمَ أن لا تعبُدوا الشيطانَ إنَّه لكم عدوٌّ مبينٌ﴾. ﴿إنَّ الشيطان كانَ للرحمٰن عَصِيًا﴾: فمن اتَّبع خطواتِهِ؛ فقد اتَّخذه وليًا، وكان عاصياً لله بمنزلة الشيطان. وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمٰن إشارةٌ إلى أنَّ المعاصي تمنع العبدَ من رحمةِ الله وتُغْلِقُ عليه أبوابها؛ كما أنَّ الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمتِهِ.

﴿٤٥﴾ ولهٰذا قال: ﴿يا أبتِ إنّي أخافُ أن يمسَّكَ عذابٌ من الرحمٰن﴾؛ أي: بسبب إصرارك على الكفر، وتماديك في الطغيان، ﴿فتكونَ للشَّيطانِ وليًا﴾؛ أي: في الدُّنيا والآخرة، فتنزل بمنازله الذَّميمة، وترتع في مراتعه الوخيمة، فتدرَّج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأنَّ ذٰلك موجبٌ لاتِّباعك إيَّاي، وأنَّك إن أطعتني؛ اهتديتَ إلى صراط مستقيم. ثم نهاه عن عبادةِ الشيطان، وأخبره بما فيها من المضارِّ. ثم حذَّره عقاب الله ونقمته إنْ أقام على حاله، وأنَّه يكون وليًا للشيطان.

﴿٤٦﴾ فلم ينجعْ هٰذا الدعاء بذٰلك الشقيِّ، وأجاب بجواب جاهل وقال: ﴿أراغبٌ أنت عن آلهتي يا إبراهيمُ﴾: فتبجَّح بآلهته التي هي من الحجرِ والأصنام، ولاَمَ إبراهيم عن رغبتِهِ عنها، وهٰذا من الجهل المفرِطِ والكفر الوخيم؛ يتمدَّح بعبادةِ الأوثانِ ويدعو إليها. ﴿لئن لم تَنْتَهِ﴾؛ أي: عن شتم آلهتي ودعوتي إلى عبادة الله، ﴿لأرجُمَنَّكَ﴾؛ أي: قتلاً بالحجارة، ﴿واهجُرني مليّاً﴾؛ أي: لا تكلِّمْني زماناً طويلاً.

﴿٤٧﴾ فأجابه الخليل جوابَ عباد الرحمٰن عند خطاب الجاهلين، ولم يشتِمْه، بل صبر، ولم يقابل أباه بما يكره، وقال: ﴿سلامٌ عليك﴾؛ أي: ستسلم من خطابي إياك بالشتم والسبِّ وبما تكره، ﴿سأستغفر لك ربِّي إنَّه كان بي حَفِيًا﴾؛ أي: لا أزال أدعو الله لك بالهداية والمغفرة بأن يهدِيَك للإسلام الذي به تحصُلُ المغفرة؛ فإنَّه كان بي حَفِيًا؛ أي: رحيماً رءوفاً بحالي معتنياً بي، فلم يزلْ يستغفرُ الله له رجاء أن يهدِيَه الله، فلما تبيَّن له أنَّه عدوٌّ لله، وأنَّه لا يفيدُ فيه شيئاً؛ ترك الاستغفار له وتبرَّأ منه.

وقد أمرنا اللّه باتِّباع ملَّة إبراهيم؛ فمن اتِّباع ملَّته سلوك طريقه في الدَّعوة إلى اللّه بطريق العلم والحكمة واللين والسهولة والانتقال من رتبةٍ إلى رتبةٍ[1]، والصبر على ذٰلك، وعدم السآمة منه، والصبر على ما ينال الداعي من أذى الخَلْق بالقول والفعل، ومقابلة ذٰلك بالصفح والعفو، بل بالإحسان القوليِّ والفعليِّ.

﴿٤٨﴾ فلما أيس من قومه وأبيه؛ قال: ﴿**وأعتزِلُكم وما تدعونَ من دون اللّه**﴾؛ أي: أنتم وأصنامكم، ﴿**وأدعو ربِّي**﴾: وهٰذا شاملٌ لدعاء العبادة ودعاء المسألة، ﴿**عسى أن لا أكونَ بدُعاء ربِّي شَقِيًّا**﴾؛ أي: عسى اللّه أن يسعِدَني بإجابة دعائي وقَبول أعمالي، وهٰذه وظيفةُ من أيس ممَّن دعاهم ـ فاتَّبعوا أهواءهم، فلم تنجَعْ فيهم المواعظُ، فأصرُّوا في طغيانهم يعمهون ـ أنْ يشتغلَ بإصلاح نفسه، ويرجو القبولَ من ربِّه، ويعتزل الشرَّ وأهله.

﴿٤٩﴾ ولما كان مفارقةُ الإنسان لوطنه ومألفه وأهله وقومه من أشقِّ شيءٍ على النفس لأمورٍ كثيرةٍ معروفةٍ، ومنها انفرادُه عمن يتعزَّز بهم ويتكثَّر، وكان مَنْ ترك شيئاً للّه؛ عوَّضه اللّه خيراً منه، واعتزل إبراهيمُ قومه؛ قال اللّه في حقِّه: ﴿**فلمَّا اعتزَلَهم وما يعبُدون من دون اللّه وَهَبْنا له إسحاقَ ويعقوبَ وكلاًّ**﴾: من إسحاقَ ويعقوبَ، ﴿**جَعَلْنا نبيًّا**﴾: فحصل له ولهٰؤلاء الصالحين[2] المرسلين إلى الناس، الذين خصَّهم اللّه بوحيه، واختارهم لرسالته، واصطفاهم من العالمين.

﴿٥٠﴾ ﴿**ووهبنا لهم**﴾؛ أي: لإبراهيم وابنيه إسحاق ويعقوب، ﴿**من رَحْمَتِنا**﴾: وهٰذا يشمَلُ جميع ما وَهَبَ اللّه لهم من الرحمة من العلوم النافعة والأعمال الصالحة والذُّرِّيَّة الكثيرة المنتشرة، الذين قد كَثُر فيهم الأنبياء والصالحون، ﴿**وجَعَلْنا لهم لسانَ صدقٍ عليًّا**﴾: وهٰذا أيضاً من الرحمة التي وَهَبَها لهم؛ لأنَّ اللّه وعد كلَّ محسن أن ينشُرَ له ثناءً صادقاً بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر اللّه الثناء الحسن الصادق غير الكاذب العالي غير الخفيِّ، فِذكْرُهم ملأ الخافقين، والثناء عليهم ومحبَّتُهم امتلأت بها القلوب وفاضت بها الألسنةُ، فصار قدوةً للمقتدين وأئمة للمهتدينَ، ولا تزال أذكارُهم في سائر العصور متجدِّدة، وذٰلك فضلُ اللّه يؤتيه مَنْ يشاءُ، واللّه ذو الفضل العظيم.

---

(١) في (ب): «من مرتبة إلى مرتبة».

(٢) في (ب): «فحصل له هبة هؤلاء الصالحين».

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿٥١﴾ أي: واذكر في هٰذا القرآن العظيم موسى بن عمران على وجه التَّبجيل له والتعظيم والتعريف بمقامه الكريم وأخلاقه الكاملة. ﴿إنَّه كان مُخلَصاً﴾: قُرىء بفتح اللام على معنى أنَّ اللّه تعالى اختاره، واستخلصه، واصطفاه على العالمين، وقرىء بكسرها على معنى أنَّه ﴿مخلِصاً﴾ للّه تعالى في جميع أعماله وأقواله ونيَّاتِهِ، فوصفُهُ الإخلاص في جميع أحواله، والمعنيان متلازمان؛ فإنَّ اللّه أخلصه لإخلاصه، وإخلاصُه موجبٌ لاستخلاصه، وأجلُّ حالةٍ يوصَف بها العبدُ الإخلاص منه والاستخلاص من ربِّه. ﴿وكان رسولاً نبيًّا﴾؛ أي: جمع اللّه له بين الرسالة والنبوَّة؛ فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسِل وتبليغَ جميع ما جاء به من الشرع دقِّه وجِلِّه، والنبوَّة تقتضي إيحاءَ اللّه إليه وتخصيصه بإنزال الوَحْي إليه؛ فالنبوَّة بينه وبين ربِّه، والرسالة بينَه وبين الخَلْق.

﴿٥٢﴾ بل خصَّه اللّه من أنواع الوحي بأجلِّ أنواعه وأفضلها، وهو تكليمُه تعالى وتقريبُه مناجياً للّه تعالى، وبهٰذا اختُصَّ من بين الأنبياء بأنَّه كليم الرحمٰن، ولهٰذا قال: ﴿وناديْناه من جانب الطُّورِ الأيمن﴾؛ أي: الأيمن من موسى في وقت مسيرِه، أو: الأيمن؛ أي: الأبرك من اليُمْن والبركة، ويدلُّ على هٰذا المعنى قوله تعالى: ﴿أن بورِكَ مَن في النار ومَنْ حولَها﴾. ﴿وقرَّبْناه نَجِيًّا﴾: والفرق بين النداء والنجاء: أنَّ النداء هو الصوتُ الرفيع، والنجاء ما دون ذٰلك.

وفي هٰذا إثبات الكلام للّه تعالى وأنواعه من النِّداء والنجاء؛ كما هو مذهبُ أهل السنة والجماعة؛ خلافاً لمن أنكر ذٰلك من الجهميَّة والمعتزلة، ومن نحا نحوهم.

﴿٥٣﴾ وقوله: ﴿ووهَبْنا له من رحمتنا أخاه هارونَ نبيًّا﴾: هٰذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه ونصحِهِ لأخيه هارون: أنَّه سأل ربَّه أن يُشرِكَه في أمرِهِ وأن يجعلَه رسولاً مثله، فاستجاب اللّه له ذٰلك، ووهب له من رحمتِهِ أخاه هارونَ نبيًّا؛ فنبوَّة هارونَ تابعةٌ لنبوَّة موسى عليهما السلام، فساعده على أمرِهِ وأعانه عليه.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥٤﴾ أي: واذكر في القرآن الكريم هٰذا النبيَّ العظيم، الذي خَرَجَ منه الشعبُ

العربيُّ، أفضل الشعوب وأجلُّها، الذين منهم سيِّد ولد آدم. ﴿إنَّه كان صادقَ الوعدِ﴾؛ أي: لا يَعِدُ وعداً إلَّا وَفَّى به، وهٰذا شاملٌ للوعد الذي يعقده مع اللّه أو مع العباد، ولهٰذا لما وعد من نفسِهِ الصبرَ على ذبح أبيه له؛ قال: ﴿سَتَجِدني إن شاءَ اللّه من الصابرين﴾: وفَّى بذٰلك، ومكَّن أباه من الذبح الذي هو أكبر مصيبةٍ تصيبُ الإنسان. ثم وَصَفَه بالرسالة والنبوَّة التي هي أكبر منن اللّه على عبده، وجعله[1] من الطَّبقة العليا من الخلق.

﴿٥٥﴾ ﴿وكان يأمُرُ أهلَه بالصلاة والزكاة﴾؛ أي: كان مقيماً لأمر اللّه على أهله، فيأمرُهُم بالصلاة المتضمِّنة للإخلاص للمعبود، وبالزَّكاة المتضمِّنة للإحسان إلى العبيد؛ فكمَّل نفسه، وكمَّل غيره، وخصوصاً أخصَّ الناس عنده، وهم أهله؛ لأنَّهم أحقُّ بدعوته من غيرهم. ﴿وكان عند ربِّه مَرْضِيًا﴾: وذٰلك بسبب امتثالِهِ لمراضي ربِّه واجتهادِهِ فيما يُرضيه؛ ارتضاه اللّه وجَعَلَه من خواصِّ عباده وأوليائهِ المقرَّبين؛ فرضي اللّه عنه، ورضي هو عن ربِّه.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿٥٦﴾ أي: اذكر في الكتاب[2] على وجه التَّعظيم والإجلال والوصف بصفات الكمال إدريس. ﴿إنَّه كان صدِّيقاً نبيًّا﴾: جَمَعَ اللّه له بين الصِّدِّيقيَّة الجامعة للتصديق التامِّ والعلم الكامل واليقين الثابت والعمل الصالح، وبين اصطفائِهِ لوحيه واختياره لرسالتِهِ.

﴿٥٧﴾ ﴿ورَفَعْناه مكاناً عليًا﴾؛ أي: رفع اللّه ذكره في العالمين ومنزلته بين المقرَّبين، فكان عالي الذكر عالي المنزلة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٨﴾ لما ذَكَرَ هٰؤلاء الأنبياء المُكْرَمين وخواصَّ المرسلين وذَكَرَ فضائِلَهم ومراتبهم؛ قال: ﴿أولئك الذين أنعم اللّه عليهم من النبيِّين﴾؛ أي: أنعم اللّه عليهم نعمةً لا تُلحق ومنَّةً لا تُسْبَق؛ من النبوَّة والرسالة، وهم الذين أمِرْنا أن ندعُو اللّه أن يهدِيَنا صراط الذين أنعم عليهم، وأنَّ مَن أطاع اللّه كان ﴿مع الذين أنعمَ اللّه عليهِمْ

(١) في (ب): «وأهلها».

(٢) في (ب): «الكتب».

من النبيِّين. . .﴾ الآية، وأنَّ بعضهم ﴿من ذُرِّيَّة آدم وممَّن حملنا مع نوح﴾؛ أي: من ذرِّيَّته. ﴿ومن ذُرِّيَّة إبراهيم وإسرائيل﴾: فهٰذه خير بيوت العالم، اصطفاهم اللّه واختارهم واجتباهم، وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمٰن عليهم، المتضمِّنة للإخبار بالغُيوب وصفات عَلَّام الغيوب والإخبار باليوم الآخر والوعد والوعيد؛ ﴿خَرُّوا سُجَّداً وبُكِيًّا﴾؛ أي: خضعوا لآيات اللّه، وخشعوا لها، وأثَّرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة ما أوجب لهم البُكاء والإنابة والسُّجود لربِّهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات اللّه؛ خَرُّوا عليها صُمًّا وعُمياناً.

وفي إضافة الآيات إلى اسمه الرحمٰن دلالةٌ على أنَّ آياته من رحمتِهِ بعبادِهِ وإحسانِهِ إليهم؛ حيث هداهم بها إلى الحقِّ، وبصَّرهم من العمى، وأنقذهم من الضَّلالة، وعلَّمهم من الجهالة.

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمًاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿٥٩﴾ لما ذَكَرَ تعالى هٰؤلاء الأنبياء. . . المخلصون[1]، المتَّبِعون لمراضي ربِّهم، المنيبونَ إليه؛ ذكر مَنْ أتى بعدَهم وبدَّلوا ما أمِروا به، وأنَّه خَلَفَ ﴿من بعدِهم خَلْفٌ﴾: رجعوا إلى الخَلْفِ والوراء، فـ ﴿أضاعوا الصَّلاة﴾: التي أمِروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاوَنوا بها وضيَّعوها، وإذا ضيَّعوا الصلاة التي هي عمادُ الدين وميزانُ الإيمان والإخلاص لربِّ العالمين، التي هي آكدُ الأعمال وأفضلُ الخصال؛ كانوا لما سواها من دينهم أضيعَ وله أرفضَ. والسبب الداعي لذٰلك أنَّهم اتَّبعوا شهواتِ أنفسهم وإراداتها، فصارت همَمُهم منصرفةً إليها مقدَّمة لها على حقوق اللّه، فنشأ من ذٰلك التضييع لحقوقه والإقبال على شهواتِ أنفسهم مهما لاحتْ لهم حصَّلوها، وعلى أيِّ وجهٍ اتَّفقت تناولوها. ﴿فسوف يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾؛ أي: عذاباً مضاعفاً شديداً.

﴿٦٠﴾ ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إلَّا مَن تابَ﴾: عن الشرك والبدع والمعاصي،

(١) في النسختين، وضعت كلمة: (قطع) بخط صغير فوق كلمة «المخلصون».

فأقلع عنها، وندم عليها، وعزم عزماً جازماً أن لا يعاودَها، ﴿وآمَنَ﴾: بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وعَمِلَ صَالِحاً﴾: وهو العمل الذي شرعه الله على ألسنةِ رسلِهِ إذا قصد به وجهه، ﴿فأولٰئك﴾: الذين جمعوا بين التوبة والإيمان والعمل الصالح، ﴿يدخُلون الجنَّة﴾: المشتملة على النعيم المقيم والعيش السليم وجوار الربِّ الكريم، ﴿ولا يُظْلَمون شيئاً﴾: من أعمالهم، بل يجِدونها كاملةً، موفَّرة أجورها، مضاعفاً عددها.

﴿٦١﴾ ثم ذكر أنَّ الجنَّة التي وعدهم بدخولها ليست كسائر الجنات، وإنما هي ﴿جَنَّاتِ عدنٍ﴾؛ أي: جنات إقامةٍ لا ظعن فيها ولا حِوَل ولا زوال، وذٰلك لسعتها وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور والبهجة والحبور. ﴿التي وَعَدَ الرحمٰن عباده بالغيب﴾؛ أي: التي وَعَدَها الرحمٰن، أضافها إلى اسمه الرحمٰن؛ لأنَّها فيها من الرحمة والإحسان ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خَطَرَ على قلب بشر، وسماها تعالى رَحْمَتَهُ، فقال: ﴿وأمَّا الذين ابيضَّت وجوهُهم ففي رحمةِ اللّه هم فيها خالدونَ﴾. وأيضاً؛ ففي إضافتها إلى رحمته ما يدلُّ على استمرار سرورها، وأنَّها باقيةٌ ببقاء رحمتِهِ التي هي أثرُها وموجَبُها.

والعبادُ في هٰذه الآية المرادُ عبادُ إلٰهيَّته، الذين عَبَدوه والتزموا شرائِعَه، فصارت العبوديَّة وصفاً لهم؛ كقوله: ﴿وعبادُ الرحمٰن﴾، ونحوه؛ بخلاف عباده المماليك فقط، الذين لم يعبُدوه؛ فهٰؤلاء وإنْ كانوا عبيداً لربوبيَّته لأنَّه خلقهم ورزقهم ودبَّرهم؛ فليسوا داخلين في عبيد إلٰهيَّته، العبوديَّة الاختيارية التي يُمْدَحُ صاحبها، وإنَّما عبوديَّتهم عبوديَّة اضطرارٍ لا مدح لهم فيها.

وقوله: ﴿بالغيب﴾: **يُحتمل** أن تكون متعلِّقة بوعد الرحمٰن، فيكون المعنى على هٰذا: أنَّ اللّه وَعَدَهم إيَّاها وعداً غائباً لم يشاهِدوه، ولم يَرَوْه فآمنوا بها، وصدَّقوا غيبها، وسَعَوا لها سَعْيها مع أنَّهم لم يَرَوْها؛ فكيف لو رأوها؛ لكانوا أشدَّ لها طَلَباً وأعظم فيها رغبةً وأكثر لها سعياً، ويكون في هٰذا مدحٌ لهم بإيمانهم بالغيبِ، الذي هو الإيمان النافع.

ويُحتمل أن تكونَ متعلِّقة بعبادِهِ؛ أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إيَّاه؛ فهٰذه عبادتُهم ولم يروه؛ فلو رأوه؛ لكانوا أشدَّ له عبادةً وأعظم إنابةً وأكثر حبًّا وأجلَّ شوقاً.

ويحتمل أيضاً أنَّ المعنى: هٰذه الجناتُ التي وَعَدَها الرحمٰن عبادَه من الأمورِ

التي لا تدرِكُها الأوصاف ولا يعلمُها أحدٌ إلَّا اللّه؛ ففيه من التشويق لها والوصف المجمل ما يهيجُ النفوسَ، ويزعِجُ الساكن إلى طلبها، فيكون هٰذا مثل قوله: ﴿فلا تعلم نفسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قُرَّةِ أعيُنٍ جزاءً بما كانوا يعملون﴾.

والمعاني كلُّها صحيحةٌ ثابتةٌ، ولكن الاحتمال الأوَّل أولى؛ بدليل قوله: ﴿إنَّه كان وعـدُهُ مأتِيًا﴾: لا بدَّ من وقوعه؛ فإنَّه لا يُخْلِفُ الميعاد، وهو أصدق القائلين.

﴿٦٢﴾ ﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾؛ أي: كلاماً لاغياً لا فائدة فيه ولا ما يؤثِم؛ فلا يسمَعون فيها شتماً ولا عيباً ولا قولاً فيه معصية للّه أو قولاً مكدراً، ﴿إلَّا سلاماً﴾؛ أي: [إلا] الأقوال السالمة من كلِّ عيب؛ من ذكرٍ للّه، وتحيَّة، وكلام سرورٍ وبشارةٍ، ومطارحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان، وسماع خطاب الرحمٰن، والأصوات الشجيَّة من الحور والملائكة والولدان، والنغمات المطرِبة، والألفاظ الرخيمة؛ لأن الدار دار السلام؛ فليس فيها إلَّا السلام التامُّ من جميع الوجوه. ﴿ولهم رزقُهم فيها بُكرةً وعشيًا﴾؛ أي: أرزاقهم من المآكل والمشارب وأنواع اللذَّات مستمرَّةٌ حيثما طلبوا وفي أيِّ وقت رغبوا، ومن تمامِها ولَذَّتها وحُسْنها أن تكونَ في أوقات معلومةٍ بُكرةً وعشيًا؛ ليعظُم وقعها، ويتمَّ نفعها.

﴿٦٣﴾ ف ﴿تلك الجنةُ﴾: التي وصفناها بما ذكر ﴿التي نورِثُ من عبادنا مَن كان تَقِيًا﴾؛ أي: نورثها المتَّقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظعَنون عنه ولا يَبْغون عنه حِوَلاً؛ كما قال تعالى: ﴿وسارِعوا إلى مغفرةٍ من ربِّكم وجنَّةٍ عرضُها السمٰواتُ والأرضُ أعدَّت للمتَّقين﴾.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾.

﴿٦٤﴾ استبطأ النبيُّ ﷺ جبريل عليه السلام مرَّة في نزوله إليه، فقال له: لو تأتينا أكثرَ ممَّا تأتينا؛ شوقاً[1] إليه وتوحُّشاً لفراقه وليطمئنَّ قلبُه بنزوله؛ فأنزلَ اللّه تعالى على لسان جبريل: ﴿وما نَتَنَزَّلُ إلَّا بأمرِ ربِّكَ﴾؛ أي: ليس لنا من الأمر شيءٌ، إن أمَرَنا؛ ابتدرْنا أمره ولم نعصِ له أمراً؛ كما قال عنهم: ﴿لا يعصونَ اللّه ما أمَرَهم ويفعلونَ ما يُؤْمَرون﴾؛ فنحن عبيدٌ مأمورون. ﴿له ما بين أيدينا وما خلفَنا

---

(١) في (ب): «تشوقاً».

وما بينَ ذلك﴾؛ أي: له الأمور الماضية والمستقبلة والحاضرة في الزمان والمكان؛ فإذا تبيَّن أنَّ الأمر كلَّه للَّه، وأننا عبيدٌ مدبَّرون، فيبقى الأمر دائراً بين هل تقتضيه الحكمةُ الإلهيَّةُ فَيُنْفِذهُ أم لا تقتضيه فيؤخِّره؟ ولهٰذا قال: ﴿وما كان ربُّك نسيًّا﴾؛ أي: لم يكن اللّه لينساك ويهمِلَك؛ كما قال تعالى: ﴿ما ودَّعَكَ ربُّك وما قَلى﴾: بل لم يَزَلْ معتنياً بأمورِكَ مجرياً لك على أحسن عوائِدِه الجميلة وتدابيره الجميلة؛ أي: فإذا تأخَّر نزولنا عن الوقت المعتاد؛ فلا يَحْزُنْكَ ذٰلك ولا يَهُمُّك، واعلم أن اللّه هو الذي أراد ذٰلك؛ لما له من الحكمة فيه.

﴿٦٥﴾ ثم علَّل إحاطة علمه وعدم نسيانه بأنه ﴿رب السمٰواتِ والأرض﴾: فربوبيَّتُهُ للسماواتِ والأرضِ، وكونهما على أحسن نظام وأكمله، ليس فيه غفلةٌ ولا إهمالٌ ولا سدىً ولا باطلٌ: برهانٌ قاطعٌ على علمه الشامل؛ فلا تَشْغَلْ نفسَك بذٰلك، بل اشغَلْها بما ينفعُك ويعود عليك طائلُه، وهو عبادته وحدَه لا شريك له، ﴿واصطَبِرْ لعبادتِهِ﴾؛ أي: اصبر نفسَك عليها، وجاهِدْها، وقُم عليها أتمَّ القيام وأكمله بحسب قدرتك، وفي الاشتغال بعبادة اللّه تسليةٌ للعابد عن جميع التعلُّقات والمشتهيات؛ كما قال تعالى: ﴿ولا تَمُدَّنَّ عينيكَ إلى ما متَّعْنا به أزواجاً منهم زهرةَ الحياة الدُّنيا لنفتِنَهم فيه...﴾ إلى أن قال: ﴿وأمُرْ أهلكَ بالصَّلاةِ واصطبِرْ عليها...﴾ الآية.

﴿هل تعلم له سَمِيًّا﴾؛ أي: هل تعلم للّه مسامياً ومشابهاً ومماثلاً من المخلوقين؟ وهٰذا استفهامٌ بمعنى النفي المعلوم بالعقل؛ أي: لا تعلم له مسامياً ولا مشابهاً؛ لأنَّه الربُّ وغيره مربوبٌ، الخالق وغيره مخلوقٌ، الغنيُّ من جميع الوجوه، وغيره فقيرٌ بالذات من كلِّ وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقصٌ ليس فيه من الكمال إلَّا ما أعطاه اللّه تعالى؛ فهٰذا برهانٌ قاطعٌ على أنَّ اللّهَ هو المستحقُّ لإفرادِهِ بالعبوديَّة، وأنَّ عبادته حقٌّ، وعبادةُ ما سواه باطلٌ؛ فلهٰذا أمر بعبادتِه وحدَه والاصطبارِ لها، وعلَّل [ذلك] بكماله وانفرادِهِ بالعظمة والأسماء الحسنى.

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾.

﴿٦٦﴾ المراد بالإنسان هاهنا كلُّ منكرٍ للبعث مستبعدٍ لوقوعه؛ فيقولُ مستفهماً على وجه النفي والعناد والكفر: ﴿أإذا ما مِتُّ لسوفَ أُخرَجُ حيًّا﴾؛ أي: كيف

يعيدني اللّٰه حيًّا بعد الموت وبعد ما كنتُ رميماً؟! هٰذا لا يكون ولا يُتَصَوَّر! وهٰذا بحسب عقله الفاسد ومقصده السيئ وعنادِهِ لرسل اللّٰه وكتبِهِ؛ فلو نَظَرَ أدنى نَظَرٍ وتأمَّل أدنى تأمُّلٍ؛ لرأى استبعاده للبعث في غاية السخافة.

﴿٦٧﴾ ولهٰذا ذكر تعالى برهاناً قاطعاً ودليلاً واضحاً يعرفه كلُّ أحدٍ على إمكان البعث، فقال: ﴿أوَلا يذكُرُ الإنسانُ أنَّا خَلَقْناهُ من قبلُ ولم يكُ شيئاً﴾؛ أي: أولا يلتفتُ نظره ويستذكِرُ حالته الأولى، وأنَّ اللّٰه خلقه أولَ مرَّةٍ ولم يكُ شيئاً؟! فمن قَدَرَ على خلقه من العدم، ولم يكُ شيئاً مذكوراً؛ أليس بقادرٍ على إنشائِهِ بعدما تمزَّقَ، وجَمْعِهِ بعدما تفرَّق؟! وهٰذا كقوله: ﴿وهو الذي يُبدِئُ الخلقَ ثم يعيدُهُ وهو أهونُ عليه﴾.

وفي قوله: ﴿أولا يذكُرُ الإنسان﴾: دعوةٌ للنظر بالدليل العقليِّ بألطف خطاب، وأنَّ إنكار من أنكرَ ذٰلك مبنيٌّ على غفلةٍ منه عن حالِهِ الأولى، وإلَّا؛ فلو تَذَكَّرها وأحضَرَها في ذهنِهِ؛ لم ينكرْ ذٰلك.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٦٨﴾ أقسم اللّٰه تعالى وهو أصدق القائلين بربوبيَّتِهِ لَيَحْشُرَ[نَّ] هٰؤلاء المنكرين للبعث هم وشياطينهم، فيجمعهم لميقاتِ يوم معلوم، ﴿ثم لَنُحْضِرَنَّهم حول جهنم جِثِيًّا﴾؛ أي: جاثين على ركبهم من شدَّة الأهوال وكثرة الزلزال وفظاعة الأحوال، منتظرين لحكم الكبير المتعال.

﴿٦٩﴾ ولهٰذا ذكر حكمه فيهم، فقال: ﴿ثم لَنَنزِعَنَّ مِن كلِّ شيعةٍ أيُّهم أشدُّ على الرحمٰن عِتِيًّا﴾؛ أي: ثم لننزعنَّ من كلِّ طائفةٍ وفرقةٍ من الظالمين المشتركين في الظُّلم والكفر والعتوِّ أشدَّهم عتوًّا وأعظمهم ظلماً وأكبرهم كفراً، فيقدِّمهم إلى العذاب، ثم هٰكذا يقدِّم إلى العذاب الأغلظ إثماً فالأغلظ، وهم في تلك الحال متلاعِنون؛ يلعنُ بعضُهم بعضاً، ويقولُ أخراهم لأولاهم: ﴿ربَّنا هٰؤلاء أضلُّونا فآتِهِم عذاباً ضِعْفاً من النار [قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون] وقالتْ أولاهم لأُخراهم فما كان لَكُمْ علينا من فضلٍ...﴾.

﴿٧٠﴾ وكل هٰذا تابعٌ لعدله وحكمته وعلمه الواسع، ولهٰذا قال: ﴿ثم لنحنُ أعلم بالذين هم أولى بها صِلِيًّا﴾؛ أي: علمنا محيطٌ بمن هو أولى صِلِيًّا بالنار، وقد

علمناهم، وعلمنا أعمالهم واستحقاقها وقسطها من العذاب.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

﴿٧١﴾ وهٰذا خطابٌ لسائر الخلائق؛ بَرّهم وفاجِرِهم، مؤمنهم وكافرهم؛ أنَّه ما منهم من أحدٍ إلَّا سيرِدُ النار، حكماً حتَّمه الله على نفسِهِ، وأوعد به عباده؛ فلا بدَّ من نفوذِهِ، ولا محيدَ عن وقوعه. واختُلِفَ في معنى الورود: فقيل: ورودُها حضورُها للخلائق كلِّهم حتى يحصُل الانزعاج من كلِّ أحدٍ، ثم بعدُ يُنَجِّي الله المتَّقين.

وقيل: ورودُها دخولُها، فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً. وقيل: الورودُ هو المرور على الصراط الذي هو على متنِ جهنَّم، فيمرُّ الناس على قدرِ أعمالهم؛ فمنهم من يمرُّ كلمح البصر، وكالريح، وكأجاويد الخيل، وكأجاويد الركاب، ومنهم من يسعى، ومنهم يمشي مشياً، ومنهم من يزحفُ زحفاً، ومنهم من يُخْطَف فيلقى في النار؛ كلٌّ بحسب تقواه.

﴿٧٢﴾ ولهٰذا قال: ﴿ثم ننجِّي الذين اتَّقَوا﴾: الله تعالى بفعل المأمور واجتناب المحظور. ﴿ونَذَرُ الظالمين﴾: أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فيها جِثِيًّا﴾: وهٰذا بسبب ظلمهم وكفرهم، وجب لهم[1] الخلودُ وحقَّ عليهم العذاب، وتقطَّعت بهم الأسباب.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾.

﴿٧٣﴾ أي: وإذا تُتلى على هٰؤلاء الكفار آياتُنا بيناتٍ؛ أي: واضحات الدِّلالة على وحدانية الله وصدق رسله، توجِبُ لمن سَمِعَها صدقَ الإيمان وشدَّة الإيقان؛ قابلوها بضدِّ ما يجب لها، واستهزؤوا بها وبمن آمن بها، واستدلُّوا بحسن حالهم في الدُّنيا على أنَّهم خيرٌ من المؤمنين، فقالوا معارضين للحقِّ: ﴿أيُّ الفريقين﴾؛ أي: نحن والمؤمنون ﴿خيرٌ مقاماً﴾؛ أي: في الدُّنيا من كثرة الأموال والأولاد وتفوُّق[2] الشهوات. ﴿وأحسن نَدِيًّا﴾؛ أي: مجلساً؛ أي: فاستَنْتَجوا من هٰذه المقدِّمة الفاسدة بسبب أنَّهم أكثر مالاً وأولاداً، وقد حصلت [لهم] أكثرُ مطالبهم من

(١) في (ب): «له».
(٢) في (ب): «وتوفر».

الدُّنيا، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفةٌ مزوَّقةٌ، والمؤمنون بخلاف هٰذه الحال؛ فهم خيرٌ من المؤمنين!!

﴿٧٤﴾ وهٰذا دليلٌ في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق، وإلَّا؛ فكثرة الأموال والأولاد وحسنُ المنظر كثيراً ما يكون سبباً لهلاك صاحبِهِ وشقائِهِ وشرِّه، ولهٰذا قال تعالى: ﴿وكم أهلَكْنا قبلَهم من قرنٍ هم أحسنُ أثاثاً﴾؛ أي: متاعاً من أوانٍ وفرش وبيوت وزخارف، ﴿ورِئياً﴾[١]؛ أي: أحسن مرأى ومنظراً من غضارة العيش وسرور اللَّذَّات وحسن الصور؛ فإذا كان هٰؤلاء المهلَكون أحسنَ منهم أثاثاً ورئياً، ولم يمنعْهم ذٰلك من حلول العقاب بهم؛ فكيف يكونُ هٰؤلاء وهم أقلُّ منهم وأذلُّ معتصمين من العذاب، ﴿أكفَّارُكم خيرٌ من أولٰئِكم أم لكم براءةٌ في الزُّبُرِ﴾؟! وعُلِمَ مِن هٰذا أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدُّنيا من أفسدِ الأدلَّة وأنَّه من طرق الكفار.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿٧٥﴾ لما ذكر دليلهم الباطل الدالَّ على شدَّة عنادهم وقوَّة ضلالهم؛ أخبر هنا أنَّ مَن كان في الضلالة؛ بأن رَضِيَها لنفسه، وسعى فيها؛ فإنَّ اللّه يمدُّه منها ويزيدُه فيها حبًّا؛ عقوبةً له على اختيارها على الهدى؛ قال تعالى: ﴿فلمَّا زاغوا أزاغَ اللّه قلوبَهم﴾، ﴿ونقلِّبُ أفئِدَتَهم وأبصارَهم كما لم يُؤْمِنوا به أوَّلَ مرَّةٍ ونذَرُهم في طغيانِهِم يعمهونَ﴾. ﴿حتَّى إذا رأوا﴾؛ أي: القائلون: ﴿أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ نَدِيًّا﴾، ﴿ما يوعدون إمَّا العذابَ﴾: بقتل أو غيره، ﴿وإمَّا الساعة﴾: التي هي بابُ الجزاء على الأعمال. ﴿فسيعلمونَ من هو شرٌّ مكاناً وأضعفُ جُنداً﴾؛ أي: فحينئذٍ يتبيَّن لهم بطلانُ دعواهم، وأنَّها دعوى مضمحلَّة، ويتيقَّنون أنَّهم أهلُ الشرِّ وأضعفُ جنداً، ولٰكنْ لا يُفيدُهم هٰذا العلم شيئاً؛ لأنَّه لا يمكنهم الرجوع إلى الدُّنيا فيعملون غير عملهم الأول.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿٧٦﴾ لما ذكر أنه يُمِدُّ للظالمين[٢] في ضلالهم؛ ذَكَرَ أنَّه يزيد المهتدين هداية من فضلِهِ عليهم ورحمتِهِ، والهدى يشمَلُ العلم النافع والعمل الصالح؛ فكلُّ مَنْ

---

(١) في (ب): «وأحسن رئيا». وقد شطب الشيخ أحسن في (أ).

(٢) في (ب): «للضالين».

سَلَكَ طريقاً في العلم والإيمان والعمل الصالح؛ زاده الله منه، وسهَّله عليه، ويسَّره له، ووهب له أموراً أخر لا تدخُلُ تحت كسبِهِ، وفي هذا دليلٌ على زيادة الإيمان ونقصه؛ كما قاله السلف الصالح.

ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿ليزدادَ الذين آمنوا إيماناً﴾، ﴿وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُهُ زادتْهم إيماناً﴾. ويدلُّ عليه أيضاً الواقع؛ فإنَّ الإيمان قولُ القلب واللسان وعملُ القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور أعظم تفاوتٍ.

ثم قال: ﴿والباقياتُ الصالحاتُ﴾؛ أي: الأعمال الباقية التي لا تنقطع إذا انقطع غيرها، ولا تضمحلُّ هي الصالحاتُ منها؛ من صلاة وزكاة وصوم وحجٍّ وعمرة وقراءة وتسبيح وتكبير وتحميد وتهليل وإحسانٍ إلى المخلوقين وأعمال قلبيَّة وبدنيَّة؛ فهذه الأعمال ﴿خيرٌ عند ربِّك ثواباً وخيرٌ مَرَدًّا﴾؛ أي: خيرٌ عند الله ثوابها وأجرها، وكثيرٌ للعاملين نفعها وردُّها، وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل في غير بابه؛ فإنَّه ما ثَمَّ غيرُ الباقيات الصالحات عملٌ ينفع ولا يبقى لصاحبِهِ ثوابُهُ ولا ينجَعُ، ومناسبتُهُ ذكر الباقيات الصالحات. والله أعلم: أنَّه لما ذَكَرَ أنَّ الظالمين جعلوا أحوال الدُّنيا من المال والولد وحسن المقام ونحو ذلك علامةً لحسن حال صاحبها؛ أخبر هنا أنَّ الأمر ليس كما زعموا، بل العمل الذي هو عنوانُ السعادةِ ومنشورُ الفلاح، هو العملُ بما يحبُّه الله ويرضاه.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾.

﴿٧٧﴾ أي: أفلا تعجبُ من حالة هذا الكافر الذي جمع بين كفره بآيات الله ودعواه الكبيرة أنه سيؤتى في الآخرة مالاً وولداً؛ أي: يكون من أهل الجنة، هذا من أعجب الأمور؛ فلو كان مؤمناً بالله وادَّعى هذه الدَّعوى؛ لسهل الأمر.

وهذه الآية وإنْ كانت نازلةً في كافرٍ معيَّنٍ[1]؛ فإنَّها تشمل كلَّ كافرٍ زعم أنَّه على الحقِّ، وأنَّه من أهل الجنة.

﴿٧٨﴾ قال الله توبيخاً له وتكذيباً: ﴿أطَّلَعَ الغيبَ﴾؛ أي: أحاط علمُه بالغيب

---

(١) وهو العاص بن وائل؛ كما في «صحيح البخاري» (٤٧٣٥) عن خباب رضي الله عنه.

حتى عَلِمَ ما يكون، وأنَّ من جملة ما يكونُ أنَّه يُؤتى يوم القيامة مالاً وولداً. ﴿أم اتَّخَذَ عند الرحمٰن عهداً﴾: أنَّه نائلٌ ما قاله؛ أي: لم يكنْ شيءٌ من ذٰلك، فعُلِمَ أنَّه متقوِّلٌ قائل ما لا علم له به. وهٰذا التقسيم والترديدُ في غاية ما يكون من الإلْزام وإقامة الحجَّة؛ فإنَّ الذي يزعم أنه حاصلٌ له خيرٌ عند اللّه في الآخرة لا يخلو: إما أنْ يكونَ قولُهُ صادراً عن علم بالغيوب المستقبلة، وقد عُلِمَ أنَّ هٰذا للّه وحده؛ فلا أحد يعلم شيئاً من المستقبلات الغيبيَّة إلَّا ما أطلعه اللّه عليه[١] من رسله.

وإمَّا أن يكون متَّخِذاً عهداً عند اللّه بالإيمان به واتِّباع رسله الذين عَهِدَ اللّه لأهلِهِ، وأوزَعَ أنَّهم أهل الآخرة، والناجون[٢] الفائزون؛ فإذا انتفى هٰذان الأمران؛ عُلِمَ بذٰلك بطلان الدعوى.

﴿٧٩﴾ ولهٰذا قال تعالى: ﴿كلَّا﴾؛ أي: ليس الأمر كما زعم؛ فليس للقائل اطِّلاعٌ على الغيب، لأنَّه كافرٌ ليس عنده من علم الرسائل[٣] شيءٌ، ولا اتَّخذ عند الرحمٰن عهداً؛ لكفرِهِ وعدم إيمانه ولٰكنَّه يستحقُّ ضدَّ ما تقوَّلَه، وإنَّ قوله مكتوبٌ محفوظٌ ليُجازى عليه ويعاقب، ولهٰذا قال: ﴿سنكتُبُ ما يقولُ ونَمُدُّ له من العذاب مَدًّا﴾؛ أي: نزيده من أنواع العقوبات كما ازداد من الغي والضَّلال.

﴿٨٠﴾ ﴿ونَرِثُهُ ما يقولُ﴾؛ أي: نرثه ماله وولده، فينتقلُ من الدُّنيا فرداً بلا مال ولا أهل ولا أنصارٍ ولا أعوان، ﴿ويأتينا فرداً﴾: فيرى من وخيم العقابِ ما هو جزاءُ أمثالِهِ من الظالمين.

﴿[وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾][٤] أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾.

﴿٨٣﴾ وهٰذا من عقوبة الكافرين: أنَّهم لمَّا لم يعتصِموا باللّه ولم يتمسَّكوا بحبل اللّه، بل أشركوا به ووالوا أعداءه من الشياطين؛ سلَّطهم عليهم وقيَّضهم، فجعلت الشياطينُ تؤزُّهم إلى المعاصي أزًّا، وتزعِجُهم إلى الكفر إزعاجاً، فيوسوسون لهم،

(١) في (ب): «إليه». (٢) في (ب): «الناجون».
(٣) في (ب): «الرسل».
(٤) لم تذكر الآيتان (٨١ ـ ٨٢) في النسختين، ولم تفسرا.

ويوحون إليهم، ويزيِّنون لهم الباطل، ويقبِّحون لهم الحقَّ، فيدخل حبُّ الباطل في قلوبهم ويتشرَّبها، فيسعى فيه سعي المحقِّ في حقِّه، فينصره بجهده، ويحارب عنه، ويجاهد أهل الحق في سبيل الباطل، وهٰذا كلُّه جزاءً له على تولِّيه من وليِّه وتولِّيه لعدوِّه؛ جَعَلَ له عليه سلطاناً، وإلَّا؛ فلو آمن بالله وتوكَّل عليه؛ لم يكنْ له عليه سلطانٌ؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّه ليس له سلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلون. إنَّما سلطانُهُ على الذين يَتَوَلَّوْنَه والذين هم به مشركونَ﴾.

﴿٨٤﴾ ﴿فلا تَعْجَلْ عليهم﴾؛ أي: على هٰؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب، ﴿إنَّما نَعُدُّ لهم عدًّا﴾؛ أي: إنَّ لهم أياماً معدودةً؛ لا يتقدَّمون عنها ولا يتأخَّرون، نُمْهِلُهم ونحلم عنهم مدَّة ليراجِعوا أمر الله؛ فإذا لم ينجَعْ فيهم ذٰلك؛ أخذْناهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

﴿٨٥﴾ يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين: المتَّقين والمجرمين، وأنَّ المتَّقين له باتِّقاء الشرك والبدع والمعاصي، يحشُرُهم إلى موقف القيامة مكرمين مبجَّلين معظَّمين، وأنَّ مآلهم الرحمٰن، وقصدَهم المنان وفداً[1] إليه، والوافد لا بدَّ أن يكونَ في قلبِهِ من الرجاء وحسن الظنِّ بالوافدِ إليه ما هو معلومٌ، فالمتَّقون يفدون إلى الرحمٰن راجين منه رحمته وعميم إحسانِهِ والفوز بعطاياه في دار رضوانه، وذٰلك بسبب ما قدَّموه من العمل بتقواه واتِّباع مراضيه، وأنَّ الله عَهِدَ إليهم بذٰلك الثواب على ألسنة رسله، فتوجَّهوا إلى ربِّهم مطمئنِّين به، واثقين بفضله.

﴿٨٦﴾ وأما المجرمون؛ فإنَّهم يُساقون ﴿إلى جهنَّم وِرداً﴾؛ أي: عطاشاً، وهٰذا أبشعُ ما يكون من الحالات سوقهم على وجهِ الذُّلِّ والصغار إلى أعظم سجن وأفظع عقوبةٍ، وهو جهنَّم، في حال ظمئهم ونصبهم؛ يستغيثون فلا يُغاثون، ويَدْعونَ فلا يُستجاب لهم، ويستشفعونَ فلا يُشفع لهم.

﴿٨٧﴾ ولهٰذا قال: ﴿لا يملكون الشفاعةَ﴾؛ أي: ليست الشفاعة ملكهم ولا لهم منها شيء، وإنَّما هي لله تعالى، ﴿قل لله الشفاعةُ جميعاً﴾، وقد أخبر أنَّه لا تنفعُهم شفاعةُ الشافعين؛ لأنَّهم لم يتَّخذوا عنده عهداً بالإيمان به وبرسله، وإلَّا؛ فمن اتَّخذ

(١) في (ب): «وفوداً».

عنده عهداً، فآمن به وبرسله، واتَّبعهم؛ فإنَّه ممَّن ارتضاه اللّه وتحصُلُ له الشفاعة؛ كما قال تعالى: ﴿ولا يشفعونَ إلَّا لِمن ارتَضى﴾. وسمى اللّه الإيمانَ به واتِّباع رسله عهداً؛ لأنَّه عهد في كتبه وعلى ألسنة رسله بالجزاء الجميل لمن اتَّبعهم.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾.

﴿٨٨﴾ وهٰذا تقبيحٌ وتشنيعٌ لقول المعاندين الجاحدين، الذين زعموا أن الرحمٰن اتَّخذَ ولداً؛ كقول النصارى: المسيح ابن اللّه، واليهود: عزيز ابن اللّه، والمشركين: الملائكة بنات اللّه؛ تعالى اللّه عن قولِهم علوًّا كبيراً.

﴿٨٩ ـ ٩١﴾ ﴿لقد جئتُم شيئاً إدًّا﴾؛ أي: عظيماً وخيماً من عظيم أمره أنَّه: ﴿تكاد السمٰواتُ﴾: على عظمتها وصلابتها؛ ﴿يَتَفَطَّرْنَ منه﴾؛ أي: من هٰذا القول، ﴿وتنشقُّ الأرض﴾: منه؛ أي: تتصدَّع وتنفطر، ﴿وتخرُّ الجبال هَدًّا﴾؛ أي: تندكُّ الجبال ﴿أنْ دَعَوا للرحمٰن ولداً﴾؛ أي: من أجل هٰذه الدعوى القبيحة تكاد هٰذه المخلوقات أن يكون منها ما ذُكِرَ.

﴿٩٢﴾ والحال أنه ﴿ما يَنبغي﴾؛ أي: لا يليق ولا يكون ﴿للرحمٰن أنْ يتَّخِذَ ولداً﴾: وذٰلك لأنَّ اتِّخاذه الولد يدلُّ على نقصه واحتياجه، وهو الغنيُّ الحميدُ، والولد أيضاً من جنس والدِهِ، واللّه تعالى لا شبيه له ولا مثل ولا سميٌّ.

﴿٩٣﴾ ﴿إنْ كلُّ مَن في السمٰواتِ والأرضِ إلَّا آتي الرحمٰن عبداً﴾؛ أي: ذليلاً منقاداً غير متعاصٍ ولا ممتنع، الملائكة والإنس والجنُّ وغيرهم، الجميع مماليك متصرَّف فيهم، ليس لهم من الملك شيءٌ، ولا من التدبير شيءٌ؛ فكيف يكون له ولدٌ وهٰذا شأنه وعظمة ملكه؟!

﴿٩٤﴾ ﴿لقد أحصاهم وعدَّهم عدًّا﴾؛ أي: لقد أحاط علمُهُ بالخلائق كلِّهم، أهل السماواتِ والأرض، وأحصاهم، وأحصى أعمالهم؛ فلا يضلُّ ولا ينسى ولا تخفى عليه خافيةٌ.

﴿٩٥﴾ ﴿وكلُّهم آتيه يوم القيامةِ فَرداً﴾؛ أي: لا أولاد ولا مال ولا أنصار، ليس معه إلَّا عمله، فيجازيه اللّه ويوفِّيه حسابه، إن خيراً؛ فخير، وإن شرًّا فشرٌّ؛ كما

قال تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فُرادى كما خَلَقْناكم أوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿٩٦﴾ هٰذا من نعمه على عباده الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح: أنْ وَعَدَهُم أنْ يَجْعَلَ لهم وِدًّا؛ أي: محبة ووداداً في قلوب أوليائِهِ وأهل السماء والأرض، وإذا كان لهم في القلوب وِدٌّ؛ تيسَّر لهم كثيرٌ من أمورهم، وحصل لهم من الخيرات والدَّعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حَصَلَ، ولهٰذا ورد في الحديث الصحيح:[1] «إنَّ اللّه إذا أحبَّ عبداً؛ نادى جبريلَ: إنِّي أحبُّ فلاناً؛ فأحبَّه. فيحبُّه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إنَّ اللّه يحبُّ فلاناً؛ فأحبُّوه، فيحبُّه أهل السماء، ثم يوضَع له القَبول في الأرض» وإنَّما جَعَلَ اللّه لهم وُدًّا لأنه وِدُّوه، وأحبُّوه، فودَّدهم إلى أوليائِهِ وأحبابِهِ.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾.

﴿٩٧﴾ يخبر تعالى عن نعمتِهِ، وأنَّه يسَّر هٰذا القرآن الكريم بلسان الرسول محمدٍ ﷺ؛ يسَّر ألفاظه ومعانيه؛ ليحصل المقصودُ منه والانتفاع به؛ ﴿لِتُبَشِّرَ به المتَّقينَ﴾: بالترغيب في المبشَّر به من الثواب العاجل والآجل، وذِكْر الأسباب الموجبة للبشارة، ﴿وتُنذِرَ به قوماً لُدًّا﴾؛ أي: شديدين في باطلهم، أقوياء في كفرهم، فتنذِرَهم، فتقوم عليهم الحجَّة، وتتبيَّن لهم المحجَّة، فيهلِك مَن هَلَكَ عن بيِّنة، ويحيا مَن حيَّ عن بيِّنة.

﴿٩٨﴾ ثم توعَّدهم بإهلاك المكذِّبين قبلهم، فقال: ﴿وكم أهلَكْنا قبلَهم من قرنٍ﴾: من قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وغيرهم من المعانِدين المكذِّبين، لما استمرُّوا في طغيانِهِم؛ أهلكهم اللّه؛ فليس لهم من باقيةٍ. ﴿هل تُحِسُّ منهم من أحدٍ أو تسمعُ لهم رِكْزاً﴾: والرِّكْزُ: الصوتُ الخفيُّ؛ أي: لم يبقَ منهم عينٌ ولا أثرٌ، بل بقيتْ أخبارُهم عبرةً للمعتبرين، وأسمارُهم عظةً للمتعظين.

تم تفسير سورة مريم. وللّه الحمد والشكر.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٤٠) ومسلم (٢٦٣٧)، عن أبي هريرة رضي اللّه عنه.

تفسير سورة طه

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾

﴿١ ـ ٢﴾ ﴿طه﴾: من جملة الحروف المقطَّعة المفتتَح بها كثيرٌ من السور، وليست اسماً للنبي ﷺ. ﴿ما أنزلنا عليكَ القرآن لِتَشقى﴾؛ أي: ليس المقصود بالوحي وإنزال القرآن عليك وشرع الشريعة لِتَشْقى بذلك، ويكونَ في الشريعة تكليفٌ يشقُّ على المكلَّفين، وتعجزُ عنه قُوى العاملين، وإنَّما الوحي والقرآن والشرع شَرَعَهُ الرحيم الرحمٰن، وجَعَلَهُ موصلاً للسعادة والفلاح والفوز، وسهَّله غايةَ التسهيل، ويسَّر كلَّ طرقه وأبوابه، وجعله غذاء للقلوب والأرواح وراحةً للأبدان، فتلقَّته الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان؛ لِعِلْمها بما احتوى عليه من الخير في الدُّنيا والآخرة.

﴿٣﴾ ولهٰذا قال: ﴿إلَّا تَذْكِرَةً لِمَن يَخشى﴾: إلَّا ليتذكَّر به من يَخشى الله تعالى، فيتذكر ما فيه من الترغيب لأجل[١] المطالب فيعمل بذٰلك، ومن الترهيب عن الشقاء والخسران فيرهب منه، ويتذكَّر به الأحكام الحسنةَ الشرعيَّة المفصَّلة التي كان مستقرًّا في عقله حسنها مجملاً، فوافق التفصيلُ ما يَجِدُهُ في فطرتِهِ وعقلِهِ، ولهٰذا سمَّاه الله تذكرةً، والتَّذْكِرَةُ لشيء كان موجوداً؛ إلَّا أن صاحبَه غافلٌ عنه أو غير مستحضرٍ لتفصيلِهِ.

وخصَّ بالتَّذْكِرَةِ مَنْ يخشى؛ لأنَّ غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفعُ به من لم يؤمنْ بجنَّة ولا نارٍ ولا في قلبه من خشيةِ الله مثقال ذرة؟! هٰذا ما لا يكون، ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يخشى. ويتجنَّبُها الأشقى. الذي يَصْلى النار الكُبرى﴾.

﴿٤﴾ ثم ذَكَرَ جلالة هٰذا القرآن العظيم، وأنه تنزيلُ خالقِ الأرض والسماوات،

---

(١) في (ب): «إلى أجل».

المدبِّر لجميع المخلوقات؛ أي: فاقبلوا تنزيلَه بغاية الإذعان والمحبَّة والتسليم، وعظِّموه نهاية التعظيم. وكثيراً ما يقرِنُ بين الخَلْق والأمر؛ كما في هٰذه الآية وكما في قوله: ﴿ألا لَهُ الخلقُ والأمر﴾، وفي قوله: ﴿اللّٰه الذي خَلَقَ سبعَ سمٰواتٍ ومن الأرضِ مثلَهُنَّ يتنزَّلُ الأمرُ بينهنَّ﴾، وذٰلك أنَّه الخالق الآمر الناهي؛ فكما أنه لا خالق سواه؛ فليس على الخلق إلزامٌ ولا أمرٌ ولا نهيٌ إلَّا من خالقهم. وأيضاً؛ فإنَّ خلقه للخلق فيه من التدبير[1] القدريِّ الكونيِّ، وأمره فيه التدبير الشرعيُّ الدينيُّ؛ فكما أنَّ الخلق لا يخرُجُ عن الحكمة، فلم يَخْلُقْ شيئاً عبثاً؛ فكذٰلك لا يأمُرُ ولا ينهى إلَّا بما هو عدلٌ وحكمةٌ وإحسانٌ.

﴿٥﴾ فلما بين أنه الخالقَ المدبِّر الآمر الناهي؛ أخبر عن عظمته وكبريائه، فقال: ﴿الرحمٰن على العرش﴾: الذي هو أرفع المخلوقات وأعظمُها وأوسعُها، ﴿استوى﴾: استواءً يَليقُ بجلالِهِ ويناسب عظمتَه وجمالَه، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك.

﴿٦﴾ ﴿له ما في السمٰواتِ وما في الأرض وما بينَهما﴾: من مَلَكٍ وإنسيٍّ وجنيٍّ وحيوانٍ وجمادٍ ونباتٍ، ﴿وما تحتَ الثَّرى﴾؛ أي: الأرض؛ فالجميع مُلكٌ للّٰه تعالى، عبيدٌ مدبَّرون مسخَّرون تحت قضائه وتدبيره، ليس لهم من المُلك شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

﴿٧﴾ ﴿وإن تَجْهَرْ بالقول فإنَّه يعلم السرَّ﴾: الكلام الخفي، ﴿وأخفى﴾: من السرِّ، الذي في القلب ولم يُنطقْ به، أو السِّر ما خطر على القلب، وأخفى ما لم يخطُر؛ يعلم تعالى أنه يخطُرُ في وقته وعلى صفته. المعنى أنَّ علمه تعالى محيطٌ بجميع الأشياء؛ دقيقِها وجليها؛ خفيِّها وظاهرها؛ فسواء جهرتَ بقولك أو أسررتَه؛ فالكلُّ سواء بالنسبة لعلمه تعالى.

﴿٨﴾ فلما قرَّر كماله المطلق بعموم خلقه وعموم أمرِهِ ونهيِهِ وعموم رحمتِهِ وسعة عظمتِهِ وعلوِّه على عرشه وعموم ملكِهِ وعموم علمِهِ؛ نَتَجَ من ذٰلك أنَّه المستحقُّ للعبادة، وأنَّ عبادته هي الحقُّ التي يوجبها الشرع والعقل والفطرة، وعبادة غيره باطلةٌ، فقال: ﴿اللّٰه لا إلٰه إلَّا هو﴾؛ أي: لا معبود بحقٍّ ولا مألوه بالحبِّ والذُّلِّ والخوف والرجاء والمحبَّة والإنابة والدُّعاء إلَّا هو. ﴿له الأسماء الحسنى﴾؛

---

(١) كذا في (أ) وفي (ب): «فيه التدبير».

أي: له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى: من حسنها أنَّها كلَّها أسماءٌ دالةٌ على المدح؛ فليس فيها اسمٌ لا يدلُّ على المدح والحمد، ومن حسنها أنَّها ليست أعلاماً محضةً، وإنما هي أسماءٌ وأوصافٌ، ومن حسنها أنَّها دالَّة على الصفات الكاملة وأنَّ له من كلِّ صفةٍ أكملها وأعمَّها وأجلَّها، ومن حسنها أنَّه أمر العبادَ أن يدعوه بها؛ لأنَّها وسيلةٌ مقربةٌ إليه؛ يحبُّها ويحبُّ من يحبُّها، ويحبُّ من يحفظُها، ويحبُّ من يبحث عن معانيها، ويتعبَّد له بها؛ قال تعالى: ﴿ولله الأسماءُ الحسنى فادْعوه بها﴾.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ [وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾][(١)].

﴿٩ ـ ١٠﴾ يقول تعالى لنبيِّه محمدٍ ﷺ على وجه الاستفهام التقريريِّ والتعظيم لهٰذه القصَّة والتفخيم لها: ﴿هل أتاك حديثُ موسى﴾: في حاله التي هي مبدأ سعادته ومنشأ نبوَّته؛ أنَّه رأى ناراً من بعيد، وكان قد ضلَّ الطريق، وأصابه البردُ، ولم يكنْ عنده ما يتدفَّأ به في سفره. فقال لأهلِهِ: ﴿إني آنستُ﴾؛ أي: أبصرتُ ﴿ناراً﴾: وكان ذٰلك في جانب الطور الأيمن. ﴿لعلِّي آتيكم منها بقَبَسٍ﴾: تصطلون به، ﴿أو أجِدُ على النار هُدى﴾؛ أي: من يهديني الطريق. وكان مطلبُهُ النور الحسي والهداية الحسيَّة، فوجَدَ ثَمَّ النورَ المعنويَّ؛ نور الوحي الذي تستنير به الأرواح والقلوب، والهداية الحقيقيَّة؛ هداية الصراط المستقيم الموصلة إلى جنَّات النعيم، فحصل له أمرٌ لم يكنْ في حسابِهِ ولا خَطَر بباله.

﴿١١﴾ ﴿فلمَّا أتاها﴾؛ أي: النار التي آنسها من بعيدٍ، وكانت في الحقيقة نوراً، وهي نارٌ تحرق وتشرق، ويدلُّ على ذٰلك قوله ﷺ: «حجابُهُ النورُ أو النارُ، لو كَشَفَهُ؛ لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره[(٢)]». فلما وصل إليها؛ نودِيَ منها؛ أي: ناداه الله؛ كما قال: ﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن وقرَّبْناه نَجِيًّا﴾.

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين. (٢) أخرجه مسلم (١٧٩)، عن أبي موسى.

﴿١٢﴾ ﴿إني أنا ربُّك فاخلَعْ نعلَيكَ إنَّك بالواد المقدَّس طُوىً﴾: أخبره أنَّه ربُّه، وأمره أن يستعدَّ ويتهيَّأ لمناجاته ويهتمَّ لذلك، ويُلْقيَ نعليه، لأنَّه بالوادي المقدَّس المطهَّر المعظَّم، ولو لم يكن من تقديسِهِ إلَّا أنَّه[1] اختاره لمناجاتِهِ كليمَه موسى؛ لكفى. وقد قال كثيرٌ من المفسِّرين: إنَّ اللّه أمره أن يُلْقِيَ نعليه لأنهما من جلد حمارٍ[2]؛ فاللّه أعلم بذلك.

﴿١٣﴾ ﴿وأنا اخترتُك﴾؛ أي: تخيَّرْتك واصطفيتُك من الناس، وهٰذه أكبر نعمةٍ ومنَّة أنعم اللّه بها عليه تقتضي من الشُّكر ما يَليق بها، ولهٰذا قال: ﴿فاستمعْ لما يُوحى﴾؛ أي: ألق سمعك للذي أوحي إليك؛ فإنَّه حقيقٌ بذلك؛ لأنَّه أصل الدين ومبدؤه وعماد الدعوة الإسلامية.

﴿١٤﴾ ثم بيَّن الذي يوحيه إليه بقوله: ﴿إنَّني أنا اللّه لا إلٰه إلَّا أنا﴾؛ أي: اللّه المستحقُّ الألوهيَّة المتَّصف بها؛ لأنه الكامل في أسمائه وصفاته، المنفرد بأفعاله، الذي لا شريكَ له ولا مثيلَ ولا كفو ولا سَمِيّ. ﴿فاعْبُدْني﴾: بجميع أنواع العبادة ظاهرها وباطنها أصولها وفروعها. ثم خصَّ الصَّلاة بالذِّكر، وإن كانت داخلةً في العبادة؛ لفضلها وشرفها وتضمُّنها عبوديَّة القلب واللسان والجوارح. وقوله: ﴿لِذِكري﴾: اللام للتعليل؛ أي: أقم الصلاة لأجل ذكرِكَ إيَّاي؛ لأن ذكره تعالى أجلُّ المقاصد، وبه[3] عبوديَّة القلب، وبه سعادته؛ فالقلبُ المعطَّل عن ذكر اللّه معطَّلٌ عن كلِّ خير وقد خَرِبَ كلَّ الخراب، فشرع اللّه للعباد أنواعَ العباداتِ التي المقصود منها إقامةُ ذكرِهِ، وخصوصاً الصلاة؛ قال تعالى: ﴿اتلُ ما أوحِيَ إليكَ من الكتاب وأقم الصَّلاةَ إنَّ الصلاةَ تَنهى عن الفحشاءِ والمنكرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أكبرُ﴾؛ أي: ما فيها من ذكر اللّه أكبرُ من نهيها عن الفحشاء والمنكر، وهٰذا النوع يقال له: توحيدُ الإلٰهيَّة وتوحيدُ العبادة؛ فالألوهيَّة وصفُه تعالى، والعبوديَّة وصفُ عبده.

﴿١٥﴾ ﴿إنَّ الساعة آتيةٌ﴾؛ أي: لا بدَّ من وقوعها، ﴿أكاد أخفيها﴾؛ أي: عن نفسي؛ كما في بعض القراءَات؛ كقوله تعالى: ﴿يسألونك عن الساعةِ قلْ إنَّما

(١) في (ب): «أن الله».
(٢) أخرجه الترمذي (١٧٣٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٧٩)، وتعقبه الذهبي، وقال الألباني: «ضعيف جدًّا». انظر «ضعيف سنن الترمذي» (٢٩١).
(٣) في (ب): «وهو».

علمُها عند اللّه﴾، وقال: ﴿وعنده علمُ الساعةِ﴾؛ فعلمُها قد أخفاه عن الخلائق كلِّهم؛ فلا يعلمها مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسل، والحكمة في إتيان الساعة: ﴿لِتُجْزى كلُّ نفس بما تَسْعى﴾: من الخير والشرِّ؛ فهي الباب لدار الجزاء، ﴿ليَجزيَ الذين أساؤوا بما عَمِلوا ويَجْزيَ الذين أحسَنوا بالحُسْنى﴾.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٦﴾ أي: فلا يصدُّك ويشغَلْك عن الإيمان بالساعة والجزاء والعمل لذلك مَنْ كان كافراً بها، غير معتقدٍ لوقوعها، يسعى في الشكِّ فيها والتشكيك، ويجادلُ فيها بالباطل، ويقيم من الشُّبه ما يقدر عليه؛ متبعاً في ذلك هواه، ليس قصدُهُ الوصول إلى الحق، وإنَّما قُصاراه اتِّباع هواه؛ فإيَّاك أن تصغي إلى مَنْ هذه حالُه أو تقبلَ شيئاً من أقواله وأعماله الصادَّة عن الإيمان بها والسعي لها سعيها. وإنَّما حذَّر اللّه تعالى عمَّن هذه حاله؛ لأنَّه من أخوف ما يكون على المؤمن بوسوسته وتدجيله وكون النفوس مجبولةً على التشبُّه والاقتداء بأبناء الجنس، وفي هذا تنبيهٌ وإشارةٌ إلى التحذير عن كلِّ داعٍ إلى باطل، يصدُّ عن الإيمان الواجب أو عن كمالِهِ، أو يوقع الشبهةَ في القلب، وعن النظر في الكتب المشتملة على ذلك.

وذكر في هذا الإيمان به وعبادته والإيمان باليوم الآخر؛ لأن هذه الأمور الثلاثة أصولُ الإيمان وركنُ الدين، وإذا تمَّت؛ تمَّ أمر الدين، ونقصُه أو فقدُه بنقصِها أو نقص شيء منها. وهذه نظيرُ قوله تعالى في الإخبار عن ميزان سعادةِ الفِرَق الذين أوتوا الكتاب وشقاوتهم: ﴿إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والصَّابئينَ والنَّصارى مَنْ آمنَ باللّه واليوم الآخر وعَمِلَ صالحاً فلا خوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنونَ﴾. وقوله: ﴿فتردى﴾؛ أي: تهلك وتشقى إنِ اتَّبعت طريق من يصدُّ عنها، وقولُه تعالى:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾.

﴿١٧﴾ لما بيَّن اللّه لموسى أصلَ الإيمان؛ أراد أن يبيِّن له ويريه من آياته ما

يطمئنُّ به قلبه، وتقرُّ به عينه، ويقوى إيمانُه بتأييد اللّه له على عدوِّه، فقال: ﴿وما تلك بيمينِك يا موسى﴾: هٰذا مع علمه تعالى، ولٰكن لزيادة الاهتمام في هٰذا الموضع؛ أخرج الكلام بطريق الاستفهام.

﴿١٨﴾ فقال موسى: ﴿هي عصايَ أتوكَّأ عليها وأهشُّ بها على غنمي﴾: ذكر فيها هاتين المنفعتين؛ منفعة لجنس الآدمي، وهو أنَّه يعتمد عليها في قيامه ومشيه، فيحصُل فيها معونةٌ ومنفعةٌ للبهائم، وهو أنَّه كان يرعى الغنم؛ فإذا رعاها في شجر الخبط ونحوه؛ هشَّ بها؛ أي: ضرب الشجر ليتساقطَ ورقُه فيرعاه الغنم. هٰذا الخُلُق الحسن من موسى عليه السلام الذي من آثارِهِ حُسْنُ رعاية الحيوان البهيم والإحسان إليه دلَّ على عنايةٍ من اللّه له واصطفاءٍ وتخصيص تقتضيه رحمةُ اللّه وحكمتُه. ﴿ولي فيها مآربُ﴾؛ أي: مقاصد ﴿أخرى﴾: غير هٰذين الأمرين.

ومن أدب موسى عليه السلام أنَّ اللّه لما سأله عمَّا في يمينه، وكان السؤال محتملاً عن السؤال عن عينها أو منفعتها؛ أجابه بعينها ومنفعتها.

﴿١٩ ـ ٢٠﴾ فقال اللّه له: ﴿ألقها يا موسى. فألقاها فإذا هي حيَّةٌ تسعى﴾: انقلبت بإذن اللّه ثعباناً عظيماً، فولَّى موسى هارباً خائفاً ولم يعقبْ.

وفي وصفها بأنها تسعى إزالةٌ لوهم يمكن وجوده، وهو أنْ يُظنَّ أنها تخييلٌ لا حقيقة؛ فكونها تسعى يزيلُ هٰذا الوهم.

﴿٢١﴾ فقال اللّه لموسى: ﴿خُذها ولا تَخَفْ﴾؛ أي: ليس عليك منها بأسٌ، ﴿سنعيدُها سيرتها الأولى﴾؛ أي: هيئتها وصفتها؛ إذ كانت عصا، فامتثل موسى أمر اللّه إيماناً به وتسليماً، فأخذها، فعادت عصاه التي كان يعرفها. هٰذه آيةٌ.

﴿٢٢﴾ ثم ذكر الآية الأخرى، فقال: ﴿واضمُمْ يدك إلى جناحِكَ﴾؛ أي: أدخل يدك إلى جيبك، وضمَّ عليك عَضُدك الذي هو جناحُ الإنسان؛ ﴿تَخرُجْ بيضاءَ من غير سوءٍ﴾؛ أي: بياضاً ساطعاً من غير عيبٍ ولا برص. ﴿آيةً أخرى﴾.

﴿٢٣﴾ قال اللّه: ﴿فذانك برهانان من ربِّك إلى فرعون وملئه إنَّهم كانوا قوماً فاسقين﴾؛ ﴿لِنُرِيَكَ من آياتنا الكبرى﴾؛ أي: فعلنا ما ذكرنا من انقلاب العصا حيَّةً تسعى ومن خروج اليد بيضاء للناظرين، لأجل أن نُرِيَكَ من آياتنا الكبرى الدالَّة على صحَّة رسالتك وحقيقة ما جئتَ به، فيطمئنُّ قلبك، ويزداد علمُك، وتثقُ بوعد اللّه لك بالحفظ والنُّصرة، ولتكون حجَّة وبرهاناً لمن أرسِلْتَ إليهم.

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٢٤﴾ لما أوحى الله إلى موسى ونبَّأه وأراه الآيات الباهرات؛ أرسله إلى فرعون ملك مصر، فقال: ﴿اذهبْ إلى فرعون إنَّه طغى﴾؛ أي: تمرَّد وزاد على الحدِّ في الكفر والفساد والعلوِّ في الأرض والقهر للضعفاء، حتى إنَّه ادَّعى الربوبيَّة والألوهيَّة قبحه الله؛ أي: وطغيانه سبب لهلاكه، ولكنْ من رحمة الله وحكمتِهِ وعدلِهِ أنَّه لا يعذِّب أحداً إلَّا بعد قيام الحجة بالرسل.

﴿٢٥﴾ فحينئذٍ عَلِمَ موسى عليه السلام أنَّه تحمَّل حملاً عظيماً؛ حيث أُرسِلَ إلى هٰذا الجبار العنيد، الذي ليس له منازعٌ في مصر من الخلق، وموسى عليه السلام وحدَه، وقد جرى منه ما جرى من القتل، فامتثل أمر ربِّه، وتلقَّاه بالانشراح والقَبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب التي هي من تمام الدَّعوة، فقال: ﴿ربِّ اشرحْ لي صدري﴾؛ أي: وسِّعه وافسحه لأتحمَّل الأذى القوليَّ والفعليَّ، ولا يتكدَّر قلبي بذٰلك، ولا يضيق صدري؛ فإنَّ الصدر إذا ضاق؛ لم يصلح صاحبُه لهداية الخلق ودعوتهم؛ قال الله لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿فبما رحمةٍ من الله لِنتَ لهم ولو كنتَ فظًّا غليظَ القلب لانفضُّوا من حولِكَ﴾، وعسى الخلقُ يقبلون الحقَّ مع اللِّين وسَعَة الصدر وانشراحه عليهم.

﴿٢٦﴾ ﴿ويسِّرْ لي أمري﴾؛ أي: سهل عليَّ كلَّ أمرٍ أسلكه وكلَّ طريق أقصده في سبيلك، وهوِّنْ عليَّ ما أمامي من الشدائد، ومن تيسير الأمر أن ييسِّر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها، ويخاطبَ كلَّ أحدٍ بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطُّرق الموصلة إلى قبول قوله.

﴿٢٧ ـ ٢٨﴾ ﴿واحلُلْ عقدةً من لساني. يَفقَهوا قولي﴾: وكان في لسانه ثِقَلٌ لا يكاد يُفْهَمُ عنه الكلام كما قال المفسِّرون؛ كما قال الله عنه: إنَّه قال: ﴿وأخي هارونَ هو أفصحُ مني لساناً﴾، فسأل الله أن يَحُلَّ منه عقدةً؛ يفقهوا ما يقولُ، فيحصل المقصود التامُّ من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني.

﴿٢٩ ـ ٣٠﴾ ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾؛ أي: عويناً يعاونني ويؤازرني

ويساعدني على من أرسِلْتُ إليهم، وسأل أن يكون من أهلِهِ؛ لأنه من باب البرِّ، وأحقُّ ببر الإنسان قرابتُهُ. ثم عيَّنه بسؤاله، فقال: ﴿هارونَ أخي﴾.

﴿٣١ ـ ٣٢﴾ ﴿اشدد به أزري﴾؛ أي قوِّني به وشدَّ به ظهري. قال الله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخيك ونَجْعَلُ لكما سلطاناً﴾، ﴿وأشرِكْه في أمري﴾؛ أي: في النبوَّة؛ بأن تجعله نبيًا رسولاً كما جعلتني.

﴿٣٣ ـ ٣٤﴾ ثم ذكر الفائدة في ذٰلك، فقال: ﴿كي نسبِّحكَ كثيراً. ونذكُرَكَ كثيراً﴾: علم عليه الصلاة (والسلام)[1] أنَّ مدار العباداتِ كلِّها والدينِ على ذِكْرِ الله، فسأل الله أن يجعلَ أخاه معه يتساعدان ويتعاونان على البرِّ والتقوى، فيكثر منهما ذِكْرُ الله من التسبيح والتهليل وغيره من أنواع العبادات.

﴿٣٥﴾ ﴿إنَّك كنتَ بنا بصيراً﴾: تعلمُ حالنا وضعفنا وعَجْزَنا وافتقارَنا إليك في كلِّ الأمور، وأنت أبصرُ بنا من أنفسنا وأرحم؛ فمُنَّ علينا بما سألناك، وأجب لنا فيما دعوناك.

﴿٣٦﴾ فقال الله: ﴿قد أوتيتَ سُؤلَكَ يا موسى﴾؛ أي: أعطيت جميع ما طلبت، فسنشرح صدرك، ونيسِّر أمرك، ونحلُّ عقدةً من لسانك؛ يفقهوا قولك، ونشدُّ ﴿عَضُدَكَ بأخيك هارون، ونجعلُ لكما سلطاناً؛ فلا يصلونَ إليكما بآياتِنا، أنتما ومَن اتَّبعكما الغالبون﴾.

وهٰذا السؤال من موسى عليه السلام، يدلُّ على كمال معرفته بالله وكمال فطنتِهِ ومعرفتِهِ للأمور وكمال نصحِهِ، وذٰلك أنَّ الدَّاعي إلى الله المرشِدِ للخلق، خصوصاً إذا كان المدعوُّ من أهل العناد والتكبُّر والطُّغيان[2]، يحتاج إلى سعة صدر، وحلم تامٍّ على ما يصيبه من الأذى، ولسان فصيح يتمكَّن من التعبير به عن ما يريده ويقصده، بل الفصاحةُ والبلاغة لصاحب هٰذا المقام من ألزم ما يكون؛ لكثرة المراجعات والمراوضات، ولحاجته لتحسين الحقِّ وتزيينه بما يقدر عليه؛ ليحبِّبه إلى النفوس، وإلى تقبيح الباطل وتهجينه لينفِّرَ عنه، ويحتاج مع ذٰلك أيضاً أن يتيسَّر له أمره، فيأتي البيوت من أبوابها، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن؛ يعامل الناس كلًّا بحسب حاله، وتمام ذٰلك أن يكون لمن هٰذه صفتُهُ أعوانٌ ووزراءُ يساعدونه على مطلوبه؛ لأنَّ الأصوات إذا كَثُرت؛ لا

(١) كلمة (السلام) زيادة على النسختين. (٢) في (ب): «عناد وتكبر وطغيان».

بدَّ أن تؤثر؛ فلذٰلك سأله عليه الصلاة والسلام هٰذه الأمور، فأعطِيَها.

وإذا نظرتَ إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق؛ رأيتَهم بهٰذه الحال بحسب أحوالهم، خصوصاً خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ؛ فإنَّه في الذُّروة العليا من كلِّ صفة كمال، وله من شرحِ الصدرِ وتيسير الأمر وفصاحةِ اللسان وحسن التعبيرِ والبيان والأعوانِ على الحقِّ من الصحابة فَمَنْ بعدَهم ما ليس لغيره.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾.

﴿٣٧ ـ ٣٩﴾ لما ذكر مِنَّته على عبده ورسوله موسى بن عمران في الدين والوحي والرسالة وإجابة سُؤْلِهِ؛ ذكر نعمته عليه وقتَ التربية والتنقُّلات في أطواره، فقال: ﴿ولقد مَنَنَّا عليك مرةً أخرى﴾: حيث ألهمنا أمَّك أن تقذِفَك في التابوت وقت الرَّضاع خوفاً من فرعون؛ لأنَّه أمر بذبح أبناء بني إسرائيل، فأخفته أمُّه وخافت عليه خوفاً شديداً، فقذفَتْه في التابوت، ثم قذفتْه في اليمِّ؛ أي: شط نيل مصر، فأمر الله اليمَّ أن يُلقيه في الساحل، وقيَّض أنْ يأخذه أعدى الأعداء لله ولموسى، ويتربَّى في أولاده، ويكون قرَّة عينٍ لمن رآه، ولهٰذا قال: ﴿وألقيتُ عليك محبَّةً منِّي﴾؛ فكلُّ من رآه أحبَّه. ﴿ولِتُصْنَعَ على عيني﴾؛ أي: ولتتربَّى على نظري وفي حفظي وكلاءتي، وأيُّ نظر وكفالة أجلُّ وأكملُ من ولاية البرِّ الرحيم القادر على إيصال مصالح عبده ودفع المضارِّ عنه؛ فلا ينتقلُ من حالةٍ إلى حالةٍ إلَّا والله تعالى هو الذي دبَّر ذٰلك لمصلحة موسى!

﴿٤٠﴾ ومن حسن تدبيره أنَّ موسى لما وقع في يد عدوِّه؛ قلقتْ أمُّه قلقاً شديداً، وأصبح فؤادها فارغاً، وكادت تُـخْبِرُ به، لولا أنَّ الله ثبَّتها وربط على قلبها؛ ففي هٰذه الحالة حرَّم الله على موسى المراضع؛ فلا يقبل ثديَ امرأةٍ قطُّ؛ ليكون مآلُه إلى أمِّه فترضِعَه ويكونَ عندها مطمئنَّة ساكنةً قريرة العين، فجعلوا يعرضون عليه المراضع؛ فلا يقبلُ ثدياً، فجاءتْ أختُ موسى، فقالت لهم: ﴿هل أدلُّكم﴾: على أهل بيتٍ يكفُلونه لكم وهم له ناصحونَ، ﴿فَرَجَعْناك إلى أمِّك كي

تَقَرَّ عينُها ولا تحزنْ وقتلتَ نفساً﴾: وهو القبطيُّ لما دخل المدينة وقتَ غفلةٍ من أهلها وَجَدَ رجلين يقتتلانِ: واحدٌ من شيعة موسى والآخر من عدوِّه قبطيٌّ، فاستغاثه الذي من شيعتِهِ على الذي من عدوِّه، فوَكَزَهُ موسى فقضى عليه، فدعا اللّه وسأله المغفرةَ فَغَفَرَ له، ثم فرَّ هارباً لما سمع أنَّ الملأ طَلَبوه يريدون قتله. ﴿فنجَّيناك من الغمِّ﴾[1]: من عقوبة الذنب ومن القتل، ﴿وفَتَنَّاك فُتوناً﴾؛ أي: اختبرناك وبَلَوْناك فوجدناك مستقيماً في أحوالك، أو نقَّلْناك في أحوالك وأطوارك حتى وصلتَ إلى ما وصلتَ إليه. ﴿فلبثتَ سنين في أهل مَدْيَنَ﴾: حين فرَّ هارباً من فرعون وملئه حين أرادوا قتله، فتوجَّه إلى مدين، ووصل إليها، وتزوَّج هناك، ومكث عشر سنين أو ثمان سنين، ﴿ثم جئتَ على قَدَرٍ يا موسى﴾؛ أي: جئت مجيئاً ليس اتفاقاً من غير قصدٍ ولا تدبيرٍ منَّا، بل بقدرٍ ولطف منَّا[2]، وهٰذا يدلُّ على كمال اعتناء اللّه بكليمه موسى عليه السلام.

﴿٤١﴾ ولهٰذا قال: ﴿واصطنعتُك لنفسي﴾؛ أي: أجريت عليك صنائعي ونعمي وحسن عوائدي وتربيتي؛ لتكون لنفسي حبيباً مختصًّا، وتبلغ في ذٰلك مبلغاً لا ينالُه أحدٌ من الخلق إلَّا النادر منهم.

وإذا كان الحبيب إذا أراد اصطناع حبيبه من المخلوقين، وأراد أن يبلغ من الكمال المطلوب له ما يبلغ؛ يبذُلُ غايةَ جهدِهِ ويسعى نهايةَ ما يمكِنُه في إيصاله لذٰلك؛ فما ظنُّك بصنائع الربِّ القادر الكريم؟! وما تحسبُه يفعلُ بمن أراده لنفسِهِ، واصطفاه من خلقِهِ.

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٢﴾ لما امتنَّ اللّهُ على موسى بما امتنَّ به من النعم الدينيَّة والدنيويَّة؛ قال له: ﴿اذهب أنت وأخوك﴾: هارون ﴿بآياتي﴾؛ أي: الآيات التي مني، الدالَّة على الحقِّ وحسنه وقبح الباطل؛ كاليد والعصا ونحوها؛ في تسع آياتٍ إلى فرعون وملئِهِ،

---

(١) في (ب): «فنجاه الله».

(٢) في (ب): «أي جئت مجيئاً قد مضى به القدر وعلمه الله وأراده في هذا الوقت وهذا الزمان وهذا المكان ليس مجيئك».

﴿ولا تَنِيا في ذِكْري﴾؛ أي: لا تفترا ولا تكسلا عن مداومة ذِكْري بالاستمرار عليه والزَماه كما وعدتُما بذلك: ﴿كي نسبِّحَكَ كثيراً ونَذْكُرَكَ كثيراً﴾؛ فإنَّ ذكر اللّه فيه معونةٌ على جميع الأمور؛ يسهِّلها، ويخفِّف حملها.

﴿٤٣﴾ ﴿اذهبا إلى فرعون إنَّه طغى﴾؛ أي: جاوز الحدَّ في كفرِهِ وطغيانِهِ وظلمه وعدوانه.

﴿٤٤﴾ ﴿فقولا له قولاً ليِّناً﴾؛ أي: سهلاً لطيفاً برفق ولينٍ وأدبٍ في اللفظ من دون فحش ولا صَلَف ولا غِلْظَةٍ في المقال أو فظاظةٍ في الأفعال. ﴿لعلَّه﴾: بسبب القول اللين ﴿يتذكَّر﴾: ما ينفعه فيأتيه ﴿أو يخشى﴾: ما يضرُّه فيتركه؛ فإنَّ القول الليِّن داعٍ لذلك، والقول الغليظ منفِّرٌ عن صاحبه، وقد فُسِّر القول الليِّن في قوله: ﴿فَقُلْ هل لك إلى أن تَزَكَّى. وأهدِيَك إلى ربِّك فتَخْشى﴾؛ فإنَّ في هذا الكلام من لطف القول وسهولتِهِ وعدم بشاعته ما لا يخفى على المتأمِّل؛ فإنَّه أتى بـ ﴿هل﴾ الدالَّة على العرض والمشاورة، التي لا يشمئزُّ منها أحدٌ، ودعاه إلى التزكِّي والتطهُّر من الأدناس، التي أصلها التطهُّر من الشرك، الذي يقبله كلُّ عقل سليم، ولم يقلْ: أزكيك، بل قال: ﴿تزكَّى﴾: أنت بنفسك، ثم دعاه إلى سبيل ربِّه الذي ربَّاه وأنعم عليه بالنِّعم الظاهرة والباطنة، التي ينبغي مقابلتها بشكرها وذكرها، فقال: ﴿وأهدِيَك إلى ربِّك فتَخْشى﴾، فلما لم يقبلْ هذا الكلام الليِّن الذي يأخُذُ حسنُه بالقلوب؛ عُلِمَ أنَّه لا ينجعُ فيه تذكيرٌ، فأخذه اللّه أخذ عزيز مقتدر.

﴿٤٥﴾ ﴿قالا ربَّنا إنَّنا نخافُ أن يَفْرُطَ علينا﴾؛ أي: يبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا قبل أن تبلِّغه رسالاتك، ونقيم عليه الحجَّة، ﴿أو أن يَطْغى﴾؛ أي: يتمرَّد عن الحقِّ، ويطغى بملكه وسلطانه وجندِهِ وأعوانِهِ.

﴿٤٦﴾ ﴿قال لا تخافا﴾: أن يَفْرُطَ عليكما؛ ﴿إنَّني معكما أسمع وأرى﴾؛ أي: أنتما بحفظي ورعايتي، أسمع قولكما، وأرى جميع أحوالكما؛ فلا تخافا منه. فزال الخوفُ عنهما، واطمأنَّت قلوبُهما بوعد ربِّهما.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٧﴾ أي: فأتياه بهذين الأمرين: دعوتُه إلى الإسلام، وتخليصُ هذا الشعب الشريف بني إسرائيل من قيدِهِ وتعبيدِهِ لهم؛ ليتحرَّروا ويملكوا أمرهم، ويقيم فيهم

موسى[١] شرع اللّه ودينه. ﴿قد جئناك بآيةٍ﴾: تدلُّ على صدقِنا، فألقى موسى عصاه؛ فإذا هي ثعبانٌ مبينٌ، ونزع يده فإذا هي بيضاءُ للناظرينَ... إلى آخر ما ذَكَرَ اللّه عنهما. ﴿والسلامُ على مَنِ اتَّبَعَ الهدى﴾؛ أي: من اتَّبع الصراط المستقيم واهتدى بالشرع المُبين؛ حصلت له السلامة في الدُّنيا والآخرة.

﴿٤٨﴾ ﴿إنَّا قد أوحِي إلينا﴾؛ أي: خبرنا[٢] من عند اللّه لا من عند أنفسنا؛ ﴿أنَّ العذابَ على من كَذَّبَ وتولَّى﴾؛ أي: كذَّب بأخبار اللّه وأخبار رسلِهِ، وتولَّى عن الانقياد لهم واتِّباعهم، وهٰذا فيه الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق واتِّباعهما والترهيب من ضدِّ ذٰلك، ولٰكن لم يُفِدْ فيه هٰذا الوعظ والتذكير، فأنكر ربَّه وكفر وجادل في ذٰلك ظلماً وعناداً.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٤٩﴾ أي: قال فرعون لموسى على وجه الإنكار: ﴿فمن ربُّكما يا موسى﴾؟

﴿٥٠﴾ فأجاب موسى بجواب شافٍ كافٍ واضح، فقال: ﴿ربُّنا الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَه ثم هدى﴾؛ أي: ربُّنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كلَّ مخلوق خَلْقَه اللائق به، [الدال] على حسن صنعة من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه وجميع صفاته، ثم هدى كلَّ مخلوق إلى ما خَلَقَه له، وهٰذه الهداية الكاملة[٣] المشاهدةُ في جميع المخلوقات؛ فكلُّ مخلوق تجِدُه يسعى لما خُلِقَ له من المنافع وفي دفع المضارِّ عنه، حتَّى إنَّ اللّه أعطى الحيوان البهيم من العقل ما يتمكَّن[٤] به على ذٰلك، وهٰذا كقوله تعالى: ﴿الذي أحسن كلَّ شيءٍ خَلَقَه﴾: فالذي خَلَقَ المخلوقاتِ، وأعطاها خَلْقَها الحسنَ الذي لا تقترح العقول فوقَ حسنِهِ، وهداها لمصالحها؛ هو الربُّ على الحقيقة؛ فإنكاره إنكارٌ لأعظم الأشياء وجوداً،

---

(١) في (ب): «ويقيم موسى فيهم».
(٢) في (ب): «خبر».
(٣) في (ب): «العامة».
(٤) في (ب): «ما تتمكن».

وهو مكابرةٌ ومجاهرةٌ بالكذب؛ فلو قُدِّرَ أنَّ الإنسان أنكر من الأمور المعلومة ما أنكر؛ كان إنكارُهُ لربِّ العالمين أكبر من ذٰلك.

﴿٥١﴾ ولهٰذا لما لم يمكنْ فرعون أن يعانِدَ هٰذا الدليل القاطع؛ عدل إلى المشاغبة، وحاد عن المقصود، فقال لموسى: ﴿فما بالُ القرون الأولى﴾؛ أي: ما شأنهم؟ وما خبرهم؟ وكيف وصلت بهم الحالُ وقد سبقونا إلى الإنكار والكفر والظُّلم والعناد ولنا فيهم أسوة؟

﴿٥٢﴾ فقال موسى: ﴿علمُها عند ربِّي في كتابٍ لا يَضِلُّ ربِّي ولا ينسى﴾؛ أي: قد أحصى أعمالهم من خير وشرٍّ، وكتبه في كتابه[1]، وهو اللوح المحفوظ، وأحاط به علماً وخبراً؛ فلا يضلُّ عن شيء منها ولا ينسى ما عَلِمهُ منها، ومضمون ذٰلك أنَّهم قَدِموا إلى ما قدَّموه ولاقَوْا أعمالهم وسيجازَوْن عليها؛ فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم؛ فتلك أمةٌ قد خلتْ، لها ما كسبتْ ولكم ما كسبتُم؛ فإنْ كان الدليل الذي أوردْناه عليك والآياتُ التي أريناكَها قد تحقَّقْتَ صدقَها ويقينَها، وهو الواقع؛ فانقذْ إلى الحقِّ، ودعْ عنك الكفر والظُّلم وكثرةَ الجدال بالباطل، وإن كنتَ قد شككت فيها أو رأيتَها غير مستقيمة؛ فالطريق مفتوحٌ، وبابُ البحث غير مغلقٍ، فَرُدَّ الدليل بالدليل والبرهان بالبرهان، ولن تَجِدَ لذٰلك سبيلاً ما دام الملوان[2]؛ كيف وقد أخبر الله عنه أنه جَحَدها مع استيقانها؛ كما قال تعالى: ﴿وجَحَدوا بها واستيقَنَتْها أنفسُهم ظلماً وعلوًّا﴾، وقال موسى: ﴿لقد علمتَ ما أنزلَ هٰؤلاءِ إلَّا ربُّ السمٰواتِ والأرضِ بصائرَ﴾؟! فَعُلم أنه ظالمٌ في جداله، قصدُه العلوُّ في الأرض.

﴿٥٣﴾ ثم استطرد في هٰذا الدليل القاطع بذكر كثيرٍ من نعمه وإحسانه الضروريِّ، فقال: ﴿الذي جَعَلَ لكم الأرضَ مَهْداً﴾؛ أي: فراشاً بحالةٍ تتمكَّنون من السكون فيها والقرار والبناء والغراس وإثارتها للازدراع وغيره، وذلَّلها لذٰلك، ولم يجعلْها ممتنعةً عن مصلحةٍ من مصالحكم. ﴿وسَلَكَ لكم فيها سُبُلاً﴾؛ أي: نفذ لكم الطرق الموصلة من أرض إلى أرض، ومن قطر إلى قطر، حتى كان الآدميونَ يتمكَّنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون، وينتفعونَ بأسفارِهم أكثر مما ينتفعون بإقامتهم. ﴿وأنزلَ من السماءِ ماءً فأخرجْنا به أزواجاً من نباتٍ شتى﴾؛

---

(١) في (ب): «في كتاب».

(٢) الملوان: أي الليل والنهار.

أي: أنزل المطر، فأحيا به الأرض بعد موتها، وأنبت بذلك جميعَ أصناف النوابت على اختلاف أنواعها وتشتُّت أشكالها وتبايُنِ أحوالها، فساقَه وقدَّره ويسَّره رزقاً لنا ولأنعامنا، ولولا ذلك؛ لهلك مَنْ عليها من آدميٍّ وحيوانٍ.

﴿٥٤﴾ ولهذا قال: ﴿كُلوا وارْعَوْا أنعامَكم﴾: وسياقها على وجه الامتنان؛ ليدلَّ ذلك على أنَّ الأصل في جميع النوابت الإباحة؛ فلا يَحْرُمُ منها إلَّا ما كان مضرًّا كالسموم ونحوه. ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لأولي النُّهى﴾؛ أي: لذوي العقول الرزينة والأفكار المستقيمة، على فضل الله وإحسانه ورحمته وسعة جوده وتمام عنايته، وعلى أنَّه الربُّ المعبود المالك المحمود، الذي لا يستحقُّ العبادة سواه، ولا الحمد والمدح والثناء إلَّا مَن امتنَّ بهذه النعم، وعلى أنَّه على كلِّ شيء قديرٌ؛ فكما أحيا الأرض بعد موتها؛ إنَّ ذلك لمحيي الموتى. وخصَّ الله أولي النُّهى بذلك لأنَّهم المنتفعون بها الناظرون إليها نظر اعتبار، وأمَّا مَنْ عداهم؛ فإنَّهم بمنزلة البهائم السارحة والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظُّهم حظُّ البهائم؛ يأكلون ويشربون وقلوبُهم لاهيةٌ وأجسادهم[1] مُعْرِضةٌ، ﴿وكأيِّن من آيةٍ في السمٰواتِ والأرض يمرُّون عليها وهم عنها معرضونَ﴾.

﴿٥٥﴾ ولما ذَكَرَ كرم الأرض وحسنَ شكرِها لما يُنْزِلُه الله عليها من المطر، وأنَّها بإذن ربِّها تُخرج النبات المختلف الأنواع؛ أخبر أنَّه خَلَقَنا منها، وفيها يعيدُنا إذا متنا فَدُفِنَّا فيها، ومنها يخرِجُنا ﴿تارةً أخرى﴾؛ فكما أوجدنا منها من العدم، وقد علمنا ذلك وتحقَّقناه؛ فسيعيدُنا بالبعث منها بعد موتنا؛ ليجازينا بأعمالنا التي عملناها عليها. وهذان دليلان على الإعادة عقليَّان واضحان: إخراجُ النبات من الأرض بعد موتها، وإخراجُ المكلَّفين منها في إيجادهم.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ
﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى
﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ
﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ

---

(١) في (ب): «وأجسامهم».

﴿٦١﴾ [فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم
مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ
ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ
فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا
لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا
يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ
قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ
وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ
ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ
لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾][1]﴾.

﴿٥٦﴾ يخبر تعالى أنَّه أرى فرعون من الآياتِ والعِبَرِ والقواطع جميعَ أنواعها العيانيَّة والأفقيَّة والنفسيَّة؛ فما استقام ولا ارعوى، وإنَّما كذَّب وتولَّى؛ كذب الخبر وتولَّى عن الأمر والنهي، وجعل الحقَّ باطلاً والباطل حقًّا، وجادل بالباطل ليضلَّ الناس.

﴿٥٧﴾ فقال: ﴿أجئتَنا لِتُخرِجَنا من أرضنا بسحرِك﴾: زعم أنَّ هٰذه الآيات التي أراه إيَّاها موسى سحرٌ وتمويهٌ، المقصود منها إخراجُهم من أرضهم والاستيلاءُ عليها؛ ليكون كلامه مؤثراً في قلوب قومه؛ فإنَّ الطِّباع تميل إلى أوطانها، ويصعُبُ عليها الخروج منها ومفارقتها، فأخبرهم أنَّ موسى هٰذا قصده؛ ليبغِضوه ويسعَوْا في محاربته.

﴿٥٨﴾ ﴿فلنأتينَّك بسحرٍ﴾: مثل سحرك، فأمهِلْنا واجعلْ لنا ﴿موعداً لا نخلِفُه نحن ولا أنت مكاناً سُوى﴾؛ أي: مستوٍ علمنا وعلمك به، أو مكاناً مستوياً معتدلاً لتمكَّن من رؤية ما فيه.

﴿٥٩﴾ فقال موسى: ﴿موعدُكم يوم الزينةِ﴾: وهو عيدُهم الذي يتفرَّغون فيه ويقطعون شواغلهم، ﴿وأن يُحْشَرَ الناس ضُحىً﴾؛ أي: يُجمعون كلهم في وقت

(١) الآيات ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

الضُّحى. وإنَّما سأل موسى ذٰلك لأنَّ يوم الزينة ووقت الضحى منه يحصُلُ منه كثرة الاجتماع ورؤية الأشياء على حقائقها ما لا يحصُل في غيره.

﴿٦٠﴾ ﴿فتولَّى فرعونُ فجمع كيدَه﴾؛ أي: جميع ما يقدرُ عليه مما يكيد به موسى، فأرسل في مدائنه من يحشُرُ السحرة الماهرين في سحرهم، وكان السحر إذ ذاك متوفراً، وعلمه[1] مرغوباً فيه، فجمع خلقاً كثيراً من السحرة، ثم أتى كلٌّ منهما للموعدِ، واجتمع الناس للموعدِ، فكان الجمعُ حافلاً، حضره الرجال والنساء والملأ والأشراف والعوامُّ والصغار والكبار، وحضُّوا الناس على الاجتماع، وقالوا ﴿للناس هل أنتم مجتمعون لعلَّنا نتَّبع السحرةَ إن كانوا هم الغالبين﴾.

﴿٦١﴾ فحين اجتمعوا من جميع البلدان؛ وَعَظَهم موسى عليه السلام، وأقام عليهم الحجَّة، وقال لهم: ﴿ويلَكم[2] لا تَفْتَروا على الله كَذِباً فيُسْحِتَكم بعذابٍ﴾؛ أي: لا تنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم، وتغالبون الحقَّ، وتفترون على الله الكذبَ، فيستأصِلُكم بعذابٍ من عنده، ويخيب سعيُكم وافتراؤكم؛ فلا تدركون ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملئه، ولا تسلموا من عذاب الله.

﴿٦٢﴾ وكلام الحقِّ لا بدَّ أن يؤثِّر في القلوب، لا جرم ارتفع الخصامُ والنزاع بين السحرة لمَّا سمعوا كلام موسى وارتبكوا، ولعلَّ من جملة نزاعهم الاشتباه في موسى هل هو على الحقِّ أم لا؟ ولٰكنهم إلى الآن ما تمَّ أمرهم؛ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً؛ ليهلِكَ من هَلَكَ عن بينةٍ ويحيا من حَيَّ عن بينةٍ؛ فحينئذ أسرّوا فيما بينهم النجوى، وأنَّهم يتَّفقون على مقالةٍ واحدةٍ؛ لينجحوا في مقالهم وفعالهم، وليتمسَّك الناس بدينهم.

﴿٦٣﴾ والنجوى التي أسرُّوها فسَّرها بقوله: ﴿قالوا إنْ هٰذانِ لساحرانِ يُريدان أن يخرِجاكم من أرضِكم بسحرِهما﴾؛ كمقالة فرعون السابقة؛ فإمَّا أن يكونَ ذٰلك توافقاً من فرعون والسحرة على هٰذه المقالة من غير قصدٍ، وإما أن يكون تلقيناً منه لهم مقالته التي صمَّم عليها وأظهرها للناس، وزادوا على قول فرعون أن قالوا: ﴿ويَذْهَبا بطريقَتِكم المُثلى﴾؛ أي: طريقة السحر؛ حسدكم عليها، وأراد أن يظهر عليكم؛ ليكون له الفخرُ والصيتُ والشهرةُ، ويكون هو المقصودُ بهٰذا العلم الذي شغلتُم زمانكم فيه ويذهب عنكم ما كنتُم تأكلون بسببه، وما يتبع ذٰلك من الرياسة.

---

(١) في (ب): «وعلمه علماً».

(٢) في (ب): «ويحكم».

﴿٦٤﴾ وهٰذا حضٌّ من بعضهم على بعض[١] على الاجتهاد في مغالبته، ولهٰذا قالوا: ﴿فأجمِعوا كيدَكم﴾؛ أي: أظهروه دفعةً واحدةً متظاهرين متساعدين فيه متناصرين متفقاً رأيُكم وكلمتُكم، ﴿ثم ائتوا صفًّا﴾: ليكونَ أمكنَ لعملكم وأهيبَ لكم في القلوب، ولئلَّا يتركَ بعضُكم بعضَ مقدورِهِ من العمل، واعلموا أنَّ مَنْ أفلح اليوم ونجح وغلب غيره؛ فإنَّه المفلح الفائز؛ فهٰذا يومٌ له ما بعده من الأيام؛ فما[٢] أصلبهم في باطلهم وأشدَّهم فيه! حيث أتوا بكل سببٍ ووسيلةٍ وممكنٍ ومكيدةٍ يكيدون بها الحقَّ.

﴿٦٥﴾ ويأبى اللّه إلَّا أن يُتِمَّ نورَه ويظهِرَ الحقَّ على الباطل، فلما تمَّتْ مكيدتُهم وانحصر قصدُهم ولم يبقَ إلَّا العمل؛ ﴿قالوا﴾ لموسى: ﴿إمَّا أن تلقي﴾: عصاك، ﴿وإمَّا أن نكونَ أولَ من ألقى﴾: خيَّروه موهمين أنَّهم على جزم من ظهورهم عليه بأيِّ حالة كانت.

﴿٦٦﴾ فقال لهم موسى: ﴿بلْ ألقوا﴾: فألقَوْا حبالهم وعصيهم؛ ﴿فإذا حبالُهم وعصيُّهم يُخَيَّلُ إليه﴾؛ أي: إلى موسى ﴿من سحرِهم﴾: البليغ، ﴿أنَّها تسعى﴾: [أنها حيات تسعى].

﴿٦٧﴾ فلما خُيِّل إلى موسى ذٰلك؛ أوجس في نفسِهِ خيفةً كما هو مقتضى الطبيعة البشريَّة، وإلَّا؛ فهو جازمٌ بوعد اللّه ونصره.

﴿٦٨﴾ ﴿قلنا له﴾: تثبيتاً وتطميناً: ﴿لا تخفْ إنَّك أنت الأعلى﴾: عليهم؛ أي: ستعلو عليهم، وتقهرهم، ويذلُّوا لك، ويخضعوا.

﴿٦٩﴾ ﴿وألقِ ما في يمينِك﴾؛ أي: عصاك؛ ﴿تَلَقَّفْ ما صنعوا إنَّما صنعوا كيدُ ساحرٍ ولا يفلِحُ الساحر حيث أتى﴾؛ أي: كيدهم ومكرهم ليس بمثمرٍ لهم ولا ناجح؛ فإنَّه من كيد السحرة الذين يموِّهون على الناس ويُلَبِّسون الباطل ويخيِّلون أنهم على الحقِّ.

﴿٧٠﴾ فألقى موسى عصاه، فتلقَّفت ما صنعوا كلَّه وأكلتْه، والناسُ ينظُرون لذٰلك الصنيع، فعَلِمَ السحرةُ علماً يقيناً أنَّ هٰذا ليس بسحر، وأنَّه من اللّه، فبادروا للإيمان، ﴿فأُلقي السحرةُ﴾ ساجدينَ، ﴿قالوا آمنَّا بربِّ العالمين ربِّ موسى

(١) في (ب): «البعض».
(٢) في (ب): «فلله درهم ما...». وقد طمسها الشيخ في (أ).

وهارون﴾، فوقع الحقُّ وظهر وسطع، وبطل السحر والمكر والكيدُ في ذٰلك المجمع العظيم، فصارتْ بيِّنة ورحمةً للمؤمنين وحجَّة على المعاندين.

﴿٧١﴾ فقال فرعون للسحرة: ﴿آمنتُم له قبلَ أن آذَنَ لكم﴾؛ أي: كيف أقدمتُم على الإيمان من دون مراجعة منِّي ولا إذن، استغرب ذٰلك منهم لأدبهم معه وذلِّهم وانقيادهم له في كلِّ أمر من أمورهم، وجعل هٰذا من ذاك، ثم استلجَّ فرعونُ في كفره وطغيانه بعد هٰذا البرهان، واستخفَّ بقوله[1] قومَهُ، وأظهر لهم أنَّ هٰذه الغلبة من موسى للسحرة ليس لأنَّ الذي معه الحقُّ، بل لأنَّه تمالأ هو والسحرة ومكروا ودبَّروا أن يخرجوا فرعونَ وقومَه من بلادهم، فقبل قومُه هٰذا المكرَ منه، وظنُّوه صدقاً، ﴿فاستخفَّ قومَه فأطاعوه إنَّهم كانوا قوماً فاسقين﴾؛ مع أنَّ هٰذه المقالة التي قالها لا تدخُلُ عقلَ من له أدنى مُسْكة من عقل ومعرفةٍ بالواقع؛ فإنَّ موسى أتى من مَدْيَنَ وحيداً، وحين أتى؛ لم يجتمع بأحدٍ من السحرة ولا غيرهم، بل بادَرَ إلى دعوة فرعون وقومه، وأراهم الآيات، فأراد فرعونُ أن يعارِضَ ما جاء به موسى، فسعى ما أمكنه، وأرسل في مدائنه من يجمعُ له كلَّ ساحر عليم، فجاؤوا إليه، ووعدهم الأجر والمنزلة عند الغلبة، وهم حرصوا غاية الحرص وكادوا أشدَّ الكيد على غلبتهم لموسى، وكان منهم ما كان؛ فهل يمكن أو يُتَصَوَّر مع هٰذا أن يكونوا دبَّروا هم وموسى واتَّفقوا على ما صدر؟! هٰذا من أمحل المحال. ثم توعَّد فرعونُ السحرة فقال: لأقَطِّعَنَّ ﴿أيدِيَكم وأرجُلَكم من خلافٍ﴾: كما يفعل بالمحاربِ الساعي بالفساد؛ يَقْطَعُ يده اليمنى ورجله اليسرى. ﴿ولأصَلِّبَنَّكُم في جذوع النخل﴾؛ أي: لأجل أن تشتهروا وتختزوا. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقى﴾؛ يعني: بزعمه هو وأمته[2] وأنَّه أشدُّ عذاباً من الله وأبقى؛ قلباً للحقائق، وترهيباً لمن لا عقل له.

﴿٧٢﴾ ولهٰذا؛ لما عَرَفَ السحرةُ الحقَّ ورزقَهم الله من العقل ما يدرِكون به الحقائق؛ أجابوه بقولهم: ﴿لَن نُؤْثِرَكَ على ما جاءَنا من البيِّناتِ﴾ [أي لن نختارك وما وعدتنا به من الأجر والتقريب على ما أرانا الله من الآيات البينات]: الدالَّاتِ على أنَّ الله هو الربُّ المعبود وحدَه، المعظَّم المبجَّل وحده، وأنَّ ما سواه باطلٌ، ونؤثِرَكَ على الذي فَطَرنا وخَلَقنا، هٰذا لا يكونُ. ﴿فاقضِ ما أنت قاضٍ﴾: مما أوْعَدْتنا به من القطع والصلب والعذاب، ﴿إنَّما تقضي هٰذه الحياةَ الدُّنيا﴾؛ أي:

(١) في (ب): «عقول».

(٢) كذا في (أ)، وفي (ب): «هو أو الله».

إنما توعدنا به غاية ما يكون في هٰذه الحياة الدُّنيا ينقضي ويزولُ ولا يضرُّنا؛ بخلافِ عذاب الله لمن استمرَّ على كفرِهِ؛ فإنَّه دائمٌ عظيمٌ. وهٰذا كأنَّه جوابٌ منهم لقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقى﴾. وفي هٰذا الكلام من السَّحرة دليلٌ على أنَّه ينبغي للعاقل أن يوازنَ بين لَذَّات الدُّنيا ولذَّات الآخرة وبين عذاب الدُّنيا وعذاب الآخرة.

﴿٧٣﴾ ﴿إنَّا آمنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لنا خَطايانا﴾؛ أي: كُفْرَنا ومعاصينا؛ فإنَّ الإيمان مكفِّر للسيئاتِ، والتوبة تجبُّ ما قبلها. وقولهم: ﴿وما أكْرَهْتَنا عليه من السحر﴾: الذي عارَضْنا به الحقَّ. هٰذا دليلٌ على أنهم غير مختارين في عملهم المتقدِّم، وإنما [أكرههم][1] فرعونُ إكراهاً. والظاهر ـ والله أعلم ـ أنَّ موسى لما وعظهم ـ كما تقدَّم في قوله: ﴿ويلَكُم لا تَفْتروا على اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بعذابٍ﴾ أثَّر معهم ووقع منهم موقعاً كبيراً، ولهٰذا تنازعوا بعد هٰذا الكلام والموعظة. ثمَّ إنَّ فرعونَ ألزمهم ذٰلك وأكرهَهَم على المكرِ الذي أجْرَوْه، ولهٰذا تكلَّموا بكلامه السابق قبل إتيانهم؛ حيث قالوا: ﴿إنْ هٰذانِ لَساحِرانِ يُريدانِ أن يخرجاكم من أرضِكُم بسِحْرِهِما﴾، فَجَرَوا على ما سنَّه لهم وأكرههم عليه. ولعلَّ هٰذه النكتة التي قامت بقلوبهم من كراهتهم لمعارضة الحقِّ بالباطل، وفعلهم ما فعلوا على وجه الإغماضِ هي التي أثَّرت معهم ورحمهم الله بسببها، ووفَّقهم للإيمان والتوبة. ﴿والله خيرٌ﴾: مما أوعدتنا[2] من الأجر والمنزلة والجاه، ﴿وأبقى﴾: ثواباً وإحساناً، لا ما يقول فرعون: ﴿ولَتَعْلَمُنَّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقى﴾؛ يريد أنه أشد عذاباً وأبقى.

وجميع ما أتى من قَصَص موسى مع فرعون يَذْكُرُ الله فيه إذا أتى على قصة السحرة أن فرعون توعدهم بالقطع والصلب ولم يذكر أنَّه فعل ذٰلك، ولم يأتِ في ذٰلك حديثٌ صحيح، والجزم بوقوعه أو عدمِهِ يتوقَّف على الدليل. والله أعلم بذٰلك وغيره، [ولكن توعده إياهم بذلك مع اقتداره، دليل على وقوعه، ولأنه لو لم يقع لذكره الله، ولاتفاق الناقلين على ذلك].

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿٧٤﴾ يخبر تعالى أنَّ مَن أتاه وقَدِم عليه مجرماً ـ أيْ: وصفه الجرم من كل وجهٍ،

---

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «أكرهم». (٢) في (ب): «وعدتنا».

وذلك يستلزم الكفر ـ واستمرَّ على ذلك حتى مات؛ فإنَّ له نار جهنم الشديد نَكالها، العظيمة أغلالها، البعيد قعرها، الأليم حرها وقرها، التي فيها من العقاب ما يُذيب الأكباد والقلوب، ومن شدَّة ذلك أنَّ المعذَّب فيها لا يموت ولا يحيا، لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة يتلذَّذ بها، وإنَّما حياته محشوَّة بعذاب القلب والروح والبدن، الذي لا يُقَدَّر قَدْرُه ولا يُفَتَّر عنه ساعة؛ يستغيثُ فلا يُغاث، ويدعو فلا يُستجاب له؛ نعم؛ إذا استغاث؛ أُغيث بماء كالمهل يشوي الوجوه، وإذا دعا؛ أجيب: بأخسؤوا فيها، ولا تكلمون.

﴿٧٥ ـ ٧٦﴾ ومن يأت ربَّه مؤمناً به، مصدقاً لرسله، متَّبعاً لكتبه، قد عمل الصالحات الواجبة والمستحبَّة؛ ﴿فأولئك لهم الدرجات العلى﴾؛ أي: المنازل العاليات في الغرف المزخرفات، واللَّذَّات المتواصلات، والأنهار السارحات، والخلود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. و﴿ذلك﴾: الثواب ﴿جزاء من تزكَّى﴾؛ أي: تطَهَّر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان: إما أنْ لا يفعَلَها بالكلِّية، أو يتوب مما فعله منها، وزكَّى أيضاً نفسه، ونمَّاها بالإيمان والعمل الصالح؛ فإنَّ للتزكية معنيين: التنقية، وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير، وسمِّيت الزكاة زكاة لهذين الأمرين.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿٧٧ ـ ٧٩﴾ لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه؛ مكث في مصر يدعوهم إلى الإسلام ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابِهِ، وفرعونُ في عتوٍّ ونفور، وأمره شديدٌ على بني إسرائيل، ويريه الله من الآيات والعبر ما قصَّه الله علينا في القرآن، وبنو إسرائيل لا يقدِرون أن يُظْهِروا إيمانَهم ويعلِنوه، قد اتَّخذوا بيوتهم مساجدَ، وصبروا على فرعون وأذاه، فأراد الله تعالى أن ينجِّيهم من عدوِّهم ويمكِّن لهم في الأرض؛ ليعبدوه جَهْراً ويُقيموا أمره، فأوحى إلى نبيِّه موسى أن يواعِدَ بني إسرائيل سرًّا ويسيروا أولَ الليل ليتمادوا(١) في الأرض، وأخبره أنَّ فرعون وقومه سَيَتَّبعونه، فخرجوا أولَ الليل، جميعُ بني إسرائيل [هم] ونساؤُهم وذرِّيَّتُهم، فلما أصبح أهل مصر، وإذا هم ليس فيهم منهم داعٍ ولا

(١) في (ب): «الكلمة غير واضحة».

مجيبٌ، فَحَنَقَ عليهم عدوُّهم فرعون، وأرسل في المدائن من يَجْمَعُ له الناس ويحضُّهم على الخروج في أثر بني إسرائيل، [ليوقع بهم وينفذ غيظه، والله غالب على أمره، فتكاملت جنود فرعون فسار بهم يتبع بني إسرائيل] فاتَّبَعوهم مشرِقين، فلما تراءى الجمعانِ؛ قال أصحابُ موسى: إنَّا لَمدركون، وقلقوا، وخافوا: البحر أمامهم. وفرعون من ورائهم؛ قد امتلأ عليهم غيظاً وحنقاً، وموسى مطمئنُّ القلب ساكنُ البال، قد وَثِقَ بوعد ربِّه فقال: ﴿كلَّا إنَّ معي ربي سيهدينِ﴾؛ فأوحى الله إليه أن يَضرِبَ البحر بعصاه، فضربه، فانفرق اثني عشر طريقاً، وصار الماء كالجبال العالية عن يمين الطرق ويسارها، وأيبس الله طُرُقهم التي انفرق عنها الماء، وأمرهم الله أن لا يخافوا من إدراكِ فرعونَ ولا يَخْشَوا من الغرق في البحر، فسلكوا في تلك الطرق، فجاء فرعونُ وجنودُه، فسلكوا وراءهم، حتَّى تكامل قوم موسى خارجين وقوم فرعون داخلين؛ أمر الله البحر، فالتطم عليهم، وغَشِيَهم من اليمِّ ما غَشِيَهم، وغرقوا كلُّهم، ولم ينجُ منهم أحدٌ، وبنو إسرائيل ينظُرون إلى عدوِّهم، قد أقرَّ الله أعيُنَهم بهلاكِهِ[1]، وهٰذا عاقبة الكفر والضلال وعدم الاهتداء بهدي الله، ولهٰذا قال تعالى: ﴿وأضلَّ فرعونُ قومَه﴾: بما زيَّن لهم من الكفر، وتهجين ما أتى به موسى، واستخفافِهِ إيَّاهم، وما هداهم في وقت من الأوقات، فأوردهم موارد الغيِّ والضَّلال، ثم أوردهم مورد العذاب والنَّكال.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿٨٠ ـ ٨١﴾ يذكِّر تعالى بني إسرائيل منَّته العظيمة عليهم بإهلاك عدوِّهم، ومواعدته لموسى عليه السلام بجانب الطُّور الأيمن؛ لينزل عليه الكتاب الذي فيه الأحكام الجليلة والأخبار الجميلة، فتتمُّ عليهم النعمة الدينيَّة بعد النعمة الدنيويَّة، ويذكِّر منَّته أيضاً عليهم في التيه بإنزال المنِّ والسلوى والرزق الرَّغَد الهني، الذي يحصُلُ لهم بلا مشقَّة، وأنه قال لهم: ﴿كُلوا من طيِّبات ما رَزَقْناكم﴾؛ أي: واشكروه على ما أسدى إليكم من النعم. ﴿ولا تَطْغَوا فيه﴾؛ أي: في رزقه فتستعملونه في معاصيه وتبطرون النعمة فإنكم إن فعلتم ذٰلك حلَّ عليكم غضبي؛

(١) كذا في (أ) وفي (ب): «بهلاكهم».

أي: غضبتُ عليكم ثم عذَّبتكم. ﴿ومَن يَحْلُلْ عليه غضبي فقد هوى﴾؛ أي: ردي وهلك وخاب وخسر؛ لأنه عَدِمَ الرِّضا والإحسان، وحلَّ عليه الغضب والخسران.

﴿٨٢﴾ ومع هٰذا؛ فالتوبة معروضةٌ، ولو عمل العبد ما عمل من المعاصي، ولهٰذا قال: ﴿وإنِّي لغفارٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة والرحمة، ﴿لمن تابَ﴾: من الكفر والبدعة والفسوق، و﴿آمن﴾: باللّه وملائكته وكتبِهِ ورسلِهِ واليوم الآخر، ﴿وعمل صالحاً﴾: من أعمال القلب والبدن وأقوال اللسان، ﴿ثمَّ اهتدى﴾؛ أي: سلك الصراط المستقيم، وتابع الرسول الكريم، واقتدى بالدِّين القويم؛ فهٰذا يغفر اللّه أوزاره، ويعفو عما تقدَّم من ذنبه وإصراره؛ لأنَّه أتى بالسبب الأكبر للمغفرة والرحمة، بل الأسباب كلُّها منحصرةٌ في هٰذه الأشياء؛ فإنَّ التوبة تجبُّ ما قبلها، والإيمان والإسلام يهدم ما قبله، والعمل الصالحُ الذي هو الحسناتُ يُذْهِبُ السيئاتِ، وسلوكُ طرق الهداية، بجميع أنواعها، من تعلُّم علم وتدبُّر آية أو حديث، حتى يتبيَّن له معنى من المعاني يهتدي به، ودعوة إلى دين الحقِّ وردِّ بدعة أو كفر أو ضلالة وجهاد وهجرةٍ وغير ذٰلك، من جزئيَّات الهداية كلها مكفِّرات للذنوب محصِّلات لغاية المطلوب.

﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾﴾.

﴿٨٣﴾ كان اللّه تعالى قد واعَدَ موسى أن يأتِيَهُ لِيُنْزِلَ عليه التوراة ثلاثين ليلةً، فأتمَّها بعشرٍ، فلما تمَّ الميقات؛ بادر موسى عليه السلام إلى الحضور للموعد شوقاً لربِّه وحرصاً على موعوده، فقال اللّه له: ﴿وما أعْجَلَكَ عن قومك يا موسى﴾؛ أي: ما الذي قدَّمك عليهم؟ ولِمَ لَمْ تصبِرْ حتى تَقْدِمَ أنت وهم؟

﴿٨٤﴾ ﴿قال هم أولاءِ على أثري﴾؛ أي: قريباً مني، وسيصلون في أثري، والذي عَجَّلَني إليك يا ربِّ الطلبُ[١] لقربك والمسارعة[٢] في رضاك والشوق[٣] إليك.

---

(١) في (ب): «طلباً».

(٢) في (ب): «ومسارعةً».

(٣) في (ب): «وشوقاً».

﴿٨٥﴾ فقال اللّه له: ﴿فإنّا قد فتنّا قومَكَ من بعدِكَ﴾؛ أي: بعبادتهم للعجل ابتليناهم واختبرناهم فلم يصبِروا، وحين وصلتْ إليهم المحنة كفروا، ﴿وأضلَّهم السامريُّ﴾: فأخرج لهم عجلاً جسداً وصاغَهُ فصار له خُوارٌ، وقال لهم: هٰذا إلٰهكم وإلٰه موسى، فنسِيَه موسى، فافتتن به بنو إسرائيل، فعبدوه، ونهاهم هارونُ، فلم ينتهوا.

﴿٨٦﴾ فلما رجع موسى إلى قومِهِ وهو غضبان أسف؛ أي: ممتلىء غيظاً وحنقاً وغمًّا؛ قال لهم موبِّخاً ومقبحاً لفعلهم: ﴿يا قوم ألَمْ يَعِدْكُم ربُّكم وعداً حسناً﴾: وذٰلك بإنزال التوراة. ﴿أفطالَ عليكُمُ العهدُ﴾؛ أي: المدة فتطاولتم غيبتي وهي مدة قصيرة؟! هٰذا قول كثيرٍ من المفسرين، ويُحتمل أنَّ معناه: أفطال عليكُم عهد النبوَّة والرِّسالة، فلم يكن لكم بالنبوَّة علمٌ ولا أثرٌ، واندرستْ آثارُها، فلم تقِفوا منها على خبرٍ، فانمحت آثارُها لبعد العهد بها، فعبدتُم غير اللّه لغلبة الجهل وعدم العلم بآثار الرسالة؟! أي: ليس الأمر كذٰلك، بل النبوَّة بين أظهركم، والعلم قائمٌ، والعذر غيرُ مقبول. ﴿أم أردتُم﴾: بفعلكم ﴿أن يَحِلَّ عليكم غضبٌ من ربِّكم﴾؛ أي: فتعرَّضتم لأسبابه واقتحمتم موجب عذابه، وهٰذا هو الواقع. ﴿فأخلفتُم موعدي﴾: حين أمرتكم بالاستقامة ووصيت بكم هارون فلم ترقُبوا غائباً ولم تحترموا حاضراً.

﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾.

﴿٨٧ ـ ٨٨﴾ أي: قالوا له: ما فعلنا الذي فعلنا عن تعمُّدٍ منَّا وملكٍ منَّا لأنفسنا، ولكن السبب الداعي لذٰلك أنَّنا تأثَّمنا من زينة القوم التي عندنا، وكانوا فيما يَذْكُرون استعاروا حُلِيًّا كثيراً من القبط، فخرجوا وهو معهم، وألقوه وجمعوه حين ذهب موسى ليراجعوه فيه إذا رجع، وكان السامريُّ قد بصر يومَ الغرق بأثر الرسول، فسوَّلت له نفسُه أن يأخُذَ قبضةً من أثرِه، وأنَّه إذا ألقاها على شيءٍ حَيِيَ فتنة وامتحاناً، فألقاها على ذٰلك العجل الذي صاغه بصورة عجل، فتحرَّك العجلُ وصار له خُوارٌ وصوتٌ، وقالوا: إنَّ موسى ذهب يطلُبُ ربَّه، وهو هاهنا، فنسِيَه.

﴿٨٩﴾ وهٰذا من بلادتهم وسخافة عقولهم؛ حيث رأوا هٰذا الغريب الذي صار له خُوارٌ بعد أن كان جماداً، فظنُّوه إلٰه الأرض والسماوات، أفلا يَرَوْنَ أنَّ العجل لا

﴿يرجعُ إليهم قولاً﴾؛ أي: لا يتكلَّم ويراجعهم ويراجعونه، ﴿ولا يملكُ لهم ضرًّا ولا نفعاً﴾؛ فالعادم للكمال والكلام والفعال لا يستحقُّ أن يُعْبَدَ، وهو أنقصُ من عابديه؛ فإنَّهم يتكلَّمون ويقدِرون على بعض الأشياء من النفع والدفع بإقدارِ الله لهم.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾.

﴿٩٠ ـ ٩١﴾ أي: إنَّهم باتِّخاذهم[١] العجل ليسوا معذورينَ فيه؛ فإنَّه وإنْ كانت عَرَضَتْ لهم الشبهةُ في أصل عبادته؛ فإنَّ هارونَ قد نهاهم عنه، وأخبرهم أنه فتنة، وأن ربَّهم الرحمٰن الذي منه النعم الظاهرة والباطنة، الدافع للنقم، وأنَّه أمرهم أن يتَّبعوه ويعتزلوا العجل، فأبوا وقالوا: ﴿لن نَبْرَحَ عليه عاكفينَ حتَّى يرجِعَ إلينا موسى﴾.

﴿٩٢ ـ ٩٣﴾ فأقبل موسى على أخيه لائماً له، وقال: ﴿يا هارونُ ما منعكَ إذْ رأيتَهم ضَلُّوا. أن لا تَتَّبِعَنِ﴾: فتخبِرَني لأبادِرَ للرُّجوع إليهم. ﴿أفعصيتَ أمري﴾: في قولي: ﴿اخلُفني في قومي وأصْلِحْ ولا تَتَّبع سبيلَ المفسدين﴾: فأخذ موسى برأسِ هارون ولحيتِهِ يجرُّه من الغضب والعتب عليه.

﴿٩٤﴾ فقال هارون: ﴿يا ابن أمَّ﴾: ترقيقٌ له، وإلَّا فهو شقيقه. ﴿لا تأخُذ بلحيتي ولا برأسي إنِّي خشيتُ أن تقولَ فرَّقتَ بين بني إسرائيلَ ولم تَرْقُبْ قَولي﴾: فإنَّك أمرتني أن أخلُفَكَ فيهم؛ فلو تبعتُك؛ لتركتُ ما أمرتَني بلزومِهِ، وخشيتُ لائمتَكَ، وأن تقول: فرَّقْتَ بين بني إسرائيل؛ حيث تركتَهم وليس عندَهم راعٍ ولا خليفةٌ؛ فإنَّ هٰذا يفرِّقُهم، ويشتِّت شملَهم؛ فلا تَجْعَلْني مع القوم الظالمين، ولا تشمِّتْ فينا الأعداء. فندم موسى على ما صَنَعَ بأخيه وهو غير مستحقٍّ لذٰلك، فقال: ﴿ربِّ اغفِرْ لي ولأخي وأدْخِلْنا في رحمتِكَ وأنت أرحم الراحمين﴾.

ثم أقبل على السامريِّ:

---

(١) في (ب): «أن اتخاذهم».

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾.

﴿٩٥ ـ ٩٦﴾ أي: ما شأنُك يا سامريُّ حيثُ فعلتَ ما فعلتَ؟ فقال: ﴿بَصُرتُ بما لم يَبْصُروا به﴾: وهو جبريلُ عليه السلام على فرس، رآه وقتَ خروجهم من البحر وغرقِ فرعون وجنوده على ما قاله المفسرون، ﴿فقبضتُ قبضةً من أثرِ﴾ حافر فرسِهِ، فنبذتُها على العجل، ﴿وكذٰلك سَوَّلَتْ لي نفسي﴾: أنْ أقبِضَها ثمَّ أنبِذَها، فكان ما كان.

﴿٩٧﴾ فقال له موسى: اذهبْ؛ أي: تباعَدْ عنِّي واستأخِرْ منِّي. ﴿فإنَّ لك في الحياة أن تقولَ لا مِساسَ﴾؛ أي: تعاقَبُ في الحياة عقوبةً، لا يدنو منك أحدٌ ولا يَمَسُّك أحدٌ، حتى إنَّ من أراد القرب منك؛ قلت له: لا تَمَسَّني ولا تَقْرَبْ مني؛ عقوبةً على ذٰلك؛ حيث مسَّ ما لم يمسَّه غيره وأجرى ما لم يجرِهِ أحدٌ. ﴿وإنَّ لك موعداً لن تُخْلَفَهُ﴾: فتُجازى بعملك من خيرٍ وشرٍّ. ﴿وانظُرْ إلى إلٰهك الذي ظَلْتَ عليه عاكفاً﴾؛ أي: العجل، ﴿لَنُحَرِّقَنَّه ثم لَنَنسِفَنَّه في اليمِّ نَسْفاً﴾: ففعل موسى ذٰلك؛ فلو كان إلٰهاً؛ لامتنع ممَّن يريده بأذى ويسعى له بالإتلاف. وكان قد أُشْرِبَ العجلُ في قلوب بني إسرائيل، فأراد موسى عليه السلام إتلافَه وهم ينظُرون على وجهٍ لا تمكن إعادتُه؛ بالإحراق والسَّحْق وذَرْيِهِ في اليمِّ ونسفِهِ؛ ليزول ما في قلوبهم من حبِّه كما زال شخصه، ولأنَّ في إبقائه محنةً؛ لأن في النفوس أقوى داعٍ إلى الباطل.

فلما تبيَّن لهم بطلانه؛ أخبرهم بمن يستحقُّ العبادة وحده لا شريك له، فقال:

﴿إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

﴿٩٨﴾ أي: لا معبود إلَّا وجهه الكريم؛ فلا يؤلَّه ولا يُحَبُّ ولا يُرجى ولا يُخاف ولا يُدعى إلَّا هو؛ لأنَّه الكامل الذي له الأسماء الحسنى والصفات العُلى، المحيط علمه بجميع الأشياء، الذي ما من نعمة بالعباد إلَّا منه، ولا يدفع السوء إلَّا هو؛ فلا إلٰه إلَّا هو، ولا معبود سواه.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾.

﴿٩٩﴾ يمتنُّ اللّه تعالى على نبيِّه ﷺ بما قصَّه عليه من أنباء السابقين وأخبار السالفين؛ كهٰذه القصَّة العظيمة، وما فيها من الأحكام وغيرها، التي لا ينكرها أحدٌ من أهل الكتاب؛ فأنت لم تدرُسْ أخبار الأولين، ولم تتعلَّمْ ممَّن دراها؛ فإخبارُك بالحقِّ اليقين من أخبارهم دليلٌ على أنَّك رسولُ اللّه حقًّا، وما جئت به صدقٌ، ولهٰذا قال: ﴿وقد آتيناك مِن لَدُنَّا﴾؛ أي: عطيَّة نفيسة ومِنْحة جزيلة من عندنا، ﴿ذِكْراً﴾: وهو هٰذا القرآن الكريم؛ ذِكْرٌ للأخبار السابقة واللاحقة، وذِكْرٌ يُتَذَكَّرُ به ما للّه تعالى من الأسماء والصفات الكاملة، ويُتَذَكَّرُ به أحكام الأمرِ والنهي وأحكام الجزاء، وهٰذا ممَّا يدلُّ على أنَّ القرآن مشتملٌ على أحسن ما يكونُ من الأحكام، التي تشهد العقولُ والفِطَرُ بحسنها وكمالها، ويذكُرُ هٰذا القرآن ما أودَعَ اللّه فيها. وإذا كان القرآنُ ذكراً للرسول ولأمَّته؛ فيجبُ تلقِّيه بالقَبول والتسليم والانقياد والتعظيم، وأنْ يُهْتَدَى بنوره إلى الصراط المستقيم، وأنْ يُقْبِلوا عليه بالتعلُّم والتعليم.

﴿١٠٠﴾ وأما مقابلته بالإعراض أو ما هو أعظم منه من الإنكار؛ فإنَّه كفرٌ لهٰذه النعمة، ومن فعل ذٰلك؛ فهو مستحقٌّ للعقوبة، ولهٰذا قال: ﴿مَنْ أعْرَضَ عنه﴾: فلم يؤمنْ به أو تهاونَ بأوامرِهِ ونواهيهِ أو بتعلُّم معانيه الواجبة، ﴿فإنَّه يَحْمِلُ يوم القيامةِ وِزْراً﴾: وهو ذنبُه الذي بسببه أعرض عن القرآن، وأولاه الكفر والهجران.

﴿١٠١﴾ ﴿خالدين فيه﴾؛ أي: في وِزْرِهم؛ لأنَّ العذاب هو نفس الأعمال، تنقلب عذاباً على أصحابها بحسب صغرها وكبرها، ﴿وساءَ لهم يومَ القيامةِ حِمْلاً﴾؛ أي: بئس الحملُ الذي يحمِلونه والعذابُ الذي يعذَّبونه يوم القيامة.

ثم استطرد فذكر أحوال يوم القيامة وأهواله فقال:

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿١٠٢ ـ ١٠٤﴾ أي: إذا نُفِخَ في الصور، وخرج الناس من قبورهم؛ كل على حسب حاله؛ فالمتَّقون يُحشَرون إلى الرحمٰن وفداً، والمجرِمون يُحْشَرون زُرقاً

ألوانُهم من الخوف والقلق والعطش؛ يتناجَوْن بينَهم ويَتَخافَتون[١] في قِصَرِ مدَّة الدُّنيا وسرعة الآخرة، فيقول بعضُهم ما لبثتُم إلَّا عشرة أيَّام، ويقول بعضُهم غير ذٰلك، واللّه يعلمُ تخافُتَهم ويسمعُ ما يقولون: ﴿إذْ يقولُ أمثلُهم طريقةً﴾؛ أي: أعدلهم وأقربهم إلى التقدير: ﴿إن لَبِثْتُم إلَّا يوماً﴾: والمقصود من هٰذا الندم العظيم؛ كيف ضيَّعوا الأوقات القصيرة وقطعوها ساهين لاهين معرضين عما ينفعُهم مقبِلين على ما يضرُّهم؛ فها قد حضر الجزاءُ، وحقَّ الوعيد، فلم يبق إلَّا الندمُ والدُّعاء بالويل والثبور؛ كما قال تعالى: ﴿قال كم لَبِثْتُم في الأرض عَدَدَ سنين. قالوا لَبِثْنا يوماً أو بعضَ يوم فاسْأَلِ العادِّينَ قالَ إن لَبِثْتُم إلَّا قليلاً لو أنَّكم كنتُم تعلمونَ﴾.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.

﴿١٠٥ ـ ١٠٧﴾ يخبر تعالى عن أهوال القيامة وما فيها من الزلازل والقلاقل، فقال: ﴿ويسألونك عن الجبال﴾؛ أي: ماذا يُصنعُ بها يوم القيامة؟ وهل تبقى بحالها أم لا؟ ﴿فقل ينسِفُها ربِّي نسفاً﴾؛ أي: يزيلُها ويقلعُها من أماكنها، فتكون كالعهن وكالرمل، ثم يدكُّها فيجعلها هباءً منبثًّا، فتضمحِلُّ وتتلاشى، ويسوِّيها بالأرض، ويجعل الأرض ﴿قاعاً صفصفاً﴾: مستوياً، ﴿لا ترى فيها﴾: أيُّها الناظر، ﴿عِوَجاً﴾: هٰذا من تمام استوائها، ﴿ولا أمْتاً﴾؛ أي: أودية وأماكن منخفضة أو مرتفعة، فتبرز الأرض وتتَّسع للخلائق ويمدُّها اللّه مدَّ الأديم، فيكونون في موقف واحدٍ، يسمعُهم الداعي، وينفذُهم البصرُ.

﴿١٠٨ ـ ١١٠﴾ ولهٰذا قال: ﴿يومئذٍ يتَّبعونَ الداعيَ﴾: وذٰلك حين يبُعثون من قبورهم ويقومون منها؛ يدعوهم الداعي إلى الحضور والاجتماع للموقف، فيتَّبِعونه مهطعينَ إليه، لا يلتفتون عنه، ولا يعرُجون يمنةً ولا يسرةً. وقوله: ﴿لا عِوَجَ له﴾؛

---

(١) في (ب): «ويتخافون».

أي: لا عوج لدعوة الداعي، بل تكون دعوته حقًّا وصدقاً لجميع الخلق، يُسمِعُهم جميعَهم، ويصيح لهم أجمعين، فيحضُرون لموقف القيامة خاشعةً أصواتُهم للرحمٰن. ﴿فلا تسمعُ إلَّا همساً﴾؛ أي: إلا وطء الأقدام أو المخافتة سرًّا بتحريك الشفتين فقط؛ يملكهم الخشوعُ والسكوتُ[1] والإنصاتُ؛ انتظاراً لحكم الرحمٰن فيهم، وتعنوا وجوهُهم؛ أي: تذِلُّ وتخضع، فترى في ذٰلك الموقف العظيم الأغنياء والفقراء والرجال والنساء والأحرار والأرقاء والملوك والسوقة، ساكتين منصتين خاشعةً أبصارُهم خاضعةً رقابُهم جاثين على رُكَبِهم عانيةً وجوهُهم، لا يدرون ماذا ينفصِلُ كلٌّ منهم به ولا ماذا يفعلُ به، قد اشتغل كلٌّ بنفسِهِ وشأنه عن أبيه وأخيه وصديقه وحبيبه، لكلِّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه، [فحينئذ] يحكم فيه الحاكمُ العدلُ الديَّانُ، ويجازي المحسنَ بإحسانِهِ والمسيءَ بالحرمان.

والأمل بالربِّ الكريم الرحمٰن الرحيم أن يُري الخلائقَ منه من الفضل والإحسان والعَفْو والصَّفْح والغُفْران ما لا تعبِّرُ عنه الألسنةُ ولا تتصوَّره الأفكارُ، ويتطلَّع لرحمتِهِ إذ ذاك جميعُ الخلق؛ لما يشاهدونه، فيختصُّ المؤمنون به وبرسله بالرحمةِ.

فإنْ قيل من أين لكم هٰذا الأمل؟ وإن شئت قلتَ: من أين لكم هٰذا العلم بما ذُكِرَ؟

قلنا: لما نعلمُهُ من غلبةِ رحمتِهِ لغضبِهِ، ومن سَعَةِ جودِهِ الذي عمَّ جميع البرايا، ومما نشاهده في أنفسنا وفي غيرنا من النعم المتواترة في هٰذه الدار، وخصوصاً في فصل القيامة؛ فإنَّ قوله: ﴿وخشعتِ الأصواتُ للرحمٰن﴾ ﴿إلَّا مَنْ أذِنَ له الرحمٰنُ﴾، مع قوله: ﴿الملكُ يومئذٍ الحقُّ للرحمٰن﴾، مع قوله ﷺ: «إنَّ للّٰه مائةَ رحمةٍ، أنزل لعباده رحمةً بها يتراحمون ويتعاطفون، حتى إن البهيمةَ ترفعُ حافِرَها عن ولدها خشيةَ أن تطأه»،[2] [أي]: من الرحمة المودَعة في قلبها؛ فإذا كان يومُ القيامةِ؛ ضمَّ هٰذه الرحمة إلى تسع وتسعين رحمةً، فرحم بها العباد، مع قوله ﷺ: «للّٰهُ أرحمُ بعبادِهِ من الوالدة بولدِها»[3]؛ فقل ما شئتَ عن رحمتِهِ؛ فإنَّها فوق ما تقولُ، وتصوَّرْ فوق ما شئتَ؛ فإنَّها فوق ذٰلك؛ فسبحان من رحم في عدله

---

(١) في (ب): «والسكون».

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٦٠٠٠)، و«مسلم» (٢٧٥٢) عن أبي هريرة رضي اللّٰه عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤) بنحوه.

وعقوبته، كما رحم في فضله وإحسانه ومثوبته، وتعالى مَنْ وسعت رحمتُهُ كلَّ شيء، وعمَّ كرمُهُ كلَّ حيٍّ، وجلَّ من غنيٍّ عن عبادِهِ رحيم بهم، وهم مفتقرونَ إليه على الدوام في جميع أحوالهم؛ فلا غنى لهم عنه طرفةَ عين.

وقوله: ﴿يومئذٍ لا تنفعُ الشفاعةُ إلَّا مَن أذِنَ له الرحمٰن ورضي له قَوْلاً﴾؛ أي: لا يشفع أحدٌ عنده من الخلق إلَّا مَنْ[1] أذِنَ له في الشفاعة، ولا يأذنُ إلَّا لمن رَضِيَ قوله؛ أي: شفاعته؛ من الأنبياء والمرسلين وعباده المقرَّبين فيمن ارتضى قوله وعمله، وهو المؤمن المخلص؛ فإذا اختلَّ واحدٌ من هٰذه الأمور؛ فلا سبيلَ لأحدٍ إلى شفاعة من أحد.

﴿١١١ ـ ١١٢﴾ وينقسم الناسُ في ذٰلك الموقف قسمين: ظالمين بكفرِهم وشرِّهم؛ فهٰؤلاء لا ينالُهم إلَّا الخيبة والحرمان والعذاب الأليم في جهنَّم وسخطُ الدَّيَّان. **والقسم الثاني**: مَنْ آمَنَ الإيمان المأمور به، وعمل صالحاً من واجب ومسنون؛ ﴿فلا يخافُ ظلماً﴾؛ أي: زيادة في سيئاتِهِ. ﴿ولا هَضْماً﴾؛ أي: نقصاً من حسناته، بل تُغْفَرُ ذنوبُهُ وتُطَهَّرُ عيوبه وتضاعَفُ حسناتُهُ، ﴿وإن تَكُ حسنةً يضاعِفْها ويؤتِ من لَدُنْه أجراً عظيماً﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾.

﴿١١٣﴾ أي: وكذٰلك أنزلنا هٰذا الكتاب باللِّسان الفاضل العربيِّ الذي تفهمونه وتفقهونه ولا يخفى عليكم لفظُهُ ولا معناه. ﴿وصرَّفنا فيه من الوعيدِ﴾؛ أي: نوعناها أنواعاً كثيرةً؛ تارةً بذكر أسمائِهِ الدالَّة على العدل والانتقام، وتارةً بذكر المَثُلاتِ التي أحلَّها بالأمم السابقة، وأمر أن تَعْتَبِرَ بها الأممُ اللاحقةُ، وتارةً بذكرِ آثار الذُّنوب وما تُكْسِبُه من العيوب، وتارةً بذِكْر أهوال القيامة وما فيها من المزعجاتِ والمقلقاتِ، وتارةً بذكر جهنَّم وما فيها من أنواع العقابِ وأصناف العذابِ؛ كل هٰذا رحمةً بالعباد؛ ﴿لعلَّهم يتَّقون﴾: اللّه، فيترُكون من الشرِّ والمعاصي ما يضرُّهم، ﴿أو يحدِثُ لهم ذِكْراً﴾: فيعملون من الطاعات والخير ما ينفعهم، فكونه عربيًّا وكونه مصرفاً فيه من الوعيد أكبرُ سبب وأعظمُ داعٍ للتقوى والعمل الصالح؛ فلو كان غير عربيٍّ أو غير مصرَّفٍ فيه؛ لم يكن له هٰذا الأثر.

(١) في (ب): «إذا».

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

﴿١١٤﴾ لما ذكر تعالى حكمَةُ الجزائيَّ في عبادِهِ، وحكمه الأمريَّ الدينيَّ الذي أنزله في الكتاب وكان هٰذا من آثار ملكه؛ قال: ﴿فتعالى اللّه﴾؛ أي: جلَّ وارتفع وتقدَّس عن كلِّ نقص وآفة. ﴿الملكُ﴾: الذي المُلْكُ وصفُه، والخلق كلُّهم مماليك له، وأحكام المُلْك القدريَّة والشرعيَّة نافذة فيهم. ﴿الحقُّ﴾؛ أي: وجوده ومُلكه وكمالُه حقٌّ؛ فصفات الكمال لا تكون حقيقةً إلا لذي الجلال، ومن ذٰلك الملك؛ فإنَّ غيره من الخلق، وإنْ كان له ملكٌ في بعض الأوقات على بعض الأشياء؛ فإنَّه ملكٌ قاصرٌ باطلٌ يزولُ، وأما الربُّ؛ فلا يزال ولا يزول ملكاً حيًّا قيوماً جليلاً. ﴿ولا تَعْجَلْ بالقرآنِ من قبلِ أن يُقْضى إليك وحيُهُ﴾؛ أي: لا تبادِرْ بتلقُّف القرآن حين يتلوه عليك جبريلُ، واصبرْ حتى يفرغ منه؛ فإذا فَرَغَ منه؛ فاقرأْهُ؛ فإنَّ اللّه قد ضَمِنَ لك جمعَه في صدرك وقراءتك إيَّاه؛ كما قال تعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ به لِسانَكَ لِتَعْجَلَ به إنَّ عَلَيْنا جَمْعَه وقرآنَهُ. فإذا قَرَأْناه فاتَّبِعْ قرآنَهُ. ثم إنَّ عَلَيْنا بيانَهُ﴾. ولما كانت عَجَلَتُهُ ﷺ على تلقُّف الوحي ومبادرتُهُ إليه يدلُّ على محبَّته التامَّة للعلم وحرصه عليه؛ أمره تعالى أن يسألَهُ زيادةَ العلم؛ فإنَّ العلم خيرٌ، وكثرةُ الخير مطلوبةٌ، وهي من اللّه، والطريق إليها الاجتهاد والشوق للعلم وسؤالُ اللّه والاستعانةُ به والافتقارُ إليه في كل وقت.

ويؤخذ من هٰذه الآية الكريمة الأدب في تلقِّي العلم، وأنَّ المستمع للعلم ينبغي له أن يتأنَّى ويصبِرَ حتى يفرغَ المملي والمعلِّم من كلامه المتَّصل بعضه ببعض؛ فإذا فَرَغَ منه؛ سأل إن كان عنده سؤالٌ، ولا يبادِرُ بالسؤال وقطع كلام مُلقي العلم؛ فإنَّه سببٌ للحرمان، وكذٰلك المسؤول ينبغي له أن يستملي سؤال السائل ويعرف المقصودَ منه قبل الجواب؛ فإنَّ ذٰلك سببٌ لإصابة الصواب.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾.

﴿١١٥﴾ أي: ولقد وصَّينا آدم وأمرناه وعَهِدْنا إليه عهداً ليقوم به، فالتزَمَه وأذعن له وانقادَ وعزمَ على القيام به، ومع ذٰلك نَسِيَ ما أُمِرَ به، وانتقضت عزيمتُه المحكمة، فجرى عليه ما جرى، فصار عبرةً لذرِّيَّته، وصارت طبائعُهم مثل طبيعة آدم؛ نسي فنسيت ذُرِّيَّتُه، وخَطِىء فخطئوا، ولم يثبت على العزم المؤكَّد وهم

كذلك، وبادر بالتوبة من خطيئته، وأقرَّ بها، واعترفَ فغُفِرَتْ له، ومن يشابِهْ أباه فما ظلم.

ثم ذكر تفصيل ما أجمله، فقال:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا
عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾
وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ
شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن
وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿١١٦﴾ أي: لما أكمل خلقَ آدم بيدِهِ، وعلَّمه الأسماء، وفضَّله وكرَّمه؛ أمر الملائكة بالسجود له إكراماً وتعظيماً وإجلالاً، فبادروا بالسُّجود ممتثلين، وكان بينهم إبليسُ، فاستكبر عن أمرِ ربِّه، وامتنع من السجود لآدم، وقال: ﴿أنا خيرٌ منه خَلَقْتَني من نارٍ وخَلَقْتَه من طينٍ﴾.

﴿١١٧ ـ ١١٨﴾ فتبينتْ حينئذٍ عداوتُه البليغةُ لآدم وزوجِهِ لما كان عدوًّا لله، وظهر من حسده ما كان سبب العداوة، فحذَّر الله آدم وزوجه منه، وقال: لا ﴿**يُخرِجَنَّكُما من الجنَّةِ فتَشْقى**﴾: إذا أخرِجْتَ منها؛ فإنَّ لك فيها الرزق الهني والراحة التامة، ﴿**إنَّ لَكَ ألَّا تَجُوعَ فِيهَا ولا تَعْرَى. وأنَّك لا تَظْمَأُ فِيهَا ولا تَضْحَى**﴾؛ أي: تصيبُك الشمس بحرِّها، فضَمِنَ له استمرار الطعام والشراب والكسوة والماء وعدم التعب والنَّصَب، ولٰكنَّه نهاه عن أكل شجرةٍ معيَّنة، فقال: ﴿ولا تَقْرَبا هٰذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾.

﴿١٢٠﴾ فلم يزل الشيطانُ يوسوسُ لهما ويُزيِّن أكل الشجرة ويقولُ: ﴿**هل أدُلُّك على شجرةِ الخُلْدِ**﴾؛ أي: [الشجرة] التي مَنْ أكل منها خَلَدَ في الجنة، ﴿**ومُلْكٍ لا يَبْلى**﴾؛ أي: لا ينقطع إذا[1] أكلتَ منها.

﴿١٢١﴾ فأتاه بصورة ناصح، وتلطَّف له في الكلام؛ فاغترَّ به آدمُ، فأكلا[2] من الشجرةِ، فسُقِطَ في أيديهما وسَقَطَتْ كسوتُهما، واتَّضحت معصيتُهما، وبدا لكلٍّ منهما سوأة الآخر بعد أن كانا مستورَيْن، وجعلا يَخْصِفان على أنفسهما من ورق

---

(١) في (ب): «إن».

(٢) في (ب): «وأكلا».

أشجار الجنَّة؛ ليستَتِر بذلك، وأصابهما من الخجل ما اللّه به عليم. ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾: فبادرا إلى التوبة والإنابة وقالا:

﴿١٢٢﴾ ﴿ربَّنا ظَلَمْنا أنفُسنا وإن لم تَغْفِرْ لنا وترحَمْنا لَنَكونَنَّ من الخاسرينَ﴾: فاجتباه ربُّه واختاره ويَسَّرَ له التوبة، فتاب عليه وهدى، فكان بعد التوبة أحسنَ منه قبلَها، ورجع كيدُ العدوِّ عليه، وبَطَلَ مكرُهُ، فتمَّت النعمة عليه وعلى ذُرِّيَّته، ووجب عليهم القيام بها والاعتراف وأنْ يكونوا على حَذَرٍ من هٰذا العدوِّ المرابط الملازم لهم ليلاً ونهاراً، ﴿يا بني آدمَ لا يَفْتِنَنَّكُم الشيطانُ كما أخرجَ أبَوَيْكُم من الجنَّة ينزِعُ عنهما لباسَهما لِيُرِيَهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيلُهُ [من حيث لا ترونهم] إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿١٢٣﴾ يخبر تعالى أنَّه أمر آدم وإبليس أن يَهْبِطا إلى الأرض، وأن يتَّخذوا[1] الشيطان عدوًّا لهم، فيأخذوا الحذر منه، ويُعِدُّوا له عدَّته، ويحارِبوه، وأنَّه سيُنْزِل عليهم كتباً ويرسل إليهم رسلاً يبيِّنون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه وإلى جنته، ويحذِّرونهم من هٰذا العدوِّ المبين، وأنَّهم أيَّ وقتٍ جاءهم ذٰلك الهدى الذي هو الكتب والرسل؛ فإنَّ من اتَّبعه؛ اتَّبع ما أُمِرَ به، واجتنب ما نُهِيَ عنه؛ فإنَّه لا يضلُّ في الدُّنيا ولا في الآخرة ولا يشقى فيهما، بل قد هُدِيَ إلى صراط مستقيم في الدُّنيا والآخرة، وله السعادة والأمن في الآخرة. وقد نفى عنه الخوف والحزن في آية أخرى بقوله: ﴿فَمَن اتَّبَع هُدايَ فلا خوفٌ عليهم ولا هُمْ يَحْزَنونَ﴾، واتِّباع الهدى بتصديق الخبرِ وعدم معارضتِهِ بالشُّبه، وامتثال الأمرِ بأن لا يعارِضَه بشهوة.

﴿١٢٤﴾ ﴿ومَنْ أعرضَ عن ذِكْري﴾؛ أي: كتابي الذي يُتَذَكَّر به جميع المطالب العالية، وأن يتركه على وجه الإعراض عنه أو ما هو أعظم من ذٰلك؛ بأن يكون على وجه الإنكار له والكفر به. ﴿فإنَّ له معيشةً ضنكاً﴾؛ أي: فإنَّ جزاءه أن نَجْعَلَ

(١) أي: آدم وزوجه وذريته.

معيشَته ضيقةً مشقَّةً، ولا يكون ذلك إلَّا عذاباً. وفُسِّرت المعيشةُ الضَّنك بعذاب القبر، وأنَّه يُضَيَّقُ عليه قبرُه، ويُحْصَرُ فيه، ويعذَّبُ جزاءً لإعراضِهِ عن ذِكْرِ ربِّه، وهٰذه إحدى الآيات الدالَّة على عذاب القبر.

والثانية: قوله تعالى: ﴿ولو تَرَى إذِ الظالمونَ في غَمَراتِ الموتِ والملائكةُ باسطو أيديهم...﴾ الآية.

والثالثة: قوله: ﴿وَلَنُذيقَنَّهم من العذابِ الأدنى دونَ العذابِ الأكبرِ﴾.

والرابعة: قوله عن آل فرعون: ﴿النارُ يُعْرَضونَ عليها غُدُوًّا وعَشِيًّا...﴾ الآية.

والذي أوجب لمن فسرها بعذاب القبر فقط من السلف وقصروها على ذٰلك ـ والله أعلم ـ آخر الآية، وأنَّ اللّٰه ذَكَرَ في آخرها عذابَ يوم القيامة.

ويعض المفسِّرين يرى أن المعيشة الضَّنْكَ عامَّة في دار الدنيا؛ بما يُصيبُ المعرضَ عن ذِكْرِ ربِّه من الهموم والغموم والآلام، التي هي عذابٌ معجَّل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة؛ لإطلاق المعيشة الضَّنْكِ وعدم تقييدها. ﴿ونحشُرُه﴾؛ أي: هٰذا المعرض عن ذِكْر ربِّه ﴿يومَ القيامةِ أعمى﴾: البصر على الصحيح؛ كما قال تعالى: ﴿ونحشُرُهم يومَ القِيامة على وجوهِهِم عُمْياً وبُكْماً وصُمًّا﴾.

﴿١٢٥﴾ ﴿قال﴾: على وجه الذُّلِّ والمراجعة والتألُّم والضجر من هٰذه الحالة: ﴿ربِّ لمَ حشرتَني أعمى وقد كنتُ﴾: في دار الدُّنيا ﴿بصيراً﴾: فما الذي صيَّرني إلى هٰذه الحالة البشعة؟

﴿١٢٦﴾ ﴿قال كذٰلك أتَتْكَ آياتُنا فنسيتَها﴾: بإعراضِكَ عنها، ﴿وكذٰلك اليومَ تُنسى﴾؛ أي: تُتْرَكُ في العذاب؛ فأجيب بأنَّ هٰذا هو عينُ عملك، والجزاء من جنس العمل؛ فكما عَميتَ عن ذِكْر ربِّك، وعشيتَ عنه، ونسيتَه ونسيت حظَّك منه؛ أعمى اللّٰهُ بَصَرَكَ في الآخرة، فحُشِرْتَ إلى النار أعمى أصمَّ أبكم، وأعرضَ عنك، ونَسِيَكَ في العذاب.

﴿١٢٧﴾ ﴿وكذٰلك﴾؛ أي: هٰذا الجزاء نجزيه ﴿مَنْ أسرف﴾: بأن تعدَّى الحدود وارتكب المحارم وجاوز ما أُذِنَ له، ﴿ولم يؤمن بآيات ربِّه﴾: الدالَّة على جميع مطالب الإيمان دلالةً واضحةً صريحةً؛ فاللّٰه لم يَظْلِمْه ولم يَضَع العقوبة في غير محلِّها، وإنَّما السبب إسرافُه وعدم إيمانه. ﴿ولعذابُ الآخرةِ أشدُّ﴾: من عذاب الدُّنيا أضعافاً مضاعفةً، ﴿وأبقى﴾: لكونِهِ لا ينقطعُ؛ بخلاف عذاب الدُّنيا؛ فإنَّه منقطع؛ فالواجب الخوف والحذر من عذابِ الآخرة.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿١٢٨﴾ أي: ﴿أفلم يَهْدِ﴾: لهٰؤلاء[1] المكذِّبين المعرضين ويدلُّهم على سلوك طريق الرشاد وتجنُّب طريق الغيِّ والفسادِ ما أحلَّ الله بالمكذبين قبلَهم من القرون الخالية والأمم المتابعة، الذين يعرِفون قَصصهم، ويتناقلون أسمارهم، وينظرون بأعينهم مساكِنَهم من بعدهم؛ كقوم هودٍ وصالح ولوطٍ وغيرهم، وأنَّهم لما كذَّبوا رُسُلَنا وأعرضوا عن كُتُبِنا؛ أصبْناهم بالعذاب الأليم؛ فما الذي يؤمِّنُ هٰؤلاء أن يَحِلَّ بهم ما حلَّ بأولئك؟ ﴿أكُفَّارُكُم خيرٌ من أولئِكُم أم لكم براءةٌ في الزُّبُر أم يقولونَ نحنُ جميعٌ مُنْتَصِرٌ﴾: لا شيء من هٰذا كلِّه، فليس هٰؤلاء الكفار خيراً من أولئك حتى يُدْفَع عنهم العذاب بخيرهم، بل هم شرٌّ منهم، لأنَّهم كفروا بأشرف الرسل وخير الكتب، وليس لهم براءةٌ مزبورةٌ وعهدٌ عند الله، وليسوا كما يقولون إنَّ جَمْعَهم ينفعهم ويدفَعُ عنهم، بل هم أذلُّ وأحقر من ذٰلك؛ فإهلاك القرون الماضية بذنوبهم من أسباب الهدايةِ؛ لكونِها من الآيات الدالَّة على صحَّة رسالة الرسل الذين جاؤوهم وبطلان ما هم عليه، ولٰكن ما كلُّ أحدٍ ينتفع بالآيات، إنَّما ينتفعُ بها أولو النُّهى؛ أي: العقول السليمة والفطر المستقيمة، والألباب التي تَزْجُرُ أصحابَها عمَّا لا ينبغي.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.

﴿١٢٩﴾ هٰذه تسليةٌ للرسول وتصبيرٌ له عن المبادرة إلى إهلاك المكذِّبين المعرضين، وأنَّ كفرَهم وتكذيبَهم سببٌ صالحٌ لحلول العذاب بهم ولزومِهِ لهم؛ لأنَّ الله جَعَلَ العقوبات سبباً وناشئاً عن الذُّنوب ملازماً لها، وهٰؤلاء قد أتَوْا بالسبب، ولكنَّ الذي أخَّره عنهم كلمةُ ربِّك المتضمِّنة لإمهالهم وتأخيرهم وضربِ الأجل المسمَّى؛ فالأجل المسمَّى ونفوذُ كلمة الله هو الذي أخَّر عنهم العقوبة إلى إبَّانِ وقتها، ولعلَّهم يراجعون أمر الله فيتوب عليهم ويرفع عنهم العقوبة إذا لم تحقَّ عليهم الكلمة.

(١) في (ب): «هولاء».

﴿١٣٠﴾ ولهٰذا أمر اللّه رسولَه بالصبر على أذيَّتِهم بالقول، وأمره أن يتعوَّض عن ذٰلك وليستعين عليه بالتسبيح ﴿بحمدِ﴾ ربِّه في هٰذه الأوقات الفاضلة؛ ﴿قبلَ طلوعِ الشمس وقبل[1] غروبها﴾، وفي أطراف النهار أوله وآخره؛ عموم بعد خصوص، وأوقات ﴿الليلِ﴾ وساعاته، لعلَّك إنْ فعلتَ ذٰلك ترضى بما يعطيك ربُّك من الثواب العاجلِ والآجل، وليطمئنَّ قلبُك، وتَقَرَّ عينُك بعبادة ربِّك، وتتسلَّى بها عن أذيَّتِهِم؛ فيخفَّ حينئذٍ عليك الصبر.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

﴿١٣١﴾ أي: ولا تمدَّ ﴿عَينَيكَ﴾ معجباً ولا تكرِّر النظر مستحسناً إلى أحوال الدُّنيا والممتَّعين بها من المآكل والمشارب اللذيذة والملابس الفاخرة والبيوت المزخرفة والنساء المجمَّلة؛ فإنَّ ذٰلك كلَّه زهرةُ ﴿الحَياةِ الدُّنيا﴾؛ تبتهج بها نفوسُ المغترين، وتأخُذُ إعجاباً بأبصار المعرِضين، ويتمتَّع بها بقطع النظرِ عن الآخرة القومُ الظالمون، ثم تذهب سريعاً وتمضي جميعاً، وتقتلُ محبِّيها وعشَّاقَها فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدِموا يوم[2] القيامة، وإنَّما جعلها اللّه فتنةً واختباراً ليعلمَ من يَقِفُ عندها ويغترُّ بها ومَنْ هو أحسنُ عملاً. كما قال تعالى: ﴿إنا جَعلنَا ما على الأرضِ زينَة لها لنَبلوهم أيُّهُم أحسَنُ عَملاً وإنَّا لجاعلونَ ما عَلَيْها صعيداً جُرُزاً﴾. ﴿ورزقُ ربِّك﴾: العاجل من العلم والإيمان وحقائق الأعمال الصالحة، والآجل من النعيم المقيم والعيش السليم في جوار الربِّ الرحيم، ﴿خيرٌ﴾: مما متَّعنا به أزواجاً في ذاته وصفاته، ﴿وأبقى﴾: لكونِهِ لا ينقطع أكُلُها دائمٌ وظلُّها؛ كما قال تعالى: ﴿بل تؤثِرونَ الحياة الدُّنيا. والآخرةُ خيرٌ وأبقى﴾.

وفي هٰذه الآية إشارةٌ إلى أنَّ العبد إذا رأى من نفسِهِ طموحاً إلى زينة الدُّنيا وإقبالاً عليها أنْ يُذَكِّرَها ما أمامها من رزقِ ربِّه، وأنْ يوازنَ بين هٰذا وهٰذا.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿١٣٢﴾ أي: حُثَّ أهلك على الصلاة، وأزعِجْهم إليها من فرض ونفل، والأمرُ بالشيء أمرٌ بجميع ما لا يتمُّ إلَّا به، فيكون أمراً بتعليمهم ما يُصْلِحُ الصلاة ويفسِدُها

---

(١) في (ب): «وغروبها».

(٢) في (ب): «في يوم».

ويُكْمِلُها. ﴿واصْطَبِرْ عليها﴾؛ أي: على الصلاة بإقامتها بحدودها وأركانها [وآدابها] وخشوعها؛ فإنَّ ذٰلك مشقٌّ على النفس، ولٰكنْ ينبغي إكراهها وجهادُها على ذٰلك والصبر معها دائماً؛ فإنَّ العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به؛ كان لما سِواها من دينِهِ أحفظَ وأقوم، وإذا ضيَّعها؛ كان لما سِواها أضيعَ. ثم ضَمِنَ تعالى لرسولِهِ الرزقَ، وأنْ لا يَشْغَلَه الاهتمام به عن إقامة دينِهِ، فقال: ﴿نحن نرزُقُك﴾؛ أي: رزقُك علينا، قد تكفَّلْنا به كما تكفَّلْنا بأرزاقِ الخلائق كلِّهم؛ فكيف بمن قام بأمرِنا واشتغل بذِكْرِنا؟! ورزقُ اللّٰه عامٌّ للمتَّقي وغيره؛ فينبغي الاهتمام بما يجلبُ السعادة الأبديَّة، وهو التقوى، ولهٰذا قال: ﴿والعاقبةُ﴾: في الدُّنيا والآخرة ﴿للتَّقوى﴾: التي هي فعل المأمور وتركُ المنهيِّ؛ فمن قام بها؛ كان له العاقبةُ؛ كما قال تعالى: ﴿والعاقبةُ للمتَّقين﴾.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿١٣٣﴾ أي: قال المكذِّبون للرسول ﷺ: هلَّا يأتينا بآيةٍ من ربِّه؛ يعنونَ آيات الاقتراح؛ كقولهم: ﴿وقالوا لَن نؤمنَ لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرضِ يَنبوعاً أو تكونَ لك جَنَّةٌ من نخيلٍ وعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خلالها تَفْجيرا. أو تسقِطَ السماء كما زعمتَ علينا كِسَفاً أو تأتيَ باللّٰه والملائكةِ قَبيلاً﴾، وهٰذا تعنُّت منهم وعنادٌ وظلمٌ؛ فإنَّهم هم والرسول بشرٌ عبيدٌ للّٰه؛ فلا يليقُ منهم الاقتراح بحسب أهوائهم، وإنَّما الذي ينزلُها ويختارُ منها ما يختارُ بحسب حكمتِهِ هو اللّٰه، ولما كان[1] قولهم: ﴿لولا يأتينا بآية من ربِّه﴾: يقتضي أنَّه لم يأتِهِم بآيةٍ على صدقِهِ ولا بيِّنة على حقِّه، وهٰذا كذبٌ وافتراء؛ فإنه أتى من المعجزات الباهرات والآيات القاهرات ما يحصُلُ ببعضه المقصودُ، ولهٰذا قال: ﴿أَوَلَمْ [تأتِهم]﴾: إن كانوا صادقينَ في قولهم، وأنهم يطلبُون الحقَّ بدليله، ﴿بيِّنَةُ ما في الصُّحف الأولى﴾؛ أي: هٰذا القرآن العظيم، المصدِّق لما في الصحف الأولى من التوراة والإنجيل والكتب السابقة، المطابق لها، المخبر بما أخبرت به، وتصديقُهُ أيضاً مذكورٌ فيها، ومبشَّر بالرسول بها، وهٰذا كقولِهِ تعالى: ﴿أَوَلَم يكفِهِم أنَّا أنزلنا عليك الكتابَ يُتلى عليهم إنَّ في ذٰلك لرحمةً

(١) في (ب): «ولأن».

وذِكْرى لقوم يؤمنونَ﴾؛ فالآياتُ تنفعُ المؤمنين ويزداد بها إيمانُهم وإيقانُهم، وأما المعرضونَ عنها المعارضون لها؛ فلا يؤمنونَ بها ولا ينتفعونَ بها. ﴿إنَّ الذين حقَّتْ عليهم كلمةُ ربِّك لا يؤمنون. ولو جاءَتْهم كلُّ آيةٍ حتى يَرَوُا العذابَ الأليم﴾.

﴿١٣٤﴾ وإنَّما الفائدةُ في سوقها إليهم ومخاطبتهم بها لتقومَ عليهم حجَّة اللّه، ولئلاَّ يقولوا حين ينزلُ بهم العذاب: ﴿لولا أرسلتَ إلَينا رسولاً فنتَّبعَ آياتِك من قبل أن نَذِلَّ ونَخزى﴾: بالعقوبة؛ فها قد جاءكم رسولي ومعه آياتي وبراهيني؛ فإنْ كنتُم كما تقولون؛ فصدِّقوه.

﴿١٣٥﴾ ﴿قل﴾: يا محمد مخاطباً للمكذِّبين لك الذين يقولونَ تربَّصوا به ريْبَ المنون: ﴿قُلْ كلٌّ متربِّصٌ﴾: فتربَّصوا بي الموت، وأنا أتربَّص بكم العذاب، ﴿قل هل تَرَبَّصون بنا إلا إحدى الحُسْنَيَيْن﴾؛ أي: الظفر أو الشهادة؛ فنحن نتربَّص بكم أن يصيبَكم اللّهُ بعذابٍ من عنده أو بأيدينا. ﴿فتَرَبَّصوا فستعلمونَ مَنْ أصحابُ الصِّراطِ السويِّ﴾؛ أي: المستقيم، ﴿ومَنِ اهتَدى﴾: بسلوكِهِ أنا أم أنتُم؛ فإنَّ صاحبه هو الفائزُ الراشدُ الناجي المفلحُ، ومَنْ حادَ عنه خاسرٌ خائبٌ معذَّب. وقد عُلِمَ أنَّ الرسول هو الذي بهٰذه الحالة، وأعداؤه بخلافه. واللّه أعلم.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤﴾.

﴿١﴾ هٰذا تعجبٌ من حالة الناس، وأنَّهم[1] لا يَنْجعُ فيهم تذكيرٌ، ولا يَرْعَوون

(١) في (ب): «وأنه».

إلى نذير، وأنَّهم قد قرب حسابهم ومجازاتهم على أعمالهم الصالحة والطالحة، والحال أنهم ﴿في غفلةٍ معرضون﴾؛ أي: غفلة عمَّا خُلِقوا له، وإعراض عما زُجِروا به، كأنَّهم للدُّنيا خُلقوا، وللتمتُّع بها ولدوا، وأنَّ اللّٰه تعالى لا يزال يجدِّد لهم التَّذكير والوعظ، ولا يزالون في غفلتهم وإعراضهم.

﴿٢﴾ ولهٰذا قال: ﴿ما يأتيهم من ذكرٍ من ربِّهم محدَثٍ﴾: يذكِّرهم ما ينفعهم ويحثُّهم عليه، وما يضرهم ويرهبهم منه. ﴿إلَّا استمعوهُ﴾: سماعاً تقوم عليهم به الحجَّة، ﴿وهم يلعبونَ﴾.

﴿٣﴾ ﴿لاهيةً قلوبُهم﴾؛ أي: قلوبهم غافلةٌ معرضةٌ لاهيةٌ بمطالبها الدُّنيوية، وأبدانُهم لاعبةٌ، قد اشتغلوا بتناول الشهوات والعمل بالباطل والأقوال الرديَّة، مع أن الذي ينبغي لهم أن يكونوا بغير هٰذه الصفة؛ تُقْبِل قلوبُهم على أمر اللّٰه ونهيه، وتستمعه استماعاً تفقه المراد منه، وتسعى جوارحهم في عبادة ربِّهم التي خلقوا لأجلها، ويجعلون القيامةَ والحسابَ والجزاء منهم على بال؛ فبذٰلك يتمُّ لهم أمرُهم وتستقيمُ أحوالُهم وتزكو أعمالُهم. وفي معنى قوله: ﴿اقتربَ للناس حسابُهم﴾: قولان:

أحدُهما: أنَّ هٰذه الأمَّة هي آخر الأمم، ورسولُها آخرُ الرسل، وعلى أمته تقوم الساعةُ؛ فقد قَرُبَ الحساب منها بالنسبة لما قبلها من الأمم؛ لقوله ﷺ: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين»؛ وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها[1].

والقول الثاني: أنَّ المراد بقُرب الحساب الموتُ، وأنَّ مَنْ مات قامتْ قيامتُه ودخل في دار الجزاء على الأعمال، وأن هٰذا تعجُّب من كلِّ غافل معرض لا يدري متى يفجؤه الموتُ صباحاً أو مساء؛ فهٰذه حالة الناس كلِّهم؛ إلَّا من أدركته العناية الربانيَّة، فاستعدَّ للموت وما بعده.

ثم ذكر ما يتناجى به الكافرون الظالمون على وجه العناد ومقابلة الحقِّ بالباطل، وأنهم تناجَوْا وتواطؤوا فيما بينهم أن يقولوا في الرسول ﷺ: إنَّه بشرٌ مثلكم؛ فما الذي فضَّله عليكم وخصَّه من بينكم؟! فلو ادَّعى أحدٌ منكم مثل دعواه؛ لكان قولُه من جنس قوله، ولٰكنَّه يريد أن يتفضَّل عليكم ويرأس فيكم؛ فلا تطيعوهُ ولا تصدِّقوه، وإنَّه ساحرٌ، وما جاء به من القرآن سحرٌ؛ فانفروا عنه ونفِّروا الناس،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٥)، ومسلم (٢٩٥١).

وقولوا: ﴿أفتأتونَ السِّحرَ وأنتُم تبصِرونَ﴾: هٰذا وهم يعلمون أنَّه رسولُ اللّه حقًّا بما يشاهدون[1] من الآيات الباهرة ما لم يشاهدْ غيرهم، ولٰكنْ حملهم على ذٰلك الشقاء والظُّلم والعناد.

﴿٤﴾ واللّه تعالى قد أحاط علماً بما تناجَوْا به، وسيُجازيهم عليه، ولهٰذا قال: ﴿قال ربِّي يعلمُ القولَ﴾: الخفيَّ والجليَّ ﴿في السماء والأرض﴾؛ أي: في جميع ما احتوت عليه أقطارهما. ﴿وهو السميعُ﴾: لسائر الأصوات باختلاف اللُّغات على تفنُّن الحاجات. ﴿العليم﴾: بما في الضمائر، وأكنَّته السرائر.

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿٥﴾ يذكر تعالى ائتفاكَ المكذِّبين بمحمدٍ ﷺ وبما جاء به من القرآن العظيم، وأنهم تقوَّلوا فيه[2]، وقالوا فيه الأقاويل الباطلة المختلفة؛ فتارةً يقولون: أضغاثُ أحلام بمنزلة كلام النائم الهاذي الذي لا يُحِسُّ بما يقول! وتارةً يقولون: افتراهُ واختلقَه وتقوَّله من عند نفسه! وتارةً يقولون: إنَّه شاعرٌ وما جاء به شِعر! وكلُّ مَن له أدنى معرفة بالواقع من حالة الرسول، ونظر في هٰذا الذي جاء به؛ جزم جزماً لا يقبل الشكَّ أنه أجلُّ الكلام وأعلاه، وأنَّه من عند اللّه، وأنَّ أحداً من البشر لا يقدِرُ على الإتيان بمثل بعضه؛ كما تحدَّى اللّه أعداءه بذٰلك ليعارِضوه مع توفُّر دواعيهم لمعارضته وعداوته، فلم يقدِروا على شيء من معارضته وهم يعلمون ذٰلك؛ وإلَّا فما الذي أقامهم وأقعدهم وأقضَّ مضاجعهم وبلبل ألسنتهم إلا الحق الذي لا يقوم له شيء، وإنَّما يقولون هٰذه الأقوال فيه حيث لم يؤمنوا به؛ تنفيراً عنه لمن لم يعرِفه، وهو أكبرُ الآيات المستمرَّة الدالَّة على صحَّة ما جاء به الرسول ﷺ وصدقه، وهو كافٍ شافٍ؛ فمن طَلَبَ دليلاً غيره أو اقترح آيةً من الآيات سواه؛ فهو جاهلٌ ظالمٌ مشبهٌ لهٰؤلاء المعاندين الذين كذَّبوه، وطلبوا من الآيات الاقتراحيَّة ما هو أضرُّ شيء عليهم، وليس لهم فيها مصلحةٌ؛ لأنَّهم إن كان قصدُهم معرفةَ الحقِّ إذا تبيَّن دليلُه؛ فقد تبيَّن دليلُه بدونها، وإن كان قصدُهم التعجيزَ وإقامة العذر لأنفسهم إن لم يأتِ بما طَلَبوا؛ فإنَّهم بهٰذه الحالة على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات لا يؤمنون قطعاً؛ فلو جاءتهم كلُّ آيةٍ لا يؤمنون حتى يروا العذابَ الأليم، ولهٰذا قال اللّه

---

(١) في (ب): «شاهدوا».

(٢) في (ب): «كلمة غير واضحة».

عنهم: ﴿فَلْيَأْتِنا بآية كما أُرْسِلَ الأولون﴾؛ أي: كناقة صالح وعصا موسى ونحو ذٰلك.

﴿٦﴾ قال الله: ﴿ما آمنت قبلَهم من قريةٍ أهلَكْناها﴾؛ أي: بهٰذه الآيات المقترحة، وإنَّما سنَّتُه تقتضي أنَّ من طَلَبها، ثم حَصَلَتْ له، فلم يؤمن؛ أنْ يعاجِلَه بالعقوبة؛ فالأوَّلون ما آمنوا بها، أفيؤمنُ هٰؤلاء بها؟! ما الذي فضَّلهم على أولئك؟! وما الخير الذي فيهم يقتضي الإيمان عند وجودها؟! وهٰذا الاستفهام بمعنى النفي؛ أي: لا يكونُ ذٰلك منهم أبداً.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿٧ ـ ٩﴾ هٰذا جوابٌ لِشُبَه المكذِّبين للرسول القائلين: هلَّا كان مَلَكاً لا يحتاجُ إلى طعام وشراب وتصرُّف في الأسواق! وهلَّا كان خالداً! فإذا لم يكن كذٰلك؛ دلَّ على أنه ليس برسول! وهٰذه الشُّبه ما زالت في قلوب المكذِّبين للرسلِ، تشابهوا في الكفر؛ فتشابهت أقوالهم؛ فأجاب تعالى عن هٰذه الشُّبه، لهٰؤلاء المكذِّبين للرسول، المُقِرِّين بإثبات الرُّسل قبله، ولو لم يكنْ إلَّا إبراهيم عليه السلام، الذي قد أقرَّ بنبوَّته جميع الطوائف، والمشركون يزعمون أنَّهم على دينِهِ وملَّته؛ بأنَّ الرُّسل قبل محمدٍ ﷺ كلَّهم من البشر الذين يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وتطرأ عليهم العوارضُ البشرية من الموت وغيره، وأنَّ الله أرسلهم إلى قومهم وأممهم، فصدَّقهم مَن صدَّقهم، وكذَّبهم مَن كذَّبهم، وأنَّ الله صَدَقَهم ما وَعَدَهم به من النجاة والسعادة لهم ولأتباعهم، وأهلك المسرفين المكذِّبين لهم؛ فما بال محمد ﷺ تُقام الشُّبه الباطلة على إنكار رسالته، وهي موجودةٌ في إخوانه المرسلين، الذين يقرُّ بهم المكذِّبون لمحمد؟! فهٰذا إلزامٌ لهم في غاية الوضوح، وأنَّهم إن أقرُّوا برسول من البشر، ولن يقرُّوا برسول من غير البشرِ، أنَّ شبههم باطلةٌ، قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها وتناقُضِهم بها.

فلو قُدِّرَ انتقالُهم هٰذا إلى إنكار نبوَّة البشر رأساً، وأنَّه لا يكون نبيٌّ إنْ لم يكن مَلَكاً مخلَّداً لا يأكلُ الطعام؛ فقد أجاب الله عن هٰذه الشبهة بقوله: ﴿وقالوا لولا أُنزِلَ عليه مَلَكٌ ولو أنزَلْنا مَلَكاً لقضي الأمر ثم لا يُنظَرونَ. ولو جَعَلْناه مَلَكاً لجعلناهُ

رَجُلاً ولَلَبَسْنا عليهم ما يَلْبِسونَ﴾، وأنَّ البشر لا طاقة لهم بتلقِّي الوحي من الملائكة، ﴿قل لو كانَ في الأرض ملائكةٌ يمشون مطمئنِّينَ لَنَزَّلْنا عليهم من السماءِ مَلَكاً رسولاً﴾؛ فإن حصل معكم شكٌّ وعدم علم بحالة الرسل المتقدِّمين؛ فاسألوا أهل الذِّكر من الكتب السالفة؛ كأهل التوراة والإنجيل؛ يخبرونَكم بما عندَهم من العلم، وأنَّهم كلَّهم بشرٌ من جنس المرسَل إليهم.

وهٰذه الآية وإنْ كان سببُها خاصًا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدِّمين من أهل[1] الذكر، وهم أهل العلم؛ فإنَّها عامَّة في كلِّ مسألة من مسائل الدين أصوله وفروعه إذا لم يكنْ عند الإنسان علمٌ منها أنْ يسألَ من يَعْلَمُها؛ ففيه الأمر بالتعلُّم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالِهِم إلَّا لأنَّه يجبُ عليهم التعليم والإجابة عما عملوه.

وفي تخصيص السؤال بأهل الذِّكر والعلم نهيٌ عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتصدَّى لذٰلك. وفي هٰذه الآية دليلٌ على أن النساء ليس منهنَّ نبيَّة؛ لا مريم ولا غيرها؛ لقوله: ﴿إلَّا رجالاً﴾.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿١٠﴾ أي: ﴿لقد أنزلنا إليكم﴾: أيُّها المرسل إليهم محمد بن عبدالله بن عبد المطلب ﴿كتاباً﴾: جليلاً وقرآناً مبيناً. ﴿فيه ذِكْرُكُم﴾؛ أي: شرفكم وفخركم وارتفاعكم: إن تذكَّرتم به ما فيه من الأخبار الصَّادقة فاعتقدتمُوها، وامتثَلْتُم ما فيه من الأوامر، واجتنبتم ما فيه من النواهي؛ ارتفع قدرُكم وعظُم أمركم. ﴿أفلا تعقِلونَ﴾: ما ينفعكم وما يضرُّكم؛ كيف لا[2] تعلمون على ما فيه ذكرُكم وشرفُكم في الدنيا والآخرة؟! فلو كان لكم عقلٌ؛ لسلكتُم هٰذا السبيل، فلما لم تسلكوه وسلكتُم غيره من الطُّرق التي فيها ضَعَتُكم وخِسَّتُكم في الدنيا والآخرة وشقاوتُكم فيهما؛ عُلم أنه ليس لكم معقولٌ صحيحٌ ولا رأيٌ رجيحٌ.

وهٰذه الآية مصداقها ما وقع؛ فإنَّ المؤمنين بالرسول والذين[3] تذكَّروا بالقرآن من الصحابة فَمَنْ بعدَهم؛ حصل لهم من الرِّفعة والعلوِّ الباهر والصيت العظيم والشرف على الملوك ما هو أمرٌ معلومٌ لكلِّ أحدٍ؛ كما أنه معلومٌ ما حصل لمن لم يَرْفَعْ بهٰذا

---

(١) في (ب): «لأهل».

(٢) في (ب): «لا ترضون ولا تعلمون». وقد شطب الشيخ كلمة لا ترضون في (أ).

(٣) في (ب): «الذين».

القرآن رأساً، ولم يهتدِ به ويتزكّى به من المقتِ والضّعةِ والتّدسِيَة والشقاوةِ؛ فلا سبيل إلى سعادة الدّنيا والآخرة إلّا بالتذكُّر بهٰذا الكتاب.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١١﴾ يقول تعالى محذِّراً لهٰؤلاء الظّالمين المكذّبين للرسول بما فعل بالأمم المكذِّبة لغيره من الرسل: ﴿وكم قَصَمْنا﴾ أي: أهلكنا بعذابٍ مستأصل ﴿من قريةٍ﴾: تَلِفَتْ عن آخرها، ﴿وأنشأنا بعدَها قوماً آخرين﴾.

﴿١٢ ـ ١٣﴾ وإنَّ هٰؤلاء المهلَكين لما أحسُّوا بعذاب اللّه وعقابه وباشرهم نزولُه؛ لم يمكنْ لهم الرجوعُ، ولا طريق لهم إلى النزوع، وإنَّما ضربوا الأرض بأرجلهم ندماً وقلقاً وتحسُّراً على ما فعلوا، فقيل لهم على وجه التهكُّم بهم: ﴿لا تركُضوا وارجِعوا إلى ما أُترِفتُم فيه ومساكِنِكم لعلَّكم تُسألونَ﴾؛ أي: لا يفيدكم الركض والندم، ولٰكن؛ إنْ كان لكم اقتدارٌ؛ فارجعوا إلى ما أُترِفتُم فيه من اللذّات والمشتَهيات ومساكِنِكم المزخرفات ودُنياكم التي غرَّتكم وألهتكم حتى جاءكم أمر اللّه؛ فكونوا فيها متمكِّنين، وللذّاتها جانين، وفي منازلكم مطمئنّين معظَّمين؛ لعلَّكم أن تكونوا مقصودين في أموركم كما كنتُم سابقاً مسؤولين من مطالب الدُّنيا كحالتكم الأولى، وهيهات!

﴿١٤﴾ أين الوصول إلى هٰذا وقد فات الوقت، وحلَّ بهم العقاب والمقت، وذهب عنهم عزُّهم وشرفُهم ودنياهم، وحضرهم ندمُهم وتحسُّرهم؟! ولهٰذا ﴿قالوا يا وَيلَنا إنّا كنّا ظالمين﴾.

﴿١٥﴾ ﴿فما زالتْ تلك دَعْواهم﴾؛ أي: الدعاء بالويل والثبور والندم والإقرار على أنفسِهم بالظُّلم وأنَّ اللّه عادلٌ فيما أحلَّ بهم، ﴿حتى جَعَلْناهم حصيداً خامدينَ﴾؛ أي: بمنزلة النبات الذي قد حُصِدَ وأنيم؛ قد خمدت منهم الحركاتُ، وسكنتْ منهم الأصواتُ؛ فاحذروا أيُّها المخاطَبون، أن تستمرُّوا على تكذيب أشرف الرُّسل، فيحلَّ بكم كما حلَّ بأولٰئك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٦﴾ يخبر تعالى أنه ما خلق السماواتِ والأرضَ عَبَثاً ولا لَعِباً من غير فائدة، بل خلقها بالحقِّ وللحقِّ؛ ليستدلَّ بها العبادُ على أنَّه الخالق العظيم، المدبِّر الحكيم، الرحمٰن الرحيم، الذي له الكمالُ كلُّه والحمدُ كلُّه والعزَّةُ كلُّها، الصادق في قيله، الصادقةُ رسلُه فيما تخبر عنه، وأنه القادر على خلقِهما مع سَعَتِهِما وعِظَمِهِما، قادرٌ على إعادة الأجساد بعد موتها؛ ليجازي المحسنَ بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿١٧﴾ ﴿لو أردنا أن نَتَّخِذَ لهواً﴾: على الفرض والتقدير المُحال؛ ﴿لاتَّخذناه من لَدُنَّا﴾؛ أي: من عندنا، ﴿إن كنَّا فاعلين﴾: ولم نطلِعكُم على ما فيه عبثٌ ولهوٌ؛ لأنَّ ذٰلك نقصٌ ومَثَلُ سَوْءٍ لا نحبُّ أن نرِيَه إياكم؛ فالسماوات والأرض اللذان بمرأى منكم على الدوام لا يمكنُ أن يكون القصدُ منهما العبثُ واللهو؛ كلُّ هٰذا تنزُّل مع العقول الصغيرة وإقناعها بجميع الوجوه المقنعة؛ فسبحان الحليم الرحيم الحكيم في تنزيله الأشياء منازلها.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٨﴾ يخبر تعالى أنه تكفَّل بإحقاق الحقِّ وإبطال الباطل، وإنْ كان باطلٌ قيلَ وجُودِلَ به؛ فإنَّ اللّٰه يُنْزِلُ من الحقِّ والعلم والبيان ما يدمغُه فيضمحلُّ ويتبيَّن لكلِّ أحدٍ بطلانُه. ﴿فإذا هو زاهقٌ﴾؛ أي: مضمحلٌّ فانٍ. وهٰذا عامٌّ في جميع المسائل الدينيَّة، لا يورِدُ مبطلٌ شبهةً عقليَّة ولا نقليَّة في إحقاق باطل أو ردِّ حقٍّ؛ إلَّا وفي أدلَّة اللّٰه من القواطع العقليَّة والنقليَّة ما يذهِبُ ذٰلك القول الباطل ويقمعُه؛ فإذا هو متبيِّن بطلانُه لكلِّ أحدٍ. وهٰذا يتبيَّن باستقراء المسائل مسألة مسألة؛ فإنَّك تجدُها كذٰلك. ثم قال: ولكم أيُّها الواصفون اللّٰه بما لا يَليقُ به من اتِّخاذ الولد والصاحبة ومن الأنداد والشُّركاء حظُّكم من ذٰلك ونصيبكم، الذي تدرِكون الويل والنَّدامة والخُسران، ليس لكم مما قُلتم فائدةٌ، ولا يرجع عليكم بعائدة تؤمِّلونها، وتعملون لأجلها، وتسعَوْن في الوصول إليها؛ إلَّا عكس مقصودكم، وهو الخيبة والحرمان.

﴿١٩﴾ ثم أخبر أنَّه له ملك السماواتِ والأرض وما بينهما؛ فالكل عبيده ومماليكه، فليس لأحدٍ منهم ملكٌ ولا قسطٌ من الملك ولا معاونةٌ عليه، ولا يشفعُ

إلَّا بإذن اللّه؛ فكيف يتَّخذ من هٰؤلاء آلهة؟! وكيف يُجعل للّه منها ولد؟! فتعالى وتقدَّس المالك العظيم الذي خضعت له الرقاب، وذلَّت له الصعاب، وخشعت له الملائكة المقرَّبون، وأذعنوا له بالعبادة الدَّائمة المستمرة أجمعون؛ ولهٰذا قال: ﴿ومن عنده﴾؛ أي: [من] الملائكة، ﴿لا يَسْتَكْبِرونَ عن عبادتِهِ ولا يستحسرونَ﴾؛ أي: لا يملُّون، ولا يسأمون لشدَّة رغبتهم وكمال محبَّتهم وقوَّة أبدانهم.

﴿٢٠﴾ ﴿يسبِّحون الليل والنهار لا يفتُرون﴾؛ أي: مستغرِقين في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم، فليس في أوقاتهم وقتٌ فارغٌ ولا خالٍ منها، وهم على كثرتِهم بهٰذه الصفة.

وفي هٰذا من بيان عظمتِهِ وجلالة سلطانِهِ وكمال علمِهِ وحكمته ما يوجبُ أن لا يُعْبَدَ إلَّا هو، ولا تُصْرَفَ العبادةُ لغيره.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢١﴾ لما بيَّن تعالى كمال اقتدارِهِ وعظمته وخضوع كلِّ شيءٍ له؛ أنكر على المشركين الذين اتَّخذوا من دون اللّه آلهةً من الأرض في غاية العجزِ وعدم القدرة. ﴿هم يُنشِرون﴾: استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا يقدرون على نشرِهِم وحشرِهِم؛ يفسِّرها قوله تعالى: ﴿واتَّخذوا من دونِهِ آلهةً لا يخلُقون شيئاً وهُم يُخْلَقون. ولا يملِكونَ لأنفسِهِم نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً﴾، ﴿واتَّخذوا من دون اللّه آلهةً لعلَّهم يُنصَرونَ. لا يستطيعونَ نصرَهم وهم لهم جندٌ محضَرون﴾.

﴿٢٢﴾ فالمشرك يَعْبُدُ المخلوق الذي لا ينفع ولا يضرُّ، ويدعُ الإخلاص للّه الذي له الكمالُ كلُّه وبيده الأمرُ والنفعُ والضرُّ، وهٰذا من عدم توفيقه وسوء حظِّه وتوفُّر جهله وشدَّة ظلمِهِ؛ فإنَّه لا يصلحُ الوجود إلَّا على إلٰه واحدٍ؛ كما أنَّه لم يوجد إلا بربٍّ واحد، ولهٰذا قال: ﴿لو كان فيهما﴾؛ أي: في السماواتِ والأرض، ﴿آلهةٌ إلَّا اللّه لفسدتا﴾: في ذاتهما، وفَسَدَ مَنْ فيهما من المخلوقات.

وبيانُ ذٰلك: أنَّ العالم العلويَّ والسفليَّ على ما يُرى في أكمل ما يكون من الصَّلاح والانتظام، الذي ما فيه خللٌ ولا عيبٌ ولا ممانعةٌ ولا معارضةٌ، فدلَّ ذٰلك

على أن مدبِّره واحدٌ وربَّه واحدٌ وإلٰهه واحدٌ؛ فلو كان له مدبِّران وربَّان أو أكثر من ذٰلك؛ لاختلَّ نظامُه وتقوَّضت أركانُه؛ فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدُهما تدبير شيء وأراد الآخر عدمه؛ فإنَّه محالٌ وجود مرادهما معاً، ووجود مراد أحدِهما دونَ الآخر يدلُّ على عَجْزِ الآخر وعدم اقتدارِهِ، واتفاقُهما على مرادٍ واحدٍ في جميع الأمور غيرُ ممكنٍ؛ فإذاً يتعيَّن أن القاهر الذي يوجدُ مرادُهُ وحدَه من غير ممانع ولا مدافع هو اللّٰه الواحد القهَّار، ولهٰذا ذكر اللّٰه دليل التمانع في قوله: ﴿ما اتَّخَذَ اللّٰهُ من ولدٍ وما كان معه من إلٰهٍ إذاً لَذَهَبَ كلُّ إلٰهٍ بما خَلَقَ ولَعَلا بعضُهم على بعض سبحانَ اللّٰهِ عما يصفون﴾، ومنه على أحد التأويلين قوله تعالى: ﴿قُل لو كانَ معه آلهةٌ كما يقولون إذاً لابْتَغَوا إلى ذي العرشِ سبيلاً. سبحانَهُ وتعالى عمَّا يقولونَ علوًّا كبيراً﴾؛ ولهٰذا قال هنا: ﴿فسبحان اللّٰه﴾؛ أي: تنزَّه وتقدَّس عن كلِّ نقص لكماله وحده، ﴿ربِّ العرشِ﴾: الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها؛ فربوبيَّته ما دونَه من باب أولى، ﴿عما يصِفونَ﴾؛ أي: الجاحدون الكافرون من اتِّخاذ الولد والصاحبة، وأن يكون له شريكٌ بوجهٍ من الوجوه.

﴿٢٣﴾ ﴿لا يُسأَلُ عما يفعلُ﴾: لعظمته وعزَّته وكمال قدرتِهِ[1]؛ لا يقدرُ أحدٌ أن يمانعه أو يعارضه؛ لا بقول ولا بفعل، ولكمال حكمتِهِ ووضعه الأشياء مواضعها وإتقانها أحسن شيءٍ يقدِّره العقل؛ فلا يتوجَّه إليه سؤالٌ؛ لأنَّ خلقَه ليس فيه خللٌ ولا إخلالٌ. ﴿وهم﴾؛ أي: المخلوقون كلهم، ﴿يُسألونَ﴾: عن أفعالهم وأقوالهم؛ لعجزِهم وفقرِهم، ولكونِهم عبيداً، قد استحقَّت أفعالُهم وحركاتُهم؛ فليس لهم من التصرُّف والتدبير في أنفسهم ولا في غيرهم مثقال ذرَّة.

﴿٢٤﴾ ثم رجع إلى تهجين حال المشركين، وأنَّهم اتَّخذوا من دونه آلهةً؛ فقُلْ لهم موبِّخاً ومقرِّعاً: ﴿أم اتَّخذوا من دونِهِ آلهةً قل هاتوا برهانَكم﴾؛ أي: حجَّتكم ودليلكم على صحَّة ما ذهبتُم إليه، ولن يجدوا لذٰلك سبيلاً، بل قد قامتِ الأدلة القطعيَّة على بطلانِهِ، ولهٰذا قال: ﴿هٰذا ذكرُ مَن معيَ وذِكرُ من قبلي﴾؛ أي: قد اتَّفقت الكتب والشرائع على صحَّة ما قلتُ لكم من إبطال الشرك؛ فهٰذا كتابُ اللّٰه الذي فيه ذِكْرُ كلِّ شيء بأدلَّته العقليَّة والنقليَّة، وهٰذه الكتب السابقة كلُّها براهينُ[2] وأدلَّة لما قلتُ. ولمَّا عُلم أنَّهم قامت عليهم الحجَّة والبرهانُ على بطلان ما ذهبوا

---

(١) في (ب): «قدته».

(٢) في (ب): «برهان».

إليه؛ عُلم أنَّه لا برهان لهم؛ لأنَّ البرهان القاطع يُجزَمُ أنَّه لا معارض له، وإلَّا؛ لم يكن قطعيًّا، وإن وُجِدَ معارضات؛ فإنَّها شُبَهٌ لا تغني من الحقِّ شيئاً. وقوله: ﴿بل أكثرهُم لا يعلمون الحقَّ﴾؛ أي: وإنَّما أقاموا على ما هم عليه تقليداً لأسلافهم؛ يجادِلون بغير علم ولا هدىً، وليس عدمُ علمهم الحقَّ لخفائِهِ وغموضِهِ، وإنَّما ذٰلك لإعراضهم عنه، وإلَّا؛ فلو التفتوا إليه أدنى التفاتٍ؛ تبيَّن لهم الحقُّ من الباطل تبيُّناً واضحاً جليًّا، ولهٰذا قال: ﴿فهم معرضونَ﴾.

﴿٢٥﴾ ولما حول تعالى على ذكر المتقدِّمين، وأمر بالرجوع إليها في بيان هٰذه المسألة؛ بيَّنها أتمَّ تبيينٍ في قوله: ﴿وما أرسَلْنا من قبلِكَ من رسول إلَّا نوحي إليه أنَّه لا إلٰه إلَّا أنا فاعبدونِ﴾: فكلُّ الرسل الذين من قبلك مع كتبِهِم زُبْدَةُ رسالتِهِم وأصلُها الأمرُ بعبادةِ اللّه وحدَه لا شريك له وبيانُ أنَّه الإلٰه الحقُّ المعبودُ وأنَّ عبادة ما سواه باطلةٌ.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٦﴾ يخبر تعالى عن سفاهةِ المشركين المكذِّبين للرسول، وأنَّهم زعموا ـ قبَّحهم اللّه ـ أنَّ اللّه اتَّخذ ولداً، فقالوا: الملائكةُ بناتُ اللّه! تعالى اللّه عن قولهم، وأخبر عن وصفِ الملائكة بأنَّهم[١] عبيدٌ مربوبون مدبَّرون، ليس لهم من الأمر شيءٌ، وإنَّما هم مُكْرَمونَ عند اللّه، قد ألزمهم[٢] اللّه، وصيَّرهم من عبيد كرامتِهِ ورحمتِهِ، وذٰلك لما خصَّهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل، وأنَّهم في غاية الأدب مع اللّه والامتثال لأوامره.

﴿٢٧﴾ ﴿لا[٣] يسبِقونَهُ بالقول﴾؛ أي: لا يقولون قولاً مما يتعلَّق بتدبير المملكة حتى يقول اللّه؛ لكمال أدبهم وعلمهم بكمال حكمته وعلمه. ﴿وهم بأمرِهِ يعملونَ﴾؛ أي: مهما أمَرَهم؛ امتثلوا لأمره، ومهما دبَّرهم عليه؛ فعلوه؛ فلا

(١) في (ب): «بأنه».
(٢) في (ب): «أكرمهم».
(٣) في (ب): «فلا».

يعصونه طرفةَ عين، ولا يكون لهم عملٌ بأهواء أنفسهم من دون أمر اللّه.

﴿٢٨﴾ ومع هٰذا؛ فاللّه قد أحاط بهم علمه، فعلم ﴿ما بينَ أيديهم وما خلفهم﴾؛ أي: أمورهم الماضية والمستقبلة؛ فلا خروج لهم عن علمه؛ كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره، ومن جزئيَّات وصفهم بأنهم لا يسبقونه بالقول أنَّهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه؛ فإذا أذِنَ لهم وارتضى مَنْ يشفعون فيه شفعوا فيه؛ ولٰكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل إلَّا ما كان خالصاً لوجهه متَّبعاً فيه الرسول.

وهٰذه الآية من أدلَّة إثبات الشفاعة، وأنَّ الملائكة يشفعون. ﴿وهم من خشيتِهِ مشفِقونَ﴾؛ أي: خائفون وجلون، قد خَضَعوا لجلالِهِ، وعَنَتْ وجوهُهم لعزِّه وجماله.

﴿٢٩﴾ فلما بيَّن أنَّه لا حقَّ لهم في الألوهيَّة، ولا يستحقُّون شيئاً من العبوديَّة بما وصفهم به من الصِّفات المقتضية لذٰلك؛ ذكر أيضاً أنَّه لا حظَّ لهم ولا بمجرَّد الدَّعوى، وأنَّ مَنْ قال منهم: إنِّي إلٰهٌ من دون اللّه على سبيل الفرض والتنزل. ﴿فذٰلك نَجْزيه جَهَنَّم كذٰلك نجزي الظَّالمين﴾: وأيُّ ظلم أعظمُ من ادِّعاء المخلوق الناقص الفقير إلى اللّه من جميع الوجوه مشارَكَتَهُ[1] اللّه في خصائص الإلٰهيَّة والربوبيَّة؟!

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٣٠﴾ أي: أولم ينظر هٰؤلاء الذين كفروا بربِّهم، وجَحَدوا الإخلاص له في العبوديَّة ما يدلُّهم دلالةَ مشاهدةٍ على أنه الربُّ المحمود الكريم المعبود، فيشاهدون السماء والأرض، فيجدونهما ﴿رتقاً﴾؛ هٰذه ليس فيها سحابٌ ولا مطرٌ، وهٰذه هامدةٌ ميتةٌ لا نبات فيها، ﴿ففتقناهما﴾؛ السماء بالمطر، والأرض بالنبات. أليس الذي أوجَدَ في السماء السحاب بعد أن كان الجوُّ صافياً لا قَزَعَة فيه، وأودَعَ فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلدٍ ميِّتٍ قد اغبرَّت أرجاؤه وقحط عنه ماؤه، فأمطره فيها، فاهتزَّت وتحرَّكت وربَتْ وأنبتت من كلِّ زوج بهيج مختلفِ الأنواع متعددِ المنافع؛ أليس ذٰلك دليلاً على أنه الحقُّ وما سواه باطلٌ، وأنَّه

---

(١) في (ب): «مشاركه».

محيي الموتى، وأنَّه الرحمٰن الرحيم؟ ولهٰذا قال: ﴿أفلا يؤمنون﴾؛ أي: إيماناً صحيحاً ما فيه شكٌّ ولا شرك.

ثم عدَّد تعالى الأدلَّة الأفقيَّة، فقال:

﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣١﴾ أي: ومن الأدلَّة على قدرته وكماله ووحدانيَّته ورحمته أنَّه لما كانت الأرضُ لا تستقرُّ إلَّا بالجبال؛ أرساها بها، وأوْتَدَها لئلَّا تميدَ بالعباد؛ أي: لئلَّا تضطرب؛ فلا يتمكَّن العباد من السكون فيها ولا حرثها ولا الاستقرار بها، فأرساها بالجبال، فحصل بسبب ذٰلك من المصالح والمنافع ما حصل.

ولما كانت الجبالُ المتَّصل بعضها ببعض قد اتَّصلت اتصالاً كثيراً جدًّا؛ فلو بقيت بحالها جبالاً شامخاتٍ وقللاً باذخاتٍ؛ لتعطَّل الاتِّصال بين كثير من البلدان؛ فمن حكمة الله ورحمته أن جعل بين تلك الجبال ﴿فِجاجاً سُبُلاً﴾؛ أي: طرقاً سهلة لا حَزْنَةً، ﴿لعلَّهم يهتَدون﴾: إلى الوصول إلى مطالبهم من البلدان، ولعلَّهم يهتدونَ بالاستدلال بذٰلك على وحدانيَّة المنَّان.

﴿٣٢ ـ ٣٣﴾ ﴿وجَعَلْنا السماء سَقْفاً﴾: للأرض التي أنتم عليها ﴿محفوظاً﴾: من السقوط؛ ﴿إنَّ الله يمسِكُ السمٰواتِ والأرضَ أن تزولا﴾؛ محفوظاً أيضاً من استراق الشياطين للسمع. ﴿وهُم عن آياتِها معرِضونَ﴾؛ أي: غافلون لاهون.

وهٰذا عامٌّ في جميع آيات السماء؛ من علوِّها، وسعتها، وعظمتها، ولونها الحسن، وإتقانها العجيب، وغير ذٰلك من المشاهَدِ، فيها من الكواكب الثوابت والسيَّارات، وشمسها وقمرها النيِّرات، المتولِّد عنهما الليل والنهار، وكونهما دائماً في فلكهما سابحيْن. وكذٰلك النجوم، فتقوم بسبب ذٰلك منافعُ العباد من الحرِّ والبرد والفصول، ويعرفون حسابَ عباداتهم ومعاملاتهم، ويستريحون في ليلهم ويهدؤون ويسكنون، وينتشرون في نهارهم ويسعَوْن في معايشهم؛ كل هٰذه الأمور إذا تدبَّرها اللبيب وأمعن فيها النظر؛ جزم جزماً لا شكَّ فيه أن الله جعلها مؤقَّتة في وقتٍ معلوم إلى أجل محتوم، يقضي العبادُ منها مآرِبَهم، وتقومُ بها منافِعُهم، وليستمتعوا وينتفعوا، ثم بعد هٰذا ستزول وتضمحلُّ ويفنيها الذي أوجدها ويُسكِّنُها الذي

حركها، وينتقل المكلَّفون إلى دارٍ غير هٰذه الدار؛ يجدون فيها جزاء أعمالهم كاملاً موفراً، ويعلم أنَّ المقصود من هٰذه الدار أن تكون مزرعةً لدار القرار، وأنَّها منزلُ سفرٍ لا محلُّ إقامة.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٤﴾ لما كان أعداء الرسول يقولون: ﴿تربَّصوا به ريْبَ المنونِ﴾؛ قال الله تعالى: هٰذا طريقٌ مسلوكٌ ومعبدٌ منهوكٌ؛ فلم نجعل لبشر من قبلك يا محمد الخلدَ في الدُّنيا؛ فإذا متَّ؛ فسبيل أمثالك من الرسل والأنبياء والأولياء [وغيرهم]. ﴿أفإن متَّ فهم الخالدون﴾؛ أي: فهل إذا متَّ؛ خلدوا بعدك، فليهنهم الخلود إذاً إن كان، وليس الأمر كذٰلك، بل كلُّ من عليها فان.

﴿٣٥﴾ ولهٰذا قال: ﴿كلُّ نفس ذائقةُ الموتِ﴾: وهٰذا يشملُ سائر نفوس الخلائق، وأنَّ هٰذا كأسٌ لا بدَّ من شربِهِ وإن طال بالعبدِ المدى وعُمِّر سنين، ولٰكن الله تعالى أوجد عبادَهُ في الدُّنيا، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالخير والشرِّ وبالغنى[1] والفقر والعزِّ والذُّل والحياة والموت؛ فتنةً منه تعالى؛ ﴿ليبلوَهُم أيُّهم أحسنُ عملاً﴾، ومَنْ يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو، ثمَّ ﴿إلينا تُرجَعون﴾: فنجازيكم بأعمالكم؛ إن خيراً فخير، وإن شرًّا؛ فشر، وما ربُّك بظلَّام للعبيد.

وهٰذه الآية تدلُّ على بطلان قول مَنْ يقول ببقاء الخَضِر، وأنَّه مخلَّد في الدُّنيا؛ فهو قولٌ لا دليل عليه، ومناقض للأدلَّة الشرعيَّة.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾.

---

(١) في (ب): «بالغنى».

﴿٣٦﴾ وهٰذا من شدَّة كفرِهم؛ فإنَّ المشركين إذا رأوا رسول اللّه ﷺ؛ استهزؤوا به وقالوا: ﴿أهٰذا الذي يَذْكُرُ آلهتكم﴾؛ أي: هٰذا[1] المحتقر بزعمهم، الذي يسبُّ آلهتكم ويذمُّها ويقع فيها؛ أي: فلا تُبالوا به، ولا تحتفلوا به. هٰذا استهزاؤُهم واحتقارُهم له بما هو من كماله؛ فإنَّه الأكمل الأفضل، الذي من فضائله ومكارمه إخلاصُ العبادة للّه، وذمُّ كلِّ ما يُعْبَدُ من دونه وتنقُّصه، وذِكْرُ محلِّه ومكانته، ولكنَّ محلَّ الازدراء والاستهزاء هٰؤلاء الكفار الذين جَمَعوا كلَّ خُلُقٍ ذميم، ولو لم يكنْ إلَّا كفرهم بالربِّ وجحدهم لرسلِهِ، فصاروا بذٰلك من أخس الخلق وأرذلهم، ومع هٰذا؛ فذِكْرُهم للرحمٰن الذي هو أعلى حالاتهم كافرون به؛ لأنَّه لا يذكرونه ولا يؤمنون به إلَّا وهم مشركون؛ فذِكْرُهم كفرٌ وشركٌ؛ فكيف بأحوالهم بعد ذٰلك؟! ولهٰذا قال: ﴿وهم بذِكْرِ الرحمٰن هم كافرونَ﴾. وفي ذكر اسمه الرحمٰن هنا بيانٌ لقباحة حالهم، وأنَّهم كيف قابلوا الرحمٰن ـ مُسْدي النِّعم كلِّها، ودافع النِّقَم، الذي ما بالعبادِ من نعمةٍ إلَّا منه، ولا يدفع السُّوء إلَّا هو ـ بالكفر والشرك.

﴿٣٧﴾ ﴿خُلِقَ الإنسانُ من عَجَلٍ﴾؛ أي: خُلِق عجولاً، يبادِرُ الأشياء، ويستعجِلُ بوقوعها؛ فالمؤمنون يستعجِلون عقوبة اللّه للكافرين ويتباطؤونها، والكافرون يتولَّون ويستعجلون بالعذاب تكذيباً وعناداً ويقولون: ﴿متى هٰذا الوعدُ إن كنتُم صادقينَ﴾، واللّه تعالى يُمْهِلُ ولا يُهْمِلُ، ويحلُم ويجعلُ لهم أجلاً مؤقَّتاً، ﴿إذا جاء أجَلُهُم لا يستأخِرونَ ساعةً ولا يستقدِمونَ﴾. ولهٰذا قال: ﴿سأريكم آياتي﴾؛ أي: في انتقامي ممَّن كَفَر بي وعصاني، ﴿فلا تستعجلون﴾: ذٰلك.

﴿٣٨﴾ وكذٰلك الذين كفروا يقولون: ﴿متى هٰذا الوعدُ إن كنتُم صادقينَ﴾: قالوا هٰذا القول اغتراراً ولما يحقَّ عليهم العقاب وينزلْ بهم العذاب.

﴿٣٩﴾ فلو ﴿يعلم الذين كفروا﴾ حالَهم الشنيعة ﴿حين لا يكفُّون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم﴾؛ إذ قد أحاطَ بهم من كلِّ جانب، وغَشِيَهم من كلِّ مكان، ﴿ولا هم يُنصَرون﴾؛ أي: لا ينصرهم غيرُهم؛ فلا نُصِروا، ولا انتصروا.

﴿٤٠﴾ ﴿بل تأتيهم﴾ النار ﴿بغتةً﴾: فتبهتُهم من الانزعاج والذعر والخوف العظيم. ﴿فلا يستطيعون ردَّها﴾: إذ هم أذلُّ وأضعف من ذٰلك. ﴿ولا هم يُنظَرون﴾؛ أي: يُمْهَلون فيؤخَّر عنهم العذاب؛ فلو علموا هٰذه الحالة حقَّ المعرفة؛ لما استعجلوا

(١) في (ب): «أهذا».

بالعذاب، ولخافوه أشدَّ الخوف، ولكن لما ترحَّلَ عنهم هذا العلم؛ قالوا ما قالوا.

﴿٤١﴾ ولما ذَكَرَ استهزاءَهم برسوله بقولهم: ﴿أهذا الذي يَذْكُرُ آلهتكم﴾؛ سلَّاه بأن هذا دأب الأمم السالفة مع رسلهم، فقال: ﴿ولقد استُهزِىء برسل من قبلِكَ فحاق بالذين سَخِروا منهم﴾؛ أي: نزل بهم، ﴿ما كانوا به يستهزِئون﴾؛ أي: نزل بهم العذاب وتقطَّعت عنهم الأسباب؛ فليحذرْ هؤلاء أنْ يصيبَهم ما أصاب أولئك المكذِّبين.

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٢﴾ يقول تعالى ذاكراً عَجزَ هؤلاء الذين اتَّخذوا من دونِهِ آلهةً، وأنَّهم محتاجون مضطرُّون إلى ربِّهم الرحمن، الذي رحمته شملَتِ البرَّ والفاجر في ليلهم ونهارهم، فقال: ﴿قل من يَكلَؤكُم﴾؛ أي: يحرسكم ويحفظكم ﴿بالليل﴾: إذا[1] كنتم نائمين على فُرُشِكم وذهبت حواسُّكم، وبالنَّهار وقت انتشاركم وغفلتكم ﴿من الرحمن﴾؛ أي: بدله غيره؛ أي: هل يحفظُكم أحدٌ غيره؟ لا حافظ إلَّا هو. ﴿بل هم عن ذِكْرِ ربِّهم معرضونَ﴾: فلهذا أشركوا به، وإلَّا؛ فلو أقبلوا على [ذكر] ربِّهم، وتلقَّوا نصائحه؛ لَهُدوا لِرُشْدِهِم، ووفِّقوا في أمرهم.

﴿٤٣﴾ ﴿أم لهم آلهةٌ تمنَعُهم من دوننا﴾؛ أي: إذا أردناهم بسوءٍ؛ هل من آلهتهم من يقدِرُ على منعهم من ذلك السوء والشرِّ النازل بهم؟ ﴿لا يستطيعونَ نصرَ أنفسِهِم ولا هم منا يُصْحَبون﴾؛ أي: لا يُعانون على أمورهم من جهتنا، وإذا لم يُعانوا من الله؛ فهم مَخْذولون في أمورهم، لا يستطيعون جَلْبَ منفعةٍ ولا دفع مَضَرَّةٍ.

﴿٤٤﴾ والذي أوجب لهم استمرارهم على كفرهم وشركهم قوله: ﴿بل مَتَّعْنا هؤلاء وآباءَهم حتى طالَ عليهم العُمُرُ﴾؛ أي: أمددناهم بالأموال والبنين، وأطلنا أعمارهم، فاشتغلوا بالتمتُّع بها، ولهوا بها عما له خُلقوا، وطال عليهم الأمد،

(١) في (ب): «إذ».

فقست قلوبُهم، وعظُم طغيانُهم، وتغلَّظ كفرانهم؛ فلو لفتوا أنظارهم إلى مَنْ عن يمينهم وعن يسارهم من الأرض؛ لم يَجِدوا إلَّا هالكاً، ولم يسمعوا إلَّا صوتَ ناعيةٍ، ولم يحسُّوا إلا بقرونٍ متتابعة على الهلاك، وقد نَصَبَ الموتُ في كلِّ طريق ـ لاقتناص النفوس ـ الأشراكَ، ولهذا قال: ﴿أفلا يَرَوْنَ أنَّا نأتي الأرض نَنقُصُها من أطرافِها﴾؛ أي: بموت أهلها وفنائهم شيئاً فشيئاً حتى يَرِثَ اللّه الأرض ومَنْ عليها وهو خيرُ الوارثين؛ فلو رأوا هذه الحالة؛ لم يغترُّوا ويستمرُّوا على ما هم عليه. ﴿أفهم الغالبونَ﴾: الذين بوسعِهم الخروج عن قَدَرِ اللّه، وبطاقتِهم الامتناع من الموت؛ فهل هذا وصفهم حتى يغترُّوا بطول البقاء؟ أم إذا جاءهم رسولُ ربِّهم؛ لِقَبْضِ أرواحهم، أذعنوا وذلُّوا ولم يظهرْ منهم أدنى ممانعةٍ؟

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٥﴾ أي: ﴿قلْ﴾: يا محمدُ للناس كلِّهم: ﴿إنَّما أنذِرُكم بالوَحْي﴾؛ أي: إنما أنا رسولٌ، لا آتيكم بشيءٍ من عندي، ولا عندي خزائنُ اللّه، ولا أعلم الغيبَ، ولا أقولُ إنِّي مَلَكٌ، وإنما أنذركم بما أوحاه اللّه لي؛ فإنِ استجَبْتُم فقد استجبتم للّه، وسَيُثيبكم على ذلك، وإن أعرضتُم وعارضتم؛ فليس بيدي من الأمر شيء، وإنَّما الأمر للّه، والتقدير كلُّه للّه. ﴿ولا يسمعُ الصمُّ الدُّعاء﴾؛ أي: الأصم لا يسمع صوتاً؛ لأنَّ سمعه قد فَسَدَ وتعطَّل، وشرط السماع مع الصوت أن يوجَدَ محلٌ قابلٌ لذلك. كذلك الوحي سببٌ لحياة القلوب والأرواح وللفقهِ عن اللّه، ولكنْ إذا كان القلبُ غير قابل لسماع الهُدى؛ كان بالنسبة للهدى والإيمان بمنزلةِ الأصمِّ بالنسبة إلى الأصوات؛ فهؤلاء المشركون صمٌّ عن الهدى؛ فلا يُسْتَغْرَبُ عدم اهتدائهم، خصوصاً في هذه الحالة التي لم يأتِهِمُ العذابُ، ولا مسَّهم ألمه.

﴿٤٦﴾ فلو مسَّهم ﴿نفحةٌ من عذاب ربِّك﴾؛ أي: ولو جزءٌ يسيرٌ ولا يسير من عذابِهِ؛ ﴿لَيقولُنَّ يا ويلَنا إنا كنَّا ظالمينَ﴾؛ أي: لم يكن قولهم إلَّا الدُّعاءَ بالويل والثُّبور والندم والاعتراف بظُلْمِهِم وكفرِهم واستحقاقِهِم العذاب.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿٤٧﴾ يخبر تعالى عن حكمِهِ العدل وقضائِهِ القِسْط بين عباده إذا جمعهم يوم

القيامة، وأنَّه يضع لهم الموازينَ العادلةَ التي يَبينُ فيها مثاقيلُ الذَّرِّ الذي[1] توزن به الحسنات والسيئات؛ ﴿فلا تُظْلَمُ نفسٌ﴾: مسلمةٌ و[2]لا كافرةٌ ﴿شيئاً﴾: بأن تُنْقَصَ من حسناتها أو يُزادَ في سيئاتها، وإنْ كانَ مثقال ذرة[3] من خردلٍ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها من خيرٍ أو شرٍّ أتينا بها وأحضرناها، ليجازى بها صاحبها؛ كقوله: ﴿فمن يَعملَ مثقالَ ذرةٍ خيراً يَرَه. ومن يَعمل مثقَالَ ذَرَّةٍ شرًّا يَرَه﴾، ﴿وقالوا يا وَيْلَتَنا ما لهٰذا الكتابِ لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلَّا أحْصاها ووَجَدوا ما عَمِلوا حاضِراً﴾. ﴿وكفى بنا حاسِبينَ﴾؛ يعني بذٰلك نفسَه الكريمةَ؛ فكفى بها حاسباً؛ أي: عالماً بأعمال العباد، حافظاً لها، مثبتاً لها في الكتاب، عالماً بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها، موصلاً للعمال جزاءها.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٨﴾ كثيراً ما يَجْمَعُ تعالى بين هٰذين الكتابين الجليلين اللَّذين لم يَطْرُق العالم أفضلُ منهما ولا أعظمُ ذكراً ولا أبركُ ولا أعظمُ هدىً وبياناً، وهما التوراة والقرآن، فأخبر أنَّه آتى موسى أصلاً وهارون تَبَعاً الفرقان، وهو التوراة الفارقة بين الحقِّ والباطل والهدى والضَّلال، وأنها ﴿ضياء﴾؛ أي: نورٌ يهتدي به المهتدون، ويأتمُّ به السالكون، وتُعْرَفُ به الأحكام، ويميِّز به بين الحلال والحرام، وينير في ظُلمة الجهل والبدع والغواية وذكراً للمتَّقين؛ يتذكَّرون به ما ينفعهم وما يضرُّهم، ويتذكَّر به الخيرَ والشرَّ، وخصَّ المتَّقين بالذِّكر، لأنَّهم المنتفعون بذٰلك علماً وعملاً.

﴿٤٩﴾ ثم فسَّر المتقين فقال: ﴿الذين يَخْشَوْنَ ربَّهم بالغيب﴾؛ أي: يخشونه في حال غيبتهم وعدم مشاهدةِ الناس لهم؛ فمع المشاهدة أولى، فيتورَّعون عمَّا حَرَّم، ويقومون بما ألزم. ﴿وهم من الساعةِ مشفِقونَ﴾؛ أي: خائفون وَجِلون؛ لكمال معرفتهم بربِّهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والعطف هنا من باب عطف الصفات المتغايراتِ الواردة على شيءٍ واحدٍ وموصوف واحدٍ.

﴿٥٠﴾ ﴿وهٰذا﴾؛ أي: القرآن، ﴿ذكرٌ مباركٌ أنزلناه﴾: فوصفه بوصفينِ جليلين: كونُهُ ذكراً يُتَذَكَّر به جميعُ المطالب؛ من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن

---

(١) في (ب): «التي». (٢) في (ب): «أو».
(٣) في (ب): «حبة».

صفات الرسل والأولياء وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنَّة والنَّار. فيُتَذكَّر به المسائل والدَّلائل العقليَّة والنقليَّة، وسماه ذكراً؛ لأنَّه يُذَكِّرُ ما رَكَزَهُ اللّه في العقول والفطر من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحَسَن عقلاً، والنهي عن القبيح عقلاً.

وكونُهُ مباركاً يقتضي كثرة خيره ونمائها وزيادتها، ولا شيء أعظم بركةً من هٰذا القرآن؛ فإنَّ كلَّ خير ونعمة وزيادة دينيَّةٍ أو دنيويَّةٍ أو أخرويَّة؛ فإنَّها بسببه وأثرٌ عن العمل به؛ فإذا كان ذِكرًا مباركاً؛ وجب تلقِّيه بالقَبول والانقياد والتسليم، وشُكْرِ اللّه على هٰذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته؛ بتعلُّم ألفاظه ومعانيه.

ومقابلتُهُ بضدِّ هٰذه الحالة؛ من الإعراض عنه، والإضراب عنه صفحاً، وإنكاره، وعدم الإيمان به؛ فهٰذا من أعظم الكفر وأشدِّ الجهل والظُّلم، ولهٰذا أنكر تعالى على مَنْ أنكره، فقال: ﴿أفأنتم له منكِرونَ﴾.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ[1] ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ

(١) في النسختين: «إلى آخر القصة وهو قوله: ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾».

وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿٥١﴾ لما ذكر تعالى موسى ومحمداً ﷺ وكتابيهما؛ قال: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رُشْدَهُ من قبلُ﴾؛ أي: من قبل إرسال موسى ومحمد ونزول كتابيهما، فأراه الله ملكوتَ السماواتِ والأرض، وأعطاه من الرُّشد الذي كَمَّلَ به نفسه ودعا الناس إليه ما لم يؤتِهِ أحداً من العالمين غير[1] محمدٍ، وأضاف الرُّشد إليه لكونِهِ رُشداً بحسب حاله وعلوِّ مرتبتِهِ، وإلَّا؛ فكلُّ مؤمنٍ له من الرشد بحسب ما معه من الإيمان. ﴿وكُنَّا به عالمين﴾؛ أي: أعطيناه رشدَه، واختَصَصْناه بالرسالة والخُلَّة، واصطفيناه في الدُّنيا والآخرة؛ لعلمنا أنَّه أهل لذٰلك وكفءٌ له؛ لزكائه وذكائه.

ولهٰذا ذَكَرَ محاجَّتَهُ لقومه، ونهيهم عن الشِّرك، وتكسير الأصنام وإلزامهم بالحجَّة، فقال:

﴿٥٢﴾ ﴿إذْ قال لأبيه وقومِهِ ما هٰذه التماثيلُ﴾: التي مثَّلْتُموها؛ نَحَتُّموها بأيديكم على صور بعض المخلوقات، ﴿التي أنتم لها عاكفون﴾: مقيمون على عبادتِها، ملازِمون لذٰلك؛ فما هي؟ وأيُّ فضيلة ثبتتْ لها؟ وأين عقولُكم التي ذهبت حتى أفنيتُم أوقاتكم بعبادتها؛ والحالُ أنَّكم مثلْتموها ونحتُّموها بأيديكم؛ فهٰذا من أكبر العجائب؛ تعبُدون ما تنحِتون؟!

﴿٥٣﴾ فأجابوا بغير حجَّةٍ جواب العاجز الذي ليس بيده أدنى شبهة، فقالوا: ﴿وجَدْنا آباءنا﴾: كذٰلك يفعلونَ فسلكنا سبيلَهم واتَّبعناهم على عبادتها!! ومن المعلوم أنَّ فعل أحدٍ من الخلق سوى الرُّسل ليس بحجَّةٍ ولا تجوز به القدوةُ، خصوصاً في أصل الدين وتوحيد ربِّ العالمين.

﴿٥٤﴾ ولهٰذا قال لهم إبراهيمُ مضلِّلاً للجميع: ﴿لقد كنتُم أنتم وآباؤكم في ضَلال مبينٍ﴾؛ أي: ضلال بيِّن واضح، وأيُّ ضلال أبلغُ من ضلالهم في الشرك وترك التوحيد؟! أي: فليس ما قلتُم يصلُحُ للتمسُّك به، وقد اشتركتُم وإياهم في الضَّلال الواضح البيِّن لكلِّ أحدٍ.

---

(١) في (ب): «بعد».

﴿٥٥﴾ ﴿قالوا﴾: على وجه الاستغراب لقولِهِ، والاستفهام لما قال، وكيف باداَهم بتسفيهِهم وتسفيه آبائهم: ﴿أجئتنا بالحقِّ أم أنت من اللاَّعبينَ﴾؛ أي: هٰذا القول الذي قُلْتَه والذي جئتنا به: هل هو حقٌّ وُجِدَ، أم كلامُك لنا كلامُ لاعب مستهزِىء لا يَدْري ما يقول؟! وهٰذا الذي أرادوا، وإنما ردَّدوا الكلام بين الأمرين لأنَّهم نزَّلوه منزلة المتقرِّر المعلوم عند كلِّ أحدٍ، أنَّ الكلامَ الذي جاء به إبراهيمُ كلامُ سفيهٍ لا يَعْقِلُ ما يقول.

﴿٥٦﴾ فردَّ عليهم إبراهيمُ ردًّا بيَّن به وجهَ سَفَهِهم وقلَّة عقولهم، فقال: ﴿بل ربُّكم ربُّ السمٰواتِ والأرض الذي فَطَرَهُنَّ وأنا على ذٰلكم من الشاهدينَ﴾: فجمع لهم بين الدَّليل العقليِّ والدَّليل السمعيِّ: أمَّا الدليلُ العقليُّ؛ فإنَّه قد عَلِمَ كلُّ أحدٍ، حتى هٰؤلاء الذين جادلهم إبراهيم: أنَّ اللّٰه وحده الخالقُ لجميع المخلوقات من بني آدم والملائكة والجنِّ والبهائم والسماوات والأرض المدبِّر لهنَّ بجميع أنواع التدبير، فيكون كلُّ مخلوق مفطوراً مدبَّراً متصرَّفاً فيه، ودخل في ذٰلك جميعُ ما عُبِدَ من دون اللّٰه، أفيليقُ عند مَنْ له أدنى مُسْكَةٍ من عقل وتمييز، أن يَعْبُدَ مخلوقاً متصرَّفاً فيه، لا يملِكُ نفعاً، ولا ضرًّا، ولا موتاً، ولا حياةً، ولا نُشوراً، ويدع عبادة الخالق الرازق المدبِّر؟!

وأما الدَّليل السمعيُّ؛ فهو المنقولُ عن الرُّسل عليهم الصلاة (والسلام)[١]؛ فإنَّ ما جاؤوا به معصومٌ لا يغلط ولا يخبِرُ بغير الحقِّ، ومن أنواع هٰذا القسم شهادةُ أحدٍ من الرُّسل على ذٰلك؛ فلهٰذا قال إبراهيم: ﴿وأنا على ذٰلكم﴾؛ أي: أنَّ اللّٰه وحدَه المعبودُ، وأنَّ عبادةَ ما سواه باطلٌ، ﴿من الشَّاهِدين﴾: وأيُّ شهادةٍ بعد شهادةِ اللّٰه أعلى من شهادة الرُّسل، خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً خليل الرحمٰن؟

﴿٥٧﴾ ولما بيَّن أنَّ أصنامَهم ليس لها من التدبير شيءٌ؛ أراد أن يُرِيَهم بالفعل عجزها وعدم انتصارها، وليكيد كيداً يحصُلُ به إقرارُهم بذٰلك؛ فلهٰذا قال: ﴿وتاللّٰهِ لأكيدنَّ أصنامَكم﴾؛ أي: أكسرها على وجه الكيد، ﴿بعدَ أن تُوَلُّوا مدبِرينَ﴾: عنها، إلى عيدٍ من أعيادهم.

﴿٥٨﴾ فلما تَوَلُّوا مدبرين؛ ذَهَبَ إليها بِخفيةٍ، ﴿فجَعَلَهُمْ جُذاذاً﴾؛ أي: كِسَراً

---

(١) زيادة على النسختين.

وقطعاً، وكانت مجموعةً في بيت واحدٍ فكسَّرها كلَّها، ﴿إلَّا كبيراً لهم﴾؛ أي: إلَّا صنمهم الكبير؛ فإنَّه تركه لمقصد سيبيِّنه.

وتأمَّل هٰذا الاحتراز العجيب؛ فإنَّ كلَّ ممقوتٍ عند اللّٰه لا يُطلق عليه ألفاظ التعظيم إلَّا على وجه إضافتِهِ لأصحابه؛ كما كان النبيُّ ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: إلى عظيم الفُرس... إلى عظيم الروم... ونحو ذٰلك[1] ولم يقل: إلى العظيم! وهنا قال تعالى: ﴿إلَّا كبيراً لهم﴾، ولم يقل: كبيراً من أصنامهم؛ فهٰذا ينبغي التنبُّه له والاحتراز من تعظيم ما حقَّره اللّٰه؛ إلَّا إذا أضيفَ إلى من عظَّمه. وقوله: ﴿لعلَّهم إليه يرجِعونَ﴾؛ أي: ترك إبراهيم تكسير صَنَمِهم هٰذا لأجل أن يرجعوا إليه، ويستملوا حجَّته، ويلتفِتوا إليها، ولا يُعْرِضوا عنها، ولهٰذا قال في آخرها: ﴿فرجَعوا إلى أنفسهم﴾.

﴿٥٩﴾ فحين رأوا ما حلَّ بأصنامهم من الإهانة والخزي؛ ﴿قالوا مَن فَعَلَ هٰذا بآلهتنا إنَّه لمن الظالمين﴾: فرَمَوا إبراهيم بالظُّلم الذي هم أولى به حيث كسَّرها، ولم يدروا أن تكسيره لها من أفضل مناقبه ومن عدلِهِ وتوحيدِهِ، وإنَّما الظالم مَنِ اتَّخذها آلهةً، وقد رأى ما يفعل بها.

﴿٦٠﴾ ﴿قالوا سَمِعْنا فتىً يذكُرُهم﴾ ـ أي: يَعيبهم ويذُمُّهم، ومَنْ هٰذا شأنُهُ لا بدَّ أن يكون هو الذي كسرها، أو أنَّ بعضهم سَمِعَهُ يذكر أنه سيكيدها ـ ﴿يُقال له إبراهيمُ﴾.

﴿٦١﴾ فلما تحقَّقوا أنه إبراهيم؛ ﴿قالوا فأتوا به﴾؛ أي: بإبراهيم، ﴿على أعين الناس﴾؛ أي: بمرأى منهم ومسمع، ﴿لعلَّهم يشهدونَ﴾؛ أي: يحضُرون ما يصنعُ بمن كَسَّرَ آلهتهم. وهٰذا الذي أراد إبراهيم وقَصَدَ: أن يكون بيانُ الحقِّ بمشهدٍ من الناس؛ ليشاهِدوا الحقَّ وتقوم عليهم الحجَّة؛ كما قال موسى حين واعَدَ فرعونَ: ﴿موعِدُكم يومُ الزِّينة وأن يُحْشَرَ الناس ضحىً﴾.

﴿٦٢﴾ فحين حضر الناس وأُحْضِر إبراهيم؛ قالوا له: ﴿أأنتَ فعلتَ هٰذا﴾؛ أي: التكسير ﴿بآلهتنا يا إبراهيمُ﴾؟ وهٰذا استفهام تقريرٍ؛ أي: فما الذي جرَّأك؟ وما الذي أوجبَ لك الإقدام على هٰذا الأمر؟

﴿٦٣﴾ فقال إبراهيم والناس مشاهدونَ: ﴿بل فَعَلَهُ كبيرُهم هٰذا﴾؛ أي: كسَّرها

(١) كما في «صحيح البخاري» (٧ و٤٤٢٤)، ومسلم (١٧٧٣).

غضباً عليها لـمَّا عُبِدَتْ معه، وأراد أن تكونَ العبادةُ منكم لصنمكم الكبير وحدَه، وهٰذا الكلامُ من إبراهيم القصدُ منه إلزامُ الخصم وإقامةُ الحجَّة عليه، ولهٰذا قال: ﴿فاسْألوهُم إن كانوا ينطقونَ﴾، وأراد الأصنام المكسَّرة؛ اسألوها لم كُسِّرَتْ؟ والصنم الذي لم يكسر؛ اسألوه لأيِّ شيءٍ كسَّرها؟ إنْ كان عندَهم نطقٌ؛ فسيجيبونكم إلى ذٰلك، وأنا وأنتم وكلُّ أحدٍ يدري أنَّها لا تنطِقُ، ولا تتكلَّم، ولا تنفع ولا تضرُّ، بل ولا تنصر نفسَها ممَّن يريدها بأذى.

﴿٦٤﴾ ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾؛ أي: ثابتْ عليهم عقولُهم، ورجعتْ إليهم أحلامُهم، وعلموا أنَّهم ضالُّون في عبادتها، وأقرُّوا على أنفسهم بالظُّلم والشرك، ﴿فقالوا إنَّكم أنتم الظالمون﴾: فحصل بذٰلك المقصودُ، ولزمتهم الحجَّة بإقرارهم أنَّ ما هم عليه باطلٌ، وأنَّ فعلَهم كفرٌ وظلمٌ.

﴿٦٥﴾ ولٰكن لم يستمرُّوا على هٰذه الحالة، ولٰكن ﴿نُكِسوا على رؤوسهم﴾؛ أي: انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم، وضلَّت أحلامهم، فقالوا لإبراهيم: ﴿لقد علمتَ ما هٰؤلاء ينطِقونَ﴾؛ فكيف تَهَكَّمُ بنا، وتستهزىء بنا، وتأمُرُنا أنْ نسألها، وأنتَ تعلم أنَّها لا تنطِقُ؟

﴿٦٦﴾ فقال إبراهيم موبِّخاً لهم ومعلناً بشركِهِم على رؤوس الأشهاد ومبيِّناً عدم استحقاق آلهتهم للعبادة: ﴿أفتَعْبُدون من دون الله ما لا ينفعُكم شيئاً ولا يضرُّكم﴾: فلا نفع ولا دفع.

﴿٦٧﴾ ﴿أفٍّ لكم ولما تَعْبُدونَ من دون الله﴾؛ أي: ما أضلَّكم وأخسرَ صفقتكم وما أخسَّكم أنتم وما عبدتُم من دون الله!! إن كنتم تعقِلونَ عرفتُم هٰذه الحال، فلما عدمتُم العقلَ وارتكبتم الجهلَ والضَّلال على بصيرةٍ؛ صارت البهائم أحسنَ حالاً منكم.

﴿٦٨﴾ فحينئذٍ لـمَّا أفحمهم ولم يبيِّنوا حجةً؛ استعملوا قوتهم في معاقبتِهِ، فـ ﴿قالوا حرِّقوه وانصُروا آلهتكم إن كنتُم فاعلينَ﴾؛ أي: اقتلوه أشنع القِتلات بالإحراق غضباً لآلهتكم ونُصرةً لها؛ فَتَعْساً لهم تَعْساً، حيثُ عبدوا من أقرُّوا أنه يحتاجُ إلى نصرِهم واتَّخذوه إلهاً!!

﴿٦٩﴾ فانتصر الله لخليلِهِ لـمَّا ألقَوْه في النار، وقال لها: ﴿كوني بَرْداً وسلاماً على إبراهيم﴾: فكانت عليه برداً وسلاماً، لم يَنَلْهُ فيها أذى، ولا أحسَّ بمكروه.

﴿٧٠﴾ ﴿وأرادوا به كيداً﴾: حيث عَزَموا على إحراقه، ﴿فَجَعَلْناهم

الأخسرينَ﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة؛ كما جعل اللّه خليله وأتباعه هم الرابحين المفلحين.

﴿٧١﴾ ﴿ونجَّيناه ولوطاً﴾: وذلك أنَّه لم يؤمن به من قومِهِ إلَّا لوطٌ عليه السلام، قيل: إنَّه ابن أخيه، فنجَّاه اللّه، وهاجر ﴿إلى الأرض التي بارَكْنا فيها للعالمين﴾؛ أي: الشام، فغادر قومه في بابل من أرض العراق، ﴿وقال إنِّي مهاجر إلى ربِّي إنَّه هو العزيز الحكيم﴾. ومن بركةِ الشام أنَّ كثيراً من الأنبياء كانوا فيها، وأنَّ اللّه اختارَها مهاجَراً لخليلِهِ، وفيها أحدُ بيوتِهِ الثلاثة المقدَّسة، وهو بيت المقدس.

﴿٧٢﴾ ﴿ووهَبْنا له﴾: حين اعتزل قومَه، ﴿إسحاقَ ويعقوبَ﴾: ابن إسحاق، ﴿نافلةً﴾: بعدما كبر وكانت زوجتُهُ عاقراً، فبشَّرته الملائكةُ بإسحاق، ﴿ومن وراءِ إسحاقَ يعقوبَ﴾، ويعقوب هو إسرائيل الذي كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم الذي كانت منه الأمة الفاضلة العربيَّة، ومن ذرِّيَّته سيد الأولين والآخرين. ﴿وكلاًّ﴾: من إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ﴿جَعَلْنا صالحين﴾؛ أي: قائمين بحقوقِهِ وحقوق عباده.

﴿٧٣﴾ ومن صلاحِهِم أنَّه جعلهم أئمةً يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم اللّه على عبده: أن يكونَ إماماً يَهتدي به المهتدونَ، ويمشي خلفَه السالكون، وذلك لمَّا صبروا، وكانوا بآياتِ اللّه يوقنونَ.

وقوله: ﴿يهدون بأمرِنا﴾؛ أي: يهدون الناس بديننا، لا يأمرون بأهواء أنفسهم، بل بأمر اللّه ودينِهِ واتِّباع مرضاته، ولا يكون العبدُ إماماً حتى يدعو إلى أمر اللّه.

﴿وأوحَينا إليهم فعلَ الخيرات﴾: يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شاملٌ للخيرات كلِّها[1] من حقوق اللّه وحقوق العباد، ﴿وإقام الصَّلاة وإيتاءِ الزَّكاةِ﴾: هذا من باب عطف الخاصِّ على العامِّ؛ لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأنَّ مَنْ كمَّلهما كما أمِرَ؛ كان قائماً بدينه، ومن ضيَّعهما؛ كان لما سواهما أضيع، ولأنَّ الصلاةَ أفضلُ الأعمال التي فيها حقُّه، والزكاة أفضلُ الأعمال التي فيها الإحسان لخلقه.

﴿وكانوا لنا﴾؛ أي: لا لغيرنا ﴿عابدينَ﴾؛ أي: مديمين على العبادات القلبيَّة

(١) في (ب): «الجميع الخيرات».

والقوليَّة والبدنيَّة في أكثر أوقاتهم، فاستحقُّوا أن تكون العبادة وصفَهم، فاتَّصفوا بما أمر اللّه به الخلقَ، وخَلَقَهم لأجلِهِ.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿٧٤﴾ هٰذا ثناءٌ من اللّه على رسوله لوطٍ عليه السلام بالعلم الشرعيِّ والحكم بين الناس بالصواب والسَّداد، وأنَّ اللّه أرسله إلى قومه يَدْعوهم إلى عبادة اللّه وينهاهم عما هم عليه من الفواحش، فَلَبِثَ يدعوهم، فلم يستجيبوا له، فَقَلَبَ اللّه عليهم ديارَهم، وعذَّبهم عن آخرهم؛ لأنَّهم ﴿كانوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسقينَ﴾: كذَّبوا الدَّاعي وتوعَّدوه بالإخراج، ونجَّى اللّه لوطاً وأهله، فأمره أن يَسْرِيَ بهم ليلاً ليبعدوا عن القرية، فَسَرَوْا ونَجَوْا من فضل اللّه عليهم ومنته.

﴿٧٥﴾ ﴿وأدخَلْناه في رحمتِنا﴾: التي مَنْ دَخَلَها كان من الآمنين من جميع المخاوف، النائلين كلَّ خير وسعادة وبرٍّ وسرور وثناءٍ، وذٰلك لأنَّه من الصالحين، الذين صَلَحَتْ أعمالهم، وزَكَتْ أحوالُهم، وأصلح اللّه فاسدَهم، والصلاحُ هو السبب لدخول العبدِ برحمةِ اللّه؛ كما أنَّ الفساد سببٌ لحرمانه الرحمة والخير، وأعظمُ الناس صلاحاً الأنبياءُ عليهم السلام، ولهٰذا يَصِفُهم بالصَّلاح، وقال سليمان عليه السلام: ﴿وأدْخِلْني برحمتِكَ في عبادِكَ الصَّالحين﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿٧٦ ـ ٧٧﴾ أي: واذكر عَبْدَنا ورسولنا نوحاً عليه السلام مُثْنِياً مادحاً حين أرسله اللّه إلى قومه، فلَبِثَ فيهم ألف سنةٍ إلَّا خمسينَ عاماً؛ يدعوهم إلى عبادة اللّه، وينهاهم عن الشرك به، ويبدي فيهم ويعيدُ، ويدعوهم سرًّا وجهاراً وليلاً ونهاراً، فلما رآهم لا ينجع فيهم الوعظ ولا يفيدُ لديهم الزجرُ؛ نادى ربَّه وقال: ﴿ربِّ لا تَذَرْ على الأرض من الكافرين ديَّاراً. إنَّك إن تَذَرْهُم يُضِلُّوا عبادك ولا يَلِدوا إلَّا فاجراً كفَّاراً﴾؛ فاستجاب اللّه له، فأغرقهم، ولم يُبْقِ منهم أحداً، ونجَّى اللّه نوحاً وأهله ومن معه من المؤمنين في الفلك المشحون، وجعل ذرِّيَّته هم الباقين، ونصرهُ اللّه على قومه المستهزئين.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ
﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ
وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ
﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾
وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿٧٨﴾ أي: واذكر هٰذين النبيين [الكريمين[1]] داود وسليمان مثنياً مبجّلاً؛ إذْ آتاهما اللّه العلم الواسع والحكم بين العباد؛ بدليل قوله: ﴿إذْ يحكُمانِ في الحَرْثِ إذْ نَفَشَتْ فيه غَنَمُ القوم﴾؛ أي: إذ تحاكم إليهما صاحبُ حرثٍ نفشت فيه غنم القوم الأخرى؛ أي: رعتْ ليلاً، فأكلتْ ما في أشجارِهِ ورعتْ زرعه، فقضى فيه داود عليه السلام بأنَّ الغنم تكون لصاحب الحَرْث؛ نظراً إلى تفريط أصحابها، فعاقبهم بهٰذه العقوبة، وحكم فيها سليمانُ بحكم موافقٍ للصواب؛ بأنَّ أصحاب الغنم يدفعونَ غَنَمَهم إلى صاحب الحرث، فينتفع بدرِّها وصوفها، ويقومون على بستان صاحب الحرثِ حتّى يعودَ إلى حاله الأولى؛ فإذا عاد إلى حاله؛ ترادّا، ورَجَعَ كلٌّ منهما بماله، وكان هٰذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام.

﴿٧٩﴾ ولهٰذا قال: ﴿ففهَّمْناها سليمان﴾؛ أي: فهَّمناه هٰذه القضية، ولا يدلُّ ذٰلك أن داود لم يُفَهِّمْه اللّه في غيرها، ولهٰذا خصَّها بالذكر؛ بدليل قوله: ﴿وكلًّا﴾: من داود وسليمان آتيناهما ﴿حكماً وعلماً﴾: وهٰذا دليلٌ على أن الحاكم قد يصيب الحقَّ والصواب، وقد يخطىء ذٰلك، وليس بملوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده.

ثم ذكر ما خصَّ به كلًّا منهما، فقال: ﴿وسخَّرْنا مع داود الجبالَ يُسَبِّحْنَ والطيرَ﴾: وذٰلك أنَّه كان من أعبد الناس وأكثرهم للّه ذكراً وتسبيحاً وتمجيداً، وكان قد أعطاه اللّهُ من حسن الصوت ورِقَّته ورخامتِهِ ما لم يؤتِهِ أحداً من الخلق، فكان إذا سبَّح وأثنى على اللّه؛ جاوبتْه الجبالُ الصمُّ والطيورُ البهم، وهٰذا فضلُ اللّه عليه وإحسانه، ولهٰذا[2] قال: ﴿وكنا فاعلين﴾.

---

(١) في (أ): «الكريم».
(٢) في (ب): «فلهذا».

﴿٨٠﴾ ﴿وعلَّمْناه صنعةَ لَبوسٍ لكم﴾؛ أي: علَّم اللّٰه داود عليه السلام صنعةَ الدُّروع؛ فهو أول من صَنَعَها وعلمها وسَرَتْ صناعته إلى مَنْ بعده، فألانَ اللّٰه له الحديدَ، وعلَّمه كيف يَسْرُدُها، والفائدة فيها كبيرة؛ ﴿لِتُحْصِنَكُم من بأسِكُم﴾؛ أي: هي وقاية لكم وحفظٌ عند الحرب واشتداد البأس. ﴿فهل أنتم شاكرونَ﴾: نعمةَ اللّٰه عليكم؛ حيث أجراها على يد عبده داود؟ كما قال تعالى: ﴿وجَعَلَ لكم سرابيلَ تَقيكم الحرَّ وسَرابيلَ تَقيكم بأسَكُم كذٰلك يُتِمُّ نعمتَه عليكم لعلَّكم تُسْلِمونَ﴾.

يُحتمل أنَّ تعليم اللّٰه لداود صنعةَ الدُّروع وإلانتها أمرٌ خارق للعادةِ، وأنْ يكون كما قاله المفسِّرون: إنَّ اللّٰه ألانَ له الحديدَ، حتَّى كان يعمَلُه كالعجين والطين من دون إذابةٍ له على النار.

ويُحتمل أنَّ تعليم اللّٰه له على جاري العادة، وأنَّ إلانة الحديد له بما علَّمه اللّٰه من الأسباب المعروفةِ الآن لإذابتها، وهٰذا هو الظاهر؛ لأنَّ اللّٰه امتنَّ [بذلك] على العباد وأمرهم بشكرِها، ولولا أنَّ صنعتَه من الأمور التي جعلها اللّٰه مقدورةً للعباد؛ لم يمتنَّ عليهم بذٰلك ويذكُر فائدتها؛ لأنَّ الدُّروع التي صَنَعَ داود عليه السلام متعذِّرٌ أنْ يكونَ المرادُ أعيانَها، وإنَّما المنَّةُ بالجنس. والاحتمال الذي ذكره المفسرون لا دليلَ عليه؛ إلَّا قوله: ﴿وألَنَّا له الحديدَ﴾، وليس فيه أنَّ الإلانةَ من دون سبب، واللّٰه أعلم بذٰلك.

﴿٨١﴾ ﴿ولسليمان الريح﴾؛ أي: سخَّرناها ﴿عاصفةً﴾؛ أي: سريعة في مرورها، ﴿تجْري بأمره﴾: حيث دبرت امتثلت أمره، غدوُّها شهرٌ ورَواحها شهرٌ، ﴿إلى الأرض التي بارَكْنا فيها﴾: وهي أرض الشام؛ حيث كان مقرُّه، فيذهب على الريح شرقاً وغرباً، ويكون مأواها ورجوعُها إلى الأرض المباركة. ﴿وكنَّا بكلِّ شيءٍ عالمِينَ﴾: قد أحاط علمُنا بجميع الأشياء، وعَلِمْنا من داود وسليمان ما أوصَلْناهما به إلى ما ذكرنا.

﴿٨٢﴾ ﴿ومِنَ الشياطين مَن يغوصون له ويَعْمَلون عملاً دونَ ذٰلك﴾: وهٰذا أيضاً من خصائص سليمان عليه السلام: أنَّ اللّٰه سَخَّر له الشياطين والعفاريتَ، وسلَّطه على تسخيرِهم في الأعمال التي لا يقدِرُ على كثيرٍ منها غيرهم، فكان منهم مَنْ يَغوصُ له البحر ويستخرِجُ الدُّرَّ واللؤلؤ وغير ذٰلك، ومنهم من يعمل له ﴿محاريبَ وتماثيلَ وجفانٍ كالجواب وقدورٍ راسياتٍ﴾. وسخَّر طائفةً منهم لبناء بيت المقدس، ومات وهم على عمله، وبقوا بعدَه سنةً، حتَّى علموا موتَه؛ كما سيأتي إن شاء اللّٰه

تعالى. ﴿وكنّا لهم حافظين﴾؛ أي: لا يقدِرون على الامتناع منه وعصيانِهِ، بل حَفِظَهم اللّه له بقوَّته وعزَّته وسلطانه.

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿٨٣﴾ أي: واذكُر عبدَنا ورسولَنا أيوب مثنياً معظماً له رافعاً لقدرِهِ حين ابتلاه ببلاء شديدٍ فوجَدَه صابراً راضياً عنه، وذٰلك أنَّ الشيطان سُلِّطَ على جسدِهِ ابتلاءً من اللّه وامتحاناً، فنفخ في جسدِهِ، فتقرَّح قروحاً عظيمةً، ومكث مدَّةً طويلة، واشتدَّ به البلاءُ، ومات أهلُه، وذهب مالُه، فنادى ربَّه: ربِّ ﴿أنّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنتَ أرحم الراحمين﴾: فتوسَّل إلى اللّه بالإخبار عن حال نفسه، وأنَّه بلغ الضرُّ منه كلَّ مبلغ، وبرحمة ربِّه الواسعة العامة.

﴿٨٤﴾ فاستجاب اللّه له وقال له: ﴿اركُضْ برجلِكَ هٰذا مغتسَلٌ باردٌ وشرابٌ﴾: فركض برجلِهِ، فخرجتْ من ركضتِهِ عينُ ماء باردةٍ، فاغتسل منها، وشرب، فأذهب اللّه ما به من الأذى. ﴿وآتيناه أهلَه﴾؛ أي: ردَدْنا عليه أهله وماله. ﴿ومثلَهم معهم﴾: بأن منحه اللّه [مع] العافية من الأهل والمال شيئاً كثيراً، ﴿رحمةً من عندنا﴾: به حيثُ صَبَرَ ورضي، فأثابه اللّه ثواباً عاجلاً قبل ثواب الآخرة. ﴿وذِكْرى للعابدينَ﴾؛ أي: جعلناه عبرةً للعابدين الذين ينتفعون بالصبرِ؛ فإذا رأوا ما أصابه من البلاءِ، ثم ما أثابه بعد زواله، ونظروا السببَ؛ وجدوه الصبر، ولهٰذا أثنى اللّه عليه به في قوله: ﴿إنّا وَجَدْناه صابراً نعم العبدُ إنَّه أوابٌ﴾، فجعلوه أسوةً وقدوةً عندما يصيبُهُم الضرُّ.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿٨٥﴾ أي: واذكُرْ عبادنا المصطَفَيْن وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذِّكر، واثْنِ عليهم أبلغ الثناء: ﴿إسماعيل﴾ ابن إبراهيم، ﴿وإدريس وذا الكفل﴾: نَبِيَّيْنِ من أنبياء بني إسرائيل؛ ﴿كلٌّ﴾ من هٰؤلاء المذكورين ﴿من الصابرين﴾. والصبر: هو حَبْسُ النفس ومنعها مما تميل بطبعها إليه، وهٰذا يشملُ أنواع الصبر الثلاثة: الصبرُ على طاعة اللّه، والصبرُ عن معصيةِ اللّه، والصبرُ على أقدار اللّه المؤلمة.

فلا يستحقُّ العبد اسم الصبرِ التامّ حتى يوفِّي هٰذه الثلاثة حقَّها؛ فهٰؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد وَصَفَهم الله بالصبرِ؛ فدلَّ أنَّهم وفَّوْها حقَّها وقاموا بها كما ينبغي.

﴿٨٦﴾ ووصفهم أيضاً بالصلاح، وهو يشمَلُ: صلاح القلب بمعرفة الله ومحبَّته والإنابة إليه كلَّ وقت، وصلاح اللسان؛ بأنْ يكون رطباً من ذكر الله، وصلاح الجوارح باشتغالها بطاعة الله وكفِّها عن المعاصي.

فبصبرهم وصلاحِهم أدخلهم الله برحمتِهِ، وجعلهم مع إخوانِهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والآجل، ولو لم يكنْ من ثوابهم إلَّا أنَّ الله تعالى نَوَّهَ بذكرِهم في العالمين، وجعل لهم لسانَ صدقٍ في الآخرين؛ لكفَى بذٰلك شرفاً وفضلاً.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨﴾.

﴿٨٧ ـ ٨٨﴾ أي: واذكرْ عبدَنا ورسولَنا ﴿ذَا النُّونِ﴾، وهو يونُس؛ أي: صاحب النون، وهي الحوت، بالذِّكر الجميل والثناء الحسن؛ فإنَّ الله تعالى أرسله إلى قومه، فدعاهم، فلم يؤمنوا، فوعدهم بنزول العذاب بأمدٍ سمَّاه لهم، فجاءهم العذابُ، ورأوه عِياناً، فعَجُّوا إلى الله وضجُّوا وتابوا، فرفع الله عنهم العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿فلولا كانت قريةٌ آمنتْ فنَفَعَها إيمانُها إلَّا قومَ يونُسَ لما آمنوا كَشَفْنا عنهم عذابَ الخِزْي ومتَّعْناهم إلى حين﴾، وقال: ﴿وأرسَلْناه إلى مائةِ ألفٍ أو يزيدونَ. فآمَنوا فَمَتَّعْناهم إلى حينٍ﴾. وهٰذه الأمَّة العظيمة الذين آمنوا بدعوة يونس من أكبر فضائله، ولٰكنه عليه الصلاة والسلام ذَهَبَ مغاضِباً وأبَقَ عن ربِّه لذنبٍ من الذُّنوب التي لم يَذْكُرها الله لنا في كتابه ولا حاجة لنا إلى تعيينها؛ لقوله: ﴿إذْ أَبَقَ إلى الفُلْكِ... وهو مليمٌ﴾؛ أي: فاعلٌ ما يُلام عليه، [والظاهر أن عجلته ومغاضبته لقومه وخروجه من بين أظهرهم قبل أن يأمره الله بذلك]. وظنَّ أنَّ الله لا يقدر عليه؛ أي: يضيِّق عليه في بطن الحوت، أو ظنَّ أنَّه سيفوتُ الله تعالى، ولا مانع من عُروض هٰذا الظنِّ للكمَّل من الخلق على وجهٍ لا يستقرُّ ولا يستمرُّ عليه، فركب في السفينة مع أناس، فاقْتَرَعوا مَنْ يُلقون منهم في البحر لما خافوا

الغرق إن بَقُوا كلُّهم، فأصابت القرعةُ يونس، فالتقمه الحوتُ، وذهب فيه[1] إلى ظلمات البحار، فنادى في تلك الظلمات: ﴿لا إله إلا أنتَ سبحانَكَ إني كنتُ من الظالمينَ﴾، فأقرَّ للّه تعالى بكمال الألوهيَّة، ونزَّهه عن كل نقص وعيبٍ وآفةٍ، واعترفَ بظلم نفسِهِ وجنايتِهِ؛ قال اللّه تعالى: ﴿فَلَوْلا أنَّه كان من المسبِّحين. لَلَبِثَ في بطنِهِ إلى يومَ يبعثون﴾، ولهٰذا قال هنا: ﴿فاستَجَبْنا له ونَجَّيْناه من الغمِّ﴾؛ أي: الشدَّة التي وقع فيها، ﴿وكذٰلك نُنجي المؤمنينَ﴾: وهٰذا وعدٌ وبشارةٌ لكلِّ مؤمن وقع في شدَّة وغمٍّ: أنَّ اللّه تعالى سَيُنجيه منها ويكشِفُ عنه، ويخفِّفُ لإيمانِهِ؛ كما فعل بيونس عليه السلام.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿٨٩﴾ أي: واذكر عبدَنا ورسولَنا زكريَّا، منوِّهاً بذكره، ناشراً لمناقبه وفضائله التي من جملتها هٰذه المنقبةُ العظيمة، المتضمِّنة لنُصحه للخلق ورحمة اللّه إيَّاه، وأنه ﴿نادى ربَّه ربِّ لا تَذَرْني فَرْداً﴾؛ أي: ﴿قال ربِّ إنِّي وَهَنَ العظمُ منِّي واشتعلَ الرأسُ شيباً ولم أكُن بدعائِكَ ربِّ شقيًّا. وإنِّي خفتُ المواليَ من ورائي وكانتِ امرأتي عاقراً فَهَبْ لي مِن لَدُنكَ وَلِيًّا. يرِثُني ويرثُ من آل يعقوبَ واجْعَلْه ربِّ رضيًّا﴾: من هٰذه الآيات علِمْنا أنَّ قوله: ﴿ربِّ لا تذرني فرداً﴾: أنَّه لما تقارب أجلُه؛ خاف أن لا يقوم أحدٌ بعده مقامَه في الدعوة إلى اللّه والنُّصح لعباد اللّه، وأن يكون في وقتِهِ فرداً ولا يُخْلِفَ من يشفَعُه ويعينُه على ما قام به. ﴿وأنت خير الوارثين﴾؛ أي: خير الباقين، وخيرُ من خَلَفَني بخيرٍ، وأنت أرحمُ بعبادك منِّي، ولكنِّي أريدُ ما يطمئنُّ به قلبي، وتسكنُ له نفسي ويجري في موازيني ثوابه.

﴿٩٠﴾ ﴿فاستجَبْنا له ووَهَبْنا له يحيى﴾: النبيَّ الكريمَ، الذي لم يجعل اللّه له من قبل سميًّا، ﴿وأصْلَحْنا له زَوْجَه﴾: بعدما كانت عاقراً لا يصلُحُ رحمها للولادةِ، فأصلح اللّه رَحِمَها للحمل لأجل نبيِّه زكريا، وهٰذا من فوائد الجليس والقرين الصالح؛ أنَّه مباركٌ على قرينه، فصار يحيى مشتركاً بين الوالدين. ولما ذَكَرَ هٰؤلاء

---

(١) في (ب): «به».

الأنبياء والمرسلين كلاً على انفراده؛ أثنى عليهم عموماً، فقال: ﴿إنَّهم كانوا يسارِعون في الخيراتِ﴾؛ أي: يبادرون إليها، ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكمِّلونها على الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلةً يقدِرون عليها إلا انتهزوا الفرصة فيها. ﴿ويَدْعوننا رَغَباً ورَهَباً﴾؛ أي: يسألوننا الأمورَ المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعوَّذون بنا من الأمور المرهوب منها من مضارِّ الدارين، وهم راغبون [راهبون]، لا غافلون لاهون، ولا مدلون. ﴿وكانوا لَنا خاشعينَ﴾؛ أي: خاضعين متذلِّلين متضرِّعين، وهٰذا لكمال معرفتهم بربِّهم.

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿٩١﴾ أي: واذكر مريم عليها[1] السلام مثنياً عليها مبيِّناً لقَدْرها شاهراً لشرفها، فقال: ﴿والتي أحصَنَتْ فرجَها﴾؛ أي: حفظته من الحرام وقربانه، بل ومن الحلال، فلم تتزوَّج؛ لاشتغالها بالعبادة واستغراق وقتها بالخدمةِ لربِّها، وحين جاءها جبريل في صورة بشرٍ سويٍّ تامِّ الخَلْق والحسن؛ ﴿قالتْ إنِّي أعوذُ بالرحمٰن منك إن كنتَ تقيًّا﴾، فجازاها الله من جنس عملها ورزقها ولداً من غير أب، بل نَفَخَ فيها جبريلُ عليه السلام، فحملت بإذنِ الله، ﴿وجَعَلْناها وابْنَها آيةً للعالمين﴾؛ حيثُ حملت به ووضَعَته من دون مسيس أحدٍ، وحيث تكلَّم في المهد، وبرَّأها مما ظنَّ بها المتَّهِمُون، وأخبر عن نفسه في تلك الحالة، وأجرى الله على يديه من الخوارق والمعجزات ما هو معلوم، فكانت وابنها آيةً للعالمين، يتحدَّث بها جيلاً بعد جيل، ويعتبر بها المعتبرون.

﴿٩٢﴾ ولما ذَكَرَ الأنبياء عليهم السلام؛ قال مخاطباً للناس: و ﴿إنَّ هٰذه أمَّتُكم أمةً واحدةً﴾؛ أي: هٰؤلاء الرسل المذكورون هم أمَّتكم وأئمَّتكم الذين بهم تأتمُّون وبهديهم تقتدون، كلُّهم على دينٍ واحدٍ وصراطٍ واحدٍ، والربُّ أيضاً واحدٌ، ولهٰذا قال: ﴿وأنا ربُّكم﴾: الذي خلقتُكم وربَّيتكم بنعمتي[2] في الدين والدُّنيا؛ فإذا كان

(١) في (ب): «عليه».

(٢) في (ب): «بنعمي».

الربُّ واحداً والنبيُّ واحداً والدين واحداً، وهو عبادةُ اللّه وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادة؛ كان وظيفتُكم والواجبُ عليكم القيامَ بها، ولهٰذا قال: ﴿فاعبدونِ﴾: فرتَّب العبادة على ما سبق بالفاء ترتيب المسبب على سببه.

﴿٩٣﴾ وكان اللائق الاجتماع على هٰذا الأمر وعدم التفرُّق فيه، ولكنَّ البغيَ والاعتداء أبيا إلَّا الافتراق والتقطُّع، ولهٰذا قال: ﴿وتقطَّعوا أمْرَهُم بينَهم﴾؛ أي: تفرّق الأحزابُ المنتسبون لأتباع الأنبياء فرقاً، وتشتَّتوا كلٌّ يدَّعي أن الحقَّ معه والباطل مع الفريق الآخر، وكلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون. وقد عُلِمَ أنَّ المصيب منهم مَنْ كان سالكاً للدين القويم والصراط المستقيم، مؤتماً بالأنبياء، وسيظهر هٰذا إذا انكشَفَ الغطاء، وبَرِحَ الخفاءُ، وحَشَرَ اللّه الناس لفصل القضاء؛ فحينئذٍ يتبيَّن الصادق من الكاذب، ولهٰذا قال: ﴿كلٌّ﴾: من الفرق المتفرّقةِ وغيرهم، ﴿إلينا راجعونَ﴾؛ أي: فنجازيهم أتمَّ الجزاء.

﴿٩٤﴾ ثم فصَّل جزاءه فيهم منطوقاً ومفهوماً، فقال: ﴿فمَن يعملْ من الصالحاتِ﴾؛ أي: الأعمال التي شرعَتْها الرسلُ وحَثَّتْ عليها الكتب، ﴿وهو مؤمنٌ﴾: باللّه وبرسله وما جاؤوا به، ﴿فلا كفرانَ لسعيِهِ﴾؛ أي: لا نضيع سَعْيَهُ ولا نبطِلُه، بل نضاعِفُه له أضعافاً كثيرةً. ﴿وإنَّا له كاتبونَ﴾؛ أي: مثبتون له في اللوح المحفوظ وفي الصُّحف التي مع الحفظة؛ أي: ومن لم يَعْمَلْ من الصالحات أو عَمِلَها وهو ليس بمؤمن؛ فإنَّه محرومٌ خاسرٌ في دينه ودنياه.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿٩٥﴾ أي: يمتنعُ على القُرى المُهْلَكَة المعذَّبة الرُّجوع إلى الدُّنيا ليستدرِكوا ما فَرَّطوا فيه؛ فلا سبيلَ إلى الرجوع لمن أُهْلِكَ وعـذِّب، فليحذرِ المخاطبون أن يستمرُّوا على ما يوجب الإهلاك، فيقع بهم، فلا يمكن رفعهُ، وليقلِعوا وقتَ الإمكان والإدراك.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿٩٦﴾ هٰذا تحذيرٌ من اللّه للناس أن يُقيموا على الكفرِ والمعاصي، وأنَّه قد قَرُبَ انفتاح يأجوجَ ومأجوجَ، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم، وقد سدَّ عليهم

ذو القرنين لما شُكِي إليه إفسادُهم في الأرض، وفي آخر الزمان ينفتحُ السدُّ عنهم؛ فيخرجونَ إلى الناس، وفي هٰذه الحالة والوصف الذي ذَكَرَهُ اللّه من كلِّ مكان مرتفع، وهو الحدب، ﴿يَنسِلونَ﴾؛ أي: يسرعون.

في هٰذا دلالةٌ على كثرتهم الباهرة، وإسراعهم في الأرض، إما بذواتِهِم، وإمَّا بما خَلَقَ اللّه لهم من الأسباب التي تقرِّبُ لهم البعيد، وتسهِّلُ عليهم الصعب، وأنَّهم يَقْهَرون الناس، ويَغْلون عليهم في الدُّنيا، وأنه لا يدان لأحدٍ بقتالهم.

﴿٩٧﴾ ﴿واقتربَ الوعدُ الحقُّ﴾؛ أي: يوم القيامة الذي وَعَدَ اللّه بإتيانه، ووعدُهُ حقٌّ وصدقٌ؛ ففي ذٰلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصةً من شدَّة الأفزاع والأهوال المزعجة والقلاقل المفظِعَة، وما كانوا يعرفون من جناياتهم وذنوبهم، وأنَّهم يَدْعون بالويل والثُّبور والندم والحسرةِ على ما فات ويقولون: لقد ﴿كُنَّا في غفلةٍ من هٰذا﴾ اليوم العظيم، فلم نَزَلْ فيها مستغرقين، وفي لهو الدُّنيا متمتِّعين، حتى أتانا اليقين، ووردْنا القيامَةَ؛ فلو كان يموتُ أحدٌ من الندم والحسرة لماتوا. ﴿بل كُنَّا ظالمينَ﴾: اعترفوا بظلمِهِم وعَدْل اللّه فيهم؛ فحينئذٍ يُؤْمَرُ بهم إلى النار هم وما كانوا يعبدون، ولهٰذا قال:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿٩٨﴾ أي: وإنَّكم[1] أيها العابدون، مع اللّه آلهةً غيره، ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: وقودها وحطبها، ﴿أنتم لها واردونَ﴾: وأصنامُكم.

﴿٩٩﴾ والحكمةُ في دخول الأصنام النار وهي جمادٌ لا تعقِل، وليس عليها ذنبٌ؛ بيانُ كَذِبِ من اتَّخذها آلهةً، وليزداد عذابُهم؛ فلهٰذا قال: ﴿لو كانَ هٰؤلاءِ آلهةً ما وَرَدوها﴾: هٰذا كقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لهم الذي يختلفونَ فيه وليعلمَ الذين كفروا أنَّهم كانوا كاذبينَ﴾، وكلٌّ من العابدين والمعبودين فيها خالدون، لا يخرجون منها، ولا ينتقلون عنها.

---

(١) في (ب): «إنكم».

﴿١٠٠﴾ ﴿لهم فيها زفيرٌ﴾: من شدَّة العذاب، ﴿وهُم فيها لا يسمعونَ﴾: صمٌ بكمٌ عميٌ، أو لا يسمعون من الأصوات غيرَ صوتِها؛ لشدَّة غليانها، واشتداد زفيرها وتغيظها.

﴿١٠١ ـ ١٠٢﴾ ودُخول آلهة المشركين النار إنَّما هو الأصنام أو مَنْ عُبِدَ وهو راضٍ بعبادتِهِ، وأمَّا المسيح وعزيرٌ والملائكةُ ونحوهم ممَّن عُبِد من الأولياء؛ فإنَّهم لا يعذَّبون فيها، ويدخُلون في قوله: ﴿إنَّ الذين سَبَقَتْ لهم منَّا الحُسنى﴾؛ أي: سبقت لهم سابقةُ السعادة في علم الله وفي اللَّوح المحفوظ وفي تيسيرهم في الدُّنيا لليسرى والأعمال الصالحة. ﴿أولئك عنها﴾؛ أي: عن النار ﴿مبعَدون﴾: فلا يدخُلونها، ولا يكونونَ قريباً منها، بل يُبْعدَون عنها غايةَ البعدِ، حتَّى لا يسمَعوا حسيسها، ولا يروا شخصَها. ﴿وهم فيما اشتهتْ أنفسُهُم خالدونَ﴾: من المآكل والمشارب والمناكح والمناظر مما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعت ولا خَطَرَ على قلب بشر، مستمرٌّ لهم ذلك، يزداد حسنُه على الأحقاب.

﴿١٠٣﴾ ﴿لا يَحزُنُهم الفزعُ الأكبرُ﴾؛ أي: لا يقلِقُهم إذا فزع الناس أكبر فزع، وذلك يوم القيامة، حين تقرب النار تتغيَّظ على الكافرين والعاصين، فيفزع الناسُ لذلك الأمر، وهؤلاء لا يحزُنُهم؛ لعلِمِهم بما يُقدِمون عليه، وأنَّ الله قد أمَّنهم مما يخافون. ﴿وتتلقَّاهم الملائكةُ﴾: إذا بُعِثوا من قبورِهم وأتَوْا على النجائب وفداً لنشورِهم مهنِّئين لهم قائلين: ﴿هذا يومُكُم الذي كنتُم توعَدون﴾: فليهنِكُم ما وعدكم الله، وليعظُم استبشارُكم بما أمامكم من الكرامة، وليكثر فَرَحُكم وسرورُكم بما أمنَكم الله من المخاوف والمكاره.

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿١٠٤﴾ يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماواتِ على عِظَمها واتِّساعها كما يطوي الكاتبُ للسجل؛ أي: الورقة المكتوب فيها؛ فتنتثر نجومها، وتكور[1] شمسها وقمرها، وتزول عن أماكنها.

(١) في (ب): «ويكور».

﴿كما بَدَأنا أوَّلَ خلقٍ نعيدُه﴾؛ أي: إعادتنا للخلق مثل ابتدائنا لخلقهم؛ فكما ابتدأنا خلقَهم ولم يكونوا شيئاً؛ كذلك نعيدُهم بعد موتهم، ﴿وعداً علينا إنَّا كنَّا فاعلينَ﴾: ننفِّذُ ما وَعَدْنا؛ لكمال قدرتِهِ، وأنه لا تمتنعُ منه الأشياء.

﴿١٠٥﴾ ﴿ولقد كَتَبْنا في الزَّبورِ﴾: وهو الكتاب المزبور، والمرادُ الكتبُ المنزلة؛ كالتوراة، ونحوها، ﴿من بعد الذِّكرِ﴾؛ أي: كتبناه في الكتب المنزلة بعدما كَتَبْناه في الكتاب السابق الذي هو اللوح المحفوظ وأمّ الكتاب الذي توافِقُه جميعُ التقادير المتأخِّرة عنه والمكتوب في ذلك: ﴿أنَّ الأرض﴾؛ أي: أرض الجنَّة، ﴿يَرِثُها عباديَ الصَّالحونَ﴾: الذين قاموا بالمأمورات، واجتنبوا المنهيَّات؛ فهم الذين يورِثُهم الله الجنات؛ كقول أهل الجنة: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾، ﴿وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء﴾، ويُحتمل أنَّ المراد الاستخلاف في الأرض، وأنَّ الصالحين يمكِّنُ الله لهم في الأرض، ويولِّيهم عليها؛ كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعَمِلوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرضِ كما اسْتَخْلَفَ الذين من قبلهم. . .﴾ الآية.

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿١٠٦﴾ يُثني الله تعالى على كتابِهِ العزيز القرآنِ ويبيِّن كفايته التامَّة عن كلِّ شيءٍ وأنَّه لا يُستغنى عنه، فقال: ﴿إنَّ في هٰذا لبلاغاً لقوم عابدين﴾؛ أي: يتبلَّغون به في الوصول إلى ربِّهم وإلى دار كرامته، فيوصِلُهم إلى أجلِّ المطالب وأفضل الرغائب، وليس للعابدين الذين هم أشرفُ الخلق وراءه غاية؛ لأنَّه الكفيل بمعرفةِ ربِّهم بأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وبالإخبار بالغيوبِ الصَّادقة وبالدَّعوة لحقائق الإيمان وشواهد الإيقان، المبيِّن للمأمورات كلِّها والمنهيَّات جميعها، المعرِّف بعيوب النفس والعمل والطرق التي ينبغي سلوكها في دقيق الدين وجليله، والتَّحذير من طُرُق الشيطان، وبيان مداخلِهِ على الإنسان؛ فمن لم يُغْنِهِ القرآنُ؛ فلا أغناه الله، ومَنْ لا يكفيه؛ فلا كفاه الله.

﴿١٠٧﴾ ثم أثنى على رسولِهِ الذي جاء بالقرآن، فقال: ﴿وما أرسَلْناك إلَّا رحمةً للعالمين﴾: فهو رحمتُهُ المهداةُ لعبادِهِ؛ فالمؤمنون به قَبِلوا هٰذه الرحمة وشكروها وقاموا بها، وغيرُهم كفروها، وبدَّلوا نعمةَ اللّه كفراً، وأبوا رحمةَ اللّه ونعمته.

﴿١٠٨﴾ ﴿قل﴾ يا محمد: ﴿إنَّما يُوحى إليَّ أنَّما إلٰهكم إلٰهٌ واحدٌ﴾: الذي لا يستحقُّ العبادةَ إلَّا هو، ولهٰذا قال: ﴿فهل أنتم مسلِمونَ﴾؛ أي: منقادون لعبوديَّتِهِ مستسلِمون لألوهيَّتِهِ؛ فإنْ فَعَلوا؛ فَلْيَحْمدوا ربَّهم على ما منَّ عليهم بهٰذه النعمة التي فاقت المنن.

﴿١٠٩ ـ ١١٠﴾ وإنْ ﴿تَوَلَّوْا﴾: عن الانقياد لعبوديَّة ربِّهم؛ فحذِّرْهم حلول المَثُلات ونزول العقوبة. ﴿فقُلْ آذنْتُكم﴾؛ أي: أعلمتُكم بالعقوبة، ﴿على سواءٍ﴾؛ أي: علمي وعلمُكم بذٰلك مستوٍ؛ فلا تقولوا إذا نزل بكم العذاب: ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ، بل الآن استوى علمي، وعلمُكم لمَّا أنذرتُكم وحذرتُكم وأعلمتُكم بمآل الكفر، ولم أكتُم عنكُم شيئاً. ﴿وإنْ أدري أقريبٌ أم بعيدٌ ما توعدونَ﴾؛ أي: من العذاب؛ لأنَّ عِلْمَهُ عند اللّه، وهو بيده؛ ليس لي من الأمر شيءٌ.

﴿١١١﴾ ﴿وإنْ أدري لعلَّه فتنةٌ لكم ومتاعٌ إلى حين﴾؛ أي: لعلَّ تأخير العذاب الذي استعجَلْتُموه شرٌّ لكم، وإنْ تُمَتَّعوا في الدُّنيا إلى حين، ثم يكون أعظم لعقوبتكم.

﴿١١٢﴾ ﴿قال ربِّ احكُم بالحقِّ﴾؛ أي: بيننا وبين القوم الكافرين؛ فاستجابَ اللّه هٰذا الدُّعاء، وحكم بينَهم في الدُّنيا قبل الآخرة بما عاقب اللّه به الكافرين من وقعة بدرٍ وغيرها. ﴿وربُّنا الرحمٰن المستعانُ على ما تصِفونَ﴾؛ أي: نسأل ربَّنا الرحمٰن ونستعينُ به على ما تصِفون من قولكم: سنظهرُ عليكُم، وسيضمحلُّ دينكم! فنحنُ في هٰذا لا نعجبُ بأنفسنا، ولا نتَّكِلُ على حولنا وقوَّتِنا، وإنَّما نستعينُ بالرحمٰن الذي ناصيةُ كلِّ مخلوقٍ بيدِهِ، ونرجوه أن يُتِمَّ ما اسْتَعَنَّاه به من رحمتِهِ. وقد فعل وللّه الحمد.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الحج

قيل مكية وقيل مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾.

﴿١﴾ يخاطب اللّه الناس كافَّة بأن يتَّقوا ربَّهم الذي ربَّاهم بالنعم الظاهرة والباطنة، فحقيقٌ بهم أن يتَّقوه بترك الشِّرك والفسوق والعصيان، ويمتثلوا أوامره مهما استطاعوا. ثم ذكر ما يعينُهم على التَّقوى ويحذِّرهم من تركها، وهو الإخبارُ بأهوال القيامة، فقال: ﴿إنَّ زلزلةَ الساعة شيءٌ عظيمٌ﴾: لا يُقْدَرُ قَدْرُه ولا يُبْلَغُ كُنْهُهُ، ذٰلك بأنَّها إذا وقعت الساعة؛ رجفتِ الأرض، وارتجَّت، وزُلزلت زلزالها، وتصدَّعت الجبال، واندكَّت، وكانت كثيباً مهيلاً، ثم كانت هباءً منبثاً، ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج؛ فهناك تنفطر السماء، وتكوَّر الشمس والقمر، وتنتثرُ النجوم، ويكون من القلاقل والبلابل ما تنصدعُ له القلوب، وتَجِلُ منه الأفئدة، وتشيبُ منه الولدان، وتذوبُ له الصمُّ الصلاب.

﴿٢﴾ ولهٰذا قال: ﴿يوم تَرَوْنَها تذهلُ كلُّ مرضعةٍ عمَّا أرضعتْ﴾: مع أنَّها مجبولةٌ على شدَّةِ محبَّتها لولدِها، خصوصاً في هٰذه الحال التي لا يعيش إلَّا بها، ﴿وتضعُ كلُّ ذات حَمْل حَمْلَها﴾: من شدَّة الفزع والهول، ﴿وَتَرى النَّاسَ سُكارى وما هم بِسُكارى﴾؛ أي: تحسبُهم أيُّها الرائي لهم سكارى من الخمر، وليسوا سكارى.

﴿ولٰكنَّ عذابَ اللّه شديدٌ﴾: فلذٰلك أذهَبَ عقولَهم، وفرَّغ قلوبَهم، وملأها من الفزع، وبلغت القلوب الحناجرَ، وشخصتِ الأبصار، [و] في ذٰلك اليوم لا يَجْزي والدٌ عن ولدِهِ، ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً، ويومئذٍ يَفِرُّ المرء من أخيه وأمِّه وأبيه وصاحبتِهِ وفصيلتِهِ التي تؤويه، لكلِّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه، وهناك يعضُّ الظالم على يديهِ يقولُ يا ليتني اتَّخذتُ مع الرسولِ سبيلاً، يا ويلتى ليتني لم أتَّخِذْ فلاناً خليلاً، وتسودُّ حينئذٍ وجوهٌ وتبيضُّ وجوهٌ، وتُنْصَبُ الموازين التي يوزَنُ بها مثاقيلُ الذَّرِّ من الخير والشرِّ، وتُنْشَرُ صحائفُ الأعمال وما فيها من جميع

الأعمال والأقوال والنيَّات من صغير وكبيرٍ، ويُنْصَبُ الصراط على متن جهنَّم، وتُزْلَفُ الجنَّةُ للمتقين، وبُرِّزَتِ الجحيمُ للغاوين، إذا رأتْهم من مكانٍ بعيدٍ سمعوا لها تغيُّظاً وزفيراً، وإذا أُلْقوا منها مكاناً ضيِّقاً مقرَّنين دَعَوْا هنالك ثُبوراً، ويُقالُ لهم: لا تدعوا اليومَ ثُبوراً واحداً وادعوا ثُبوراً كثيراً، وإذا نادَوْا ربَّهم لِيُخْرِجَهم منها؛ قال: اخسؤوا فيها ولا تكلِّمونِ؛ قد غضب عليهم الربُّ الرحيم، وحَضَرَهُمُ العذابُ الأليم، وأيسوا من كلِّ خير، ووجدوا أعمالهم كلَّها، لم يفقدوا منها نقيراً ولا قِطْميراً.

هٰذا؛ والمتَّقون في روضات الجناتِ يُحْبَرون، وفي أنواع اللَّذَّات يَتَفَكَّهون، وفيما اشتهتْ أنفسهم خالِدون؛ فحقيقٌ بالعاقل الذي يعرِفُ أنَّ كلَّ هٰذا أمامه أن يُعِدَّ له عدَّتَه، وأن لا يُلْهِيَهُ الأمل فيتركَ العمل، وأنْ تكون تقوى اللّه شعاره، وخوفُه دثاره، ومحبَّة اللّه وذكرُه روح أعماله.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾.

﴿٣ ـ ٤﴾ أي: ومن الناس طائفةٌ وفرقةٌ؛ سلكوا طريق الضَّلال، وجعلوا يجادلون بالباطل الحقَّ؛ يريدون إحقاق الباطل وإبطال الحقِّ، والحال أنَّهم في غاية الجهل، ما عندهم من العلم شيء، وغاية ما عندهم تقليد أئمَّة الضَّلال من كلِّ شيطان مَريدٍ متمرِّدٍ على اللّه وعلى رسلِهِ معاندٍ لهم، قد شاقَّ اللّه ورسوله، وصار من الأئمة الذين يدعون إلى النار. ﴿كُتِبَ عليه﴾؛ أي: قدِّر على هٰذا الشيطان المريد، ﴿أنَّه مَن تولَّاه﴾؛ أي: اتَّبعه؛ ﴿فأنَّه يضلُّه﴾: عن الحقِّ ويجنِّبه الصراط المستقيم؛ ﴿ويهديهِ إلى عذابِ السَّعير﴾: وهٰذا نائبُ إبليس حقًّا؛ فإنَّ اللّه قال عنه: ﴿إنَّما يدعو حِزْبَهُ ليكونوا من أصحاب السَّعير﴾. فهٰذا الذي يجادلُ في اللّه قد جمع بين ضلالِهِ بنفسِهِ وتصدِّيه إلى إضلال الناس، وهو متَّبعٌ ومقلِّد لكلِّ شيطانٍ مَريدٍ، ظلماتٌ بعضها فوق بعض، ويدخل في هٰذا جمهورُ أهل الكفر والبدع؛ فإنَّ أكثرهم مقلِّدةٌ يجادلون بغير علم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ

أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾.

﴿٥﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيُّها الناس إن كنتُم في ريبٍ من البعث﴾؛ أي: شكٌّ واشتباه وعدمِ علم بوقوعه، مع أن الواجب عليكم أن تصدِّقوا ربَّكم وتصدِّقوا رسلَه في ذٰلك، ولٰكن إذا أبيتُم إلَّا الرَّيب؛ فهاكم دليلين عقليّين تشاهدونهما، كلُّ واحدٍ منهما يدلُّ دلالةً قطعيةً على ما شككتُم فيه، ويُزيل عن قلوبكم الريب:

أحدهما: الاستدلال بابتداء خَلْق الإنسان، وأنَّ الذي ابتدأه سيعيدُه، فقال فيه: ﴿فإنَّا خَلَقْناكم من تُرابٍ﴾: وذٰلك بخَلْق أبي البشر آدم عليه السلام، ﴿ثُمَّ من نطفةٍ﴾؛ أي: منيٍّ، وهٰذا ابتداء أول التخليق، ﴿ثم من عَلَقَةٍ﴾؛ أي: تنقِلبُ تلك النطفة بإذن الله دماً أحمر، ﴿ثم من مُضْغَةٍ﴾؛ أي: ينتقل الدم مضغةً؛ أي: قطعة لحم بقدر ما يُمضغ، وتلك المضغةُ تارة تكون ﴿مخلَّقة﴾؛ أي: مصوَّر منها خلق الآدميِّ. وتارة ﴿غير مُخَلَّقة﴾: بأن تقذِفَها الأرحام قبل تخليقها، ﴿لنبيِّنَ لكم﴾: أصل نشأتكم؛ مع قدرتِهِ تعالى على تكميل خَلْقِه في لحظة واحدة، ولٰكن لِيُبَيِّنَ لنا كمال حكمتِهِ وعظيم قدرتِهِ وسعة رحمتِهِ.

﴿وَنُقِرُّ في الأرحام ما نشاءُ إلى أجل مسمًّى﴾: [أي:] ونُقِرُّ؛ أي: نبقي في الأرحام من الحَمْل الذي لم تقذِفْه الأرحامُ ما نشاء إبقاءه إلى أجل مسمّى، وهو مدَّة الحمل، ﴿ثم نخرِجُكم﴾: من بطون أمهاتكم ﴿طفلاً﴾: لا تعلمون شيئاً، وليس لكم قدرةٌ، وسخَّرنا لكم الأمهاتِ، وأجْرَيْنا لكم في ثديها الرزق، ثم تُنَقَّلونَ[1] طوراً بعد طورٍ حتى تبلغوا أشُدَّكم، وهو كمال القوة والعقل. ﴿ومنكم من يُتَوَفَّى﴾: من قبل أن يبلغَ سنَّ الأشُدِّ، ومنكُم مَنْ يتجاوزُه فيردُّ ﴿إلى أرذل العمر﴾؛ أي: أخسِّه وأرذلِهِ، وهو سنُّ الهرمِ والتخريف، الذي به يزول العقلُ ويضمحلُّ كما زالت باقي القوة وضعفت، ﴿لِكَيلا يعلمَ من بعدِ علم شيئاً﴾؛ أي: لأجل أن لا يَعْلَمَ هٰذا المعمَّر شيئاً مما كان يعلمه قبل ذٰلك، وذٰلك لضعف عقله؛ فقوة الآدميِّ محفوفةٌ بضعفين: ضعفُ الطفوليَّة ونقصُها، وضعف الهرم ونقصُه؛ كما

---

(١) في (ب): «تنتقلون».

قال تعالى: ﴿اللّه الذي خلقكم من ضَعْفٍ ثم جعل من بعد ضعف قُوَّةً ثم جَعَلَ من بعد قُوَّةٍ ضَعْفاً وشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يشاءُ وهو العليم القدير﴾.

والدليل الثاني: إحياء الأرض بعد موتها، فقال اللّه فيه: ﴿وترى الأرض هامدةً﴾؛ أي: خاشعة مغبرَّةً لا نباتَ فيها ولا خُضرة، ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزَّتْ﴾؛ أي: تحرَّكت بالنبات، ﴿وَرَبَتْ﴾؛ أي: ارتفعت بعد خُشوعها، وذٰلك لزيادة نباتها، ﴿وأنبتتْ من كلِّ زوجٍ﴾؛ أي: صنف من أصناف النبات ﴿بَهيجٍ﴾؛ أي: يُبْهِجُ الناظرين ويسرُّ المتأملين.

﴿٦ ـ ٧﴾ فهٰذان الدليلان القاطعان يدلَّان على هٰذه المطالب الخمسةَ، وهي هٰذه: ﴿ذٰلك﴾: الذي أنشأ الآدميَّ من ما وَصَفَ لكم وأحيا الأرض بعد موتها، ﴿بأنَّ اللّه هو الحقُّ﴾؛ أي: الربُّ المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له، وعبادتُهُ هي الحقُّ، وعبادة غيره باطلةٌ. ﴿وأنَّه يُحيي الموتى﴾: كما ابتدأ الخلق، وكما أحيا الأرض بعد موتها، ﴿وأنَّه على كلِّ شيء قديرٌ﴾: كما أشهدكم من بديع قدرته وعظيم صنعته ما أشهدكم، ﴿وأنَّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها﴾: فلا وجه لاستبعادها، ﴿وأنَّ اللّه يبعثُ مَن في القبورِ﴾: فيجازيكم بأعمالكم حسنها وسيئها.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ [ٱلْحَرِيقِ] ﴿٩﴾ [ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾][(1)].

﴿٨﴾ المجادلة المتقدِّمة للمقلِّد، وهٰذه المجادلة للشيطان المريد الدَّاعي إلى البدع، فأخبر أنَّه ﴿يجادِلُ في اللّه﴾؛ أي: يجادِلُ رسلَ اللّه وأتباعهم بالباطل لِيُدْحِضَ به الحقَّ، ﴿بغير علم﴾: صحيح، ﴿ولا هدىً﴾؛ أي: غير متَّبع في جداله هٰذا مَن يهديه؛ لا عقل مرشد، ولا متبوع مهتدٍ، ﴿ولا كتابٍ منيرٍ﴾؛ أي: واضح بيِّن؛ [أي:] فلا له حجَّة عقليَّة ولا نقليَّة، إن هي إلَّا شبهاتٌ يوحيها إليه الشيطان، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادِلوكم.

﴿٩﴾ ومع هٰذا: ﴿ثانيَ عِطْفِهِ﴾؛ أي: لاوي جانبه وعنقه، وهٰذا كنايةٌ عن كبره عن الحقِّ واحتقاره للخلق؛ فقد فرح بما معه من العلم غير النافع، واحتقر أهل

---

(١) الآية (١٠) لا توجد في النسختين.

الحقِّ وما معهم من الحقِّ؛ ﴿ليضلَّ﴾ الناس؛ أي: ليكون من دعاة الضَّلال.

ويدخل تحت هٰذا جميع أئمة الكفر والضلال. ثم ذَكَرَ عقوبتهم الدنيويَّة والأخرويَّة، فقال: ﴿له في الدُّنيا خِزيٌ﴾؛ أي: يفتضح هٰذا في الدُّنيا قبل الآخرة.

وهٰذا من آياتِ اللّه العجيبة؛ فإنَّك لا تَجِدُ داعياً من دعاة الكفر والضلال إلَّا وله من المَقْتِ بين العالمين واللعنة والبُغض والذَّمِّ ما هو حقيقٌ به، وكلٌّ بحسب حاله. ﴿ونذيقُهُ يومَ القيامةِ عذابَ [الحريق]﴾؛ أي: نذيقُه حَرَّها الشديد وسعيرها البليغ، وذٰلك بما قدَّمت يداه. ﴿[وأن اللّه ليس بظلامٍ للعبيد]﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١١﴾ أي: ومن الناس مَنْ هو ضعيفُ الإيمان، لم يدخُلِ الإيمان قلبَه، ولم تخالطْه بشاشتُه، بل دخل فيه إمَّا خوفاً وإمَّا عادة على وجهٍ لا يثبتُ عند المحن. ﴿فإنْ أصابَه خيرٌ اطمأنَّ به﴾؛ أي: إن استمرَّ رزقُه رغداً ولم يحصُل له من المكاره شيءٌ اطمأنَّ بذٰلك الخير، لا إيمانه[1]؛ فهٰذا ربَّما أنَّ اللّه يعافيه ولا يقيِّضُ له من الفتن ما ينصرفُ به عن دينه. ﴿وإنْ أصابته فتنةٌ﴾: من حصول مكروهٍ أو زوال محبوبٍ؛ ﴿انقلبَ على وجهِهِ﴾؛ أي: ارتدَّ عن دينه؛ ﴿خَسِرَ الدُّنيا والآخرة﴾: أما في الدُّنيا؛ فإنَّه لا يحصُل له بالردة ما أمَّله، الذي جعل الردَّة رأساً لماله وعوضاً عما يظنُّ إدراكه، فخاب سعيُه، ولم يحصُل له إلَّا ما قُسِم له، وأما الآخرةُ؛ فظاهرٌ، حُرِم الجنة التي عرضها السماوات والأرض، واستحقَّ النار. ﴿ذٰلك هو الخسران المبين﴾؛ أي: الواضح البين.

﴿١٢ ـ ١٣﴾ ﴿يدعو﴾: هٰذا الراجع على وجهِهِ من دون اللّه ما لا ينفعُه ولا يضرُّه، وهٰذا صفة كلِّ مدعوٍّ ومعبودٍ من دون اللّه؛ فإنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرًّا. ﴿ذٰلك هو الضلال البعيدُ﴾: الذي قد بلغ في البعد إلى حدِّ النهاية؛ حيث أعرض عن عبادة النافع الضارِّ الغنيِّ المغني، وأقبل على عبادة مخلوقٍ مثله

---

(١) كذا في (أ)، وفي (ب): «لا بإيمانه».

أو دونه، ليس بيده من الأمر شيء، بل هو إلى حصول ضدِّ مقصوده أقرب، ولهٰذا قال: ﴿يدعو لَمَن ضَرُّه أقربُ من نفعِهِ﴾: فإنَّ ضرره في العقل والبدن والدُّنيا والآخرة معلوم. ﴿لبئس المولى﴾؛ أي: هٰذا المعبود، ﴿ولبئس العشيرُ﴾؛ أي: القرين الملازم على صحبته؛ فإنَّ المقصود من المولى والعشير حصول النفع ودفع الضرر؛ فإذا لم يحصل شيءٌ من هٰذا؛ فإنَّه مذموم ملوم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٤﴾ لما ذكر تعالى المجادل بالباطل، وأنَّه على قسمين: مقلِّدٍ وداعٍ؛ ذكر أن المتسمِّي بالإيمان أيضاً على قسمين: قسم لم يدخُل الإيمان قلبَه كما تقدَّم. والقسم الثاني: المؤمنُ حقيقةً؛ صدَّق ما معه من الإيمان بالأعمال الصالحة، فأخبر تعالى أنَّه يدخِلُهم ﴿جناتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾: وسمِّيت الجنة جنةً لاشتمالها على المنازل والقصور والأشجار والنوابت التي تُجِنُّ مَنْ فيها ويستترُ بها من كثرتها. ﴿إنَّ الله يفعلُ ما يريدُ﴾: فمهما أراده تعالى؛ فَعَلَه؛ من غير ممانع ولا معارض، ومن ذٰلك إيصال أهل الجنة إليها، جعلنا الله منهم بمنِّه وكرمِهِ.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٥﴾ أي: من كان يظن أنَّ الله لا ينصر رسوله وأنَّ دينه سيضمحل فإنَّ النصر من الله ينزل من السماء، [﴿فليَمدُد بِسَبَبٍ إلى السَّمَاءِ ثُمَّ ليَقطَع﴾: النصر عن الرسول][(١)]، ﴿فليَنظُر هَل يُذهِبَنَّ كَيدُهُ﴾؛ أي: ما يكيد به الرسول ويعمله من محاربته والحرص على إبطال دينه ما يُغيظُهُ من ظهورِ دينِهِ. وهٰذا استفهامٌ بمعنى النفي، وأنَّه لا يقدر على شفاء غيظه بما يعمله من الأسباب.

ومعنى هٰذه الآية الكريمة: يا أيُّها المعادي للرسول محمدٍ ﷺ، الساعي في إطفاء دينه، الذي يظنُّ بجهله أنَّ سعيه سيفيدُهُ شيئاً! اعلم أنَّك مهما فعلت من الأسباب، وسعيتَ في كيد الرسول؛ فإنَّ ذٰلك لا يُذهِبُ غيظَكَ ولا يشفي كَمَدَكَ؛

---

(١) زيادة من هامش (أ). وفي (ب): «فليمدد ذلك الظان ﴿بسبب﴾؛ أي: حبل من السماء وليرق إليها، ثم ليقطع النصر النازل عليه من السماء».

فليس لك قدرةٌ في ذٰلك، ولكن سنشير عليك برأي تتمكَّن به من شفاء غيظِكَ ومن قطع النصر عن الرسول إن كان ممكناً: ائتِ الأمر مع بابِهِ، وارتقِ إليه بأسبابه: اعمدْ إلى حبلٍ من ليفٍ أو غيره، ثم علِّقْه في السماء، ثم اصعدْ به حتى تَصِلَ إلى الأبواب التي ينزل منها النصرُ، فسدَّها وأغلِقْها واقطعْها؛ فبهٰذه الحال تشفي غيظك؛ فهٰذا هو الرأي والمكيدةُ، وأما سوى هٰذه الحال؛ فلا يخطر ببالك أنَّك تشفي بها غيظك، ولو ساعدك مَن ساعدك مِن الخلق.

وهٰذه الآية الكريمة فيها من الوعد والبشارة بنصر اللّه لدينِهِ ولرسولِهِ وعباده المؤمنين ما لا يخفى، ومن تأييس الكافرين الذين يريدون أن يطفئوا نور اللّه بأفواههم، واللّهُ متمٌّ نورِهِ ولو كره الكافرون؛ أي: وسَعَوْا مهما أمكنهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٦﴾ أي: وكذٰلك لما فصَّلنا في هٰذا القرآن ما فصَّلنا؛ جعلناهُ آياتٍ بيناتٍ واضحاتٍ دالَّاتٍ على جميع المطالب والمسائل النافعة، ولكن الهداية بيد اللّه؛ فمن أراد اللّهُ هدايته؛ اهتدى بهٰذا القرآن، وجعله إماماً له وقدوةً واستضاء بنورِهِ، ومن لم يرِدِ اللّه هدايته؛ فلو جاءته كلُّ آية؛ ما آمن ولم ينفعه القرآنُ شيئاً، بل يكون حجةً عليه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ(١) فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

(١) في النسختين: «إلى قوله: ﴿وهدوا إلى صراط الحميد﴾».

﴿١٧﴾ يخبر تعالى عن طوائف أهل الأرض من الذين أوتوا الكتاب من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين ومن المجوس ومن المشركين: أنَّ اللّٰه سيجمعُهم جميعهم ليوم القيامة، ويفصِلُ بينهم بحكمِهِ العدل، ويجازيهم بأعمالهم التي حَفِظَها وكتبها وشهدها، ولهٰذا قال: ﴿إنَّ اللّه على كلِّ شيءٍ شهيدٌ﴾.

﴿١٩ ـ ٢٢﴾ ثم فَصَّلَ هٰذا الفصل بينهم بقوله: ﴿هٰذان خصمان اختصموا في ربِّهم﴾: كلٌّ يدعي أنه المحقُّ. ﴿فالذين كفروا﴾: يشمل كلَّ كافر من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والمشركين، ﴿قُطِّعَتْ لهم ثيابٌ من نارٍ﴾؛ أي: يُجعل لهم ثيابٌ من قَطِران، وتُشعل فيها النار؛ ليعمَّهم العذابُ من جميع جوانبهم، ﴿يصبُّ من فوق رؤوسهم الحميمُ﴾: الماء الحارُّ جدًّا، ﴿يُصْهَرُ به ما في بطونهم﴾: من اللحم والشحم والأمعاء من شدَّة حرِّه وعظيم أمره. ﴿ولهم مقامعُ من حديدٍ﴾: بيد الملائكة الغلاظ الشداد تضرِبُهم فيها وتقمعُهم. كلَّما أرادوا أن يَخْرُجوا منها أُعيدوا فيها؛ فلا يُفَتَّرُ عنهم العذاب ولا هُمْ يُنْظَرون، ويقالُ لهم توبيخاً: ﴿ذوقوا عذابَ الحريق﴾؛ أي: المحرق للقلوب والأبدان.

﴿٢٣﴾ ﴿إنَّ الله يدخِلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ﴾: ومعلومٌ أنَّ هٰذا الوصف لا يَصْدُقُ على غير المسلمين، الذين آمنوا بجميع الكتب وجميع الرسل، ﴿يُحَلَّوْنَ فيها من أساورَ من ذهبٍ﴾؛ أي: يسوَّرون في أيديهم، رجالُهم ونساؤهم أساور الذهب، ﴿ولباسُهم فيها حريرٌ﴾: فتمَّ نعيمُهم بذلك[(١)]: أنواع المأكولات اللذيذات، المشتمل عليها لفظ الجنات، وذكر الأنهار السَّارحات، أنهار الماء واللبن والعسل والخمر، وأنواع اللباس والحلي الفاخر.

﴿٢٤﴾ وذٰلك بسبب أنَّهم ﴿هُدوا إلى الطيِّبِ من القول﴾: الذي أفضلُه وأطيبُه كلمةُ الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيِّبة التي فيها ذكر اللّٰه أو إحسانٌ إلى عباد اللّٰه. ﴿وهُدوا إلى صراط الحميد﴾؛ أي: الصراط المحمود، وذٰلك لأنَّ جميع الشرع كله محتوٍ على الحكمة والحمد وحسن المأمور به وقُبح المنهيِّ [عنه]، وهو الدينُ الذي لا إفراط فيه ولا تفريطَ، المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح. أو: وهُدوا إلى صراطِ اللّٰه الحميد؛ لأنَّ اللّٰه كثيراً ما يُضيف الصراط إليه؛ لأنَّه يوصِلُ صاحبه إلى اللّٰه. وفي ذكر الحميد هنا ليبيِّن أنهم نالوا الهداية بحمد ربِّهم

---

(١) كذا في (أ). وفي (ب): «بذكر». وهو الصواب.

ومنّته عليهم، ولهٰذا يقولون في الجنة: ﴿الحمدُ للّه الذي هَدانا لهٰذا وما كُنّا لِنَهْتَدِيَ لولا أنْ هَدانا اللّه﴾.

﴿١٨﴾ واعترض تعالى بين هٰذه الآيات بذكر سجودِ المخلوقات له؛ جميع من في السماوات والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدوابّ الذي يشمل الحيوانات كلِّها. وكثير من الناس، وهم المؤمنون: ﴿وكثيرٌ حقَّ عليه العذاب﴾؛ أي: وَجَبَ وكُتِبَ لكفره وعدم إيمانه، فلم يوفِّقْه اللّه للإيمان؛ لأنَّ اللّه أهانه. ﴿وَمَن يُهِنِ اللّه فما له من مكرم﴾: ولا رادَّ لما أراد، ولا معارِضَ لمشيئتِهِ؛ فإذا كانت المخلوقات كلُّها ساجدةً لربِّها، خاضعةً لعظمتِهِ، مستكينةً لعزَّته، عانيةً لسلطانه؛ دلَّ أنه وحده الربُّ المعبودُ الملكُ المحمودُ، وأنَّ من عدل عنه إلى عبادة سواه؛ فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً، وخسر خسراناً مُبيناً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٥﴾ يخبر تعالى عن شناعةِ ما عليه المشركون الكافرون بربِّهم، وأنَّهم جَمَعوا بين الكفر باللّه ورسلِهِ، وبين الصدِّ عن سبيل اللّه، ومَنْع الناس من الإيمان، والصدِّ أيضاً عن المسجد الحرام الذي ليس ملكاً لهم ولا لآبائهم، بل الناس فيه سواءٌ المقيمُ فيه والطارىء إليه، بل صدُّوا عنه أفضل الخلق محمداً وأصحابه، والحالُ أنَّ المسجد الحرام من حرمتِهِ واحترامه وعظمتِهِ أنَّ ﴿مَن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظُلْم نُذِقْهُ من عذابٍ أليم﴾؛ فمجرَّد الإرادة للظُّلم[1] والإلحاد في الحرم موجبٌ للعذاب، وإنْ كان غيرُهُ لا يعاقَب العبدُ إلَّا بعمل الظُّلم؛ فكيف بمن أتى فيه أعظمَ الظُّلم من الكفر والشرك والصدِّ عن سبيله ومنع من يريدُهُ بزيارةٍ؟! فما ظنُّهم أن يفعلَ اللّه بهم؟!

وفي هٰذه الآية الكريمة وجوبُ احترام الحرم وشدَّة تعظيمه والتحذير من إرادة المعاصي فيه وفعلها.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ

---

(١) في (ب): «إرادة الظلم».

يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَآئِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿٢٦﴾ يذكر تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته وعظمة بانيه، وهو خليل الرحمٰن، فقال: ﴿وإذْ بوَّأنا لإبراهيمَ مكانَ البيتِ﴾؛ أي: هيأناه له وأنزلناه إياه، وجعل قسماً من ذُرِّيَّتِهِ من سكانه، وأمره اللّه ببنيانِهِ، فبناه على تقوى اللّه، وأسَّسه على طاعة اللّه، وبناه هو وابنُه إسماعيل، وأمره أن لا يُشْرِكَ به شيئاً؛ بأن يُخْلِصَ للّه أعمالَه ويبنيه على اسم اللّه. ﴿وطَهِّرْ بيتيَ﴾؛ أي: من الشرك والمعاصي ومن الأنجاس والأدناس، وأضافَهُ الرحمٰن إلى نفسه لشرفه وفضله ولتعظُمَ محبتُه في القلوب، وتنصبَّ إليه الأفئدة من كلِّ جانب، وليكونَ أعظم لتطهيرِه وتعظيمِهِ؛ لكونه بيتَ الربِّ للطائفين به والعاكفين عنده، المقيمين لعبادةٍ من العبادات من ذكرٍ وقراءةٍ وتعلُّم علم وتعليمِهِ وغير ذٰلك من أنواع القرب، ﴿والرُّكَّع السُّجود﴾؛ أي: المصلين؛ أي: طهره لهٰؤلاء الفضلاء الذين همُّهم طاعة مولاهم وخدمتُه والتقرُّب إليه عند بيته؛ فهٰؤلاء لهم الحقُّ ولهم الإكرام، ومن إكرامهم تطهيرُ البيت لأجلهم.

ويدخل في تطهيرِه تطهيرُهُ من الأصوات اللاغية والمرتفعة التي تشوِّشُ على المتعبِّدين بالصلاة والطواف.

وقدَّم الطواف على الاعتكاف والصلاة لاختصاصه بهٰذا البيت، ثم الاعتكاف لاختصاصِهِ بجنس المساجد.

﴿٢٧﴾ ﴿وأذِّنْ في الناس بالحجِّ﴾؛ أي: أعلِمْهم به، وادْعُهم إليه، وبلِّغْ دانِيَهم وقاصِيَهم فرضَه وفضيلتَه؛ فإنَّك إذا دعوتَهم؛ أتوْك حُجاجاً وعماراً. ﴿رجالاً﴾؛ أي: مشاة على أرجلهم من الشوق، ﴿وعلى كلِّ ضامرٍ﴾؛ أي: ناقة ضامرٍ تقطع المهامةَ والمفاوِزَ، وتواصِل السير حتى تأتي إلى أشرف الأماكن، ﴿من كلِّ فجٍّ عميقٍ﴾؛ أي: من كلِّ بلدٍ بعيدٍ.

وقد فعل الخليلُ عليه السلام ثم مِنْ بعدِهِ ابنُه محمدٌ ﷺ، فدعيا الناس إلى حجِّ هٰذا البيت، وأبْدَيا في ذٰلك وأعادا، وقد حَصَلَ ما وَعَدَ اللّه به؛ أتاه الناس رجالاً وركباناً من مشارق الأرض ومغاربها.

﴿٢٨﴾ ثم ذكر فوائد زيارة بيت اللّه الحرام مرغباً فيه، فقال: ﴿لِيَشْهَدوا منافعَ

لهم﴾؛ أي: لينالوا ببيت الله منافع دينيَّة من العبادات الفاضلة، والعبادات التي لا تكون إلَّا فيه، ومنافع دنيويَّة، من التكسُّب وحصول الأرباح الدنيويَّة، وكلُّ هٰذا أمرٌ مشاهدٌ، كلٌّ يعرفه. ﴿ويذكُروا اسم الله على ما رَزَقَهم من بهيمةِ الأنعام﴾: وهٰذا من المنافع الدينيَّة والدنيويَّة؛ أي: ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا شكراً لله على ما رَزَقَهم منها ويسَّرها لهم؛ فإذا ذبحتموها؛ ﴿فكلوا منها وأطعموا البائسَ الفقير﴾؛ أي: شديد الفقر.

﴿٢٩﴾ ﴿ثم لْيَقْضوا تَفَثَهُم﴾؛ أي: يقضوا نُسُكَهم ويزيلوا الوسخ والأذى الذي لَحِقَهم في حال الإحرام، ﴿ولْيوفوا نُذورَهم﴾: التي أوجبوها على أنفسهم من الحجِّ والعمرة والهدايا، ﴿ولْيَطَّوَّفوا بالبيتِ العتيق﴾؛ أي: القديم، أفضل المساجد على الإطلاق، المعَتق من تسلُّط الجبابرة عليه. وهٰذا أمرٌ بالطواف، خصوصاً بعد الأمر بالمناسك عموماً؛ لفضلِهِ وشرفِهِ، ولكونِهِ المقصودَ، وما قبلَه وسائلُ إليه. ولعلَّه والله أعلم أيضاً لفائدة أخرى، وهو أنَّ الطواف مشروعٌ كلَّ وقتٍ، وسواء كان تابعاً لِنُسُكٍ أم مستقلاً بنفسه.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿ذٰلك﴾؛ أي[1]: ذكرنا لكم من تلكُم الأحكام وما فيها من تعظيم حُرُمات الله وإجلالها وتكريمها؛ لأنَّ تعظيم حرماتِ الله من الأمورِ المحبوبة لله المقرِّبة إليه التي من عَظَّمَها وأجَلَّها أثابه الله ثواباً جزيلاً، وكانت خيراً له في دينِهِ ودُنياه وأخراه عند ربِّه. وحرماتُ الله كلُّ ما له حرمةٌ وأمَرَ باحترامِهِ من عبادةٍ[2] أو غيرها؛ كالمناسك كلها، وكالحرم والإحرام، وكالهدايا، وكالعبادات التي أمر الله العباد بالقيام بها؛ فتعظيمُها إجلالاً بالقلب ومحبَّتها وتكميلُ العبوديَّة فيها غير متهاونٍ ولا متكاسل ولا متثاقل. ثم ذَكَرَ منَّته وإحسانَه بما أحلَّه لعبادِهِ من بهيمة الأنعام من إبل وبقرٍ وغنم، وشرعها من جملة المناسك التي يُتَقَرَّبُ بها إليه، فعظمت منَّته فيها

(١) كذا في (أ) وفي (ب): «الذي». (٢) في (ب): «بعبادة».

من الوجهين. ﴿إلَّا ما يُتلى عليكم﴾ في القرآن تحريمُه من قوله: ﴿حُرِّمَتْ عليكُم الميتةُ والدَّم ولحم الخنزير...﴾ الآية. ولكن الذي من رحمته بعباده أنْ حرَّمه عليهم ومَنَعَهم منه تزكيةً لهم وتطهيراً من الشرك به وقول الزور[1]، ولهٰذا قال: ﴿فاجتنبوا الرجسَ﴾؛ أي: الخبث القذر ﴿من الأوثانِ﴾؛ أي: الأنداد التي جعلتموها آلهةً مع الله؛ فإنَّها أكبرُ أنواع الرجس.

والظاهر أنَّ ﴿مِن﴾ هنا ليست لبيان الجنس كما قاله كثيرٌ من المفسرين، وإنَّما هي للتبعيض، وأنَّ الرجس عامٌّ في جميع المنهيَّات المحرَّمات، فيكون منهيًّا عنها عموماً، وعن الأوثان التي هي بعضُها خصوصاً، ﴿واجْتَنِبوا قولَ الزُّور﴾؛ أي: جميع الأقوال المحرمات؛ فإنَّها من قول الزُّور، [الذي هو الكذب ومن ذلك شهادة الزور، فلما نهاهم عن الشرك والرجس وقول الزور].

﴿٣١﴾ أمرهم أن يكونوا ﴿حُنَفاء لِلّه﴾؛ أي: مقبلين عليه وعلى عبادته، معرِضين عما سواه. ﴿غير مشركين بِهِ ومَن يشرِكْ بالله﴾: فمثله ﴿فكأنَّما خرَّ من السماء﴾؛ أي: سقط منها، ﴿فَتَخطَفُه الطيرُ﴾: بسرعة، ﴿أو تَهْوي به الريحُ في مكانٍ سحيقٍ﴾؛ أي: بعيد. كذٰلك المشركون[2]؛ فالإيمان بمنزلة السماء محفوظة مرفوعة، ومن تَرَكَ الإيمان بمنزلة الساقط من السماء عرضة للآفات والبليَّات؛ فإما أن تَخْطَفَهُ الطيرُ فتقطِّعَه أعضاءً، كذٰلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان؛ تخطفتْه الشياطينُ من كلِّ جانب، ومزَّقوه، وأذهبوا عليه دينَه ودُنياه.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣٢﴾ أي: ذٰلك الذي ذكرنا لكم من تعظيم حُرُماتِهِ وشعائِره، والمرادُ بالشعائرِ أعلامُ الدين الظاهرة:

ومنها: المناسك كلُّها؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّ الصَّفا والمروة من شعائر اللّه﴾.

ومنها: الهدايا والقُربان للبيتِ، وتقدَّم أنَّ معنى تعظيمها إجلالها والقيام بها وتكميلها على أكمل ما يقدِرُ عليه العبد.

---

(١) في (ب): «وتطهيراً الشرك به وقوله الزور».

(٢) في (ب): «المشرك».

ومنها: الهدايا؛ فتعظيمُها باستحسانها واستسمانها، وأن تكون مكمَّلةً من كلِّ وجهٍ. فتعظيمُ شعائِر اللّه صادرٌ من تَقْوى القلوب؛ فالمعظِّم لها يبرهِنُ على تقواه وصحَّة إيمانِهِ؛ لأنَّ تعظيمها تابعٌ لتعظيم اللّه وإجلاله.

﴿٣٣﴾ ﴿لكم فيها﴾؛ أي: في الهدايا، ﴿منافعُ إلى أجل مسمًّى﴾: هٰذا في الهدايا المسوقة من البُدْن ونحوها؛ ينتفعُ بها أربابُها بالرُّكوب والحَلْبِ ونحو ذٰلك مما لا يضرُّها إلى أجل مسمًّى مقدَّر موقتٍ، وهو ذبحُها إذا وصلت مَحِلَّها، وهو ﴿البيت العتيق﴾؛ أي: الحرم كلُّه، منىً وغيرها؛ فإذا ذُبِحَتْ؛ أكلوا منها وأهْدَوْا وأطعَموا البائس الفقير.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٤﴾ أي: ﴿ولكلِّ أمةٍ﴾: من الأمم السالفة ﴿جَعَلْنا منسَكاً﴾؛ أي: فاستبقوا إلى الخيرات وتسارعوا إليها، ولننظر أيُّكم أحسن عملاً. والحكمة في جعل اللّه لكلِّ أمَّةٍ مَنْسَكاً؛ لإقامة ذكره والالتفات لشكره، ولهٰذا قال: ﴿لِيَذْكُروا اسم اللّه على ما رَزَقَهم من بهيمةِ الأنعام فإلٰهُكم إلٰهٌ واحدٌ﴾: وإن اختلفتْ أجناسُ الشرائع؛ فكلُّها متفقةٌ على هٰذا الأصل، وهو ألوهيَّة اللّه وإفرادُهُ بالعبوديَّة وتركُ الشرك به، ولهٰذا قال: ﴿فله أسْلِموا﴾؛ أي: انقادوا واستسلموا له لا لغيرِهِ؛ فإنَّ الإسلامَ له طريق إلى الوصول إلى دار السلام. ﴿وبشِّرِ المخبِتينَ﴾: بخير الدُّنيا والآخرة، والمخبِتُ، الخاضع لربِّه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده.

﴿٣٥﴾ ثم ذكر صفاتِ المخبِتين، فقال: ﴿الذين إذا ذُكِرَ اللّه وَجِلَتْ قلوبُهم﴾؛ أي: خوفاً وتعظيماً، فتركوا لذٰلك المحرَّمات لخوفهم ووجلهم من اللّه وحده. ﴿والصابرين على ما أصابَهم﴾: من البأساء والضرَّاء وأنواع الأذى؛ فلا يجري منهم لتسخُّطٍ لشيءٍ من ذٰلك، بل صبروا ابتغاء وجه ربِّهم؛ محتسبينَ ثوابه، مرتقبين أجرَه. ﴿والمقيمي الصلاةِ﴾؛ أي: الذين جَعَلوها قائمةً مستقيمةً كاملةً؛ بأن أدَّوا اللازمَ فيها والمستحبَّ وعبوديَّتها الظاهرة والباطنة. ﴿ومما رَزَقْناهم يُنفِقونَ﴾: وهٰذا يشملُ جميع النفقات الواجبة؛ كالزَّكاة والكفَّارة والنفقة على الزوجات والمماليك والأقارب، والنفقات المستحبَّة؛ كالصدقات بجميع وجوهها.

وأتى بـ ﴿من﴾ المفيدة للتبعيض لِيُعْلَمَ سهولةُ ما أمر اللّه به ورغَّب فيه، وأنَّه جزءٌ يسيرٌ مما رَزَقَ اللّه، ليس للعبدِ في تحصيلِهِ قدرةٌ لولا تيسيرُ اللّه له ورزقُه إيَّاه؛ فيا أيُّها المرزوق من فضل اللّه! أنفِقْ مما رَزَقَكَ اللّه؛ ينفِق اللّهُ عليك ويزِدْك من فضله.

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٦﴾ هٰذا دليل على أن الشعائر عامٌّ في جميع أعلام الدين الظاهرة، وتقدَّم أنَّ اللّه أخبر أنَّ مَنْ عَظَّمَ شعائِرَه؛ فإنَّ ذٰلك من تقوى القلوب، وهنا أخبر أن من جُملة شعائرِهِ البُدْنَ؛ أي: الإبل والبقر على أحد القولين، فَتُعَظَّمُ وتستسمن وتُستحسن. ﴿لكم فيها خيرٌ﴾؛ أي: المهدي وغيره من الأكل والصدقة والانتفاع والثواب والأجر. ﴿فاذكُروا اسم اللّه عليها﴾؛ أي: عند ذبحها، قولوا: بسم اللّه، واذْبحوها ﴿صَوَافَّ﴾؛ أي: قائماتٍ؛ بأنْ تُقام على قوائمها الأربع، ثم تُعْقَلُ يدُها اليُسرى، ثم تُنْحَر. ﴿فإذا وَجَبَتْ جُنوبها﴾؛ أي: سقطت في الأرض جُنوبها حين تُسلخ ثم يسقِطُ الجزارُ جنوبَها على الأرض؛ فحينئذٍ قد استعدَّتْ لأن يُؤْكَلَ منها؛ ﴿فكلوا منها﴾: وهٰذا خطابٌ للمهدي، فيجوز له الأكل من هديِهِ، ﴿وأطعِموا القانِعَ والمعترَّ﴾؛ أي: الفقير الذي لا يسأل تقنُّعاً وتعففاً، والفقير الذي يسألُ؛ فكلٌّ منهما له حقٌّ فيهما. ﴿كذٰلك سخَّرناها لكم﴾؛ أي: البدن، ﴿لعلَّكم تشكرونَ﴾: اللّه على تسخيرها؛ فإنَّه لولا تسخيرُه لها؛ لم يكنْ لكم بها طاقةٌ، ولٰكنَّه ذلَّلها لكم وسخَّرها رحمةً بكم وإحساناً إليكم؛ فاحْمَدوه.

﴿٣٧﴾ وقوله: ﴿لن ينالَ اللّهَ لحومُها ولا دِماؤها﴾؛ أي: ليس المقصود منها ذبحها فقط، ولا ينالُ اللّهَ من لحومها ولا دمائها شيءٌ؛ لكونه الغنيَّ الحميد، وإنَّما ينالُه الإخلاصُ فيها والاحتسابُ والنيَّة الصالحةُ، ولهٰذا قال: ﴿ولكن ينالُهُ التَّقوى منكم﴾: ففي هٰذا حثٌّ وترغيبٌ على الإخلاص في النحر، وأن يكونَ القصدُ وجهَ اللّه وحدَه؛ لا فخراً ولا رياءً ولا سمعةً ولا مجرَّد عادةٍ، وهٰكذا سائر العبادات إن لم يقترِنْ بها الإخلاص وتقوى اللّه؛ كانتْ كالقُشورِ الذي لا لبَّ فيه والجسدِ الذي لا روح فيه. ﴿كذٰلك سخَّرها لكُم لتكبِّروا اللّه﴾؛ أي: تعظِّموه

وتُجِلُّوه، كما ﴿هداكم﴾؛ أي: مقابلةً لهدايته إيَّاكم؛ فإنَّه يستحقُّ أكمل الثناء وأجلَّ الحمد وأعلى التعظيم. ﴿وبشِّر المحسنينَ﴾: بعبادة الله؛ بأنْ يعبُدوا الله كأنَّهم يرونَه؛ فإنْ لم يصلوا إلى هٰذه الدرجة؛ فليعْبُدوه معتقدينَ وقتَ عبادتِهِم اطِّلاعَه عليهم ورؤيته إيَّاهم، والمحسنين لعبادِ الله بجميع وجوه الإحسان؛ من نفع مال أو علم أو جاه أو نُصح أو أمرٍ بمعروفٍ أو نهيٍ عن منكرٍ أو كلمةٍ طيِّبةٍ ونحو ذٰلك؛ فالمحسِنونَ لهم البشارةُ من الله بسعادة الدُّنيا والآخرة، وسَيُحْسِنُ الله إليهم كما أحْسَنوا في عبادته ولعباده؛ ﴿هل جزاءُ الإحسانِ إلَّا الإحسانُ﴾، ﴿للذين أحسنوا الحُسنى وزيادةٌ﴾.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾.

﴿٣٨﴾ هٰذا إخبارٌ ووعدٌ وبشارةٌ من الله للذين آمنوا أنَّ الله يدافِعُ عنهم كلَّ مكروه، ويدفعُ عنهم كلَّ شرٍّ بسبب إيمانِهِم: من شرِّ الكفار وشرِّ وسوسة الشيطان وشرور أنفسهم وسيئاتِ أعمالهم، ويحملُ عنهم عند نزول المكاره ما لا يتحمَّلون، فيخفِّف عنهم غاية التخفيف، كلّ مؤمن له من هٰذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه، فمستقلٌّ ومستكثرٌ.

﴿إن الله لا يحبُّ كلَّ خوَّانٍ﴾؛ أي: خائن في أمانته التي حَمَّله الله إيَّاها، فيبخسُ حقوق الله عليه ويخونُها ويخونُ الخلق. ﴿كفورٍ﴾: لنعم الله، يوالي عليه الإحسان، ويتوالى منه الكفر والعصيان؛ فهٰذا لا يحبُّه الله، بل يُبْغِضُه ويمقُتُه وسيجازيه على كفرِهِ وخيانتِهِ. ومفهوم الآية أنَّ الله يحبُّ كلَّ أمينٍ قائمٍ بأمانته شكورٍ لمولاه.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٖ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ٤١﴾.

﴿٣٩﴾ كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار ومأمورين بالصبر عليهم لحكمةٍ إلٰهيَّةٍ، فلما هاجروا إلى المدينة، وأوذوا وحصل لهم مَنَعَةٌ

وقوَّةٌ؛ أُذن لهم بالقتال؛ كما قال تعالى[1]: ﴿أُذِنَ للذين يقاتَلونَ﴾: يُفهم منه أنهم كانوا قبلُ ممنوعين، فأذِنَ اللّه لهم بقتال الذين يقاتلون، وإنَّما أذن لهم لأنَّهم ظُلموا بمنعهم من دينهم وأذيَّتهم عليه وإخراجهم من ديارهم. ﴿وإنَّ اللّه على نصرِهم لَقديرٌ﴾: فلْيَسْتَنْصروه ولْيستعينوا به.

﴿٤٠﴾ ثم ذكر صفة ظلمهم، فقال: ﴿الذين أُخْرِجوا من ديارِهم﴾؛ أي: ألجئوا إلى الخروج بالأذيَّة والفتنة، ﴿بغير حقٍّ إلَّا﴾: أن ذنبهم الذي نقم منهم أعداؤهم، ﴿أن يَقولوا ربُّنا اللّه﴾؛ أي: إلَّا أنَّهم وحَّدوا اللّه وعبدوه مخلصينَ له الدِّين؛ فإنْ كان هٰذا ذنباً؛ فهو ذنبهم؛ كقوله تعالى: ﴿وما نَقَموا منهم إلَّا أن يُؤْمِنوا باللّه العزيز الحميد﴾: وهٰذا يدلُّ على حكمة الجهاد؛ فإنَّ[2] المقصود منه إقامةُ دين اللّه، أو[3] ذبُّ الكفار المؤذين للمؤمنين البادئين لهم بالاعتداء عن ظلمهم واعتدائهم، والتمكُّن من عبادةِ اللّه وإقامة الشرائع الظاهرة، ولهٰذا قال: ﴿ولولا دَفْعُ اللّه الناسَ بعضَهم ببعض﴾: فيدفعُ اللّه بالمجاهدين في سبيله ضررَ الكافرين؛ ﴿لَهُدِّمَتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ﴾؛ أي: لَهُدِّمَتْ هٰذه المعابد الكبار لطوائف أهل الكتاب معابد اليهود والنصارى والمساجد للمسلمين. ﴿يُذْكَرُ فيها﴾؛ أي: في هٰذه المعابد ﴿اسمُ اللّه كثيراً﴾: تُقام فيها الصلواتُ، وتُتْلى فيها كتب اللّه، ويُذكر فيها اسمُ اللّه بأنواع الذِّكر؛ فلولا دفعُ اللّه الناس بعضَهم ببعض؛ لاستولى الكفارُ على المسلمين، فخرَّبوا معابدهم وفَتَنوهم عن دينهم، فدلَّ هٰذا أنَّ الجهاد مشروعٌ لأجل دفع الصائل والمؤذي، ومقصودٌ لغيره. ودلَّ ذٰلك على أنَّ البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة اللّه، وعُمِّرَتْ مساجدها، وأقيمت فيها شعائرُ الدين كلُّها من فضائل المجاهدين وبركتهم، دفع اللّه عنها الكافرين؛ قال اللّه تعالى: ﴿ولولا دَفْعُ اللّهِ الناسَ بعضَهم ببعض لَفَسَدَتِ الأرضُ ولٰكنَّ اللّه ذو فضل على العالمينَ﴾.

فإنْ قلتَ: نرى الآنَ مساجد المسلمينَ عامرةً لم تَخْرَبْ؛ مع أنَّها كثيرٌ منها إمارة صغيرة وحكومة غير منظَّمة، مع أنَّهم لا يدان لهم بقتال مَنْ جاوَرَهم من الإفرنج، بل نرى المساجد التي تحتَ ولايتهم وسيطرتهم عامرةً، وأهلُها آمنون مطمئنُّون؛ مع قدرةِ ولاتِهم من الكفَّار على هدمها، واللّهُ أخبر أنه لولا دَفْعُ اللّه الناسَ بعضَهم ببعضٍ؛ لَهُدِّمَتْ هٰذه المعابد، ونحن لا نشاهد دفعا؟

---

(١) في (ب): «قال تعالى». (٢) في (ب): «وأن».

(٣) في (ب): «وذب».

أجيب بأنَّ جواب هٰذا السؤال والاستشكال داخلٌ في عموم هٰذه الآية وفردٌ من أفرادها؛ فإنَّ مَنْ عَرَفَ أحوال الدول الآن ونظامها، وأنها تعتبرُ كلَّ أمَّةٍ وجنس تحتَ ولايتها وداخل في حكمها؛ تعتبرُهُ عضواً من أعضاء المملكة وجزءاً من أجزاء الحكومة، سواء كانت تلك الأمةُ مقتدرةً بعددها أو عُددها أو مالها أو علمها أو خدمتها، فتراعي الحكوماتُ مصالح ذٰلك الشعب الدينيَّة والدنيويَّة، وتخشى إنْ لم تفعلْ ذٰلك أن يختلَّ نظامُها وتفقدَ بعضَ أركانها، فيقوم من أمر الدين بهٰذا السبب ما يقوم، خصوصاً المساجد؛ فإنَّها ولله الحمد في غاية الانتظام، حتى في عواصم الدول الكبار، وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة؛ نظراً لخواطر رعاياهم المسلمين، مع وجود التحاسدِ والتباغُض بين دول النصارى، الذي أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامةِ، فتبقى الحكومة المسلمة التي لا تقدِرُ تدافعُ عن نفسها سالمةً من كثيرِ ضررهم[1]؛ لقيام الحسدِ عندهم؛ فلا يقدِرُ أحدُهم أن يمدَّ يدَه عليها، خوفاً من احتمائِها بالآخرِ، مع أنَّ الله تعالى لا بدَّ أن يُري عبادَه من نصر الإسلام والمسلمين ما قد وَعَدَ به في كتابه، وقد ظهرتْ ولله الحمدُ أسبابُه بشعور المسلمين بضرورة رجوعِهِم إلى دينِهم، والشعورُ مبدأ العمل؛ فنحمَدُه ونسأله أن يُتِمَّ نعمتَه، ولهٰذا قال في وعدِهِ الصادق المطابق للواقع: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ من يَنصُرُه﴾؛ أي: يقوم بنصر دينِهِ، مخلصاً له في ذٰلك، يقاتِلُ في سبيله لتكونَ كلمةُ الله هي العليا.

﴿إنَّ الله لقويٌّ عزيزٌ﴾؛ أي: كامل القوة، عزيزٌ، لا يُرام، قد قهر الخلائق وأخذ بنواصيهم. فأبشروا يا معشر المسلمين؛ فإنَّكم وإنْ ضَعُفَ عددُكم وعُددُكم وقوي عددُ عدوِّكم[2]؛ فإنَّ ركنَكم القويُّ العزيز ومعتمدكم على مَنْ خَلَقَكُم وخَلَقَ ما تعملون؛ فاعملوا بالأسباب المأمور بها، ثم اطلبوا منه نصرَكم؛ فلا بدَّ أن ينصركم، ﴿يا أيُّها الذين آمنوا إن تَنصُروا الله يَنصُرْكُم ويثبِّتْ أقدامكَم﴾، وقوموا أيُّها المسلمون بحقِّ الإيمان والعمل الصالح؛ فقد ﴿وَعَدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لَيَستَخْلِفَنَّهُم في الأرض كما استَخْلَفَ الذين من قَبْلِهِم ولَيُمَكِّنَنَّ لهم دينَهم الذي ارتضى لهم وَلَيُبَدِّلَنَّهُم من بعدِ خوفهم أمناً يعبُدونني لا يشرِكونَ بي شيئاً﴾.

---

(١) في (ب): «من ضررهم».

(٢) في (ب): «وقوي عدد عدوكم وعدتكم». ولعل الصواب: «وقوي عدد عدوكم وعُددُهم».

﴿٤١﴾ ثم ذكر علامة مَنْ ينصره، وبها يُعرف أنَّ مَن ادَّعى أنه يَنصُرُ اللّه ويَنْصُرُ دينَه ولم يتَّصِف بهٰذا الوصف؛ فهو كاذب، فقال: ﴿الذين إن مَكَّنَّاهُم في الأرض﴾؛ أي: مَلَّكْناهم إياها، وجعلناهم المتسلِّطين عليها من غير منازِع ينازِعُهم ولا معارِض؛ ﴿أقاموا الصلاةَ﴾: في أوقاتها وحدودها وأركانها وشروطها في الجمعة والجماعات. ﴿وآتوُا الزَّكاة﴾: التي عليهم خصوصاً، وعلى رعيَّتهم عموماً، آتوْها أهلها الذين هم أهلها. ﴿وأمروا بالمعروف﴾: وهٰذا يشمَلُ كلَّ معروفٍ حُسْنُهُ شرعاً وعقلاً من حقوق اللّه وحقوق الآدميين. ﴿ونَهَوا عن المنكر﴾: كلِّ منكرٍ شرعاً وعقلاً، معروف قبحُه، والأمر بالشيء والنهي عنه يدخُلُ فيه ما لا يتمُّ إلَّا به؛ فإذا كان المعروف والمنكر يتوقَّف على تعلُّم وتعليم أجبروا الناس على التعلُّم والتعليم، وإذا كان يتوقَّف على تأديبٍ مقدَّر شرعاً أو غير مقدَّر؛ كأنواع التعزير؛ قاموا بذٰلك، وإذا كان يتوقَّف على جعل أناس متصدِّين له؛ لزم ذٰلك، ونحو ذٰلك مما لا يتمُّ الأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر إلَّا به.

﴿وللّه عاقبةُ الأمور﴾؛ أي: جميع الأمور ترجِعُ إلى اللّه، وقد أخبر أنَّ العاقبة للتقوى؛ فمن سلَّطه الله على العباد من الملوك وقام بأمر اللّه؛ كانتْ له العاقبةُ الحميدةُ والحالةُ الرشيدةُ، ومن تسلَّط عليهم بالجَبَروت، وأقام فيهم هوى نفسه؛ فإنَّه وإن حصل له ملكٌ موقتٌ؛ فإنَّ عاقبتَه غيرُ حميدةٍ؛ فولايتُه مشؤومة، وعاقبته مذمومة.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٢ ـ ٤٤﴾ يقول تعالى لنبيِّه محمدٍ ﷺ: وإنْ يكذِّبْك هٰؤلاء المشركون؛ فلستَ بأوَّل رسول كُذِّب، وليسوا بأول أمةٍ كَذَّبت رسولها؛ ﴿فقد كَذَّبَتْ قبلَهم قومُ نوح وعادٌ وثمودُ. وقومُ إبراهيم (وقومُ لوط). وأصحابُ مَدْيَنَ﴾؛ أي: قوم شعيب. ﴿وكُذِّبَ موسى فأمليتُ للكافرين﴾: المكذِّبين، فلم أعاجِلْهم بالعقوبة، بل أمهلتُهم حتى استمرُّوا في طغيانهم يعمهونَ وفي كفرِهم وشرِّهم يزدادون، ﴿ثمَّ أخذْتُهم﴾:

بالعذاب أخذَ عزيز مقتدرٍ. ﴿فكيف كان نَكيرِ﴾؛ أي: إنكاري عليهم كفرهم وتكذيبهم كيف حالُه؟! كان أشدَّ العقوبات وأفظعَ المَثُلات؛ فمنهم من أغرقَه، ومنهم من أخذَته الصيحةُ، ومنهم من أُهلِكَ بالريح العقيم، ومنهم من خُسِفَ به الأرض، ومنهم من أُرسِلَ عليه عذابُ يوم الظُّلَّة؛ فليعتبِرْ بهم هٰؤلاء المكذِّبون أن يصيبَهم ما أصابهم؛ فإنَّهم ليسوا خيراً منهم، ولا كُتِبَ لهم براءةٌ في الكتب المنزَّلة من الله. وكم من المعذَّبين المهلكين أمثال هٰؤلاء كثير!

﴿٤٥﴾ ولهٰذا قال: ﴿فكأيِّن من قريةٍ﴾؛ أي: وكم من قريةٍ، ﴿أهلَكْناها﴾: بالعذابِ الشديدِ والخزي الدنيويِّ، ﴿وهي ظالمةٌ﴾: بكفرِها بالله وتكذيبها لرسلِهِ، لم يكنْ عقوبتُنا لها ظلماً منا. ﴿فهي خاويةٌ على عروشها﴾؛ أي فديارُهم متهدِّمة قصورُها وجدرانُها، قد سقطتْ على عروشها[1]، فأصبحت خراباً بعد أن كانتْ عامرةً، وموحشةً بعد أن كانت آهلةً بأهلها آنسة. ﴿وبئرٍ معطَّلةٍ وقصرٍ مَشيدٍ﴾؛ أي: وكم من بئر قد كان يزدحمُ عليه الخلقُ لشُرْبهم وشرب مواشيهم، ففُقِدَ أهلُه وعُدِمَ منه الوارد والصادر! وكم من قصرٍ تعبَ عليه أهلُه فشيَّدوه ورفعوه وحصَّنوه وزخرفوه؛ فحين جاءهم أمرُ الله؛ لم يُغْنِ عنهم شيئاً، وأصبح خالياً من أهله، قد صاروا عبرةً لمن اعتبر ومثالاً لمن فكَّر ونظر.

﴿٤٦﴾ ولهٰذا دعا الله عبادَه إلى السير في الأرض لينظُروا ويعتبِروا، فقال: ﴿أفلم يَسيروا في الأرض﴾: بأبدانهم وقلوبهم؛ ﴿فتكون لهم قلوبٌ يعقِلونَ بها﴾: آياتِ الله ويتأمَّلون بها مواقعَ عِبَرِهِ، ﴿أو آذانٌ يسمعونَ بها﴾: أخبارَ الأمم الماضين وأنباء القرون المعذَّبين، وإلَّا فمجرَّد نظر العين وسماع الأذُن وسير البدن الخالي من التفكُّر والاعتبار غير مفيدٍ ولا موصل إلى المطلوب، ولهٰذا قال: ﴿فإنَّها لا تَعْمى الأبصارُ ولٰكن تَعمى القلوبُ التي في الصُّدور﴾؛ أي: هٰذا العمى الضارُّ في الدين عمى القلب عن الحقِّ حتى لا يشاهدَه كما لا يشاهِدُ الأعمى المرئيَّات، وأما عمى البصر؛ فغايتُه بلغةٌ ومنفعةٌ دنيويَّةٌ.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٧﴾ أي: يتعجَّلُك هٰؤلاء المكذِّبون بالعذاب لجهلهم وظلمهم وعنادهم

---

(١) في (ب): «سقطت عروشها».

وتعجيزاً للّه وتكذيباً لرسله، ولن يُخلِفَ اللّه وعده؛ فما وَعَدَهُم به من العذاب لا بدَّ من وقوعه، ولا يمنعُهم منه مانعٌ، وأمَّا عَجَلَتُهُ والمبادرةُ فيه؛ فليس ذٰلك إليك يا محمدُ، ولا يستفزنَّك عجلتُهم وتعجيزُهم إيَّانا؛ فإنَّ أمامهم يوم القيامة الذي يُجمع فيه أولهم وآخرهم، ويجازَوْن بأعمالهم، ويقع بهم العذابُ الدائم الأليم، ولهٰذا قال: ﴿وإنَّ يوماً عند ربِّكَ كألفِ سنةٍ مما تَعُدُّونَ﴾: من طوله وشدَّته وهولِهِ؛ فسواء أصابهم عذابٌ في الدنيا أم تأخَّر عنهم العذاب؛ فإنَّ هٰذا اليوم لا بدَّ أن يدرِكهم.

ويُحتمل أنَّ المراد أنَّ اللّه حليمٌ، ولو استعجلوا العذاب؛ فإنَّ يوماً عنده كألف سنة مما تعدُّون؛ فالمدَّة وإنْ تطاوَلْتُموها، واستبطأتم فيها نزول العذاب؛ فإنَّ اللّه يمهل المدد الطويلةَ، ولا يُهمل، حتى إذا أخذ الظالمين بعذابه؛ لم يُفْلِتْهم.

﴿٤٨﴾ ﴿وكأيِّن من قريةٍ أمليتُ لها﴾؛ أي: أمهلتها مدة طويلة، ﴿وهي ظالمةٌ﴾؛ أي: مع ظلمهم، فلم يكنْ مبادرتُهم بالظُّلم موجباً لمبادرتِنا بالعقوبة، ﴿ثم أخذتُها بالعذابِ وإليَّ المصيرُ﴾؛ أي: مع عذابها في الدنيا سترجِعُ إلى اللّه فيعذِّبُها بذنوبها؛ فليحذر هؤلاء الظالمون من حلول عقاب اللّه، ولا يغترُّوا بالإمهال.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ [لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ] أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿٤٩﴾ يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يخاطِبَ الناس جميعاً بأنَّه رسولُ اللّه حقًّا؛ مبشراً للمؤمنين بثواب اللّه، منذراً للكافرين والظالمين من عقابِهِ. وقولُهُ: ﴿مبينٌ﴾ أي؛ بيِّنُ الإنذار، وهو التخويف مع الإعلام بالمَخُوف، وذٰلك لأنَّه أقام البراهين الساطعة على صدق ما أنذرهم به.

﴿٥٠﴾ ثم ذَكَرَ تفصيل النِّذارة والبِشارة، فقال: ﴿فالذين آمنوا﴾: بقلوبهم إيماناً صحيحاً صادقاً، ﴿وعملوا الصالحات﴾: بجوارِحِهم [﴿في جنَّاتِ النعيم﴾؛ أي: الجنات التي يُتَنَعَّمُ بها بأنواع النعيم من المآكل والمشارب والمناكح والصُّوَر والأصوات والتنعُّم برؤية الربِّ الكريم وسماع كلامه.

﴿٥١﴾ ﴿والذين كفروا﴾؛ أي: جَحَدوا نعمةَ ربِّهم، وكذَّبوا رُسُله وآياته][١].

---

(١) كذا في النسختين؛ فقد سها المؤلف رحمه اللّه وأدخل الآيتين (٥٦ و٥٧) من هذه السورة مع الآية (٥١).

فأولئك ﴿أصحابُ الجحيم﴾؛ أي: الملازمون لها، المصاحبون لها في كلِّ أوقاتهم؛ فلا يخفَّف عنهم من عذابِها، ولا يفتُرُ عنهم لَحْظةٌ من عقابها.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٢﴾ يخبر تعالى بحكمته البالغة واختيارِهِ لعبادِهِ وأنَّ الله ما أرسل قبل محمدٍ ﴿من رسول ولا نبيٍّ إلَّا إذا تمنَّى﴾؛ أي: قرأ قراءته التي يذكِّر بها الناسَ ويأمرُهم وينهاهم، ﴿ألقى الشَّيطانُ في أمنِيَّتِهِ﴾؛ أي: في قراءته من طرقه ومكايده ما هو مناقض لتلك القراءة مع أنَّ الله تعالى قد عَصَمَ الرسل بما يبلِّغون عن الله وحَفِظَ وحيَه أن يشتبِهَ أو يختلطَ بغيرِهِ، ولكنْ هٰذا إلقاءٌ من الشيطان غير مستقرٍّ ولا مستمرٍّ، وإنَّما هو عارضٌ يعرِضُ ثم يزول، وللعوارض أحكامٌ، ولهٰذا قال: ﴿فينسخُ الله ما يُلْقي الشيطانُ﴾؛ أي: يزيله، ويذهبُهُ، ويبطلُه، ويبيِّنُ أنه ليس من آياته. و﴿يُحْكِمُ الله آياتِهِ﴾؛ أي: يتقنها، ويحرِّرها، ويحفظها، فتبقى خالصةً من مخالطة إلقاء الشيطان. ﴿والله [عزيزٌ][1]﴾؛ أي: كامل القوة والاقتدار؛ فبكمال قوَّته يحفظ وحيَه، ويزيل ما تلقيه الشياطين. ﴿حكيمٌ﴾: يضعُ الأشياء مواضعَها.

﴿٥٣﴾ فمن كمال حكمتِهِ مكَّن الشياطين من الإلقاء المذكور؛ ليحصُلَ ما ذكره بقولِهِ ﴿لِيَجْعَلَ ما يلقي الشيطانُ فتنةً﴾: لطائفتين من الناس لا يبالي الله بهم: [وهم الذين] ﴿في قلوبِهِم مرضٌ﴾؛ أي: ضَعْفٌ وعدم إيمان تامٍّ وتصديق جازم، فيؤثِّر في قلوبهم أدنى شبهةٍ تطرأ عليها؛ فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان؛ داخَلَهم الريبُ والشكُّ، فصار فتنةً لهم.

﴿والقاسيةِ قلوبُهم﴾؛ أي: الغليظة التي لا يؤثر فيها زجرٌ ولا تذكيرٌ، ولا تَفْهَمُ عن الله وعن رسوله لقسوتها؛ فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان؛ جعلوه حجةً لهم على باطلهم، وجادلوا به، وشاقُّوا الله ورسوله، ولهٰذا قال: ﴿وإنَّ الظالمينَ لفي شقاقٍ

---

(١) كذا في النسختين؛ وعليه فسرها المؤلف والآية: ﴿عليم﴾.

بعيدٍ﴾؛ أي: مشاقَّة للّه ومعاندةٍ للحقِّ ومخالفةٍ له بعيد من الصواب. فما يلقيه الشيطانُ يكون فتنةً لهٰؤلاء الطائفتين، فيظهر به ما في قلوبهم من الخبثِ الكامن فيها.

﴿٥٤﴾ وأمَّا الطائفةُ الثالثةُ؛ فإنَّه يكون رحمةً في حقِّها، وهم المذكورون بقوله: ﴿ولِيَعْلَمَ الذين أوتوا العلم أنَّه الحقُّ من ربِّك﴾: وأن اللّه مَنَحهم من العلم ما به يعرفون الحقَّ من الباطل والرُّشْدَ من الغيِّ، فيفرِّقون[1] بين الأمرين الحقِّ المستقرِّ الذي يُحْكِمُهُ اللّه، والباطل العارض الذي ينسَخُهُ اللّه، بما على كلٍّ منهما من الشواهد، وليعلموا أنَّ اللّه حكيمٌ يقيِّضُ بعضَ أنواعِ الابتلاء وليظهرَ بذٰلك كمائن النفوس الخيِّرة والشِّريرة؛ ﴿فيؤمنوا به﴾: بسببِ ذٰلك، ويزدادُ إيمانُهم عند دفع المعارِضِ والشبهِ؛ ﴿فتخبِتَ له قلوبُهُم﴾؛ أي: تخشع وتخضع وتسلم لحكمتِهِ، وهٰذا من هدايته إيَّاهم. ﴿وإنَّ اللّه لهادي الذين آمنوا﴾: بسبب إيمانهم ﴿إلى صراطٍ مستقيمٍ﴾: علم بالحقِّ وعمل بمقتضاه؛ فيثبِّتُ اللّه الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة، وهٰذا النوع من تثبيت اللّه لعبده.

وهٰذه الآيات فيها بيانُ أنَّ للرسول ﷺ أسوةً بإخوانِهِ المرسلين؛ لما وَقَعَ منه عند قراءتِهِ ﷺ ﴿والنجم﴾، فلما بَلَغَ: ﴿أفرأيتُم اللاتَ والعُزَّى. ومناةَ الثَّالثَةَ الأخرى﴾؛ ألقى الشيطانُ في قراءته: تلك الغرانيق العلى. وإنَّ شفاعَتَهُنَّ[2] لَتُرتَجى؛ فحصل بذٰلك للرسول حزنٌ وللناس فتنةٌ؛ كما ذكر اللّه، فأنزل اللّه هٰذه الآيات[3].

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿٥٥﴾ يخبر تعالى عن حالة الكفار، وأنَّهم لا يزالون في شكٍّ مما جئتَهم به يا محمدُ؛ لعنادهم وإعراضهم، وأنَّهم[4] لا يبرحون مستمرِّين على هٰذه الحال، ﴿حتَّى

---

(١) في (ب): «فيميزون». (٢) في (أ) و(ب): «شفاعتهم».
(٣) قصة الغرانيق اختلف العلماء في ثبوتها عن النبي ﷺ، انظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٤١) وفتح الباري (٨/ ٤٣٩) والدرر المنثور (٤/ ٦٦١) وأضواء البيان (٤/ ٧٣٠) وللشيخ الألباني رسالة مفردة بعنوان نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق.
(٤) في (ب): «وأنه».

تأتِيَهُمُ الساعةُ بغتةً﴾؛ أي: مفاجأةً، ﴿أو يأتِيَهُمْ عذابُ يوم عقيم﴾؛ أي: لا خير فيه، وهو يوم القيامة؛ فإذا جاءتهم الساعةُ أو أتاهم ذٰلك اليوم؛ علم الذين كفروا أنَّهم كانوا كاذبين، وندموا حيث لا ينفعُهم الندمُ، وأبْلِسوا، وأيِسوا من كلِّ خيرٍ، ووَدُّوا لو آمنوا بالرسول واتَّخذوا معه سبيلاً. ففي هٰذا تحذيرُهم من إقامتهم على مِرْيَتِهِم وفِرْيَتِهِم.

﴿٥٦ ـ ٥٧﴾ ﴿الملكُ يومئذٍ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿للّه﴾: تعالى لا لغيره، ﴿يحكُمُ بينَهم﴾: بحكمه العدل وقضائه الفصل. ﴿فالذين آمنوا﴾: باللّه ورسلِهِ وما جاؤوا به، ﴿وعمِلوا الصالحاتِ﴾: ليصدِّقوا بذٰلك إيمانَهم ﴿في جنَّاتِ النعيم﴾: نعيم القلب والروح والبدن مما لا يصفه الواصفون ولا تدركه العقول. ﴿والذِينَ كَفَرُوا﴾: باللّه ورسله، ﴿وكذَّبوا بآياتنا﴾: الهاديةِ للحقِّ والصواب، فأعرضوا عنها أو عاندوها ﴿فأولٰئك لهم عذابٌ مُهينٌ﴾: لهم من شدَّتِهِ وألمِهِ وبلوغِهِ للأفئدة؛ كما استهانوا برسلِهِ وآياتِهِ؛ أهانهم اللّه بالعذاب.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥٨﴾ هٰذه بشارةٌ كبرى لمن هاجر في سبيل اللّه، فخرج من دارِهِ ووطنِهِ وأولادِهِ ومالِهِ ابتغاءَ وجه اللّه ونصرةً لدين اللّه؛ فهٰذا قد وجب أجرُهُ على اللّه؛ سواءٌ مات على فراشِهِ أو قُتِلَ مجاهداً في سبيل اللّه. ﴿لَيَرْزُقَنَّهُم اللّهُ رزقاً حسناً﴾: في البرزخ وفي يوم القيامة[1]؛ بدخول الجنَّة الجامعة للرَّوْح والرَّيْحان والحُسْن والإحسان ونعيم القلب والبدن، ويُحْتَمَلُ أنَّ المراد[2] أنَّ المهاجر في سبيل اللّه قد تكفَّلَ برزقِهِ في الدُّنيا رزقاً واسعاً حسناً، سواء علم اللّه منه أنه يموتُ على فراشه أو يُقْتَلُ شهيداً؛ فكلُّهم مضمونٌ له الرزق؛ فلا يَتَوَهَّم أنه إذا خرج من دياره وأمواله سيفتقرُ ويحتاج؛ فإنَّ رازِقَه هو خير الرازقين. وقد وقع كما أخبر؛ فإنَّ المهاجرين السابقين تركوا ديارهم وأبناءهم وأموالهم نُصْرَةً لدين اللّه، فلم يَلْبَثوا إلَّا يسيراً حتى فتحَ اللّه عليهم البلادَ، ومكَّنهم من العباد، فاجْتَبوا من أموالها ما كانوا به من أغنى الناس.

---

(١) في (ب): «وفي القيامة».

(٢) في (ب): «المعنى».

﴿٥٩﴾ ويكون على هٰذا القول قولُهُ: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُدْخلاً يرضَونَه﴾: **إمَّا** ما يفتحُ اللّه عليهم من البلدان، خصوصاً فتحَ مكَّة المشرَّفة؛ فإنَّهم دخلوها في حالة الرضا والسرور، **وإمَّا** المرادُ به رزق الآخرة، وأنَّ ذٰلك دخولُ الجنَّة، فتكون الآية جمعت بين الرزقين؛ رزق الدُّنيا ورزق الآخرة. واللفظ صالحٌ لذٰلك كله، والمعنى صحيحٌ؛ فلا مانعَ من إرادةِ الجميع. ﴿وإنَّ الله لعليمٌ﴾: بالأمورِ؛ ظاهرها وباطنها، متقدِّمها ومتأخِّرها. ﴿حليم﴾: يعصيه الخلائقُ ويبارِزونه بالعظائم، وهو لا يعاجِلُهم بالعقوبة، مع كمال اقتدارِهِ، بل يواصِلُ لهم رزقَه، ويُسْدي إليهم فضله.

﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٦٠﴾ ذٰلك بأنَّ من جُنِيَ عليه وظُلِمَ؛ فإنَّه يجوز له مقابلةُ الجاني بمثل جنايته؛ فإنْ فعل ذٰلك؛ فليس عليه سبيلٌ، وليس بِمَلوم؛ فإنْ بُغِيَ عليه بعد هٰذا؛ فإنَّ اللّه ينصرُه؛ لأنَّه مظلومٌ؛ فلا يجوز أن يُبْغَى عليه بسبب أنَّه استوفى حقَّه، وإذا كان المجازي غيرَه بإساءته إذا ظُلِمَ بعد ذٰلك؛ نَصَرَه اللّه؛ فالذي بالأصل لم يعاقب أحداً إذا ظلم وجُنِيَ عليه؛ فالنصر إليه أقرب. ﴿إنَّ اللّه لعفوٌّ غفورٌ﴾؛ أي: يعفو عن المذنبين؛ فلا يعاجِلُهم بالعقوبة، ويغفر ذنوبهم، فيزيلها ويزيل آثارها عنهم؛ فاللّه هٰذا وصفُه المستقرُّ اللازم الذاتيُّ، ومعاملتُهُ لعباده في جميع الأوقات بالعفو والمغفرة، فينبغي لكم أيها المظلومون المجنيُّ عليهم أن تعفوا وتصفحوا وتغفِروا؛ لِيُعامِلَكُمُ اللّه كما تعامِلون عباده؛ فمن عفا وأصلح؛ فأجْرُهُ على اللّه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿٦١﴾ ذٰلك الذي شَرَعَ لكم تلك الأحكامَ الحسنة العادلة هو حَسَنُ التصرُّف في تقديره وتدبيره، الذي ﴿يولِجُ الليلَ في النهارِ﴾؛ أي: يُدْخِلُ هٰذا على هٰذا وهٰذا على هٰذا، فيأتي بالليل بعد النهار، وبالنهارِ بعد الليل، ويزيدُ في أحدِهما ما يَنْقُصُه من[1] الآخر، ثم بالعكس، فيترتَّب على ذٰلك قيامُ الفصول ومصالح الليل والنهار

---

(١) في (ب): «في».

والشمس والقمر، التي هي من أجلِّ نعمِهِ على العباد، وهي من الضروريَّات لهم. ﴿وأنَّ الله سميعٌ﴾: يسمع ضجيجَ الأصوات باختلاف اللغات على تفنُّن الحاجات. ﴿بصيرٌ﴾: يرى دبيبَ النملة السوداء تحت الصخرة الصمَّاء في الليلة الظَّلماء، سواء منكم مَن أسرَّ القول ومَن جَهَرَ به، ومن هُو مُسْتَخْفٍ بالليل وسارب بالنهار.

﴿٦٢﴾ ﴿ذٰلك﴾: صاحب الحكم والأحكام، ﴿بأنَّ الله هو الحقُّ﴾؛ أي: الثابتُ الذي لا يزال ولا يزول، فالأولُ الذي ليس قبله شيء، الآخِرُ الذي ليس بعدَه شيء، كامل الأسماء والصفات، صادقُ الوعد، الذي وعدُهُ حقٌّ ولقاؤه حقٌّ ودينه حقٌّ وعبادته هي الحقُّ النافعة الباقية على الدوام. ﴿وأنَّ ما يدعون من دونِهِ﴾: من الأصنام والأنداد من الحيوانات والجمادات، ﴿هو الباطل﴾: الذي هو باطلٌ في نفسه، وعبادتُه باطلةٌ؛ لأنها متعلِّقةٌ بمضمحلٍّ فانٍ، فتبطُلُ تبعاً لغايتها ومقصودها. ﴿وأنَّ الله هو العليُّ الكبيرُ﴾: العليُّ في ذاته؛ فهو عالٍ على جميع المخلوقات، وفي قَدْرِهِ؛ فهو كامل الصفات، وفي قهرِهِ لجميع المخلوقات، الكبيرُ في ذاتِهِ وفي أسمائِهِ وفي صفاتِهِ، الذي من عظمتِهِ وكبريائِهِ أنَّ الأرضَ قبضتُه يوم القيامة والسماوات مطوياتٌ بيمينِهِ، ومن كبريائِهِ أنَّ كرسيَّه وَسِعَ السماواتِ والأرض، ومن عظمتِهِ وكبريائِهِ أنَّ نواصي العباد بيدِهِ؛ فلا يتصرفون إلا بمشيئته، ولا يتحرَّكون ويسكُنون إلَّا بإرادتِهِ، وحقيقةُ الكبرياء التي لا يعلمها إلَّا هو؛ لا مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ: أنَّها كلُّ صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمةٍ؛ فهي ثابتةٌ له، وله من تلك الصفة أجلُّها وأكملُها، ومن كبريائِهِ أنَّ العباداتِ كلَّها، الصادرةَ من أهل السماوات والأرضِ كلِّها، المقصودُ منها تكبيرُهُ وتعظيمُهُ وإجلالُهُ وإكرامُهُ، ولهٰذا كان التكبير شعاراً للعبادات الكبار كالصلاة وغيرها.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿٦٣﴾ هٰذا حثٌّ منه تعالى وترغيبٌ في النظر بآياتِهِ الدَّالَّة على وحدانيَّته وكماله، فقال: ﴿ألم تَرَ﴾؛ أي: ألم تشاهِدْ ببصرك وبصيرتك، ﴿أنَّ الله أنْزَلَ مِنَ السماء ماءً﴾: وهو المطر، فينزِلُ على أرضٍ خاشعةٍ مجدبةٍ، قد اغبرَّت أرجاؤُها ويَبِسَ ما فيها من شجرٍ ونباتٍ، فتصبح مخضَرَّةً؛ قد اكتستْ من كلِّ زوج كريم، وصار لها بذْلك منظرٌ بهيجٌ، أنَّ الذي أحياها بعد موتها وهمودها لَمحيي الموتى بعد أن كانوا رميماً. ﴿إنَّ الله لطيفٌ خبيرٌ﴾: اللطيفُ: الذي يدرِكُ بواطن الأشياء وخفيَّاتها

وسرائرها، الذي يسوقُ إلى عباده[1] الخير، ويدفَعُ عنه الشرَّ بطرقٍ لطيفةٍ تَخْفى على العباد. ومن لطفِهِ أنَّه يُري عبده عزَّتَه في انتقامه، وكمال اقتدارِهِ، ثم يظهِرُ لطفَه بعد أن أشرف العبدُ على الهلاك. ومن لطفِهِ أنَّه يعلم مواقعَ القطرِ من الأرض وبذور الأرض في بواطنها، فيسوق ذلك الماء إلى ذلك البذر الذي خفي على عِلْم الخلائق، فَيَنْبُتُ منه أنواعُ النبات. ﴿خبيرٌ﴾: بسرائر الأمور وخبايا الصُّدور وخفايا الأمور.

﴿٦٤﴾ ﴿له ما في السمٰواتِ﴾ والأرض خَلْقاً وعبيداً، يتصرَّف فيهم بملكه وحكمته وكمال اقتداره، ليس لأحدٍ غيره من الأمر شيءٌ. ﴿وإنَّ الله لهو الغنيُّ﴾: بذاتِهِ، الذي له الغنى المطلقُ التامُّ من جميع الوجوه. ومن غناه أنَّه لا يحتاجُ إلى أحدٍ من خَلْقِهِ ولا يواليهم من ذلَّةٍ ولا يتكثَّرُ بهم من قِلَّةٍ. ومن غناه أنه ما اتَّخذ صاحبةً ولا ولداً. ومن غناه أنَّه صمدٌ لا يأكل ولا يشرب ولا يحتاجُ إلى ما يحتاج إليه الخلقُ بوجهٍ من الوجوه؛ فهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ. ومن غناه أنَّ الخلق كلَّهم مفتقرون إليه؛ في إيجادهم وإعدادهم وإمدادهم، وفي دينهم ودنياهم. ومن غناه أنَّه لو اجتمع مَن في السماوات ومَن في الأرض، الأحياء منهم والأموات، في صعيدٍ واحدٍ، فسأل كل منهم ما بلغت أمنيَّته، فأعطاهم فوق أمانيهم؛ ما نَقَصَ ذلك من ملكه شيء. ومن غناه أنَّ يَدَهُ سحاءُ بالخير والبركات الليل والنهار، لم يزل إفضاله على الأنفاس. ومن غناه وكرمِه ما أودعه في دار كرامتِهِ مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خَطَرَ على قلب بشر. ﴿الحميد﴾؛ أي: المحمود في ذاته، وفي أسمائه؛ لكونها حسنى، وفي صفاته؛ لكونها كلها صفات كمال، وفي أفعاله؛ لكونها دائرة بين العدل والإحسان والرحمة والحكمة، وفي شرعه؛ لكونه لا يأمر إلَّا بما فيه مصلحةٌ خالصةٌ أو راجحةٌ، ولا ينهى إلَّا عما فيه مفسدةٌ خالصةٌ أو راجحةٌ، الذي له الحمدُ الذي يملأ ما في السماوات والأرض وما بينهما وما شاء بعدها، الذي لا يُحْصي العبادُ ثناءً على حمده، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يُثْني عليه عباده، وهو المحمود على توفيق من يوفِّقه وخذلان من يخذله، وهو الغنيُّ في حمده، الحميد في غناه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن

(١) في (ب): «عبده».

تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿٦٥﴾ أي: ألم تشاهدْ ببصرك وقلبك نعمة ربِّك السابغة وأياديه الواسعة، و﴿أنَّ الله سخَّرَ لكم ما في الأرض﴾: من حيوانات ونبات وجمادات؛ فجميع ما في الأرض مسخَّر لبني آدم؛ حيواناتُها لركوبه وحمله وأعماله وأكله وأنواع انتفاعه، وأشجارُها وثمارها يقتاتُها، وقد سُلِّط على غرسها واستغلالها، ومعادنها يستخرجها وينتفع بها. ﴿والفلك﴾؛ أي: وسخَّرَ لكم الفلك، وهي السفن، ﴿تجري في البحر بأمرِهِ﴾: تحمِلُكم وتحمل تجاراتكم وتوصِلُكم من محل إلى محلٍّ وتستخرجون من البحر حليةً تلبَسونها. ومن رحمته بكم أنه ﴿يُمْسِكُ السماء أن تَقَعَ على الأرض﴾؛ فلولا رحمتُهُ وقدرتُهُ؛ لسقطت السماء على الأرض، فتلف ما عليها، وهلك من فيها: ﴿إنَّ الله يُمْسِكُ السمٰواتِ والأرضَ أن تزولا ولئن زالتا إنْ أمْسَكَهُما من أحدٍ من بعدِهِ إنَّه كان حليماً غفوراً﴾. ﴿إنَّ الله بالناس لرءوفٌ رحيمٌ﴾: أرحم بهم من والديهم ومن أنفسهم، ولهٰذا يريد لهم الخير، ويريدون لها الشرَّ والضرَّ. ومن رحمته أن سخَّر لهم ما سخَّر من هٰذه الأشياء.

﴿٦٦﴾ ﴿وهو الذي أحياكم﴾: وأوجدكم[(١)] من العدم، ﴿ثم يُميتُكم﴾: بعد أن أحياكم، ﴿ثم يُحييكم﴾: بعد موتكم؛ ليجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. ﴿إنَّ الإنسان﴾؛ أي: جنسه إلَّا مَنْ عَصَمَهُ الله؛ ﴿لكفورٌ﴾: لنعم الله، كفورٌ بالله، لا يعترف بإحسانه، بل ربَّما كفر بالبعث وقدرة ربِّه.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿٦٧﴾ يخبر تعالى أنَّه جَعَلَ لكلِّ أمةٍ ﴿مَنسَكاً﴾؛ أي: معبداً وعبادةً، قد تختلفُ في بعض الأمور، مع اتِّفاقها على العدل والحكمة؛ كما قال تعالى: ﴿لكلٍّ

---

(١) في (ب): «أوجدكم».

جَعَلْنا منكم شِرْعةً ومنهاجاً ولو شاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُم أمّةً واحدةً ولٰكن لِيَبْلُوَكُم فيما آتاكم. . .﴾ الآية، ﴿هم ناسِكُوه﴾؛ أي: عاملون عليه بحسب أحوالهم؛ فلا اعتراض على شريعةٍ من الشرائع، خصوصاً من الأميين أهل الشرك والجهل المبين؛ فإنَّه إذا ثبتت رسالةُ الرسول بأدلتها؛ وجب أن يُتَلَقَّى جميع ما جاء به بالقَبول والتسليم وترك الاعتراض، ولهٰذا قال: ﴿فلا ينازِعُنَّكَ في الأمر﴾؛ أي: لا ينازِعُك المكذِّبون لك، ويعترِضون على بعض ما جئتَهم به بعقولهم الفاسدة؛ مثلَ منازعتِهِم في حلِّ الميتةِ بقياسهم الفاسد؛ يقولونَ: تأكلونَ ما قَتَلْتُم ولا تأكلونَ ما قَتَلَ اللّه؟! وكقولهم: ﴿إنَّما البيعُ مثلُ الرِّبا﴾. . . ونحو ذٰلك من اعتراضاتهم التي لا يلزم الجواب عن أعيانها، وهم منكرون لأصل الرسالة، وليس فيها مجادلةٌ ومحاجَّةٌ بانفرادها، بل لكلِّ مقام مقال؛ فصاحب هٰذا الاعتراض المنكِرُ لرسالة الرسول إذا زَعَمَ أنَّه يجادِل ليسترشدَ؛ يُقال له: الكلامُ معك في إثبات الرِّسالة وعدمها، وإلَّا؛ فالاقتصارُ على هٰذه دليلٌ أنَّ مقصوده التعنت والتعجيز، ولهٰذا أمر اللَّهُ رسولَه أن يدعُو إلى ربِّه بالحكمة والموعظة الحسنة ويمضي على ذٰلك؛ سواءٌ اعترضَ المعترِضون أم لا، وأنه لا ينبغي أن يَثْنيكَ عن الدَّعوةِ شيءٌ؛ لأنَّك على ﴿هدىً مستقيم﴾؛ أي: معتدلٍ، موصل للمقصودِ، متضمنٍ علم الحقِّ والعمل به؛ فأنت على ثقةٍ من أمرك ويقينٍ من دينك، فيوجِبُ ذٰلك لكَ الصلابة والمضيَّ لما أمرك به ربُّك، ولست على أمرٍ مشكوكٍ فيه أو حديثٍ مفترى، فتقف مع الناس ومع أهوائهم وآرائهم ويوقِفُكَ اعتراضُهم، ونظير هٰذا قولُه تعالى: ﴿فتوكَّلْ على اللّهِ إنَّك على الحقِّ المبينِ﴾.

مع أنَّ في قوله: ﴿إنَّك لعلى هدىً مستقيم﴾: إرشاداً لأجوبة المعترضين على جزئيَّات الشرع بالعقل الصحيح؛ فإنَّ الهدى وصفٌ لكلِّ ما جاء به الرسول، والهدى ما تحصُلُ به الهدايةُ في مسائل الأصول والفروع، وهي المسائل التي يُعْرَفُ حسنُها وعدلُها وحكمتُها بالعقل والفطرة السليمة، وهٰذا يُعْرَفُ بتدبُّر تفاصيل المأمورات والمنهيَّاتِ.

﴿٦٨ ـ ٦٩﴾ ولهٰذا أمره اللّه بالعدول عن جدالهم في هٰذه الحالة، فقال: ﴿وإن جادَلوكَ فقُل اللّهُ أعلم بما تعملونَ﴾؛ أي: هو عالمٌ بمقاصدِكم ونيَّاتكم؛ فمجازيكم عليها في يوم القيامة الذي يحكم الله بينكم ﴿فيما كنتُم فيه تختلفونَ﴾: فمن وافَقَ الصراط المستقيم؛ فهو من أهل النعيم، ومن زاغَ عنه؛ فهو من أهل الجحيم.

﴿٧٠﴾ ومن تمام حكمِهِ أن يكون حُكماً بعلم؛ فلذٰلك ذَكَرَ إحاطة علمه وإحاطة كتابه، فقال: ﴿ألم تَعْلَمْ أنَّ اللّه يعلمُ ما في السماء والأرض﴾: لا يخفى عليه منها خافيةٌ من ظواهر الأمور وبواطنها؛ خفيِّها وجليِّها، متقدِّمها ومتأخِّرها؛ [إن] ذٰلك العلم المحيطَ بما في السماء والأرض، قد أثبتَه اللّه في كتابٍ، وهو: اللوحُ المحفوظُ، حين خَلَقَ اللّه القلم؛ «قال له: اكتبْ! قال: ما أكتبُ؟ قال: اكتبْ ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة»[1]. ﴿إنَّ ذٰلك على اللّهِ يَسيرٌ﴾: وإنْ كان تصوُّره عندكم لا يُحاط به؛ فاللّه تعالى يسيرٌ عليه أن يحيطَ علماً بجميع الأشياء، وأنْ يكتُبَ ذٰلك في كتابٍ مطابق للواقع.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿٧١﴾ يذكر تعالى حالَةَ المشركين به العادِلِينَ به غيرَه، وأنَّ حالهم أقبحُ الحالات، وأنَّه لا مستندَ لهم على ما فعلوه؛ فليس لهم به علمٌ، وإنَّما هو تقليدٌ تلقَّوْه عن آبائهم الضالين، وقد يكون الإنسانُ لا علم عندَه بما فعله، وهو في نفس الأمر له حجَّة ما علمها، فأخبر هنا أن اللّه لم يُنَزِّلْ في ذٰلك ﴿سُلطاناً﴾؛ أي: حجة تدلُّ عليه وتجوِّزه، بل قد أنزل البراهين القاطعة على فسادِهِ وبطلانِهِ، ثم توعَّد الظالمين منهم المعاندين للحق، فقال: ﴿وما للظَّالمين من نصيرٍ﴾: ينصُرُهم من عذاب اللّه إذا نَزَلَ بهم، وحلَّ.

﴿٧٢﴾ وهل هٰؤلاء الذين لا علم لهم بما هم عليه قصدٌ في اتِّباع الآيات والهدى إذا جاءهم أم هم راضون بما هم عليه من الباطل، ذكر ذٰلك بقوله: ﴿وإذا تُتْلى عليهم آياتُنا﴾: التي هي آيات اللّه الجليلة المستلزمة لبيان الحقِّ من الباطل؛ لم يلتفتوا إليها، ولم يرفعوا بها رأساً، بل ﴿تعرفُ في وجوه الذين كفروا المنكَرَ﴾: من بُغْضِها وكراهتِها؛ ترى وجوهَهم معبسةً وأبشارهم مكفهرةً. ﴿يكادونَ يَسْطُونَ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧)، وأبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٣)، و«السنة» لابن أبي عاصم (١/ ٤٨).

بالذين يتلونَ عليهم آياتِنا﴾؛ أي: يكادون يوقِعون بهم القتلَ والضربَ البليغ من شدَّة بغضِهم وبغضِ الحقِّ وعداوته؛ فهٰذه الحالة من الكفار بئس الحالةُ وشرُّها بئس الشرُّ، ولكن ثَمَّ ما هو شرٌّ منها: حالتُهم التي يؤولون إليها؛ فلهٰذا قال: ﴿قل أفأنبِّئُكم بشرٍّ من ذٰلكم النارُ وَعَدَها اللّهُ الذين كفروا وبئس المصيرُ﴾: فهٰذه شرُّها طويلٌ عريضٌ، ومكروهُها وآلامُها تزدادُ على الدوام.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿٧٣ ـ ٧٤﴾ هٰذا مثلٌ ضَرَبَه اللّه لقبح عبادة الأوثان وبيانِ نُقصان عقول مَن عَبَدها وضَعْفِ الجميع، فقال: ﴿يا أيها الناسُ﴾: هٰذا خطابٌ للمؤمنين والكفَّار؛ المؤمنون يزدادون علماً وبصيرةً، والكافرون تقوم عليهم الحجَّة. ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فاستَمِعوا له﴾؛ أي: ألقوا إليه أسماعَكم، وافهَموا[1] ما احتوى عليه، ولا يصادِفْ منكم قلوباً لاهيةً وأسماعاً معرضةً، بل ألْقوا إليه القلوبَ والأسماعَ، وهو هٰذا: ﴿إنَّ الذين تَدْعونَ من دونِ اللّهِ﴾: شَمِلَ كلَّ ما يُدْعى من دونِ اللّه، ﴿لَن يَخْلُقوا ذباباً﴾: الذي هو من أحقر المخلوقات وأخسُّها؛ فليس في قدرتهم خَلْقُ هٰذا المخلوق الضعيف؛ فما فوقَه من باب أولى، ﴿ولو اجْتَمَعوا له﴾: بل أبلغُ من ذٰلك: لو ﴿يَسْلُبْهُمُ الذبابُ شيئاً لا يستَنْقِذوه منه﴾: وهٰذا غايةُ ما يصير من العجز. ﴿ضَعُفَ الطالبُ﴾: الذي هو المعبودُ من دون اللّه، ﴿والمطلوبُ﴾: الذي هو الذباب؛ فكل منهما ضعيفٌ، وأضعفُ منهما من يتعلَّق بهٰذا الضعيف وينزِله منزلةَ ربِّ العالمين؛ فهٰذا ما قَدَر اللّه حقَّ قدرِهِ، حيث سوَّى الفقيرَ العاجزَ من جميع الوجوه بالغنيِّ القويِّ من جميع الوجوه، سوَّى مَنْ لا يملِكُ لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً بمن هو النافعُ الضارُّ المعطي المانعُ مالكُ الملكِ والمتصرِّفُ فيه بجميع أنواع التصريف.

﴿إنَّ اللّه لَقَوِيٌّ عزيزٌ﴾؛ أي: كامل القوة، كاملِ العزَّة، من كمال قوَّتِهِ وعزَّتِهِ: أنَّ نواصي الخلق بيديه، وأنَّه لا يتحرَّك متحرِّكٌ ولا يسكُنُ ساكنٌ إلَّا بإرادتِهِ

---

(١) في (ب): «وتفهموا».

ومشيئتِهِ؛ فما شاء اللّه كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن كمال قوَّتِهِ: أنه يمسِكُ السماواتِ والأرضَ أن تزولا، ومن كمال قوَّته: أنه يبعثُ الخلق كلَّهم، أوَّلهم وآخرهم بصيحةٍ واحدةٍ، ومن كمال قوَّته أنَّه أهلك الجبابرة والأمم العاتية بشيء يسيرٍ وسوطٍ من عذابه.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿٧٥ ـ ٧٦﴾ لما بيَّن تعالى كمالَه وضعفَ الأصنام وأنَّه المعبود حقًّا؛ بيَّن حالة الرسل وتميُّزهم عن الخلق بما تميَّزوا به من الفضائل، فقال: ﴿**اللّه يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس**﴾؛ أي: يختار ويجتبي من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً؛ يكونون أزكى ذٰلك النوع وأجمعَهُ لصفاتِ المجدِ وأحقَّه بالاصطفاء؛ فالرسلُ لا يكونون إلَّا صفوةَ الخلق على الإطلاق، والذي اختارهم واجتباهم ليس جاهلاً بحقائق الأشياء، أو يعلم شيئاً دون شيءٍ، وإنَّ[1] المصطفي لهم السميعُ البصيرُ، الذي قد أحاط علمُهُ وسمعُهُ وبصرُهُ بجميع الأشياء؛ فاختياره إيَّاهم عن علم منه أنَّهم أهلٌ لذٰلك، وأنَّ الوحي يصلُحُ فيهم؛ كما قال تعالى: ﴿اللّهُ أعلمُ حيث يجعلُ رسالتَه﴾. ﴿**وإلى اللّه تُرْجَعُ الأمور**﴾؛ أي: هو يرسل الرسل يدعون الناس إلى اللّه؛ فمنهم المجيبُ، ومنهم الرادُّ لدعوتهم، ومنهم العاملُ، ومنهم الناكلُ؛ فهٰذا وظيفةُ الرسل، وأمَّا الجزاءُ على تلك الأعمال؛ فمصيرُها إلى اللّه؛ فلا تعدم منه فضلاً وعدلاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿٧٧﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالصَّلاة، وخصَّ منها الرُّكوع والسُّجود

(١) في (ب): «وإنما».

لفضلهما وركنيَّتِهما وعبادته التي هي قرَّة العيون وسلوةُ القلب المحزون، وإنَّ ربوبيَّته وإحسانَه على العباد يقتضي منهم أن يُخْلِصوا له العبادةَ، ويأمرهم بفعل الخيرِ عموماً، وعلَّق تعالى الفلاح على هٰذه الأمور، فقال: ﴿لعلَّكم تفلحون﴾؛ أي: تفوزون بالمطلوب المرغوب، وتَنْجون من المكروه المرهوب؛ فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الخالق والسعي في نفع عبيده؛ فمن وُفِّق لذٰلك؛ فله القَدَحُ المعَلاَّ من السعادة والنجاح والفلاح.

﴿٧٨﴾ ﴿وجاهدوا في اللّه حقَّ جهاده﴾: والجهاد بذلُ الوسع في حصول الغرض المطلوب؛ فالجهادُ في اللّه حقَّ جهادِهِ هو القيامُ التامُّ بأمر اللّه، ودعوةُ الخلق إلى سبيله بكلِّ طريق موصل إلى ذٰلك؛ من نصيحةٍ وتعليم وقتال وأدبٍ وزجرٍ ووعظٍ وغير ذٰلك. ﴿هو اجتباكُم﴾؛ أي: اختاركم يا معشر المسلمين من بين الناس، واختار لكم الدين، ورضِيَه لكم، واختار لكم أفضلَ الكتب وأفضلَ الرسل؛ فقابِلوا هٰذه المنحة العظيمة بالقيام بالجهاد فيه حقَّ القيام. ولما كان قولُهُ. ﴿وجاهدوا في اللّه حقَّ جهادِهِ﴾؛ ربما تَوَهَّمَ متوهِّمٌ أنَّ هٰذا من باب تكليف ما لا يُطاق أو تكليف ما يشقُّ؛ احترزَ منه بقوله: ﴿وما جَعَلَ عليكم في الدِّينِ من حَرَجٍ﴾؛ أي: مشقَّةٍ وعسرٍ، بل يسَّره غاية التيسير، وسهَّله بغاية السهولة؛ فأولاً: ما أمرَ وألزمَ إلَّا بما هو سهلٌ على النفوس لا يُثْقِلها ولا يَؤودُها، ثم إذا عَرَضَ بعضُ الأسباب الموجبة للتَّخفيف؛ خفَّف ما أمر به: إما بإسقاطِهِ، أو إسقاطِ بعضِهِ.

ويؤخذ من هٰذه الآية قاعدةٌ شرعيةٌ، وهي أن «**المشقَّة تجلب التَّيسير**» و«**الضرورات تبيح المَحْظورات**»، فيدخُلُ في ذٰلك من الأحكام الفروعيَّة شيء كثيرٌ معروفٌ في كتب الأحكام.

﴿ملةَ أبيكم إبراهيم﴾؛ أي: هٰذه الملة المذكورة والأوامر المزبورة ملَّةُ أبيكم إبراهيم، التي ما زال عليها؛ فالزموها واستمسكوا بها. ﴿هو سمَّاكُم المسلمينَ من قبلُ﴾؛ أي: في الكتب السابقة مذكورونَ ومشهورونَ، ﴿وفي هٰذا﴾؛ أي: هٰذا الكتاب وهٰذا الشرع؛ أي: ما زال هٰذا الاسم لكم قديماً وحديثاً؛ ﴿ليكونَ الرسولُ شهيداً عليكم﴾: بأعمالكم خيرِها وشرِّها، ﴿وتكونوا شهداءَ على الناس﴾: لكونِكُم خيرَ أمَّةٍ أخرِجَت للناس، أمَّة وسطاً عدلاً خياراً، تشهدونَ للرسل أنَّهم بَلَّغوا أمَمَهم، وتشهدون على الأمم أنَّ رُسُلَهم بلَّغَتْهم بما أخبركم اللّه به في كتابه.

﴿فأقيموا الصلاةَ﴾: بأركانِها وشروطِها وحدودِها وجميع لوازمها، ﴿وآتوا

الزَّكاة﴾: المفروضة لمستحقِّيها؛ شكراً لله على ما أولاكم. ﴿واعتصموا بالله﴾؛ أي: امتنعوا به، وتوكَّلوا عليه[(١)] في ذلك، ولا تتَّكِلوا على حولكم وقوَّتِكم. ﴿هُوَ مولاكم﴾: الذي يتولَّى أمورَكم، فيدبِّرُكم بحسن تدبيرِهِ، ويصرِّفُكم على أحسن تقديره. ﴿فنعم المولى ونعم النصيرُ﴾؛ أي: نعم المولى لمن تولَّاه فحصَلَ له مطلوبُهُ، ونعم النصيرُ لمن استنصرَهُ فدفع عنه المكروه.

تم تفسير [سورة] الحج. والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة المؤمنين

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

هذا تنويه من الله بذكرِ عبادِهِ المؤمنين، وذِكرِ فلاحِهم وسعادتِهم، وبأيِّ شيءٍ وَصَلوا إلى ذلك، وفي ضمن ذلك الحثُّ على الاتصاف بصفاتهم والترغيب فيها؛ فليزِنِ العبدُ نفسه وغيره على هذه الآيات؛ يعرفْ بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان زيادةً ونقصاً، كثرةً وقلةً.

﴿١﴾ فقوله: ﴿قد أفلح المؤمنونَ﴾؛ أي: قد فازوا وسَعِدوا ونجحوا، وأدركوا كلَّ ما يرام، المؤمنون الذين آمنوا بالله، وصدَّقوا المرسلين.

﴿٢﴾ الذين من صفاتهم الكاملة أنهم ﴿في صلاتهم خاشِعونَ﴾: والخشوع في الصلاة هو حضورُ القلب بين يدي الله تعالى، مستحضراً لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاتُه، ويقلُّ التفاتُه، متأدِّباً بين يدي ربِّه، مستحضراً

---

(١) في (ب): «على». وفي (أ): طمس وكتب فوق السطر بخط مغاير «عليه».

جميع ما يقوله ويفعله في صلاتِهِ من أول صلاته إلى آخرها، فتنتفي بذلك الوساوس والأفكار الرديَّة، وهٰذا روح الصلاة والمقصود منها، وهو الذي يُكْتَبُ للعبد؛ فالصلاةُ التي لا خشوع فيها ولا حضورَ قلبٍ، وإنْ كانت مُجْزِيَةً مثاباً عليها؛ فإنَّ الثواب على حسب ما يَعْقِلُ القلب منها.

﴿٣﴾ ﴿والذين هم عن اللغو﴾: وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة، ﴿معرضون﴾: رغبةً عنه وتنزيهاً لأنفسهم وترفُّعاً عنه، وإذا مرُّوا باللغو مرُّوا كراماً، وإذا كانوا معرضين عن اللغو؛ فإعراضُهم عن المحرَّم من باب أولى وأحرى، وإذا مَلَكَ العبدُ لسانَه وخَزَنَه إلَّا في الخير؛ كان مالكاً لأمرِهِ؛ كما قال النبيُّ ﷺ لمعاذ بن جبل حين وصَّاه بوصايا؛ قال: «ألا أخبرك بملاك ذٰلك كله؟». قلت: بلى يا رسول اللّٰه! فأخذ بلسان نفسه وقال: «كفَّ عليك هٰذا»[1]. فالمؤمنون من صفاتهم الحميدة كفُّ ألسنتهم عن اللغو والمحرَّمات.

﴿٤﴾ ﴿والذين هم للزَّكاةِ فاعلون﴾؛ أي: مؤدُّون لزكاة أموالهم على اختلاف أجناس الأموال؛ مزكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوىء الأعمال التي تزكو النفوس بتركِها وتجنُّبِها؛ فأحسنوا في عبادة الخالق في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزَّكاة.

﴿٥﴾ ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾: عن الزِّنا، ومن تمام حفظها تجنُّب ما يدعو إلى ذٰلك؛ كالنظر واللمس ونحوهما، فحفظوا فروجهم من كلِّ أحدٍ.

﴿٦﴾ ﴿إلَّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانُهم﴾: من الإماء المملوكات؛ ﴿فإنَّهم غيرُ ملومين﴾: بقربهما؛ لأن الله تعالى أحلهما.

﴿٧﴾ ﴿فمنِ ابتغى وراء ذٰلك﴾: غير الزوجة والسُّرِّيَّة؛ ﴿فأولٰئك هم العادونَ﴾: الذين تعدَّوا ما أحلَّ اللّٰه إلى ما حرَّمه، المتجرِّئون على محارم اللّٰه. وعموم هٰذه الآية يدلُّ على تحريم [نكاح] المتعة؛ فإنَّها ليست زوجةً حقيقةً مقصوداً بقاؤها ولا مملوكةً، وتحريم نكاح المحلِّل لذٰلك. ويدل قوله: ﴿أو ما مَلَكَتْ أيمانُهم﴾: أنَّه يُشترط في حلِّ المملوكة أن تكونَ كلُّها في ملكه؛ فلو كان له بعضُها؛ لم تحلَّ؛ لأنَّها ليست ممَّا ملكت يمينُه، بل هي ملكٌ له ولغيره؛ فكما أنَّه لا يجوز أن يَشْتَرِكَ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣١)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وانظر «الإرواء» (٤١٣).

في المرأة الحرَّة زوجان؛ فلا يجوزُ أن يشترِكَ في الأمة المملوكة سيدان.

﴿٨﴾ ﴿والذين هم لأماناتِهم وعَهْدِهِم راعونَ﴾؛ أي: مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها. وهٰذا عامٌّ في جميع الأمانات التي هي حقٌّ للّه، والتي هي حقٌّ للعباد؛ قال تعالى: ﴿إنَّا عَرَضْنا الأمانة على السمٰواتِ والأرضِ والجبال فأبَيْنَ أنْ يحمِلْنها وأشفَقْنَ منها وحملها الإنسانُ﴾: فجميع ما أوجبه اللّه على عبدِهِ أمانةٌ على العبد حفظُها بالقيام التامِّ بها. وكذٰلك يدخُلُ في ذٰلك أمانات الآدميِّين؛ كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما؛ فعلى العبد مراعاة الأمرين وأداء الأمانتين؛ ﴿إنَّ اللّه يأمُرُكم أنْ تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلها﴾، وكذٰلك العهد يَشْمَلُ العهدَ الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود التي يعقدها العبدُ؛ فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرُمُ عليه التفريطُ فيها وإهمالها.

﴿٩﴾ ﴿والذين هم على صَلَواتهم يحافِظونَ﴾؛ أي: يداومون عليها في أوقاتها وحدودها وأشراطها وأركانها؛ فمدحهم بالخشوع بالصلاة وبالمحافظة عليها، لأنَّه لا يتمُّ أمرُهم إلَّا بالأمرين؛ فمن يداوِمُ على الصلاة من غير خُشوع أو على الخُشوع من دون محافظةٍ عليها؛ فإنَّه مذمومٌ ناقصٌ.

﴿١٠﴾ ﴿أولٰئك﴾: الموصوفون بتلك الصفات ﴿هم الوارثونَ﴾.

﴿١١﴾ ﴿الذين يَرِثونَ الفِرْدَوْسَ﴾: الذي هو أعلى الجنَّة ووسطُها وأفضلُها؛ لأنَّهم حَلُّوا من صفات الخير أعلاها وذروتها، أو المراد بذٰلك جميع الجنة؛ ليدخلَ بذٰلك عموم المؤمنين على درجاتهم في مراتبهم كلٌّ بحسب حاله. ﴿هم فيها خالدونَ﴾: لا يَظْعَنون عنها ولا يَبْغون عنها حِولاً؛ لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله وأتمِّه من غير مكدِّرٍ ولا منغصٍ.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

ذكر اللّه في هٰذه الآيات أطوار الآدميِّ وتنقُّلاته من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه:

﴿١٢﴾ فذكر ابتداء خلق أبي النوع البشري آدم عليه السلام، وأنه ﴿من سُلالةٍ

من طينٍ﴾؛ أي: قد سُلَّتْ وأُخِذَتْ من جميع الأرض، ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض: منهم الطيب والخبيث وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك.

﴿١٣﴾ ﴿ثم جعلناه﴾؛ أي: جنس الآدميين ﴿نطفة﴾: تخرُجُ من بين الصُّلب والترائب، فتستقر ﴿في قَرارٍ مكينٍ﴾: وهو الرحم، محفوظةً من الفساد والريح وغير ذلك.

﴿١٤﴾ ﴿ثم خلقنا النطفةَ﴾: التي قد استقرَّت قبل ﴿علقةً﴾؛ أي: دماً أحمر بعد مضيِّ أربعين يوماً من النطفة، ثم ﴿خلقنا العلقةَ﴾: بعد أربعين يوماً ﴿مضغةً﴾؛ أي: قطعة لحم صغيرةٍ بقدر ما يُمْضَغ من صغرها، ﴿فَخلَقنا المضغةَ﴾: اللينةَ ﴿عظاماً﴾: صلبةً قد تخلَّلت اللحم بحسب حاجة البدن إليها، ﴿فكَسَونا العظام لحماً﴾؛ أي: جعلنا اللحم كسوة للعظام؛ كما جعلنا العظام عماداً للحم، وذلك في الأربعين الثالثة، ﴿ثم أنشأناه خَلقاً آخر﴾: نفخ فيه الروح، فانتقل من كونه جماداً إلى أنْ صار حيواناً. ﴿فتبارك اللّه﴾؛ أي: تعالى وتعاظم وكثر خيره، ﴿أحسنُ الخالقينَ﴾: ﴿الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ وبدأ خَلْقَ الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالةٍ من ماءٍ مَهين. ثم سوَّاه ونَفَخَ فيه من روحِهِ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدةَ قليلاً ما تشكرون﴾؛ فخلقه كلُّه حسنٌ، والإنسان من أحسن مخلوقاته، بل هو أحسنها على الإطلاق؛ كما قال تعالى: ﴿لقد خَلَقْنا الإنسان في أحسن تقويم﴾، ولهذا كان خواصُّه أفضل المخلوقات وأكملها.

﴿١٥﴾ ﴿ثم إنكم بعد ذلك﴾: الخلق ونفخ الروح، ﴿لَمَيِّتون﴾: في أحد أطواركم وتنقُّلاتكم.

﴿١٦﴾ ﴿ثم إنَّكم يوم القيامةِ تُبْعَثونَ﴾: فتجازَوْن بأعمالكم حسنها وسيئها؛ قال تعالى: ﴿أيحسَبُ الإنسان أن يُتْرَكَ سدى. ألم يَكُ نطفةً من مَنِيٍّ يُمْنى. ثم كان علقةً فَخَلَقَ فسوَّى. فَجَعَلَ منه الزوجينِ الذَّكَرَ والأنثى. أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحيي الموتى﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى خلق الآدميِّ؛ ذكر مسكنه وتوفُّر النعم عليه من كل وجهٍ، فقال: ﴿ولقد خَلَقْنا فوقَكُم﴾: سقفاً للبلاد ومصلحةً للعباد، ﴿سبع طرائقَ﴾؛ أي: سبع سماواتٍ طباقاً، كلُّ طبقةٍ فوق الأخرى، قد زُيِّنَتْ بالنُّجوم والشمس والقمر، وأودِعَ فيها من مصالح الخلق ما أودع. ﴿وما كُنَّا عن الخلق غافلين﴾؛ فكما أن خَلْقَنا عامٌّ لكل مخلوق؛ فعلمنا أيضاً محيطٌ بما خَلَقْنا؛ فلا نغفل مخلوقاً ولا ننساه، ولا نَخْلُقُ خلقاً فنضيِّعه، ولا نغفل عن السماء فتقع على الأرض، ولا ننسى ذرَّةً في لجج البحار وجوانب الفلوات ولا دابَّة إلَّا سُقنا إليها رزقها، ﴿وما من دابَّةٍ في الأرض إلَّا على الله رِزْقُها ويعلم مُسْتَقَرَّها ومُسْتَوْدَعَها﴾: وكثيراً ما يقرِنُ تعالى بين خلقِهِ وعلمِهِ؛ كقوله: ﴿ألا يعلمُ من خَلَقَ وهو اللطيفُ الخبير﴾، ﴿بلى وهو الخلاقُ العليم﴾؛ لأنَّ خلق المخلوقات من أقوى الأدلَّة العقليَّة على علم خالقها وحكمته.

﴿١٨﴾ ﴿وأنزلنا من السماء ماءً﴾: يكون رزقاً لكم ولأنعامكم بقدر ما يكفيكم؛ فلا ينقصه [بحيث لا يكفي الأرض والأشجار، فلا يحصل منه المقصود. ولا يزيده زيادة لا تحتمل]، بحيثُ يتلف المساكن، ولا تعيش منه النباتات والأشجار، بل أنزله وقتَ الحاجة لنزوله، ثم صرفه عند التضرُّر من دوامه، ﴿فأسكنَّاه في الأرض﴾؛ أي: أنزلناه عليها، فسكن واستقرَّ وأخرج بقدرةِ منزلِهِ جميعَ الأزواج النباتيَّة، وأسكنه أيضاً معدًّا في خزائن الأرض؛ بحيث لم يذهبْ نازلاً حتى لا يوصل إليه ولا يُبلغَ قعره. ﴿وإنَّا على ذَهابٍ به لَقادِرونَ﴾: إمَّا بأن لا نُنْزِلَه، أو نُنْزِلُه فيذهب نازلاً لا يوصَل إليه، أو لا يوجد منه المقصود منه، وهٰذا تنبيهٌ منه لعباده أن يشكروه على نعمته ويقدِّروا عدمها؛ ماذا يحصُلُ به من الضَّرر؛ كقوله تعالى: ﴿قل أرأيتُم إنْ أصبحَ ماؤكم غَوْراً فمن يأتيكم بماءٍ معين﴾.

﴿١٩﴾ ﴿فأنشأنا لكم به﴾؛ أي: بذٰلك الماء، ﴿جناتٍ﴾؛ أي: بساتين ﴿من نخيل وأعنابٍ﴾: خصَّ تعالى هٰذين النوعين، مع أنه ينشر منه غيرهما من الأشجار؛ لفضلهما ومنافعهما التي فاقت بها الأشجار، ولهٰذا ذكر العامَّ في قوله: ﴿لكم﴾؛ أي: في تلك الجنات فواكه كثيرةٌ منها تأكُلونَ من تينٍ وأُترُجٍّ ورمانٍ وتفاح وغيرها.

﴿٢٠﴾ ﴿وشجرة تخرج من طور سَيناءَ﴾: وهي شجرة الزيتون؛ أي: جنسها، خُصَّت بالذكر لأنَّ مكانها خاصٌّ في أرض الشام، ولمنافعها التي ذُكِرَ بعضُها في

قوله: ﴿تَنبُتُ بالدُّهن وصِبغ للآكلين﴾؛ أي: فيها الزيت الذي هو دهنٌ، يُسْتَعْمَلُ استعمالُه من الاستصباح بهِ، واصطباغ للآكلين؛ أي: يجعل إداماً للآكلين وغير ذٰلك من المنافع.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢١﴾ أي: ومن نعمه عليكم أن سَخَّرَ لكم الأنعام؛ الإبل والبقر والغنم، فيها عبرةٌ للمعتبرين ومنافع للمنتفعين، ﴿نُسقيكُم ممَّا في بُطونها﴾: من لبنٍ يخرُجُ من بين فَرْثٍ ودمٍ خالص سائغ للشاربين، ﴿ولكم فيها منافعُ كثيرةٌ﴾: من أصوافها وأوبارها وأشعارِها، وجعل لكم من جلودِ الأنعام بيوتاً تستخفُّونها يوم ظَعْنِكُم ويومَ إقامتِكم، ﴿ومنها تأكُلون﴾: أفضل المآكل من لحم وشحم.

﴿٢٢﴾ ﴿وعليها وعلى الفُلْكِ تُحْمَلونَ﴾؛ أي: جعلها سفناً لكم في البرِّ، تحملون عليها أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيهِ إلَّا بشِقِّ الأنفس؛ كما جعل لكم السفنَ في البحر تحملكم وتحمل متاعكم قليلاً كان أو كثيراً؛ فالذي أنعم بهٰذه النعم وصنَّف أنواع الإحسان وأدرَّ علينا من خيره المدرار هو الذي يستحقُّ كمالَ الشُّكر وكمال الثناء والاجتهاد في عبوديَّته وأن لا يُستعان بنعمه على معاصيهِ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ(١) ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

---

(١) في (النسختين): إلى آخر القصة وهي قوله: ﴿إن في ذٰلك لآيات وإن كنا لمبتلين﴾.

﴿٢٣﴾ يذكر تعالى رسالة عبده ورسوله نوح عليه السلام أول رسول أرسله لأهل الأرض، فأرسله إلى قومه، وهم يعبدون الأصنام، فأمرهم بعبادة الله وحده، فقال: ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾؛ أي: أخلصوا له العبادة؛ لأنَّ العبادة لا تصحُّ إلا بإخلاصها. ﴿ما لكم من إلٰهٍ غيره﴾: فيه إبطال ألوهيَّة غير الله وإثباتُ الإلٰهيَّة لله تعالى؛ لأنَّه الخالق الرازق الذي له الكمالُ كلُّه، وغيرُه بخلاف ذٰلك. ﴿أفلا تتَّقون﴾: ما أنتم عليه من عبادة الأوثان والأصنام التي صُوِّرت على صور قوم صالحين، فعبدوها مع الله؟

﴿٢٤﴾ فاستمرَّ على ذٰلك يدعوهم سرًّا وجهاراً وليلاً ونهاراً ألف سنة إلَّا خمسين عاماً، وهم لا يزدادون إلَّا عتوًّا ونفوراً، ﴿فقال الملأ﴾: من قومه الأشرافُ والسادة المتبوعون على وجه المعارضة لنبيِّهم نوح والتحذير من اتِّباعه: ﴿ما هٰذا إلَّا بشرٌ مثلُكم يريد أن يَتَفَضَّلَ عليكم﴾؛ أي: ما هٰذا إلَّا بشرٌ مثلُكم، قصدُهُ حين ادَّعى النبوَّة أن يزيد عليكم فضيلة ليكون متبوعاً، وإلَّا؛ فما الذي يفضِّله عليكم وهو من جنسكم؟! وهٰذه المعارضة لا زالت[1] موجودة في مكذِّبي الرسل، وقد أجاب الله عنها بجوابٍ شافٍ على ألسنة رسله؛ كما في قوله: ﴿قالوا﴾؛ أي: لرسلهم. ﴿إنْ أنتُم إلَّا بشرٌ مثلُنا تريدونَ أنْ تصدُّونا عمَّا كان يعبدُ آباؤنا فأتونا بسلطانٍ مبينٍ. قالَت لهم رسلُهم إن نحنُ إلَّا بشرٌ مثلُكم ولٰكنَّ الله يَمُنُّ على مَن يشاء من عبادِهِ﴾: فأخبروا أنَّ هٰذا فضلُ الله ومنَّته، فليس لكم أن تحجُروا على الله، وتمنَعوه من إيصال فضلِهِ علينا.

وقالوا أيضاً: ﴿ولو شاء الله لأنزلَ ملائكةً﴾: وهٰذه أيضاً معارضةٌ بالمشيئة باطلةٌ؛ فإنَّه وإنْ كان لو شاء لأنزل ملائكة؛ فإنَّه حكيمٌ رحيمٌ، حكمتُه ورحمته تقتضي أن يكونَ الرسول من جنس الآدميِّين؛ لأنَّ الملائكة لا قدرة لهم على مخاطبتِهِ، ولا يمكن أن يكون إلَّا بصورة رجل، ثم يعود اللبسُ عليهم كما كان. وقولهم: ﴿ما سمعنا بهٰذا﴾؛ أي: بإرسال الرسول ﴿في آبائنا الأوَّلينَ﴾ وأيُّ حجَّة في عدم سماعِهم إرسالَ رسول في آبائهم الأولين؟! لأنَّهم لم يحيطوا علماً بما تقدَّم؛ فلا يجعلون جهلهم حجَّةً لهم! وعلى تقدير أنَّه لم يرسل منهم رسولاً: فإما أن يكونوا على الهدى؛ فلا حاجة لإرسال الرسول إذ ذاك، وإما أن يكونوا على

---

(١) في (ب): «ما زالت».

غيره؛ فليحمدوا ربَّهم ويشكروه أن خصَّهم بنعمةٍ لم تأتِ آباءهم ولا شعروا بها، ولا يجعلوا عدم الإحسان على غيرهم سبباً لكفرِهم للإحسان إليهم.

﴿٢٥﴾ ﴿إنْ هو إلَّا رجلٌ به جِنَّةٌ﴾؛ أي: مجنون، ﴿فتربَّصوا به﴾؛ أي: انتظروا به ﴿حتى حينٍ﴾: إلى أن يأتيه الموت.

وهٰذه الشبه [التي] أوردوها[1] معارضةً لنبوَّة نبيِّهم دالةٌ على شدَّة كفرهم وعنادهم وعلى أنَّهم في غاية الجهل والضَّلال؛ فإنَّها لا تَصْلُحُ للمعارضة بوجهٍ من الوجوه؛ كما ذكرنا، بلِ هي في نفسها متناقضةٌ متعارضة؛ فقوله: ﴿ما هٰذا إلَّا بشرٌ مثلُكُم يريدُ أن يتفضَّلَ عليكُم﴾؛ أثبتوا أنَّ له عقلاً يكيدُهم به ليعلُوَهم ويسودَهم، ويحتاجُ مع هٰذا أن يُحْذَرَ منه لئلَّا يُغترَّ به؛ فكيف يلتئم مع قولهم: ﴿إنْ هو إلَّا رجلٌ به جِنَّةٌ﴾؟! وهل هٰذا إلا من مشبِّهٍ ضالٍّ، منقلبٍ عليه الأمر، قصده الدفع بأيِّ طريق اتَّفق له، غير عالم بما يقول. ويأبى الله إلَّا أنْ يُظْهِرَ خِزْيَ مَن عاداه وعادى رسله.

﴿٢٦﴾ فلما رأى نوحٌ أنَّه لا يفيدُهم دعاؤه إلَّا فراراً؛ ﴿قال ربِّ انصُرْني بما كذَّبونِ﴾: فاستنصر ربَّه عليهم غضباً لله حيث ضيَّعوا أمره وكذَّبوا رسله. وقال: ﴿ربِّ لا تَذَرْ على الأرضِ من الكافرين دَيَّاراً. إنَّك إن تَذَرْهُم يُضِلُّوا عبادَكَ ولا يَلِدوا إلَّا فاجراً كفَّاراً﴾. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نادانا نوحٌ فَلَنِعْمَ المجيبونَ﴾.

﴿٢٧﴾ ﴿فأوحينا إليه﴾: عند استجابتنا له سبباً ووسيلةً للنجاة قبل وقوع أسبابِهِ: ﴿أنِ اصْنَع الفُلْكَ﴾؛ أي: السفينة ﴿بأعيننا ووحينا﴾؛ أي: بأمرِنا لك ومعونتنا، وأنت في حفظنا وكلاءتنا؛ بحيث نراك ونسمعك. ﴿فإذا جاء أمرنا﴾: بإرسال الطوفان الذي عُذِّبوا به، ﴿وفار التَّنُّورُ﴾؛ أي: فارت الأرض وتفجَّرت عيوناً حتى محلُّ النار الذي لم تجرِ العادة إلَّا ببعدِهِ عن الماء. ﴿فاسْلُكْ فيها من كلٍّ زوجينِ اثنينِ﴾؛ أي: أدخِل في الفلك من كلِّ جنس من الحيوانات ذكراً وأنثى تبقى[2] مادةَ النسل لسائر الحيوانات التي اقتضتِ الحكمةُ الربَّانيَّة إيجادها في الأرض. ﴿وأهلك﴾؛ أي: أدخلهم ﴿إلَّا مَن سبقَ عليه القولُ﴾: كابنه، ﴿ولا تخاطِبْني في الذين ظَلَموا﴾؛ أي: لا تَدْعُني أن أنجيهم؛ فإنَّ القضاء والقدَرَ قد حتم. ﴿إنَّهُم مغرقون﴾.

﴿٢٨﴾ ﴿فإذا استويتَ أنت ومن مَعَكَ على الفلك﴾؛ أي: علوتُم عليها

---

(١) في (ب): «أوردها».
(٢) كذا في (أ). وفي (ب): «لتبقى».

واستقلَّتْ بكم في تيارِ الأمواج ولُجج اليمِّ؛ فاحْمَدوا اللّه على النجاة والسلامة. وقل(١): ﴿الحمدُ للّه الذي نجّانا من القوم الظالمينَ﴾: وهٰذا تعليمٌ منه له ولمن معه أن يقولوا هٰذا شكراً له وحمداً على نَجاتِهم من القوم الظالمين في عملهم وعذابهم.

﴿٢٩﴾ ﴿وقل ربِّ أنزِلْني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلينَ﴾؛ أي: وبقيتْ عليكُم نعمةٌ أخرى؛ فادعوا اللّه فيها، وهي أن ييسِّرَ اللّهُ لكم منزلاً مباركاً، فاستجاب اللّه دعاءه؛ قال اللّه: ﴿وقُضِيَ الأمرُ واستوتْ على الجوديِّ وقيل بُعداً للقوم الظَّالمين...﴾ إلى أن قال: ﴿قيلَ يا نوحُ اهبِطْ بسلام منَّا وبركاتٍ عليك وعلى أمم ممَّن معكَ...﴾ الآية.

﴿٣٠﴾ ﴿إنَّ في ذٰلك﴾؛ أي: في هٰذه القصة ﴿لآياتٍ﴾: تدلُّ على أنَّ اللّه وحدَه المعبود، وعلى أنَّ رسوله نوحاً صادقٌ، وأنَّ قومه كاذبون، وعلى رحمة اللّه بعباده؛ حيث حملهم في صُلْبِ أبيهم نوح في الفلك لما غَرِقَ أهلُ الأرض، والفلك أيضاً من آيات اللّه؛ قال تعالى: ﴿ولقد تَرَكْناها آيةً فهل مِن مُدَّكِرٍ﴾. ولهٰذا جمعها هنا؛ لأنَّها تدلُّ على عدة آيات ومطالب. ﴿وإن كنا لَمُبْتَلينَ﴾.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٣١﴾ لما ذكر نوحاً وقومه وكيف أهلكهم؛ قال: ﴿ثم أنشأنا من بعدِهم قرناً آخرينَ﴾: الظاهر أنَّهم ثمودُ قومُ صالح عليه السلام؛ لأنَّ هٰذه القصة تشبه قصتهم.

﴿٣٢﴾ ﴿فأرسَلْنا فيهم رسولاً منهم﴾: من جنسِهِم يعرفون نسبه وحسَبه وصدقَه؛

(١) في (ب): «فقل».

ليكونَ ذٰلك أسرعَ لانقيادِهم إذا كان منهم وأبعد عن اشمئزازِهم، فدعا إلى ما دعتْ إليه الرسلُ أممهم: ﴿أنِ اعبدوا اللّه ما لكم من إلٰهٍ غيرُهُ﴾: فكلُّهم اتَّفقوا على هٰذه الدعوة، وهي أول دعوة يدعون بها أممهم؛ الأمر بعبادة اللّه، والإخبار أنَّه المستحقُّ لذٰلك، والنهي عن عبادة ما سواه، والإخبار ببطلان ذٰلك وفساده، ولهٰذا قال: ﴿أفلا تتَّقونَ﴾: ربَّكم فتَجْتَنِبوا هٰذه الأوثان والأصنام.

﴿٣٣﴾ فقال ﴿الملأ من قومِهِ الذين كَفَروا وكذَّبوا بلقاءِ الآخرة وأترَفْناهم في الحياة الدنيا﴾؛ أي: قال الرؤساءُ الذين جَمَعوا بين الكفرِ والمعاندةِ وإنكار البعثِ والجزاء، وأطغاهم ترفُهم في الحياة الدُّنيا؛ معارضةً لنبيِّهم وتكذيباً وتحذيراً منه. ﴿ما هٰذا إلَّا بشرٌ مثلُكم﴾؛ أي: من جنسكم، ﴿يأكُلُ ممَّا تأكُلونَ منه ويشربُ ممَّا تشرَبونَ﴾: فما الذي يُفَضِّلُه عليكم؟! فهلاَّ كان ملكاً لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب!

﴿٣٤﴾ ﴿ولئِنْ أطعتُم بشراً مثلَكم إنَّكم إذاً لخاسرونَ﴾؛ أي: إن تبعتُموه وجعلتُموه لكم رئيساً وهو مثلُكم؛ إنَّكم لمسلوبو العقل نادمون على ما فعلتم! وهٰذا من العجب؛ فإنَّ الخسارَ والندامةَ حقيقةٌ لمن لم يتابِعْه ولم يَنْقَدْ له، والجهلُ والسفهُ العظيم لِمَنْ تكبَّرَ عن الانقياد لبشرٍ خصَّه اللّه بوحيِهِ، وفضَّلَه برسالته وابتُلي بعبادة الشجر والحجر، وهٰذا نظيرُ قولهم: ﴿قالوا أبشراً منَّا واحداً نتَّبِعُهُ إنَّا إذاً لفي ضلال وسُعُرٍ. أأُلْقِيَ الذِّكْرُ عليهِ من بَيْنِنا بل هو كذابٌ أشِرٌ﴾.

﴿٣٥ ـ ٣٦﴾ فلما أنكروا رسالَتَه وَ رَدُّوها؛ أنكروا ما جاء به من البعثِ بعد الموت والمجازاة على الأعمال، فقالوا: ﴿أيَعِدُكُم أنَّكم إذا مِتُّم وكُنْتُم تُراباً وعظاماً أنَّكم مخرَجونَ. هيهاتَ هيهاتَ لما توعَدونَ﴾؛ أي: بعيدٌ بعيدٌ ما يعِدُكم به من البعث بعد أنْ تمزَّقتم وكنتم تراباً وعظاماً. فنظروا نظراً قاصراً، ورأوا هٰذا بالنسبة إلى قُدَرِهم غير ممكن، فقاسوا قدرة الخالق بقُدَرِهم، تعالى اللّه، فأنكروا قدرتَه على إحياء الموتى، وعجَّزوه غاية التَّعجيز، ونسوا خَلْقَهم أول مرة، وأنَّ الذي أنشأهم من العدم؛ فإعادته لهم بعد البلاء أهون عليه، وكلاهما هيِّن لديه؛ فلمَ لا يُنْكِرون أول خَلْقهم ويكابرون المحسوسات ويقولون: إنَّنا لم نزل موجودين، حتى يَسْلَمَ لهم إنكارُهم البعث ويُنْتَقَل معهم إلى الاحتجاج على إثبات وجود الخالق العظيم؟! وهنا دليلٌ آخر، وهو أن الذي أحيا الأرض بعد موتها؛ إنَّ ذٰلك لمحيي الموتى؛ إنَّه على كل شيء قدير. وثَمَّ دليلٌ آخر، وهو ما أجاب به المنكرينَ للبعث

في قوله: ﴿بل عَجِبوا أن جاءهم مُنْذِرٌ منهم فقال الكافرونَ هٰذا شيءٌ عجيبٌ. أإذا مِتْنا وكُنَّا تُرابا ذٰلك رَجْعٌ بعيدٌ﴾. فقال في جوابهم: ﴿قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الأرضُ منهم﴾؛ أي: في البِلى ﴿وعندنا كتابٌ حفيظٌ﴾.

﴿٣٧﴾ ﴿إنْ هي إلَّا حياتُنا الدُّنيا نموتُ ونحيا﴾؛ أي: يموت أناس ويحيا أناس، ﴿وما نحن بمبعوثينَ﴾.

﴿٣٨﴾ ﴿إنْ هو إلا رجلٌ به جِنَّة﴾[1]: فلهٰذا أتى بما أتى به من توحيد اللّه وإثبات المعادِ! ﴿فتربَّصوا به حتى حين﴾؛ أي: ارفعوا عنه العقوبةَ بالقتل وغيره احتراماً له ولأنَّه مجنونٌ غيرُ مؤاخذ بما يتكلَّم به؛ أي: فلم يبقَ بزعمِهِم الباطل مجادلةٌ معه لصحَّة ما جاء به؛ فإنَّهم قد زعموا بُطلانه، وإنَّما بقي الكلام هل يوقِعون به أم لا؛ فبزعمهم أنَّ عقولَهم الرزينةَ اقتضتِ الإبقاءَ عليه وتركَ الإيقاع به مع قيام الموجب!! فهل فوق هٰذا العناد والكفر غاية؟!

﴿٣٩﴾ ولهٰذا لما اشتدَّ كفرُهم ولم ينفعْ فيهم الإنذارُ؛ دعا عليهم نبيُّهم، فقال: ﴿ربِّ انصُرْني بما كذَّبونِ﴾؛ أي: بإهلاكهم وخزيهم الدنيويِّ قبل الآخرة.

﴿٤٠ ـ ٤١﴾ قال اللّه مجيباً لدعوته: ﴿عمَّا قليل لَيُصْبِحُنَّ نادمينَ. فأخذتْهُمُ الصيحةُ بالحقِّ﴾: لا بالظلم والجَوْر، بل بالعدل وظلمهم أخذتْهُمُ الصيحةُ فأهلكَتْهم عن آخرهم. ﴿فجعلناهم غُثاء﴾؛ أي: هشيماً يَبَساً بمنزلة غُثاء السيل الملقى في جَنَبات الوادي، وقال في الآية الأخرى: ﴿إنَّا أرْسَلْنا عليهم صيحةً واحدةً فكانوا كَهَشيم المُحْتَظِر﴾. ﴿فَبُعْداً للقوم الظالمين﴾؛ أي: أُتبِعوا مع عذابهم البعدَ واللعنةَ والذمَّ من العالمين؛ ﴿فما بَكَتْ عليهمُ السماءُ والأرضُ وما كانوا مُنْظَرين﴾.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٢ ـ ٤٣﴾ أي: ثم أنشأنا من بعد هٰؤلاء المكذِّبين المعانِدين ﴿قروناً آخرين﴾:

---

(١) سها المؤلف ـ رحمه اللّه ـ وقام بتفسير الآية (٢٥) من نفس السورة؛ وصواب الآية: ﴿إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين﴾.

كلُّ أمةٍ في وقت مسمًّى وأجل محدود، لا تتقدَّم عنه ولا تتأخَّر، وأرسَلْنا إليهم رُسُلاً متتابعةً لعلَّهم يؤمنون وينيبون، فلم يزلِ الكفرُ والتكذيب دأبَ الأمم العُصاة والكَفَرة البغاة، ﴿كلَّ ما جاء أمَّةً رسولُها كذَّبوه﴾: مع أنَّ كلَّ رسول يأتي من الآيات ما يؤمن على مثلِهِ البشر، بل مجرَّد دعوةِ الرسل وشرعِهم يدلُّ على حَقِّيَّة ما جاؤوا به.

﴿٤٤﴾ ﴿فأتْبَعْنا بعضَهم بعضاً﴾: بالهلاك، فلم يبقَ منهم باقيةٌ، وتعطَّلت مساكنُهم من بعدِهم، ﴿وجَعَلْناهم أحاديثَ﴾: يتحدَّثُ بهم مَن بعدهم، ويكونون عبرةً للمتَّقين ونَكالاً للمكذِّبين وخزياً عليهم مقروناً بعذابهم. ﴿فبعداً لقومٍ لا يؤمنونَ﴾: ما أشقاهم! وَتعْساً لهم! ما أخسر صفقتهم!

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

مر عليَّ منذ زمانٍ طويل كلامٌ لبعض العلماء، لا يحضُرني الآنَ اسمُه، وهو أنَّه بعد [بعث] موسى ونزول التوراةِ، رَفَعَ اللّٰهُ العذاب عن الأمم؛ أي: عذاب الاستئصال، وشرع للمكذِّبين المعانِدين بالجهاد، ولم أدرِ من أين أخَذَه، فلمَّا تَدَبَّرْتُ هٰذه الآيات مع الآيات التي في سورة القصص؛ تبيَّنَ لي وجْهُه: أمَّا هٰذه الآيات؛ فلأنَّ اللّٰه ذَكَرَ الأمم المُهْلَكة المتتابعة على الهلاك، ثم أخبر أنَّه أرسل موسى بعدَهم وأنزل عليه التوراةَ فيها الهداية للناس، ولا يَرِدُ على هٰذا إهلاكُ فرعون؛ فإنَّه قبل نزول التوراة.

وأما الآيات التي في سورة القصص؛ فهي صريحةٌ جدًّا؛ فإنَّه لما ذَكَرَ هلاك فرعون؛ قال: ﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ من بعدِ ما أهلَكْنا القرونَ الأولى بصائرَ للناس وهدىً ورحمةً لعلَّهم يتذكرون﴾: فهٰذا صريحٌ أنَّه آتاه الكتابَ بعد هلاك الأمم الباغية، وأخبر أنَّه أنزلَه بصائر للناس وهدىً ورحمةً.

ولعل من هٰذا ما ذَكَرَ اللّٰهُ في سورة يونس من قوله: ﴿ثمَّ بَعَثْنا من بعدِهِ﴾؛ أي: من بعد نوح، ﴿رُسُلاً إلى قومهم فجاؤوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كَذَّبوا به من قَبْلُ كذٰلك نَطْبَعُ على قلوبِ المعتدين. ثم بَعَثْنا من بَعْدِهم موسى وهارون...﴾ الآيات. واللّٰه أعلم.

﴿٤٥﴾ فقوله: ﴿ثم أرسلْنا موسى﴾: ابن عمرانَ كليمَ الرحمٰن، ﴿وأخاه هارونَ﴾: حين سأل ربَّه أن يُشرِكَه في أمره فأجاب سُؤْلَه، ﴿بآياتنا﴾: الدالَّة على صدقهما وصحَّة ما جاءا به، ﴿وسلطانٍ مُبينٍ﴾؛ أي: حجَّة بيِّنة من قوتها أن تَقْهَرَ القلوب وتتسلَّط عليها لقوَّتها فتنقادَ لها قلوبُ المؤمنين وتقومَ الحجَّة البيِّنة على المعاندين. وهٰذا كقوله: ﴿ولقد آتَيْنا موسى تسعَ آياتٍ بيِّناتٍ﴾: ولهٰذا رئيسُ المعاندين عَرَفَ الحقَّ وعاند. ﴿فاسأل بني إسرائيلَ إذْ جاءَهم﴾: بتلك الآياتِ البيِّناتِ، فقال له [فرعون][1]: ﴿إنِّي لأظنُّك يا موسى مسحوراً﴾. فقال موسى: ﴿لقدْ علمتَ ما أنزلَ هٰؤلاء إلا ربُّ السمٰواتِ والأرض بصائرَ وإنِّي لأظنُّك يا فرعونُ مَثْبوراً﴾. وقال تعالى: ﴿وجَحَدوا بها واسْتَيْقَنَتْها أنفسُهم ظُلماً وعلوًّا﴾.

﴿٤٦﴾ وقال هنا: ﴿ثم أرسَلْنا موسى وأخاه هارونَ بآياتِنا وسلطانٍ مُبينٍ. إلى فرعونَ وملئِهِ﴾: كهامان وغيره من رؤسائهم، ﴿فاستَكْبَروا﴾؛ أي: تكبَّروا عن الإيمان باللّه واستكبروا على أنبيائِهِ، ﴿وكانوا قوماً عالينَ﴾؛ أي: وصفهم العلوُّ والقهرُ والفسادُ في الأرض، فلهٰذا صدر منهم الاستكبار، ذٰلك غيرُ مستكثَرٍ منهم.

﴿٤٧﴾ ﴿فقالوا﴾ كِبْراً وتيهاً وتحذيراً لضُعفاء العقول وتمويهاً: ﴿أنؤمنُ لِبَشَرَيْنِ مثلِنا﴾: كما قاله مَنْ قبلَهم سواءً بسواءٍ؛ تشابهتْ قلوبُهم في الكفر، فتشابهت أقوالُهم وأفعالُهم، وجحدوا منَّةَ اللّه عليهما بالرسالة. ﴿وقومُهُما﴾؛ أي: بنو إسرائيل. ﴿لنا عابدونَ﴾؛ أي: معبَّدونَ بالأعمال والأشغال الشاقَّة؛ كما قال تعالى: ﴿وإذْ نَجَّيْناكم من آلِ فرعونَ يسومونَكم سوءَ العذابِ يذبِّحون أبناءَكم ويستَحْيون نساءَكم وفي ذٰلِكُم بلاءٌ من ربِّكم عظيمٌ﴾: فكيف نكون تابعين بعد أن كُنَّا متبوعينَ؟! وكيف يكون هٰؤلاءِ رؤساءَ علينا؟! ونظيرُ قولِهم قولُ قوم نوح: ﴿أنؤمنُ لك واتَّبَعَكَ الأرذَلونَ﴾، ﴿وما نراك اتَّبَعَكَ إلَّا الذين هم أراذلُنا باديَ الرأي﴾.

﴿٤٨﴾ من المعلوم أن هٰذا لا يَصْلُحُ لدفع الحقِّ، وأنه تكذيبٌ ومعاندةٌ، ولهٰذا قال: ﴿فكذَّبوهما فكانوا من المُهْلَكينَ﴾: في الغرقِ في البحر وبنو إسرائيل ينظُرون.

﴿٤٩﴾ ﴿ولقد آتينا موسى﴾: بعدما أهلكَ اللّه فرعونَ وخلَّص الشعبَ الإسرائيليَّ مع موسى وتمكَّن حينئذٍ من إقامة أمرِ اللّه فيهم وإظهارِ شعائرِهِ؛

---

(١) في (أ): «موسى»، والصواب ما أثبت من (ب).

وعدَه اللّهُ أن ينزِّل عليه التوراةَ أربعين ليلةً، فذهب لميقاتِ ربِّه؛ قال اللّه تعالى: ﴿وكَتَبْنا له في الألواح من كلِّ شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكلِّ شيءٍ﴾. ولهٰذا قال هنا: ﴿لعلَّهم يهتدونَ﴾؛ أي: بمعرفة تفاصيل الأمر والنهي والثوابِ والعقابِ ويعرفونَ ربَّهم بأسمائِهِ وصفاتِهِ.

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٥٠﴾ أي: وامتَنَنَّا على عيسى ابن مريم وجَعَلْناه وأمَّه من آيات اللّه العجيبة؛ حيث حملتْه وولدتْه من غيرِ أبٍ، وتكلَّم في المهد صبيًّا، وأجرى اللّه على يديه من الآيات ما أجرى. ﴿وآوَيْناهما إلى ربوةٍ﴾؛ أي: مكان مرتفع، وهٰذا واللّه أعلم وقتَ وضعِها، ﴿ذاتِ قرارٍ﴾؛ أي: مستقرٌّ وراحةٍ، ﴿ومَعين﴾؛ أي: ماء جارٍ؛ بدليلِ قوله: ﴿قد جعل ربُّكِ تحتَكِ﴾؛ أي: تحت المكان الذي أنت فيه لارتفاعه ﴿سَرِيًّا﴾؛ أي: نهراً، وهو المَعِين. ﴿وهُزِّي إليكِ بجذْعِ النخلةِ تُساقِطْ عليك رُطَباً جَنِيًّا. فكُلي واشْرَبي وقَرِّي عيناً﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٥١﴾ هٰذا أمرٌ منه تعالى لرسلِهِ بأكل الطيِّبات التي هي: الرزق والطيِّبُ الحلال، والشكر للّه[1] بالعمل الصالح الذي به يَصْلُحُ القلب والبدن والدنيا والآخرة، ويخبِرُهم أنَّه بما يعملون عليم؛ فكلُّ عمل عملوه وكلُّ سعي اكتسبوه؛ فإنَّ اللّه يعلمه، وسيجازيهم عليه أتمَّ الجزاء وأفضلَه، فدلَّ هٰذا على أنَّ الرسل كلَّهم متفقون على إباحة الطيبات من المآكل وتحريم الخبائثِ منها، وأنَّهم متَّفقون على كلِّ عمل صالح، وإنْ تنوَّعت بعضُ أجناس المأموراتِ واختلفتْ بها الشرائعُ؛ فإنَّها كلَّها عملٌ صالح، ولكنْ تتفاوت بتفاوتِ الأزمنة. ولهٰذا؛ الأعمال الصالحة التي هي صلاحٌ في جميع الأزمنة قد اتَّفقت عليها الأنبياء والشرائع؛ كالأمر بتوحيد اللّه وإخلاص الدِّين له ومحبَّته وخوفِهِ ورجائِهِ والبرِّ والصدقِ والوفاءِ بالعهد

---

(١) في (ب): «الرزق الطيب الحلال وشكر اللّه».

وصلةِ الأرحام وبرِّ الوالدين والإحسان إلى الضعفاء والمساكين واليتامى والحنوِّ والإحسان إلى الخلق ونحو ذٰلك من الأعمال الصالحة، ولهٰذا كان أهل العلم والكُتُب السابقة والعقل حين بَعَثَ اللّه محمداً ﷺ يستدلُّون على نبوَّته بأجناس ما يأمر به وينهى عنه؛ كما جرى لِهِرَقْل وغيره؛ فإنَّه إذا أمر بما أمر به الأنبياءُ الذين من قبلِهِ ونهى عما نَهَوْا عنه؛ دلَّ على أنَّه من جنسهم؛ بخلاف الكذَّاب؛ فلا بدَّ أن يأمرَ بالشرِّ وينهى عن الخير.

﴿٥٢﴾ ولهٰذا قال تعالى للرسل: ﴿وإنَّ هٰذه أمَّتُكم أمَّةً﴾؛ أي: جماعتُكم يا معشرَ الرسل ﴿واحدةً﴾: متفقةً على دينٍ واحدٍ وربُّكم واحدٌ. ﴿فاتَّقونِ﴾: بامتثال أوامري واجتناب زواجري. وقد أمر اللّه المؤمنين بما أمر به المرسلين؛ لأنَّهم بهم يَقْتَدون وخلفَهم يسلُكون، فقال: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا كُلوا من طيِّبات ما رَزَقْناكم واشكُروا للّهِ إنْ كنتُم إيَّاه تعبُدونَ﴾: فالواجب على[1] كل المنتسبين إلى الأنبياء وغيرهم أن يَمْتَثِلوا هٰذا ويعملوا به.

﴿٥٣﴾ ولٰكنْ أبى الظالمون المُفْتَرِقون[2] إلَّا عصياناً، ولهٰذا قال: ﴿فتقطَّعوا أمرَهم بينَهم زُبُراً﴾؛ أي: تقطَّع المنتسبون إلى أتباع الأنبياء ﴿أمْرَهم﴾؛ أي: دينهم ﴿بينَهم زُبُراً﴾؛ أي: قطعاً. ﴿كلُّ حزبٍ بما لديهم﴾؛ أي: بما عندهم من العلم والدين ﴿فرِحون﴾: يزعمون أنَّهم المحقُّون، وغيرُهم على غير الحقِّ، مع أنَّ المحقَّ منهم مَنْ كان على طريق الرُّسل من أكل الطيبات والعمل الصالح، وما عداهم فإنَّهم مبطِلون.

﴿٥٤﴾ ﴿فَذَرْهُم في غمرتهم﴾؛ أي: في وسط جهلهم بالحقِّ ودعواهم أنَّهم هم المحقون ﴿حتى حينٍ﴾؛ أي: إلى أن ينزلَ العذابُ بهم؛ فإنَّهم لا ينفعُ فيهم وعظٌ، ولا يفيدُهم زجرٌ؛ فكيفَ[3] يفيدُ بمن يزعُمُ أنَّه على الحقِّ ويطمع في دعوة غيرِهِ إلى ما هو عليه؟

﴿٥٥ ـ ٥٦﴾ ﴿أيحسبونَ أنَّما نُمِدُّهُم به من مالٍ وبنينَ. نسارعُ لهم في الخيرات﴾؛ أي: أيظنُّونَ أنَّ زيادتنا إيَّاهم بالأموال والأولاد دليلٌ على أنَّهم من أهل الخير والسعادة، وأنَّ لهم خيرَ الدُّنيا والآخرة، وهٰذا مقدَّم لهم؟! ليس الأمر

---

(١) في (ب): «من».

(٢) أي: المغلوبون في الخصومة.

(٣) في (ب): «وكيف».

كذلك؛ ﴿بل لا يشعرونَ﴾: أنّما نُملي لهم ونُمْهِلُهم ونُمِدُّهم بالنعم ليزدادوا إثماً وليتوفَّر عقابهم في الآخرة، وليغتَبِطوا بما أوتوا، حتى إذا فَرِحوا بما أوتوا؛ أخذْناهم بغتةً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

لـمَّا ذَكَرَ تعالى الذين جمعوا بين الإساءة والأمن، الذين يزعُمون أنَّ عطاء اللّه إياهم في الدنيا دليلٌ على خيرهم وفضلهم؛ ذَكَرَ الذين جمعوا بين الإحسان والخوفِ، فقال:

﴿٥٧﴾ ﴿إنَّ الذينَ هم من خَشْيَةِ ربِّهم مشفِقونَ﴾؛ أي: وجِلون، مشفقة قلوبُهم، كلُّ ذٰلك من خشية ربِّهم؛ خوفاً أن يَضَعَ عليهم عدلَه؛ فلا يُبقي لهم حسنةً، وسوءَ ظنٍّ بأنفسهم أنْ لا يكونوا قد قاموا بحقِّ اللّه تعالى، وخوفاً على إيمانِهم من الزَّوال، ومعرفةً منهم بربِّهم وما يستحقُّه من الإجلال والإكرام. وخوفُهم وإشفاقُهم يوجِبُ لهم الكفَّ عما يوجِبُ الأمرُ المخوفُ من الذُّنوب والتقصير في الواجبات.

﴿٥٨﴾ ﴿والذين هم بآياتِ ربِّهم يؤمنونَ﴾؛ أي: إذا تُلِيَتْ عليهم آياتُه؛ زادتْهم إيماناً، ويتفكَّرون أيضاً في الآيات القرآنيَّة، ويتدبَّرونها، فَيَبِينُ لهم من معاني القرآن وجلالتِهِ واتِّفاقِهِ وعدم اختلافِهِ وتناقضِهِ وما يدعو إليه من معرفة اللّه وخوفِهِ ورجائِهِ وأحوال الجزاء، فيحدثُ لهم بذٰلك من تفاصيل الإيمان ما لا يُعَبِّرُ عنه اللسانُ، ويتفكَّرون أيضاً في الآيات الأفقيَّة؛ كما في قوله: ﴿إنَّ في خَلْقِ السمٰواتِ والأرضِ واختلافِ الليل والنهارِ لآياتٍ لأولي الألباب...﴾ إلى آخر الآيات.

﴿٥٩﴾ ﴿والذين هم بربِّهم لا يُشْرِكونَ﴾؛ أي: لا شركاً جليًّا؛ كاتخاذ غير اللّه معبوداً يدعوه ويرجوه، ولا شركاً خفيًّا؛ كالرياء ونحوه، بل هم مخلصونَ للّه في أقوالهم وأعمالهم وسائر أحوالهم.

﴿٦٠﴾ ﴿والذين يؤتونَ ما آتوا﴾؛ أي: يعطون من أنفسهم مما أُمِروا به ما آتوا من كلِّ ما يقدرون عليه من صلاةٍ وزكاةٍ وحجٍّ وصدقةٍ وغير ذٰلك، ومع هٰذا

﴿قلوبُهم وَجِلَةٌ﴾؛ أي: خائفة ﴿أنَّهم إلى ربِّهم راجِعونَ﴾؛ أي: خائفةٌ عند عرض أعمالها عليه والوقوف بين يديه أن تكونَ أعمالُهم غيرَ منجِّيةٍ من عذاب الله؛ لعلمِهم بربِّهم، وما يستحقُّه من أصناف العبادات.

﴿٦١﴾ ﴿أولئك يسارِعونَ في الخيراتِ﴾؛ أي: في مَيْدان التَّسارع في أفعال الخير؛ همُّهم ما يقرِّبُهم إلى الله، وإرادتُهم مصروفةٌ فيما يُنجي من عذابِهِ؛ فكلُّ خيرٍ سمعوا به أو سَنَحَتْ لهم الفرصةُ [إليه]؛ انتهزوه وبادَروه؛ قد نَظَروا إلى أولياءِ الله وأصفيائِهِ أمامهم، ويمنةً ويسرةً؛ يسارِعون في كلِّ خيرٍ، وينافِسون في الزُّلفى عند ربِّهم؛ فنافَسوهُم، ولمَّا كان المسابِقُ لغيرِهِ المسارِعُ؛ قد يسبِقُ لجدِّه وتشميره، وقد لا يسبِقُ لتقصيرِهِ؛ أخبر تعالى أنَّ هؤلاء من القسم السابقين، فقال: ﴿وهم لها﴾؛ أي: للخيرات، ﴿سابِقونَ﴾: قد بلغوا ذِرْوَتَها، وتبارَوْا هم والرعيل الأول، ومع هذا قد سبقت لهم من الله سابقةُ السعادةِ أنَّهم سابقونَ.

﴿٦٢﴾ ولما ذَكَرَ مسارَعَتَهم إلى الخيرات وَسَبْقَهم إليها؛ ربَّما وَهِمَ واهمٌ أنَّ المطلوب منهم ومن غيرهم أمرٌ غير مقدورٍ أو متعسِّر؛ أخبر تعالى أنه ﴿لا نكلِّفُ نفساً إلَّا وُسْعَها﴾؛ أي: بقدر ما تسعه ويفضُلُ من قوتها عنه، ليس ممَّا يستوعِبُ قوَّتها؛ رحمةً منه وحكمةً؛ لتيسير طريق الوصول إليه، ولتعمر جادةُ السالكين في كلِّ وقت إليه. ﴿ولَدَينا كتابٌ ينطِقُ بالحقِّ﴾: وهو الكتابُ الأوَّل الذي فيه كل شيء، وهو يطابِقُ كلَّ واقع يكون؛ فلذلك كان حقًّا. ﴿وهم لا يُظْلَمون﴾: ينقص من إحسانهم، أو يزداد[1] في عقوبتِهم وعصيانِهم.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ [أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾][2].

---

(١) في (ب): «يزاد».

(٢) الآيات ما بين المعقوفتين؛ لا توجد في النسختين.

﴿٦٣﴾ يخبر تعالى أنَّ قلوبَ المكذِّبين في غمرةٍ من هٰذا؛ أي: وسط غمرةٍ من الجهل والظُّلم والغفلة والإعراض تمنعُهم من الوصول إلى هٰذا القرآن؛ فلا يهتدونَ به، ولا يصل إلى قلوبهم منه شيءٌ، ﴿وإذا قَرَأتَ القرآنَ جَعَلْنا بينَك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرةِ حجاباً مستوراً، وجَعَلْنا على قلوبِهِم أكِنَّةً أنْ يَفْقَهوه وفي آذانِهِم وقراً﴾؛ فلمَّا كانت قلوبُهم في غمرةٍ منه؛ عملوا[1] بحسب هٰذا الحال من الأعمال الكفريَّة والمعاندة للشَّرع ما هو موجبٌ لعقابهم، ولكنْ ﴿لهم أعمالٌ من دونِ﴾: هٰذه الأعمال ﴿هم لها عاملونَ﴾؛ أي: فلا يستغرِبوا عدم وقوع العذاب فيهم؛ فإنَّ اللّه يُمْهِلُهم ليعملوا هٰذه الأعمال التي بقيت عليهم مما كُتِبَ عليهم؛ فإذا عملوها، واستَوْفَوها؛ انتقلوا بشرِّ حالةٍ إلى غضب اللّه وعقابه.

﴿٦٤ ـ ٦٥﴾ ﴿حتى إذا أخَذْنا مُتْرَفيهم﴾؛ أي: متنعِّميهم الذين ما اعتادوا إلَّا التَّرفَ والرَّفاهية والنعيم، ولم تحصُل لهم المكارهُ؛ فإذا أخذْناهم ﴿بالعذابِ﴾، ووجدوا مسَّه؛ ﴿إذا هم يجأرون﴾: يصرُخون ويتوجَّعون؛ لأنَّه أصابهم أمرٌ خالفَ ما هم عليه، ويستغيثونَ، فيقالُ لهم: ﴿لا تجأروا اليومَ إنَّكم منَّا لا تُنصَرونَ﴾: وإذا لم تأتِهِم النُّصرةُ من اللّه، وانقطع عنهم الغوثُ من جانِبِه؛ لم يستطيعوا نصرَ أنفسِهِم، ولم ينصُرْهم أحدٌ.

﴿٦٦﴾ فكأنَّه قيل: ما السببُ الذي أوصلَهم إلى هٰذه الحال؟ قال: ﴿قد كانتْ آياتي تُتْلى عليكم﴾: لتؤمِنوا بها وتُقْبِلوا عليها، فلم تَفْعَلوا ذٰلك، بل ﴿كنتُم على أعقابِكُم تنكِصونَ﴾؛ أي: راجعين القهقرى إلى الخلف، وذٰلك لأنَّ باتِّباعهم القرآن يتقدَّمون، وبالإعراض عنه يستأخِرون، وينزلون إلى أسفل سافلين.

﴿٦٧﴾ ﴿مستكبِرينَ به سامراً تَهْجُرونَ﴾: قال المفسِّرون: معناه: مستكبرين به: الضمير يعود إلى البيت المعهود عند المخاطبين أو الحرم؛ أي: متكبِّرين على الناس بسببه، تقولون: نحنُ أهلُ الحرم؛ فنحنُ أفضلُ من غيرِنا وأعلا. ﴿سامراً﴾؛ أي: جماعة يتحدثون بالليل حول البيت. ﴿تَهْجُرونَ﴾؛ أي: تقولون الكلامَ الهُجْرَ الذي هو القبيح في هٰذا القرآن؛ فالمكذِّبون كانت طريقتُهم في القرآنِ الإعراضُ عنه، ويوصي بعضُهم بعضاً بذٰلك، ﴿وقال الذين كَفَروا لا تَسْمَعوا لهٰذا القرآن والْغَوْا فيه لعلَّكم تغلِبونَ﴾، وقال اللّه عنهم: ﴿أفَمِنْ هٰذا الحديثِ تَعْجَبونَ.

---

(١) في (أ): «علموا». والصواب كما أثبت في (ب).

وتَضحَكونَ ولا تبكونَ. وأنتم سامِدون﴾، ﴿أم يقولون تقوَّلَه﴾ فلما كانوا جامعينَ لهٰذه الرذائل؛ لا جَرَمَ حقَّت عليهم العقوبةُ، ولَمَّا وقعوا فيها؛ لم يكن لهم ناصرٌ ينصُرُهم ولا مغيثٌ ينقِذُهم، ويوبَّخون عند ذٰلك بهٰذه الأعمال الساقطة.

﴿٦٨﴾ ﴿أفلم يدَّبَّروا القولَ﴾؛ أي: أفلا يتفكَّرون في القرآن ويتأمَّلونه ويتدبَّرونه؛ أي: فإنَّهم لو تدبَّروه؛ لأوجبَ لهم الإيمانَ، ولَمَنَعَهم من الكفرِ، ولٰكن المصيبةَ التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه. ودل هٰذا على أنَّ تدبُّرَ القرآن يدعو إلى كلِّ خير ويعصِمُ من كلِّ شرٍّ، والذي منعهم من تدبُّرِهِ أنَّ على قلوبِهِم أقفالَها. ﴿أم جاءهم ما لم يأتِ آباءَهُمُ الأوَّلينَ﴾؛ أي: أوَ منعهم من الإيمان أنَّه جاءهم رسولٌ وكتابٌ ما جاء آباءَهم الأوَّلين، فرضوا بسلوك طريقِ آبائِهِم الضالِّين، وعارَضوا كلَّ ما خالفَ ذٰلك! ولهٰذا قالوا هم ومن أشبههم من الكفار ما أخبر اللّٰه عنهم: ﴿وكذٰلك ما أرسَلْنا من قبلِكَ في قريةٍ من نذيرٍ إلَّا قال مُتْرَفوها إنَّا وَجَدْنا آباءَنا على أمَّةٍ وإنَّا على آثارِهِم مُقتدونَ﴾. فأجابهم بقوله: ﴿قال أوَلَوْ جئتُكم بأهدى ممَّا وَجَدْتم عليه آباءَكم فهل تتَّبِعونِ﴾: إنْ كان قصدُكم الحقَّ. فأجابوا بحقيقةِ أمرِهم: ﴿قالوا إنا بما أرسِلْتم به كافرونَ﴾.

﴿٦٩﴾ وقوله: ﴿أم لم يعرفوا رسولَهم فهم له منكرونَ﴾؛ أي: أوَ منعهم من اتِّباعِ الحقِّ أنَّ رسولَهم محمداً ﷺ غير معروفٍ عندهم فهم منكرونَ له يقولونَ: لا نعرِفُه ولا نعرِفُ صدقَه، دعونا [حتى] نَنْظُر حالَه ونسألَ عنه مَنْ له به خبرةٌ؟ أي: لم يكنِ الأمرُ كذٰلك؛ فإنَّهم يعرفون الرسولَ ﷺ معرفةً تامَّةً، صغيرهم وكبيرهم، يعرفون منه كلَّ خُلُق جميل، ويعرِفون صدقَه وأمانَتَه، حتى كانوا يسمُّونه ـ قبل البعثة ـ: الأمين[1]؛ فَلِمَ لا يصدِّقونَه حين جاءهم بالحقِّ العظيم والصدق المبين؟!

﴿٧٠﴾ ﴿أم يقولونَ به جِنَّةٌ﴾؛ أي: جنون؛ فلهٰذا قال ما قال! والمجنونُ غيرُ مسموعٍ منه، ولا عبرة بكلامه؛ لأنَّه يهذي بالباطل والكلام السخيف! قال اللّٰه في الردِّ عليهم في هٰذه المقالة: ﴿بل جاءهم بالحقِّ﴾؛ أي: بالأمر الثابت الذي هو صدقٌ وعدلٌ لا اختلافَ فيه ولا تناقُضَ؛ فكيفَ يكونُ مَنْ جاء به، به جِنَّةٌ؟! وهلَّا يكون إلَّا في أعلى درج الكمال من العلم والعقل ومكارم الأخلاق! وأيضاً؛ فإنَّ في

---

(١) كما في قصة بناء الكعبة: أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٢٥)، والحاكم (١/ ٤٥٨)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٩٢): «رواه أحمد، وفيه هلال بن جندب، وهو ثقة، وفيه كلام، وبقية رجاله رجال الصحيح». وانظر «فقه السيرة» (ص٨٠) فقد حسنها الشيخ الألباني.

هٰذا الانتقال مما تقدَّم؛ أي: بل الحقيقة التي منعتهم من الإيمان أنَّه ﴿جاءَهم بالحقِّ وأكثرُهم للحقِّ كارهون﴾، وأعظمُ الحقِّ الذي جاءهم به: إخلاصُ العبادة للّٰه وحده، وترك ما يُعْبَد من دون اللّٰه، وقد علم كراهتهم لهٰذا الأمر وتعجُّبهم منه؛ فكونُ الرسول أتى بالحقِّ، وكونُهم كارهين للحقِّ بالأصل، هو الذي أوجب لهم التكذيب بالحقِّ؛ لا شكًّا ولا تكذيباً للرسول؛ كما قال تعالى: ﴿فإنَّهم لا يكذِّبونَك ولٰكنَّ الظالمينَ بآياتِ اللّٰه يَجْحَدون﴾.

﴿٧١﴾ فإنْ قيلَ: لِمَ لم يكنِ الحقُّ موافقاً لأهوائهم؛ لأجْل أن يؤمنوا أو يُسْرِعوا الانقيادَ؟ أجاب تعالى بقوله: ﴿ولوِ اتَّبَعَ الحقُّ أهواءهم لَفَسَدَتِ السمٰواتُ والأرضُ﴾: ووجهُ ذٰلك أنَّ أهواءهم متعلِّقة بالظُّلم والكفر والفسادِ من الأخلاق والأعمال؛ فلو اتَّبع الحقُّ أهواءهم؛ لفسدتِ السماواتُ والأرضُ؛ لفساد التصرُّف والتدبير المبنيِّ على الظُّلم وعدم العدل؛ فالسماواتُ والأرض ما استقامتا إلَّا بالحقِّ والعدل. ﴿بل أتيناهم بذِكْرِهِم﴾؛ أي: بهٰذا القرآن المذكِّر لهم بكل خيرٍ، الذي به فخرُهُم وشرفُهم حين يقومون به ويكونون به سادةَ الناس. ﴿فهم عن ذِكْرِهِم مُعْرِضون﴾: شقاوةً منهم وعدمَ توفيق؛ ﴿نَسُوا اللّٰه فَنَسِيَهم﴾، ﴿نَسُوا اللّٰه فأنساهم أنفُسَهم﴾؛ فالقرآن ومَنْ جاء به أعظمُ نعمةٍ ساقها اللّٰه إليهم، فلم يقابلوها إلا بالردِّ والإعراض؛ فهل بعد هٰذا الحرمان حرمانٌ؟! وهل يكون وراءَه إلَّا نهايةُ الخسران؟!

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿٧٢﴾ أي: أَوَ مَنَعَهم من اتِّباعك يا محمد أنَّك تسألُهم على الإجابة أجراً؛ ﴿فهم من مَغْرَم مُثْقَلون﴾: يتكلَّفون من اتِّباعك بسبب ما تأخُذُ منهم من الأجرِ والخراج، ليس الأمر كذٰلك. ﴿فخراجُ ربِّك خيرٌ وهو خير الرازقينَ﴾: وهٰذا كما قال الأنبياءُ لأممهم: ﴿يا قوم لا أسألُكم عليه أجراً إنْ أجرِيَ إلَّا على اللّٰه﴾؛ أي: ليسوا يدعون الخلق طمعاً فيما يُصيبهم منهم من الأموال، وإنَّما يدعونَهم نُصحاً لهم وتحصيلاً لمصالحهم، بل كان الرسلُ أنصحَ للخلق من أنفسهم، فجزاهُم اللّٰهُ عن أممهم خيرَ الجزاءِ، ورزَقَنا الاقتداء بهم في جميع الأحوال.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿٧٣ ـ ٧٤﴾ ذكر اللّٰه تعالى في هٰذه الآيات الكريمات كلَّ سببٍ موجبٍ

للإيمان، وذَكَرَ الموانع، وبيَّن فسادها واحداً بعد واحدٍ، فذكر من الموانع: أنَّ قلوبَهم في غَمْرةٍ، وأنهم لم يَدَّبَّروا القول، وأنَّهم اقتدَوْا بآبائهم، وأنَّهم قالوا: برسولهم جِنَّةٌ؛ كما تقدم الكلام عليها.

وذكر من الأمور الموجبة لإيمانهم: تدبُّرُ القرآن، وتلقِّي نعمة اللّه بالقَبول، ومعرفة حال الرسول محمدٍ ﷺ وكمال صدقِهِ وأمانتِهِ، وأنَّه لا يسألُهم عليه أجراً، وإنَّما سعيُهُ لنفعهم ومصلحتهم، وأنَّ الذي يَدْعوهم إليه صراطٌ مستقيمٌ، سهلٌ على العاملين لاستقامتِهِ، موصلٌ إلى المقصودِ من قرب، حنيفيَّةٌ سمحةٌ؛ حنيفيَّةٌ في التوحيد، سمحةٌ في العمل؛ فدعوتُك إيَّاهم إلى الصراط المستقيم موجب لمن يريد الحقَّ أن يَتَّبِعَك؛ لأنَّه مما تشهدُ العقول والفطر بحسنِهِ وموافقتِهِ للمصالح؛ فأين يذهبونَ إنْ لم يتابِعوك؟ فإنَّهم ليس عندهم ما يُغنيهم ويكفيهم عن متابعتِكَ؛ لأنَّهم ﴿عن الصراط﴾: ناكِبون، متجنِّبون، منحرِفون عن الطريق الموصل إلى اللّه وإلى دار كرامته، ليس في أيديهم إلَّا ضلالاتٌ وجهالاتٌ، وهٰكذا كلُّ من خالَفَ الحقَّ؛ لا بدَّ أن يكونَ منحرفاً في جميع أمورِهِ؛ قال تعالى: ﴿فإن لم يَسْتَجيبوا لك فاعْلَمْ أنَّما يَتَّبِعون أهواءهم ومَنْ أضَلُّ مِمَّنِ اتَّبع هواه بغير هدىً من اللّه﴾.

﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿٧٥﴾ هٰذا بيانٌ لشدَّة تمرُّدهم وعنادهم، وأنَّهم إذا أصابهم الضُّرُّ؛ دَعَوُا اللّه أن يكشف عنهم ليؤمنوا، أو ابتلاهم بذٰلك ليرجعوا إليه؛ أنَّ اللّه إذا كشف الضُّرَّ عنهم؛ ﴿لَجُّوا﴾؛ أي: استمرُّوا ﴿في طُغيانهم يَعْمَهون﴾؛ أي: يجولون في كفرهم حائرينَ متردِّدين؛ كما ذكر اللّه حالهم عند ركوب الفُلك، وأنَّهم يدعون[1] مخلصين له الدينَ، وينسَوْن ما يشركُون به، فلما أنجاهم؛ إذا هم يَبْغونَ في الأرض بالشِّرْك وغيره.

﴿٧٦﴾ ﴿ولقد أخَذْناهم بالعذاب﴾: قال المفسِّرونَ: المرادُ بذٰلك الجوع الذي أصابهم سبع سنين، وأنَّ اللّه ابتلاهم بذٰلك ليرجِعوا إليه بالذُّلِّ والاستسلام، فلم

(١) في (ب): «يدعونه».

ينجَعْ فيهم، ولا نَجَحَ منهم أحدٌ. ﴿فما استكانوا لربِّهم﴾؛ أي: خضعوا وذلُّوا، ﴿وما يتضرَّعون﴾: إليه ويفتقرون، بل مرَّ عليهم ذٰلك ثم زال كأنه لم يُصِبْهم، لم يزالوا في غيِّهم وكفرهم.

﴿٧٧﴾ ولٰكن وراءهم العذاب الذي لا يردُّ، وهو قوله: ﴿حتى إذا فَتَحْنا عليهم بابًا ذا عذابٍ شديدٍ﴾: كالقتل يومَ بدرٍ وغيره؛ ﴿إذا هم فيه مُبْلِسونَ﴾: آيسون من كلِّ خيرٍ، قد حَضَرَهم الشرُّ وأسبابُه؛ فليحْذَروا قبل نزول عذاب اللّه الشديد، الذي لا يردُّ؛ بخلاف مجرَّد العذاب؛ فإنَّه ربما أقلع عنهم؛ كالعقوبات الدنيويَّة التي يؤدِّب اللّه بها عبادَه؛ قال تعالى فيها: ﴿ظَهَرَ الفسادُ في البرِّ والبحر بما كَسَبَتْ أيدي الناسِ لِيذيقَهم بعضَ الذي عَمِلوا لعلَّهم يرجِعونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿٧٨﴾ يخبرُ تعالى بِمِنَّتِه على عباده الدّاعي لهم إلى شكرِهِ والقيام بحقِّه، فقال: ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمعَ﴾: لِتُدْرِكوا به المسموعاتِ فَتَنْتَفِعوا في دينِكم ودُنْياكم، ﴿والأبصارَ﴾: لِتُدْرِكوا بها المُبْصَراتِ فتنتفِعوا بها[1] في مصالِحِكم، ﴿والأفئدةَ﴾؛ أي: العقول التي تدرِكون بها الأشياءَ وتتميَّزون بها عن البهائم؛ فلو عدِمْتُم السمعَ والأبصارَ والعقولَ بأن كنتم صمًّا عمياً بكماً؛ ماذا تكونُ حالكم؟ وماذا تفقِدون من ضروريَّاتِكم وكمالكم؟ أفلا تشكُرون الذي منَّ عليكُم بهٰذه النِّعم؛ فتقومون بتوحيدِهِ وطاعتِهِ؟ ولٰكنَّكم قليلاً شكركم[2] مع توالي النعم عليكم.

﴿٧٩﴾ ﴿وهو﴾: تعالى ﴿الذي ذَرأَكم في الأرض﴾؛ أي: بثَّكم في أقطارها وجهاتها، وسلَّطكم على استخراج مصالحها ومنافعها، وجعلها كافيةً لمعايِشِكم ومساكِنِكم. ﴿وإليه تُحْشَرون﴾: بعد موتِكم فيجازيكم بما عَمِلْتُم في الأرض من خيرٍ وشرٍّ، وتُحدِّث الأرضُ التي كنتُم فيها بأخبارها.

﴿٨٠﴾ ﴿وهو﴾: تعالى وحدَه ﴿الذي يُحيي ويُميتُ﴾؛ أي: المتصرِّف في الحياة والموت هو اللّه وحده. ﴿وله اختلافُ الليل والنهار﴾؛ أي: تعاقُبُهما وتناوُبُهما؛ فلو شاء أنْ يجعلَ النهار سرمداً، مَن إلٰهٌ غيرُ اللّه يأتيكم بليل تسكنون

(١) في (ب): «فتنتفعون به».
(٢) كذا في (ب)، وفي (أ): «شكرهم».

فيه؟ ولو شاء أن يجعل الليل سرمداً من إلٰهٌ غيرُ اللّه يأتيكم بضياءٍ أفلا تُبْصِرونَ؟ ومن رحمتِهِ جَعَلَ لكُم الليلَ والنهار لِتَسْكُنوا فيه ولِتَبْتَغوا من فضلِهِ ولعلَّكم تشكُرون. ولهٰذا قال هنا: ﴿أفلا تعقلون﴾؛ فتعرفون أنَّ الذي وَهَبَ لكم من النِّعم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ، والذي نَشَرَكم في الأرض وحدَه، والذي يُحيي ويُميت وحدَه، والذي يتصرَّف بالليل والنهار وحدَه؛ إنَّ ذٰلك موجبٌ لكم أن تُخلِصوا له العبادة وحدَه لا شريك له، وتترُكوا عبادةَ مَنْ لا ينفَعُ ولا يضرُّ ولا يتصرَّف بشيء، بل هو عاجزٌ من كلِّ وجهٍ؛ فلو كان لكم عقلٌ؛ لم تَفْعَلوا ذٰلك.

﴿بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿٨١ ـ ٨٣﴾ أي: بل سَلَكَ هٰؤلاء المكذِّبون مَسْلَكَ الأوَّلين من المكذِّبين بالبعث، واستَبْعَدوه غايةَ الاستبعاد، وقالوا: ﴿أإذا مِتْنا وكُنَّا تراباً وعظاماً أإنا لَمَبعوثونَ﴾؛ أي: هٰذا لا يُتَصَوَّرُ ولا يدخلُ العقل بزعمهم. ﴿لقد وُعِدْنا نحنُ وآباؤنا هٰذا من قبلُ﴾؛ أي: ما زلنا نوعد بأنَّ البعث كائنٌ نحن وآباؤنا، ولم نره، ولم يأت بعدُ. ﴿إن هٰذا إلا أساطيرُ الأولينَ﴾؛ أي: قَصَصُهم وأسمارُهم التي يُتَحَدَّثُ بها وتُلهي، وإلَّا؛ فليس لها حقيقةٌ. وكَذَبوا قبَّحهم اللّه؛ فإنَّ اللّه أراهم من آياتِهِ أكبرَ من البعث، ومثله: ﴿لَخَلْقُ السمٰواتِ والأرضِ أكبرُ من خلق الناس﴾، ﴿وضرب لنا مثلاً ونَسِيَ خَلْقَه قال مَن يُحيي العظام وهي رميمٌ...﴾ الآيات، ﴿وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزَّتْ ورَبَتْ...﴾ الآيات.

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿٨٤ ـ ٨٥﴾ أي: قُلْ لِهٰؤلاء المكذِّبين بالبعث، العادلين باللّه غيرَهُ؛ محتجًّا عليهم بما أثبتوه وأقرُّوا به من توحيد الرُّبوبيَّة وانفرادِ اللّهِ بها على ما أنكروه من توحيد الإلٰهيَّة والعبادة، وبما أثبتوه من خَلْق المخلوقات العظيمة على ما أنكروه من إعادةِ الموتى الذي هو أسهل من ذٰلك: ﴿لِمَنِ الأرضُ ومَن فيها﴾؛ أي: مَنْ هو الخالقُ للأرض ومَنْ عليها من حيوان ونباتٍ وجمادٍ وبحارٍ وأنهارٍ وجبال، المالك

لذلك، المدبِّر له؛ فإنَّك إذا سألتَهم[1] عن ذلك؛ لا بدَّ أن يقولوا: اللّهُ وحدَه. فقل لهم إذا أقرُّوا بذلك: ﴿أفلا تَذَكَّرونَ﴾؛ أي: أفلا ترجعون إلى ما ذكَّركم اللّه به مما هو معلومٌ عندكم مستقرٌّ في فِطَرِكُم قد يُغيبه الإعراضُ في بعض الأوقات، والحقيقة أنَّكم إن رجعتم إلى ذاكِرَتِكُم بمجرَّد التأمُّل؛ علمتُم أنَّ مالك ذلك هو المعبود وحده، وأن إلهيَّة من هو مملوكٌ أبطلُ الباطل.

﴿٨٦ ـ ٨٧﴾ ثم انتقل إلى ما هو أعظم من ذلك، فقال: ﴿قلْ مَن ربُّ السمٰواتِ السبع﴾: وما فيها من النيِّرات والكواكب السيَّارات والثوابت، ﴿وربُّ العرش العظيم﴾: الذي هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمُها؛ فمن الذي خَلَقَ ذلك ودبَّره وصرَّفه بأنواع التدبير؟ ﴿سيقولون للّه﴾؛ أي: سيقرُّون بأنَّ اللّه ربُّ ذلك كله، قل لهم حين يُقرُّون بذلك: ﴿أفلا تتَّقونَ﴾: عبادةَ المخلوقاتِ العاجزةِ وتتَّقون الربَّ العظيم كامل القدرة عظيم السلطان؟! وفي هذا من لطف الخطاب من قوله: ﴿أفلا تذكرون﴾، ﴿أفلا تتَّقونَ﴾؛ والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب ما لا يخفى.

﴿٨٨ ـ ٨٩﴾ ثم انتقل إلى إقرارهم بما هو أعمُّ من ذلك كلِّه، فقال: ﴿قل من بيدِهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ﴾؛ أي: ملك كل شيء من العالم العلويِّ والعالم السفليِّ، ما نبصِرُه وما لا نبصِرُه، والملكوتُ صيغةُ مبالغةٍ؛ بمعنى الملك. ﴿وهو يُجيرُ﴾: عباده من الشرِّ ويدفعُ عنهم المكارِهَ ويحفَظُهم مما يضرُّهم، ﴿ولا يُجارُ عليه﴾؛ أي: لا يقدر أحدٌ أن يجيرَ على اللّه ولا يدفَعَ الشرَّ الذي قدَّره اللّه، بل ولا يشفَعُ أحدٌ عنده إلَّا بإذنه. ﴿سيقولون للّه﴾؛ أي: سيقرُّون أنَّ اللّه المالك لكل شيءٍ، المجيرُ الذي لا يُجار عليه، ﴿قل﴾ لهم حين يقرُّون بذلك ملزِماً لهم: ﴿فأنَّى تُسْحَرونَ﴾؛ أي: فأين تذهبُ عقولُكم حيث عبدتم مَنْ علمتم أنَّهم لا مُلك لهم ولا قِسْطَ من الملك، وأنَّهم عاجزون من جميع الوجوه، وتركتُم الإخلاص للمالِكِ العظيم القادرِ المدبِّر لجميع الأمور؟ فالعقول التي دلَّتكم على هذا لا تكون إلَّا مسحورةً، وهي بلا شكٍّ قد سَحَرَها الشيطانُ بما زيَّنَ لهم، وحسَّنَ لهم وقَلَبَ الحقائق لهم فَسَحَرَ عقولَهم، كما سَحَرَت السحرةُ أعينَ الناس.

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا

---

(١) في (ب): «سألتم».

لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿٩٠ ـ ٩٢﴾ يقولُ تعالى: بل أتينا هٰؤلاء المكذِّبين بالحقِّ؛ المتضمِّن للصدق في الأخبار، العدل في الأمر والنهي؛ فما بالُهم لا يعترِفون به، وهو أحقُّ أن يُتَّبع، وليس عندَهم ما يعوِّضهم عنه إلَّا الكذبُ والظلمُ؟! ولهٰذا قال: ﴿وإنَّهم لَكاذبون. ما اتَّخَذَ اللَّه من ولدٍ وما كان معه من إلٰهٍ﴾: كذبٌ يُعْرَفُ بخبرِ اللَّه وخبرِ رسلِهِ، ويُعْرَفُ بالعقل الصحيح، ولهٰذا نَبَّهَ تعالى على الدليل العقليِّ على امتناع إلٰهين فقال: ﴿إذاً﴾؛ أي: لو كان معه آلهةٌ كما يقولون؛ ﴿لَذَهَبَ كلُّ إلٰهٍ بما خَلَقَ﴾؛ أي: لانفرد كلُّ واحدٍ من الإلٰهين بمخلوقاتِهِ واستقلَّ بها، ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبته، ﴿ولَعَلا بعضُهم على بعضٍ﴾؛ فالغالب يكون[1] هو الإلٰه؛ فمع التمانُع[2] لا يمكِنُ وجودُ العالَم ولا يُتَصَوَّرُ أن يَنْتَظِمَ هٰذا الانتظامَ المدهشَ للعقول، واعتبر ذٰلك بالشمس والقمر والكواكب الثابتة والسيَّارة؛ فإنَّها منذ خُلِقَتْ وهي تجري على نظام واحدٍ وترتيبٍ واحدٍ، كلُّها مسخرةٌ بالقدرةِ، مدبَّرةٌ بالحكمة لمصالح الخَلْق كلِّهم، ليست مقصورةً على مصلحةِ أحدٍ دون أحدٍ، ولن ترى فيها خللاً ولا تناقضاً ولا معارضةً في أدنى تصرُّف؛ فهل يُتَصَوَّرُ أن يكون ذٰلك تقدير إلٰهيْنِ ربَّيْنِ. ﴿سبحان اللَّهِ عمَّا يصفِون﴾: قد نطقتْ بلسانِ حالِها، وأفهمتْ ببديع أشكالِها: أنَّ المدبِّر لها إلٰهٌ واحدٌ؛ كامل الأسماء والصفات، قد افتقرتْ إليه جميعُ المخلوقات في ربوبيَّتِهِ لها وفي إلٰهيَّتِهِ لها؛ فكما لا وجود لها ولا دوام إلَّا بربوبيَّتِهِ؛ كذٰلك لا صلاح لها ولا قِوامَ إلَّا بعبادته وإفراده بالطاعة. ولهٰذا نبَّه على عظمةِ صفاتِهِ بأنموذج من ذٰلك، وهو علمُهُ المحيطُ، فقال: ﴿عالم الغيب﴾؛ أي: الذي غاب عن أبصارِنا وعلمنا من الواجبات والمستحيلات والممكنات ﴿والشهادةِ﴾: وهو ما نشاهِدُ من ذٰلك. ﴿فتعالى﴾؛ أي: ارتفع وعظم ﴿عما يُشرِكون﴾: به، ولا علم عندَهم إلَّا ما علَّمه اللَّه.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «أن يكون». والصواب ما أثبت.
(٢) كذا في (ب). في (أ): «فمن التمانع». والصواب ما أثبت.

﴿٩٣ ـ ٩٥﴾ لمَّا أقام تعالى على المكذِّبين أدلَّته العظيمةَ، فلم يلتَفِتوا لها، ولم يُذْعِنوا لها؛ حقَّ عليهم العذابُ، ووُعِدوا بنزوله، وأرشد اللهُ رسولَه أن يقول: ﴿قُلْ ربِّ إمَّا تُرِيَنِّي ما يوعَدونَ﴾؛ أي: أيَّ وقتٍ أريتني عذابَهم وأحضرتَني ذلك، ﴿ربِّ فلا تَجْعَلْني في القوم الظالمين﴾؛ أي: اعصِمْني وارْحَمْني مما ابتلَيْتَهم به من الذُّنوب الموجبة للنقم، واحْمِني أيضاً من العذاب الذي ينزِلُ بهم؛ لأنَّ العقوبة العامَّة تَعُمُّ عند نزولها العاصي وغيره. قال الله في تقريب عذابهم: ﴿وإنَّا على أن نُرِيَكَ ما نَعِدُهُم لَقادِرونَ﴾: ولكنْ إنْ أخَّرْناه؛ فلحكمةٍ، وإلَّا؛ فقُدْرَتنا صالحةٌ لإيقاعِهِ [فيهم].

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿٩٦﴾ هٰذا من مكارم الأخلاق التي أمر اللهُ رسولَه بها، فقال: ﴿ادفَعْ بالتي هي أحسنُ السيئةَ﴾؛ أي: إذا أساء إليك أعداؤك بالقول والفعل؛ فلا تقابِلْهم بالإساءة؛ مع أنَّه يجوزُ معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادْفَعْ إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم؛ فإنَّ ذٰلك فضلٌ منك على المسيء، ومن مصالح ذٰلك أنَّه تخفُّ الإساءة عنك في الحال وفي المستقبل، وأنَّه أدعى لجلب المسيء إلى الحقِّ، وأقرب إلى ندمه وأسفه ورجوعِهِ بالتوبة عمَّا فَعَلَ، ويتَّصِفُ[1] العافي بصفة الإحسان، ويقهرُ بذٰلك عدوَّه الشيطان، ويستوجبُ الثواب من الربِّ؛ قال تعالى: ﴿فَمَنْ عفا وأصلحَ فأجرُهُ على الله﴾، وقال تعالى: ﴿ادفَعْ بالتي هي أحسنُ السيئةَ فإذا الذي بينَكَ وبينَهُ عداوةٌ كأنَّه وليٌّ حميمٌ. وما يُلَقَّاها﴾؛ أي: ما يوفَّق لهٰذا الخُلُق الجميل ﴿إلَّا الذين صَبَروا وما يُلَقَّاها إلَّا ذو حظٍّ عظيم﴾.

وقوله: ﴿نحن أعلم بما يَصِفون﴾؛ أي: بما يقولون من الأقوال المتضمِّنة للكفر والتكذيب بالحق، قد أحاط علمُنا بذٰلك، وقد حَلِمْنا عنهم وأمهلْناهم وصبَرْنا عليهم، والحقُّ لنا، وتكذيبُهم لنا؛ فأنت يا محمد ينبغي لك أن تصبِرَ على ما يقولون، وتقابِلَهم بالإحسان. هٰذه وظيفة العبد في مقابلة المسيء من البشر.

﴿٩٧ ـ ٩٨﴾ وأما المسيء من الشياطين؛ فإنَّه لا يُفيد فيه الإحسانُ، ولا يدعو

---

(١) في (ب): «وليتصف».

حِزْبَهُ إلَّا لِيكونوا من أصحاب السعير؛ فالوظيفةُ في مقابلته أن يسترشِدَ بما أرشد اللّه إليه رسوله، فقال: ﴿وقل ربِّ أعوذُ بك﴾؛ [أي: أعتصم بحولك وقوَّتك متبرئًا من حولي وقوَّتي]، ﴿من هَمَزات الشياطين. وأعوذُ بكَ ربِّ أن يحضُرون﴾؛ أي: أعوذُ بك من الشرِّ الذي يصيبُني بسبب مباشرتِهِم وهَمْزِهِم ومسِّهم، ومن الشرِّ الذي بسبب حضورِهِم ووسوستِهِم، وهٰذه استعاذةٌ من مادَّة الشرِّ كلِّه وأصله، ويدخُلُ فيه الاستعاذةُ من جميع نَزَغات الشيطان ومن مسِّه ووسوستِهِ؛ فإذا أعاذ اللّهُ عبدَه من هٰذا الشرِّ، وأجاب دعاءَه؛ سَلِمَ من كلِّ شرٍّ، ووفِّقَ لكلِّ خير.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿٩٩ ـ ١٠٠﴾ يخبرُ تعالى عن حال مَنْ حَضَرَهُ الموت من المفرِّطين الظَّالمين: أنَّه يندمُ في تلك الحال إذا رأى مآله، وشاهَدَ قُبْحَ أعماله، فيطلبُ الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتُّع بلذَّاتها واقتطاف شَهَواتها، وإنَّما ذٰلك يقول: ﴿لعلِّي أعملُ صالحاً فيما تركتُ﴾: من العمل وفرَّطْتُ في جَنْب اللّه. ﴿كلَّا﴾؛ أي: لا رجعةَ له ولا إمهالَ، قد قضى اللّهُ أنَّهم إليها لا يُرْجَعون، ﴿إنَّها﴾؛ أي: مقالتُه التي تمنَّى فيها الرجوعَ إلى الدُّنيا ﴿كلمةٌ هو قائلُها﴾؛ أي: مجرد قول باللسانِ، لا يفيدُ صاحبَه إلَّا الحسرةَ والندم، وهو أيضاً غير صادقٍ في ذٰلك؛ فإنَّه لَوْ رُدَّ لَعادَ لما نُهِيَ عنه. ﴿ومن ورائِهِم برزخٌ إلى يوم يُبْعَثونَ﴾؛ أي: من أمامهم وبين أيديهم برزخٌ، وهو الحاجز بين الشيئين؛ فهو هنا الحاجزُ بين الدُّنيا والآخرة، وفي هٰذا البرزخ يتنعَّم المطيعونَ، ويعذَّبُ العاصونَ من موتِهِم إلى يوم يبعثونَ؛ أي: فَلْيَعُدُّوا له عُدَّتَهُ، وليأخذوا له أُهْبَتَهُ.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ

ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ
كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن
لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

﴿١٠١﴾ يخبر تعالى عن هول يوم القيامةِ، وما في ذٰلك [اليوم] من المزعجاتِ والمقلقاتِ، وأنَّه إذا نُفِخَ في الصور نفخةُ البعث، فحُشِرَ الناس أجمعون، لميقاتِ يوم معلوم؛ أنَّه يُصيبهم من الهول ما يُنسيهم أنسابَهم التي هي أقوى الأسباب، فغير الأنساب من باب أولى، وأنَّه لا يسألُ أحدٌ أحداً عن حالِهِ؛ لاشتغالِهِ بنفسه؛ فلا يدري هل يَنجو نجاةً لا شقاوةَ بعدَها أو يشقى شقاوةً لا سعادةَ بعدها؛ قال تعالى: ﴿فإذا جاءتِ الصَّاخَّة. يوم يَفِرُّ المرءُ من أخيه وأمِّه وأبيه. وصاحبتِهِ وبنيه. لكلِّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه﴾.

﴿١٠٢﴾ وفي القيامة مواضعُ يشتدُّ كربُها ويعظُمُ وقعُها؛ كالميزان الذي يُمَيَّزُ به أعمالُ العبدِ، ويُنْظَرُ فيه بالعدل ما له وما عليه، وتَبين فيه مثاقيلُ الذَّرِّ من الخيرِ والشر. ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ موازينُهُ﴾: بأن رَجَحَتْ حسناتُه على سيئاته؛ ﴿فأولٰئك هم المفلحونَ﴾: لنجاتِهِم من النار، واستحقاقِهِم الجنَّة، وفوزِهم بالثناء الجميل.

﴿١٠٣﴾ ﴿ومَنْ خَفَّتْ موازينُهُ﴾: بأن رَجَحَتْ سيئاتُه على حسناتِهِ وأحاطتْ بها خطيئاتُهُ؛ ﴿فأولٰئك الذين خَسِروا أنفُسَهم﴾: كلُّ خسارةٍ غير هٰذه الخسارةِ؛ فإنَّها بالنسبة إليها سهلةٌ، ولٰكن هٰذه خسارةٌ صعبةٌ؛ لا يُجْبَرُ مُصابها، ولا يُسْتَدْرَكُ فائِتُها؛ خسارةٌ أبديَّة وشقاوةٌ سرمديَّة، قد خسر نفسَه الشريفة التي يتمكَّن بها من السعادة الأبديَّة، ففوَّتها هٰذا النعيم المقيم في جوار الربِّ الكريم. ﴿في جهنَّمَ خالدونَ﴾: لا يخرُجون منها أبدَ الآبدينَ، وهٰذا الوعيد إنَّما هو ـ كما ذكرنا ـ لمن أحاطَتْ خطيئاتُهُ بحسناتِهِ، ولا يكون ذٰلك إلَّا كافراً؛ فعلى هٰذا لا يُحاسَبُ محاسبةَ من توزَنُ حسناتُه وسيئاتُه؛ فإنَّهم لا حسنات لهم، ولٰكن تعدُّ أعمالُهم وتُحصى، فيوقَفون عليها، ويقرَّرون بها، ويُخْزَوْن بها.

وأمَّا مَنْ مَعَهُ أصلُ الإيمان، ولٰكنْ عَظُمَتْ سيئاتُه، فرجَحَتْ على حسناتِهِ؛ فإنَّه وإن دَخَلَ النار؛ لا يَخْلُدُ فيها كما دلَّت على ذٰلك نصوص الكتاب والسنة.

﴿١٠٤﴾ ثم ذَكَرَ تعالى سوءَ مصير الكافرين، فقال: ﴿تَلْفَحُ وجوهَهُم النارُ﴾؛ أي: تغشاهم من جميع جوانِبِهم، حتى تصيبَ أعضاءهم الشريفةَ، ويتقطَّع لهبُها عن

وجوههم، ﴿وهم فيها كالِحونَ﴾: قد عَبَسَتْ وجوهُهم وقَلَصَتْ شفاهُهم، من شدَّة ما هم فيه، وعظيم ما يَلْقَوْنَه.

﴿١٠٥﴾ فيُقالُ لهم توبيخاً ولوماً: ﴿ألم تَكُنْ آياتي تُتلى عليكم﴾: تُدْعَون بها لِتؤمنوا وتُعْرَضُ عليكم لِتَنْظُروا؛ ﴿فكنتم بها تكذِّبونَ﴾: ظلماً منكم وعناداً، وهي آياتٌ بيناتٌ، دالَّاتٌ على الحقِّ والباطل، مبيِّناتٌ للمحقِّ والمبطل؟!

﴿١٠٦﴾ فحينئذٍ أقرُّوا بظلمهم حيث لا ينفع الإقرار: ﴿قالوا ربَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا﴾؛ أي: غلبت علينا الشَّقاوة الناشئةُ عن الظُّلم والإعراض عن الحقِّ والإقبال على ما يضرُّ وتركِ ما ينفعُ، ﴿وكنَّا قوماً ضالِّين﴾: في عملهم، وإن كانوا يَدْرون أنَّهم ظالمون؛ أي: فعلنا في الدُّنيا فعلَ التائِهِ الضالِّ السفيهِ؛ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿وقالوا لو كُنَّا نَسْمَعُ أو نَعْقِلُ ما كُنَّا في أصحابِ السَّعير﴾.

﴿١٠٧﴾ ﴿ربَّنا أخرِجْنا منها فإنْ عُدْنا فإنَّا ظالِمونَ﴾: وهم كاذِبون في وعدِهم هٰذا؛ فإنَّهم كما قال تعالى: ﴿لو رُدُّوا لَعادوا لما نُهوا عنه﴾، ولم يُبْقِ اللّه لهم حجَّة، بل قطع أعذارَهم، وعَمَّرَهم في الدُّنيا ما يتذكَّر فيه من تذكَّر[1]، ويرتدِعُ فيه المجرمُ.

﴿١٠٨﴾ فقال اللّه جواباً لسؤالهم: ﴿اخسؤوا فيها ولا تُكَلِّمونِ﴾: وهٰذا القول ـ نسألُه تعالى العافيةَ ـ أعظمُ قول على الإطلاق يسمعهُ المجرمون في التخييبِ والتوبيخ والذُّلِّ والخسارِ والتأييس من كلِّ خيرٍ والبُشرى بكل شرٍّ، وهٰذا الكلام والغضب من الربِّ الرحيم أشدُّ عليهم، وأبلغُ في نِكايتهم من عذاب الجحيم.

﴿١٠٩﴾ ثم ذكر الحال التي أوصلَتْهم إلى العذاب وقَطَعَتْ عنهم الرحمةَ، فقال: ﴿إنَّه كان فريقٌ من عبادي يقولونَ ربَّنا آمنَّا فاغفِرْ لنا وارْحَمْنا وأنتَ خيرُ الراحمينَ﴾: فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعمالِهِ الصالحة، والدُّعاء لربِّهم بالمغفرة والرحمة، والتوسُّل إليه بربوبيَّته ومنَّته عليهم بالإيمان، والإخبار بسعةِ رحمتِهِ وعموم إحسانِهِ، وفي ضمنِهِ ما يدلُّ على خضوعهم وخشوعهم وانكسارِهم لربِّهم وخوفهم ورجائهم؛ فهؤلاءِ ساداتُ الناس وفضلاؤهم.

﴿١١٠﴾ ﴿فاتَّخَذْتُموهم﴾: أيُّها الكفرةُ الأنذالُ ناقصو العقول والأحلام، ﴿سِخْرِيًّا﴾: تهزؤون بهم وتحتقرونهم حتى اشتغلتُم بذكر السُّفه، ﴿حتى أنْسَوْكُم

---

(١) في (ب): «المتذكر».

ذِكري وكنتم منهم تَضحَكونَ﴾: وهٰذا الذي أوجبَ لهم نسيان الذِّكر اشتغالُهم بالاستهزاء بهم؛ كما أنَّ نسيانهم للذِّكر يحثُّهم على الاستهزاء؛ فكلٌّ من الأمرين يمدُّ الآخر؛ فهل فوق هٰذه الجرأة جرأة؟!

﴿١١١﴾ ﴿إنِّي جزيتُهُمُ اليومَ بما صَبَروا﴾: على طاعتي وعلى أذاكم حتى وصلوا إليَّ ﴿أنَّهم هُمُ الفائزونَ﴾: بالنعيم المقيم والنَّجاة من الجحيم؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فاليومَ الذين آمنوا من الكُفَّارِ يَضحَكونَ...﴾ الآيات.

﴿١١٢ ـ ١١٤﴾ ﴿قال﴾ لهم على وجهِ اللَّوم وأنَّهم سفهاءُ الأحلام حيث اكْتَسَبوا في هٰذه المدَّة اليسيرةِ كلَّ شرٍّ أوصَلَهم إلى غضبِهِ وعقوبتِهِ، ولم يكتَسِبوا ما اكْتَسَبَه المؤمنون من الخير[1] الذي يوصِلُهم إلى السعادة الدائمة ورضوان ربِّهم: ﴿كم لَبِثْتُم في الأرضِ عددَ سنينَ. قالوا لَبِثْنا يوماً أو بعضَ يوم﴾: كلامُهم هٰذا مبنيٌّ على استقصارِهم جدًّا لمدَّة مُكْثِهِم في الدُّنيا، وأفاد ذٰلك، لٰكنَّه لا يفيدُ مقدارَه ولا يُعَيِّنُه؛ فلهٰذا قالوا: ﴿فاسألِ العادِّينَ﴾؛ أي: الضابطين لعددِهِ، وأمَّا هم؛ ففي شغل شاغل وعذاب مذهل عن معرفةِ عددِهِ. فقال لهم: ﴿إن لبثتم إلَّا قليلاً﴾: سواء عيَّنْتُم عدَدَه أم لا، ﴿لو أنكم كنتُم تعلمونَ﴾.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿١١٥ ـ ١١٦﴾ أي: ﴿أفحَسِبْتُم﴾ أيُّها الخلقُ، ﴿أنَّما خلَقْناكم عَبَثاً﴾؛ أي: سدىً وباطلاً تأكلون وتشربون وتمرَحون وتتمتَّعون بَلذَّات الدُّنيا ونترُكُكم لا نأمُرُكم ولا ننهاكم[2] ولا نُثيبكم ونعاقبكم، ولهٰذا قال: ﴿وأنَّكم إلينا لا تُرْجَعونَ﴾؟ لا يَخْطُر هٰذا ببالكم. ﴿فتعالى اللهُ﴾؛ أي: تعاظَمَ وارتفعَ عن هٰذا الظنِّ الباطل الذي يرجِعُ إلى القدح في حكمته، ﴿المَلِكُ الحقُّ لا إله إلَّا هو ربُّ العرش العظيم﴾: فكونُهُ ملكاً للخلق كلِّهم حقًّا في صدقِهِ ووعدِهِ [و] وعيدِهِ مألوهاً معبوداً لما له من الكمال ربَّ العرش العظيم فما دونه من باب أولى يمنَعُ أن يَخْلُقَكم عَبَثاً.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

---

(١) في (ب): «الخير».
(٢) في (ب): «وننهاكم».

﴿١١٧﴾ أي: ومن دعا مع اللّٰه آلهةً غيره بلا بيِّنة من أمرِهِ ولا برهانٍ على ذٰلك يدلُّ على[1] ما ذهب إليه، وهٰذا قيدٌ ملازمٌ؛ فكلُّ مَن دعا غير اللّٰه؛ فليس له برهانٌ على ذٰلك، بل دلَّت البراهينُ على بطلانِ ما ذهبَ إليه، فأعرض عنها ظلماً وعناداً؛ فهٰذا سيقدُمُ على ربِّه فيجازيه بأعمالِهِ ولا ينيلُه من الفلاح شيئاً؛ لأنه كافر، ﴿إنَّه لا يفلحُ الكافرونَ﴾: فكفرُهم منعهم من الفلاح.

﴿١١٨﴾ ﴿وقل﴾: داعياً لربِّك مخلصاً له الدين: ﴿ربِّ اغْفِرْ﴾: لنا حتى تُنْجِيَنا من المكروه، وارحَمْنا لتوصِلَنا برحمتك إلى كلِّ خير. ﴿وأنت خيرُ الراحمين﴾: فكلُّ راحم للعبدِ؛ فاللّٰه خيرٌ له منه، أرحمُ بعبدِهِ من الوالدة بولدِها، وأرحمُ به من نفسه.

تم تفسير سورة المؤمنين من فضله[2] وإحسانه

❀ ❀ ❀

تفسير سورة النور

وهي مدينة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾.

﴿١﴾ أي: هٰذه ﴿سورةٌ﴾ عظيمةُ القَدْرِ، ﴿أنزَلْناها﴾: رحمةً منَّا بالعباد، وحفظناها من كلِّ شيطان، ﴿وفرَضْناها﴾؛ أي: قدَّرنا فيها ما قدَّرنا من الحدود والشهادات وغيرها، ﴿وأنزلنا فيها آياتٍ بيِّناتٍ﴾؛ أي: أحكاماً جليلةً وأوامر وزواجر وحِكماً عظيمة؛ ﴿لعلَّكم تذكَّرون﴾: حين نبيِّنُ لكم، ونُعَلِمُكم ما لم تكونوا تعلمون.

ثم شرع في بيان تلك الأحكام المشار إليها، فقال:

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾.

﴿٢﴾ هٰذا الحكم في الزاني والزانية البكرين: أنهما يُجلد كلٌّ منهما مائة جلدةٍ،

---

(١) في (ب): «ولا برهان يدل على».
(٢) في (ب): «فضل اللّٰه».

وأما الثيِّب؛ فقد دلَّت السنة الصحيحة المشهورة أنَّ حدَّه الرجم(١).

ونهانا تعالى أن تأخُذَنا رأفةٌ بهما(٢) في دين اللّه تمنعُنا من إقامة الحدِّ عليهما، سواء رأفة طبيعيَّة، أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذٰلك، وأنَّ الإيمان موجبٌ لانتفاء هٰذه الرأفة المانعة من إقامة أمرِ اللّه؛ فرحمتُه حقيقةً بإقامة الحدِّ(٣) عليه، فنحنُ وإن رَحِمْنا لِجَرَيان القدر عليه؛ فلا نَرْحَمُه من هٰذا الجانب.

وأمَرَ تعالى أن يَحْضُرَ عذابَ الزانيين ﴿طائفةٌ﴾؛ أي: جماعة من المؤمنين؛ ليشتهر ويحصُلَ بذٰلك الخزي والارتداع، وليشاهدوا الحدَّ فعلاً؛ فإنَّ مشاهدة أحكام الشرع بالفعل مما يَقْوى به العلم، ويستقرُّ بها الفهم، ويكونُ أقربَ لإصابة الصواب؛ فلا يزادُ فيه ولا ينقص. واللّه أعلم.

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

﴿٣﴾ هٰذا بيان لرذيلة الزنا، وأنه يدنِّس عِرْض صاحبه وعِرْض مَنْ قارَنَه ومازَجَه ما لا يفعله بقيةُ الذنوب، فأخبر أن الزاني لا يُقْدِمُ على نكاحه من النساء إلا أنثى زانيةٌ تناسب حالُه حالَها، أو مشركةٌ باللّه لا تؤمن ببعثٍ ولا جزاءٍ، ولا تلتزمُ أمر اللّه.

والزانيةُ كذٰلك لا ينكِحُها إلا زانٍ أو مشركٌ.

﴿وحُرِّم ذٰلك على المؤمنين﴾؛ أي: حرم عليهم أن يُنْكِحُوا زانياً أو يَنْكِحُوا زانيةً. ومعنى الآية أنَّ مَن اتَّصف بالزِّنا من رجل أو امرأة، ولم يَتُبْ من ذٰلك؛ أن المُقْدِمَ على نكاحِهِ مع تحريم اللّه لذٰلك لا يخلو إمَّا أنْ لا يكون ملتزماً لحكم اللّه ورسولِهِ؛ فذاك لا يكون إلَّا مشركاً، وإمَّا أنْ يكون ملتزماً لحكم اللّه ورسولِهِ، فأقدم على نكاحِهِ، مع علمه بزناه؛ فإنَّ هٰذا النكاح زنا، والناكح زانٍ مسافح؛ فلو كان مؤمناً باللّه حقًّا؛ لم يُقْدِمْ على ذٰلك.

وهٰذا دليلٌ صريحٌ على تحريم نكاح الزانية حتى تتوبَ، وكذٰلك نكاح الزاني حتى يتوبَ؛ فإنَّ مقارنة الزوج لزوجته والزوجة لزوجها أشدُّ الاقترانات

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٦٨١٤)، ومسلم (١٦٩٢).

(٢) في (ب): «رأفة في».

(٣) في (ب): «حد الله».

والازدواجات، وقد قال تعالى: ﴿احشُروا الذين ظلموا وأزواجَهم﴾؛ أي: قرناءهم، فحرَّم اللّهُ ذٰلك لما فيه من الشرِّ العظيم، وفيه من قِلَّةِ الغَيْرَةِ وإلحاق الأولاد الذين ليسوا من الزوج، وكون الزاني لا يعفها بسبب اشتغاله بغيرها؛ مما بعضُه كافٍ في التحريم[1].

وفي هٰذا دليلٌ أنَّ الزاني ليس مؤمناً كما قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ»[2]؛ فهو وإنْ لم يكن مشركاً؛ فلا يُطْلَقُ عليه اسم المدح الذي هو الإيمانُ المطلق.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿٤﴾ لما عظَّم تعالى أمر الزنا[3] بوجوب جلدِهِ وكذا رَجمِهِ إن كان محصناً، وأنَّه لا تجوز مقارنته ولا مخالطته على وجهٍ لا يَسْلَم فيه العبدُ من الشرِّ؛ بيَّن تعالى تعظيم الإقدام على الأعراض بالرمي بالزِّنا، فقال: ﴿والذين يرمونَ المحصناتِ﴾؛ أي: النساء الأحرار العفائف، وكذٰلك الرجال، لا فرق بين الأمرين، والمرادُ بالرمي الرميُ بالزنا؛ بدليل السياق. ﴿ثم لم يأتوا﴾: على ما رموا به ﴿بأربعة شهداء﴾؛ أي: رجال عدول يشهدون بذٰلك صريحاً ﴿فاجْلِدوهم ثمانينَ جلدةً﴾: بسوطٍ متوسطٍ يؤلِمُ فيه، ولا يبالِغُ بذٰلك حتى يُتْلِفَه؛ لأن القصد التأديب لا الإتلاف.

وفي هٰذا تقريرُ حدِّ القذف، ولٰكن بشرط أن يكون المقذوف كما قال تعالى محصناً مؤمناً، وأما قذف غير المحصن؛ فإنَّه يوجِبُ التعزير، ﴿ولا تَقبَلوا لهم شهادةَ أبداً﴾؛ أي: لهم عقوبة أخرى، وهو أنَّ شهادة القاذف غير مقبولة، ولو حُدَّ على القَذْفِ، حتى يتوبَ؛ كما يأتي. ﴿وأولٰئكَ هم الفاسقونَ﴾؛ أي: الخارجون عن طاعة اللّه، الذين قد كَثُرَ شرُّهم، وذٰلك لانتهاك ما حرَّم اللّه، وانتهاك عِرْضِ أخيه، وتسليط الناس على الكلام بما تكلَّم به، وإزالة الأخوة التي عقدها اللّه بين أهل الإيمان، ومحبَّة أن تَشيعَ الفاحشةُ في الذين آمنوا. وهٰذا دليلٌ على أن القذف من كبائر الذنوب.

---

(١) في (ب): «كاف للتحريم».
(٢) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧)، من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه.
(٣) كذا في (ب)، وفي (أ) يوجد بياض على الكلمة. ولعل الصواب الزاني، والله أعلم.

﴿٥﴾ وقوله: ﴿إلّا الذين تابوا من بعدِ ذٰلك وأصْلَحوا فإنَّ اللّه غفورٌ رحيمٌ﴾: فالتوبة في هٰذا الموضع أن يُكَذِّبَ القاذفُ نفسه، ويقرَّ أنَّه كاذبٌ فيما قال، وهو واجبٌ عليه أن يُكَذِّبَ نفسه، ولو تيقَّن وقوعَه؛ حيث لم يأتِ بأربعة شهداءَ؛ فإذا تاب القاذف وأصلح عَمَلَه وبدَّل[1] إساءته إحساناً؛ زال عنه الفسقُ، وكذٰلك تُقبل شهادتُه على الصحيح؛ ﴿فإنَّ اللّه غفورٌ رحيمٌ﴾، يغفِرُ الذنوبَ جميعاً لمن تاب وأناب.

وإنَّما يُجْلَدُ القاذف إذا لم يأت بأربعة شهداء إذا لم يكن زوجاً؛ فإنْ كان زوجاً؛ فقد ذُكِرَ بقوله:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

وإنَّما كانت شهاداتُ الزوج على زوجتِهِ دارئةً عنه الحدَّ؛ لأنَّ الغالب أنَّ الزوج لا يُقْدِمُ على رمي زوجتِهِ التي يدنِّسُه ما يدنِّسُها إلا إذا كان صادقاً، ولأنَّ له في ذٰلك حقًّا، وخوفاً من إلحاق أولادٍ ليسوا منه به، ولغير ذٰلك من الحكم المفقودة في غيره، فقال:

﴿٦ ـ ٧﴾ ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾؛ أي: الأحرار لا المملوكات ﴿ولم يكن لهم﴾: على رَمْيِهِم بذٰلك ﴿شهداءُ إلّا أنفسُهُم﴾: بأن لم يُقيموا شهداء على ما رموهم به، ﴿فشهادةُ أحدِهم أربعُ شهاداتٍ باللّه إنَّه لَمِنَ الصادقين﴾: سماها شهادةً لأنها نائبةٌ منابَ الشهود؛ بأن يقولَ: أشهدُ باللّه أنّي لمن الصادقين فيما رميتُها به. ﴿والخامسةُ أنَّ لعنةَ اللّه عليه إن كان من الكاذبين﴾؛ أي: يزيد في الخامسة مع الشهادة المذكورة مؤكِّداً تلك الشهادات بأن يَدْعُوَ على نفسه باللعنة إنْ كان كاذباً؛ فإذا تَمَّ لعانُه؛ سقط عنه حدُّ القذف.

وظاهرُ الآياتِ ولو سمَّى الرجلَ الذي رماها به؛ فإنَّه يسقطُ حقُّه تَبَعاً لها.

وهل يُقام عليها الحدُّ بمجرَّد لعان الرجل ونكولها أم تُحبس؟ فيه قولانِ للعلماء، الذي يدلُّ عليه الدليل أنه يُقام عليها الحدُّ؛ بدليل قوله: ﴿ويدرؤوا عنها العذابَ أن

---

(١) في (ب): «بَدَل».

تَشْهَدَ. . .﴾ إلى آخره؛ فلولا أنَّ العذاب ـ وهو الحدُّ ـ قد وَجَبَ بلعانِهِ؛ لم يكن لعانها دارئاً له.

﴿٨ ـ ٩﴾ ﴿ويدرؤوا عنها﴾؛ أي: يدفع عنها العذاب إذا قابلتْ شهادات الزوج بشهاداتٍ من جنسها؛ ﴿أن تَشْهَدَ أربعَ شهاداتٍ بالله إنَّه لَمِنَ الكاذبين﴾، وتزيدُ في الخامسة مؤكِّدةً لذٰلك أن تدعُوَ على نفسها بالغضب، فإذا تمَّ اللِّعان بينهما؛ فُرِّقَ بينهما [إلى] الأبد، وانتفى الولد الملاعن عنه.

وظاهر الآيات يدلُّ على اشتراط هٰذه الألفاظ عند اللِّعان منه ومنها، واشتراط الترتيب فيها، وأنْ لا يُنقَصَ منها شيءٌ ولا يبدَّل شيء بشيء، وأنَّ اللعان مختصٌّ بالزوج إذا رمى امرأته، لا بالعكس، وأنَّ الشبه في الولد مع اللعان لا عبرةَ به؛ كما لا يعتبر مع الفراش، وإنما يعتبر الشبه حيث لا مرجِّح إلَّا هو.

﴿١٠﴾ ﴿ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه وأنَّ الله تَوَّابٌ حكيمٌ﴾: وجواب الشرط محذوفٌ يدلُّ عليه سياق الكلام؛ أي: لأحلَّ بأحد المتلاعنين الكاذب منهما ما دعا به على نفسه، ومن رحمتِهِ وفضلِهِ ثبوتُ هٰذا الحكم الخاصِّ بالزوجين؛ لشدَّة الحاجة إليه، وأنْ بيَّنَ لكم شدَّة الزِّنا وفظاعته وفظاعة القذف به، وأنْ شَرَعَ التوبة من هٰذه الكبائر وغيرها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ(١) لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم
مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟
بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ
لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم
بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ
بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾
وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ

---

(١) في النسختين إلى آخر الآيات وهو قوله: ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾.

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ
وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم
مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ
أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ
لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾
يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ
لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

لما ذكر فيما تقدَّم تعظيم الرمي بالزِّنا عموماً؛ صار ذٰلك كأنَّه مقدِّمة لهٰذه القصَّة التي وقعت على أشرف النساء أم المؤمنين رضي الله عنها، وهٰذه الآياتُ نزلتْ في قصة الإفك المشهورة الثابتة في الصحاح والسُّنن والمسانيد[1]، وحاصلُها أنَّ النبيَّ ﷺ في بعض غزواته ومعه زوجتُهُ عائشة الصديقةُ بنت الصديق، فانقطع عِقْدُها، فانحبست في طلبه، ورَحَّلوا جَمَلَها وهَوْدَجها فلم يَفْقِدوها، ثم استقلَّ الجيش راحلاً، وجاءت مكانَهم، وعلمتْ أنَّهم إذا فقدوها؛ رجعوا إليها، فاستمروا في مسيرِهم، وكان صفوانُ بن المعطل السُّلميُّ من أفاضل الصحابة رضي الله عنه، قد عـرَّس في أخريات القوم ونام، فرأى عائشة رضي الله عنها، فعرفها، فأناخ راحلتَه، فركِبَتْها من دون أن يكلِّمَها أو تكلِّمَه، ثم جاء يقودُ بها بعدما نزل الجيشُ في الظهيرة، فلما رأى بعضُ المنافقين الذين في صحبة النبيِّ ﷺ في ذٰلك السفر مجيء صفوان بها في هٰذه الحال؛ أشاع ما أشاع، ووشي الحديث، وتلقَّفته الألسن، حتى اغترَّ بذٰلك بعضُ المؤمنين، وصاروا يتناقلون هٰذا الكلام، وانحبس الوحي مدةً طويلةً عن رسول الله ﷺ، وبلغ الخبرُ عائشة بعد ذٰلك بمدَّة، فحزنت حزناً شديداً؛ فأنزل الله براءتها في هٰذه الآيات، ووعظَ الله المؤمنينَ وأعظَمَ ذٰلك، ووصَّاهم بالوصايا النافعة.

(١) قصة الإفك: أخرجها البخاري (٤٧٥٠ و٤٧٥٧)، ومسلم (٢٧٧٠)، وأحمد (٦/ ١٩٤)، وانظر «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٣).

﴿١١﴾ فقوله تعالى: ﴿إنَّ الذين جاؤوا بالإفكِ﴾؛ أي: الكذب الشنيع، وهو رمي أم المؤمنين، ﴿عصبةٌ منكُم﴾؛ أي: جماعة منتسِبون إليكم يا معشر المؤمنين، منهم المؤمن الصادقُ في إيمانه، لكنَّه اغترَّ بترويج المنافقين، ومنهم المنافق. ﴿لا تَحْسَبوه شرًّا لكم بل هو خيرٌ لكم﴾: لِما تضمَّنَ ذلك تبرئةَ أمِّ المؤمنين ونزاهتَها والتنويهَ بذِكْرها، حتى تناول عمومُ المدح سائرَ زوجاتِ النبيِّ ﷺ، ولِما تضمَّن من بيان الآياتِ المضطرِّ إليها العباد، التي ما زال العملُ بها إلى يوم القيامة؛ فكل هذا خيرٌ عظيمٌ، لولا مقالَةُ أهل الإفك، لم يحصل بذلك[1]، وإذا أراد الله أمراً؛ جعل له سبباً، ولذلك جَعَلَ الخطابَ عامًّا مع المؤمنين كلهم، وأخبر أنَّ قَدْحَ بعضِهم ببعض كقدح في أنفسهم؛ ففيه أنَّ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم واجتماعِهم على مصالحهم كالجسدِ الواحدِ، والمؤمنُ للمؤمن كالبنيانِ يشدُّ بعضُه بعضاً؛ فكما أنَّه يكره أن يَقْدَحَ أحدٌ في عرضه؛ فليكرهْ مِنْ كلِّ أحدٍ أن يَقْدَحَ في أخيه المؤمن الذي بمنزلة نفسه، وما لم يصل العبدُ إلى هذه الحالة؛ فإنَّه من نَقْصِ إيمانه وعدم نُصحه. ﴿لكلِّ امرئٍ منهم ما اكْتَسَبَ من الإثم﴾: وهذا وعيدٌ للذين جاؤوا بالإفك، وأنَّهم سيُعاقبون على ما قالوا من ذلك، وقد حدَّ النبيُّ ﷺ منهم جماعةً. ﴿والذي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾؛ أي: معظم الإفك، وهو المنافقُ الخبيثُ عبدالله بن أُبيّ بن سَلول لعنه الله. ﴿له عذابٌ عظيمٌ﴾: ألا وهو الخلودُ في الدرك الأسفل من النار.

﴿١٢﴾ ثم أرشدَ الله عباده عند سماع مثل هذا الكلام، فقال: ﴿لولا إذْ سَمِعْتُموه ظنَّ المؤمنون والمؤمناتُ بأنفسِهم خيراً﴾؛ أي: ظنَّ المؤمنون بعضُهم ببعضٍ خيراً، وهو السلامة مما رُمُوا به، وأنَّ ما معهم من الإيمان المعلوم يَدْفَعُ ما قيل فيهم من الإفك الباطل. ﴿وقالوا﴾ بسبب ذلك الظَّنِّ: ﴿سبحانك﴾؛ أي: تنزيهاً لك من كلِّ سوء، وعن أن تَبتليَ أصفياءكَ بالأمور الشنيعة. ﴿هذا إفكٌ مبينٌ﴾؛ أي: كذبٌ وبهتٌ من أعظم الأشياء وأبينها؛ فهذا من الظنِّ الواجب حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن مثلَ هذا الكلام، وأن يبرِئَه بلسانِهِ، ويكذِّبَ القائل لذلك.

﴿١٣﴾ ﴿لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداءَ﴾؛ أي: هلَّا جاء الرامون على ما رَمَوْا به بأربعة شهداء؛ أي: عدول مرضيين، ﴿فإذْ لم يأتوا بالشهداءِ فأولئك عندَ اللهِ هم

(١) في (ب): «ذلك».

الكاذبونَ﴾: وإن كانوا في أنفسِهم قد تيقَّنوا ذٰلك؛ فإنَّهم كاذبونَ في حكم اللّه؛ لأنَّه حرَّمَ عليهم التكلُّم بذٰلك من دون أربعة شهود، ولهٰذا قال: ﴿فأولئك عند اللّه هم الكاذبون﴾: ولم يَقُلْ: فأولئك هم الكاذبون، وهٰذا كلُّه من تعظيم حرمةِ عِرْضِ المسلم؛ بحيثُ لا يجوز الإقدام على رميِهِ من دون نِصاب الشهادة بالصدق.

﴿١٤﴾ ﴿ولولا فضلُ اللّهِ عليكم ورحمتُهُ في الدُّنيا والآخرة﴾: بحيث شملكم إحسانُه فيهما في أمر دينكم ودنياكم ﴿لَمَسَّكُم فيما أفَضتُم﴾؛ أي: خضتم ﴿فيه﴾: من شأن الإفك ﴿عذابٌ عظيمٌ﴾: لاستحقاقِكم ذٰلك بما قلتُم، ولٰكن من فضل اللّه عليكم ورحمتِهِ أن شَرَعَ لكم التوبةَ، وجعل العقوبةَ مطهِّرةً للذنوب.

﴿١٥﴾ ﴿إذ تَلَقَّوْنَه بألسِنَتِكم﴾؛ أي: تلقَّفونه ويُلقيه بعضُكم إلى بعض وتستوشون حديثَه وهو قولٌ باطلٌ. ﴿وتقولون بأفواهِكُم ما ليس لكم به علمٌ﴾: والأمران محظوران؛ التكلُّم بالباطل، والقولُ بلا علم. ﴿وتحسبونَه هيِّناً﴾: فلذٰلك أقدمَ عليه مَن أقدمَ مِن المؤمنين الذين تابوا منه. وتطهَّروا بعد ذٰلك. ﴿وهو عندَ اللّه عظيمٌ﴾: وهٰذا فيه الزجرُ البليغ عن تعاطي بعض الذُّنوب على وجه التهاون بها؛ فإنَّ العبدَ لا يُفيدُه حسبانُه شيئاً، ولا يخفِّف من عقوبتِهِ الذنب، بل يضاعِفُ الذنب، ويسهلُ عليه مواقعتُه مرةً أخرى.

﴿١٦﴾ ﴿ولولا إذ سمِعْتُموه﴾؛ أي: وهلَّا إذ سمعتُم أيها المؤمنون كلامَ أهل الإفك، ﴿قلتم﴾: منكرين لذٰلك معظِّمين لأمرِه: ﴿ما يكونُ لنا أن نتكَلَّمَ بهٰذا﴾؛ أي: ما ينبغي لنا وما يليقُ بنا الكلامُ بهٰذا الإفك المبين؛ لأنَّ المؤمن يمنعُه إيمانُه من ارتكاب القبائح. ﴿هٰذا بهتانٌ﴾؛ أي: كذب ﴿عظيمٌ﴾.

﴿١٧﴾ ﴿يعِظُكم اللّهُ أن تعودوا لمثلِهِ﴾؛ أي: لنظيره من رمي المؤمنين بالفُجور؛ فاللّه يعِظُكم وينصحُكم عن ذٰلك، ونعم المواعظ والنصائح من ربِّنا؛ فيجبُ علينا مقابلتُها بالقبول والإذعان والتسليم والشُّكر له على ما بيَّن لنا، أنَّ اللّه نِعِمَّا يَعِظُكم به. ﴿إنْ كنتُم مؤمنينَ﴾: دلَّ ذٰلك على أنَّ الإيمان الصادق يمنعُ صاحبه من الإقدام على المحرَّمات.

﴿١٨﴾ ﴿ويبيِّن اللّهُ لكم الآياتِ﴾: المشتملة على بيان الأحكام والوعظِ والزجر والترغيب والترهيب، يوضِّحُها لكم توضيحاً جليًّا. ﴿واللّه عليم (حكيم)[1]﴾؛ أي:

(١) زيادة من هامش (أ) بخط مغاير.

كامل العلم، عامُّ الحكمة؛ فمن علمِهِ وحكمتِهِ أن علَّمكم من علمه، وإنْ كان ذٰلك راجعاً لمصالحكم في كلِّ وقت.

﴿١٩﴾ ﴿إنَّ الذين يحبُّونَ أن تشيعَ الفاحشةُ﴾؛ أي: الأمور الشنيعة المستَقْبَحة، فيحبُّون أن تشتهر الفاحشة ﴿في الذين آمنوا لهم عذابٌ أليمٌ﴾؛ أي: موجع للقلب والبدن، وذٰلك لغشِّه لإخوانه المسلمين، ومحبة الشرِّ لهم، وجراءته على أعراضهم؛ فإذا كان هٰذا الوعيد لمجرَّد محبَّة أن تشيعَ الفاحشةُ واستحلاء ذٰلك بالقلب؛ فكيف بما هو أعظمُ من ذٰلك من إظهارِهِ ونقلِهِ؟ وسواء كانت الفاحشةُ صادرةً أو غير صادرةٍ، وكل هٰذا من رحمة الله لعباده المؤمنين، وصيانة أعراضهم؛ كما صان دماءهم وأموالهم، وأمرهم بما يقتضي المصافاة، وأن يحبَّ أحدُهم لأخيه ما يحبُّ لنفسه، ويكرَهَ له ما يكرَهُ لنفسه. ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾: فلذٰلك علَّمكم، وبيَّن لكم ما تجهلونَه.

﴿٢٠﴾ ﴿ولولا فضلُ الله عليكم﴾: قد أحاط بكم من كلِّ جانب ﴿ورحمتُهُ﴾ عليكم، ﴿وأنَّ الله رءوفٌ رحيم﴾: لما بيَّن لكم هٰذه الأحكام والمواعظ والحِكَم الجليلة، ولمَا أمهلَ من خالف أمره، ولٰكنَّ فضلَه ورحمتَه، وأنَّ ذٰلك وصفه اللازم أثر لكم من الخيرِ الدنيويِّ والأخرويِّ ما لن تحصوه أو تعدُّوه.

﴿٢١﴾ ولما نهى عن هٰذا الذنب بخصوصِهِ؛ نهى عن الذُّنوب عموماً، فقال: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تتَّبِعوا خطواتِ الشيطانِ﴾؛ أي: طرقَه ووساوسَه. وخطواتُ الشيطان يدخُلُ فيها سائرُ المعاصي المتعلِّقة بالقلب واللسان والبدن.

ومن حكمتِهِ تعالى أن بيَّن الحُكْمَ ـ وهو النهي عن اتِّباع خطوات الشيطان ـ والحِكْمة ـ وهو بيانُ ما في المنهيِّ عنه من الشرِّ المقتضي والداعي لتركه ـ، فقال: ﴿ومَن يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشيطانِ فإنَّه﴾؛ أي: الشيطان ﴿يأمُرُ بالفحشاءِ﴾؛ أي: ما تستفحشُه العقول والشرائعُ من الذُّنوب العظيمة مع ميل بعض النفوس إليه، ﴿والمنكرِ﴾: وهو ما تُنْكِرُهُ العقولُ ولا تعرِفُه؛ فالمعاصي التي هي خُطُوات الشيطان لا تَخْرُجُ عن ذٰلك، فنهى الله عنها العبادَ نعمةً منه عليهم أن يشكُروه ويَذْكُروه؛ لأنَّ ذٰلك صيانةٌ لهم عن التدنُّس بالرذائل والقبائح؛ فمن إحسانِهِ عليهم أنْ نهاهم عنها كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها. ﴿ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمتُهُ ما زكى منكم من أحدٍ أبداً﴾؛ أي: ما تطهَّر من اتِّباع خطواتِ الشيطانِ؛ لأنَّ الشيطان يسعى هو وجندُه في الدعوة إليها وتحسينِها، والنفس ميالةٌ إلى السوء أمَّارةٌ

به، والنقصُ مستولٍ على العبدِ من جميعِ جهاتِهِ، والإيمانُ غير قويٍّ؛ فلو خُلِّي وهٰذه الدواعي؛ ما زكى أحدٌ بالتطهُّرِ من الذُّنوب والسيئات والنماء بفعلِ الحسنات؛ فإنَّ الزكاء يتضمَّن الطهارة والنماء، ولكنَّ فضلَه ورحمتَه أوجبا أن يتزكَّى منكم من تزكَّى، وكان من دعاء النبيِّ ﷺ: «اللهمَّ! آتِ نفسي تَقْواها، وزكِّها أنت خيرُ من زَكَّاها، أنت وَلِيُّها ومولاها»[١]. ولهٰذا قال: ﴿ولٰكنَّ اللّٰه يزكِّي مَن يشاءُ﴾: من يعلمُ منه أن يتزكَّى[٢] بالتزكية، ولهٰذا قال: ﴿واللّٰه سميعٌ عليمٌ﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿ولا يَأْتَلِ﴾؛ أي: لا يحلف ﴿أولو الفضل منكُم والسَّعة أن يُؤتوا أولي القُربى والمساكينَ والمهاجرينَ في سبيل اللّٰه وَلْيَعْفوا وَلْيَصْفَحوا﴾: كان من جملة الخائضينَ في الإفك مِسْطَح بن أُثاثة، وهو قريبٌ لأبي بكرٍ الصديق رضي اللّٰه عنه، وكان مسطحٌ فقيراً من المهاجرين في سبيل اللّٰه، فحلفَ أبو بكرٍ أن لا يُنْفِقَ عليه؛ لقولِهِ الذي قال، فنزلتْ هٰذه الآيةُ [ينهاه][٣] عن هٰذا الحَلِفَ المتضمِّن لقطع النفقة عنهُ، ويحثُّه على العفو والصفح، ويَعِدُهُ بمغفرةِ اللّٰه إنْ غَفَرَ له، فقال: ﴿ألا تُحبُّونَ أن يَغْفِرَ اللّٰهُ لكم واللّٰهُ غفورٌ رحيمٌ﴾: إذا عامَلْتُم عبيدَه بالعفو والصفح؛ عاملكم بذٰلك، فقال أبو بكرٍ لمَّا سمع هٰذه الآية: بلى واللّٰه؛ إني لأحبُّ أن يَغْفِرَ اللّٰه لي، فَرَجَّعَ النفقةَ إلى مِسْطَحٍ.

وفي هٰذه الآيةِ دليلٌ على النفقة على القريب، وأنَّه لا تُتْرَكُ النفقةُ والإحسانُ بمعصية الإنسان، والحثُّ على العفو والصفح ولو جرى منه ما جرى من أهل الجرائم.

﴿٢٣﴾ ثم ذكر الوعيدَ الشديدَ على رمي المحصنات، فقال: ﴿إنَّ الذين يَرْمونَ المحصناتِ﴾؛ أي: العفائف عن الفجور ﴿الغافلاتِ﴾: اللاتي[٤] لم يَخْطُرْ ذٰلك بقلوبهنَّ، ﴿المؤمناتِ لُعِنوا في الدُّنيا والآخرة﴾: واللعنةُ لا تكونُ إلَّا على ذنبٍ كبيرٍ، وأكَّد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين. ﴿ولهم عذابٌ عظيمٌ﴾: وهٰذا زيادةٌ على اللعنة، أبعدَهم عن رحمتِهِ وأحلَّ بهم شدَّة نقمتِهِ، وذٰلك العذاب يوم القيامة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم.

(٢) في (ب): «يزكي».

(٣) كذا في (ب). وفي (أ): «ينهاهم».

(٤) في (ب): «التي».

﴿٢٤﴾ ﴿يوم تشهدُ عليهم ألسِنَتُهم وأيديهم وأرجُلُهم بما كانوا يعملونَ﴾: فكلُّ جارحةٍ تشهدُ عليه بما عَمِلَته، يُنطِقُها الذي أنطق كلَّ شيءٍ؛ فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل في العباد مَنْ جَعَلَ شهودَهم من أنفسهم.

﴿٢٥﴾ ﴿يومئذٍ يوفِّيهم الله دينَهُمُ الحقَّ﴾؛ أي: جزاءهم على أعمالهم الجزاء الحقَّ الذي بالعدل والقسط؛ يجدون جزاءها موفَّراً لم يفقدوا منها شيئاً، ﴿وقالوا يا وَيْلَتَنا مالِ هٰذا الكتابِ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلَّا أحصاها وَوَجَدوا ما عَمِلوا حاضراً ولا يَظْلِمُ ربُّكَ أحداً﴾، ﴿ويعلمونَ﴾ في ذٰلكَ الموقف العظيم ﴿أنَّ اللّه هو الحقُّ المبينُ﴾، فيعلمون انحصار الحقِّ المبين في اللّه تعالى؛ فأوصافُه العظيمةُ حقٌّ، وأفعالُه هي الحقُّ، وعبادتُه هي الحقُّ، ولقاؤه حقٌّ، [ووعدُه] ووعيدُه حقٌّ، وحكمه الدينيُّ والجزائيُّ حقٌّ، ورسلُه حقٌّ؛ فلا ثَمَّ حقٌّ إلَّا في اللّه، وما مِن اللّه.

﴿٢٦﴾ ﴿الخبيثاتُ للخبيثين والخبيثونَ للخبيثاتِ﴾؛ أي: كلُّ خبيثٍ من الرجال والنساء والكلماتِ والأفعال مناسبٌ للخبيثِ وموافقٌ له ومقترنٌ به ومشاكلٌ له، وكلُّ طيبٍ من الرجال والنساءِ والكلماتِ والأفعال مناسبٌ للطيِّبِ وموافقٌ له ومقترنٌ به ومشاكلٌ له؛ فهٰذه كلمةٌ عامةٌ وحصرٌ لا يخرجُ منه شيءٌ، من أعظم مفرداتِهِ أنَّ الأنبياء، خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً سيدهم محمد ﷺ، الذي هو أفضلُ الطيِّبين من الخلق على الإطلاق، لا يناسِبُهم إلَّا كلُّ طيبٍ من النساء؛ فالقدح في عائشة رضي اللّه عنها بهٰذا الأمر قدحٌ في النبيِّ ﷺ، وهو المقصودُ بهٰذا الإفكِ من قصد المنافقين؛ فمجرَّدُ كونِها زوجةً للرسول ﷺ يعلمُ أنَّها لا تكون إلَّا طيبةً طاهرةً من هٰذا الأمر القبيح؛ فكيف وهي ما هي[1] صديقةُ النساء وأفضلُهن وأعلمُهن وأطيبُهن حبيبةُ رسول ربِّ العالمين التي لم ينزِلِ الوحيُ عليه وهو في لحافِ زوجةٍ من زوجاتِهِ غيرها[2]؟!

ثم صرَّح بذٰلك بحيثُ لا يبقى لمبطلٍ مقالاً، ولا لشكٍّ وشبهةٍ مجالاً، فقال: ﴿أولٰئك مبرَّؤونَ مما يقولونَ﴾: والإشارةُ إلى عائشة رضي اللّه عنها أصلاً، وللمؤمناتِ المحصناتِ الغافلاتِ تبعاً لها. ﴿مغفرةٌ﴾: تستغرق الذنوب. ﴿ورزقٌ كريمٌ﴾: في الجنة صادرٌ من الربِّ الكريم.

---

(١) في (ب): «وهي هي».

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٨١)، ومسلم (٢٤٤٢) عن عائشة رضي اللّه عنها.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٢٧ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٢٨ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ۝٢٩﴾.

﴿٢٧﴾ يُرشد الباري عبادَه المؤمنين أن لا يدخُلوا بيوتاً غير بيوتهم بغيرِ استئذانٍ؛ فإنَّ في ذٰلك عدَّةَ مفاسدَ:

منها: ما ذكرهُ الرسولُ ﷺ: حيث قال: «إنَّما جُعِلَ الاستئذانُ من أجل البصرِ»[1]؛ فبسبب الإخلال به يقع البصر على العوراتِ التي داخل البيوت؛ فإنَّ البيت للإنسان في ستر عورةِ ما وراءه بمنزلة الثوبِ في ستر عورةِ جسدِهِ.

ومنها: أنَّ ذٰلك يوجب الرِّيبةَ من الداخل، ويتَّهم بالشرِّ سرقةٍ أو غيرها؛ لأنَّ الدُّخول خفيةً يدلُّ على الشرِّ، ومنع اللّه المؤمنين من دخول غير بيوتهم ﴿حتى تَسْتَأْنِسوا[2]﴾؛ أي: تستأذنوا، سمى الاستئذانَ استئناساً؛ لأنَّ به يحصُلُ الاستئناس، وبعدمه تحصُل الوحشةُ، ﴿وتُسَلِّموا على أهلها﴾: وصفة ذٰلك ما جاء في الحديث: «السلام عليكم، أأدخل؟»[3]. ﴿ذٰلكم﴾؛ أي: الاستئذان المذكور ﴿خيرٌ لكم لعلَّكم تذَكَّرون﴾: لاشتماله على عدَّة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة؛ فإن أذن؛ دخل المستأذن.

﴿٢٨﴾ ﴿فإن لم تجدوا فيها أحداً﴾: فلا تدخلوا فيها ﴿حتى يُؤْذَنَ لكم وإن قيلَ لكم ارجِعوا فارجِعوا﴾؛ أي: فلا تمتنعوا من الرُّجوع ولا تغضبوا منه؛ فإنَّ صاحب المنزل لم يمنَعْكم حقًّا واجباً لكم، وإنَّما هو متبرعٌ؛ فإنْ شاء أذن أو منع؛ فأنتم لا يأخذ أحدكم الكبرُ والاشمئزازُ من هٰذه الحال؛ ﴿هو أزكى لكم﴾؛ أي: أشدُّ لتطهيركم من السيئاتِ وتنميتكم بالحسنات. ﴿واللّه بما تعملونَ عليم﴾: فيجازي كلَّ عامل بعملِهِ من كثرةٍ وقلَّةٍ وحسنٍ وعدمِهِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤١)، ومسلم (٢١٥٦) من حديث سهل بن سعد.

(٢) في (ب): «يستأنسوا».

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٤)، وأبو داود (٥١٧٦)، والترمذي (٢٨٥٣)، والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (٨١٨).

﴿٢٩﴾ هٰذا الحكم في البيوت المسكونة سواء كان فيها متاعٌ للإنسان أم لا، وفي البيوت غير المسكونة التي لا متاع فيها للإنسان، وأما البيوتُ التي ليس فيها أهلُها، وفيها متاعُ الإنسان المحتاج للدخول إليه، وليس فيها أحدٌ يتمكَّن من استئذانه، وذٰلك كبيوت الكراء وغيرها؛ فقد ذكرها بقوله: ﴿ليس عليكم جُناحٌ﴾؛ أي: حرجٌ وإثمٌ؛ دلَّ على أنَّ الدُّخول من غير استئذان في البيوت السابقة أنه محرَّم وفيه حرج ﴿أن تدخُلوا بيوتاً غير مسكونةٍ فيها متاعٌ لكم﴾: وهٰذا من احترازاتِ القرآن العجيبةِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿لا تدخُلوا بيوتاً غير بيوتكم﴾: لفظٌ عامٌّ في كل بيت ليس ملكاً للإنسان، أخرج منه تعالى البيوتَ التي ليست ملكَه وفيها متاعُهُ وليس فيها ساكنٌ، فأسقط الحرج في الدُّخول إليها. ﴿والله يعلم ما تُبدونَ وما تكتُمون﴾: أحوالَكم الظاهرةَ والخفيَّة، وعلم مصالِحَكُم؛ فلذٰلك شَرَعَ لكم ما تحتاجون إليه وتضطرُّون من الأحكام الشرعيَّة.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٣٠﴾ أي: أرشدِ المؤمنين وقُلْ لهم الذين معهم إيمانٌ يمنعُهم من وقوع ما يُخِلُّ بالإيمان ﴿يغضُّوا من أبصارِهم﴾: عن النظر إلى العورات وإلى النساء الأجنبيَّات وإلى المُرْدانِ، الذين يُخاف بالنظرِ إليهم الفتنة وإلى زينة الدُّنيا التي تفتنُ وتوقِعُ في المحذور. ﴿ويحفَظُوا فروجَهم﴾: عن الوطء الحرام في قُبُل أو دُبُر أو ما دونَ ذٰلك وعن التمكين من مسِّها والنظر إليها. ﴿ذٰلك﴾: الحفظُ للأبصار والفروج ﴿أزكى لهم﴾: أطهرُ وأطيبُ وأنمى لأعمالهم؛ فإنَّ من حَفِظَ فرجَه وبصرَه؛ طَهُرَ من الخَبَثِ الذي يتدنَّس به أهلُ الفواحش، وزَكَتْ أعمالُه بسبب تركِ المحرَّم الذي[1] تطمعُ إليه النفس وتدعو إليه؛ فمن تَرَكَ شيئاً لله؛ عوَّضه الله خيراً منه، ومن غضَّ بصره عن المحرم أنار الله بصيرتَه، ولأنَّ العبد إذا حَفِظَ فرجَه وبصرَه عن الحرام ومقدّماته مع دواعي الشهوة؛ كان حفظُه لغيرِهِ أبلغَ، ولهٰذا سمَّاه الله حفظاً؛ فالشيء المحفوظُ إن لم يجتهدْ حافظُهُ في مراقبتِهِ وحفظِهِ وعمل الأسباب الموجبة لحفظِهِ؛ لم يَنْحَفِظْ، كذٰلك البصر والفرج إن لم يجتهدِ العبدُ في حفظِهِما؛ أوقعاه في بلايا ومحنٍ.

---

(١) في (ب): «التي».

وتأمَّل كيف أمر بحفظِ الفرج مطلقاً لأنَّه لا يُباح في حالةٍ من الأحوال، وأما البصرُ؛ فقال: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أبصارِهم﴾: أتى بأداة مِنْ الدالَّة على التبعيض؛ فإنَّه يجوز النظر في بعض الأحوال لحاجةٍ؛ كنظر الشاهدِ والمعامل والخاطبِ ونحو ذٰلك. ثم ذكَّرهم بعلمِهِ بأعمالهم ليجتهِدوا في حفظ أنفسِهم من المحرَّمات.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣١﴾ لما أمر المؤمنين بغضِّ الأبصار وحفظ الفروج؛ أمر المؤمناتِ بذٰلك، فقال: ﴿وقُل للمؤمنات يَغْضُضْنَ من أبصارِهِنَّ﴾: عن النظر إلى العورات والرجال بشهوةٍ ونحو ذٰلك من النظر الممنوع. ﴿ويَحْفَظْنَ فروجَهُنَّ﴾: من التمكين من جماعها أو مسِّها أو النظر المحرَّم إليها، ﴿ولا يُبْدينَ زينَتَهُنَّ﴾: كالثياب الجميلة والحلي وجميع البدن كلِّه من الزينة. ولما كانت الثيابُ الظاهرة لا بدَّ لها منها؛ قال: ﴿إلَّا ما ظَهَرَ منها﴾؛ أي: الثياب الظاهرة التي جرتِ العادةُ بلبسها إذا لم يكنْ في ذٰلك ما يدعو إلى الفتنة بها، ﴿وَلْيَضرِبْنَ بخُمُرِهِنَّ على جيوبهنَّ﴾: وهٰذا لكمال الاستتار.

ويدلُّ ذٰلك على أن الزينةَ التي يحرُمُ إبداؤها يدخل فيها جميعُ البدن كما ذكرنا.

ثم كرَّر النهي عن إبداء زينتهن؛ ليستثني منه قوله: ﴿إلَّا لِبُعولَتِهِنَّ﴾؛ أي: أزواجهنَّ، ﴿أو آبائهنَّ أو آباء بعولتهنَّ﴾: يشمل الأبَ بنفسه والجدَّ وإنْ علا، [﴿أو أبنائهنَّ أو أبناءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾: ويدخل فيه الأبناء، أو أبناء البعولة مهما نزلوا]، ﴿أو إخوانهنَّ أو بني إخوانهنَّ﴾: أشقاء أو لأبٍ أو لأم. ﴿أو بني أخواتِهِنَّ أو نسائهنَّ﴾؛ أي: يجوز للنساء أن يَنْظُرَ بعضُهنَّ إلى بعض مطلقاً، ويُحتمل أنَّ الإضافة تقتضي الجنسية؛ أي: النساء المسلمات اللاتي من جنسكنَّ؛ ففيه دليلٌ لِمَنْ قال: إنَّ المسلمةَ لا يجوزُ أن تَنْظُرَ إليها الذِّمِّيَّةُ، ﴿أو ما ملكتْ أيمانُهُنَّ﴾: فيجوز للمملوك إذا كان كلُّه للأنثى أن يَنْظُرَ لسيِّدَتِه ما دامت مالكةً له كلِّه؛ فإذا زال الملكُ أو بعضُه؛ لم يجزِ

النظر، ﴿أو التابعينَ غيرِ أولي الإِرْبَةِ من الرجال﴾؛ أي: [أو][1] الذين يَتْبَعونَكم ويتعلَّقون بكم من الرجال الذين لا إربةَ لهم في هٰذه الشهوة؛ كالمعتوه الذي لا يدري ما هنالك، وكَالْعِنِّين الذي لم يبقَ له شهوةٌ لا في فرجه ولا في قلبه؛ فإنَّ هٰذا لا محذورَ من نظرِهِ. ﴿أو الطفل الذين لم يَظْهَروا على عوراتِ النساءِ﴾؛ أي: الأطفال الذين دونَ التمييزِ؛ فإنَّه يجوز نَظَرُهم للنساء الأجانب، وعلَّل تعالى ذٰلك بأنَّهم ﴿لم يظهروا على عورات النساءِ﴾؛ أي: ليس لهم علمٌ بذٰلك، ولا وجدتْ فيهم الشهوةُ بعدُ، ودلَّ هٰذا أنَّ المميِّز تستترُ منه المرأةُ؛ لأنَّه يظهرُ على عوراتِ النساء.

﴿ولا يَضْرِبنَ بأرجلهنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخفينَ من زينتهنَّ﴾؛ أي: لا يَضْرِبْنَ الأرض بأرجُلِهِنَّ ليصوِّتَ ما عليهنَّ من حلي كخلاخل وغيرها، فَتُعْلَمَ زينتُها بسببه، فيكونَ وسيلةً إلى الفتنة.

ويؤخَذُ من هٰذا ونحوه قاعدةُ سدِّ الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحاً ولٰكنَّه يفضي إلى محرم أو يُخاف من وقوعه؛ فإنَّه يمنع منه. فالضَّرْبُ بالرجل في الأرض الأصلُ أنَّه مباحٌ، ولكن لما كان وسيلةً لعلم الزينة؛ منع منه.

ولما أمر تعالى بهٰذه الأوامر الحسنة، ووصَّى بالوصايا المستحسنة، وكان لا بدَّ من وقوع تقصيرٍ من المؤمن بذٰلك؛ أمر الله تعالى بالتوبة، فقال: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيُّها المؤمنون﴾، [لأن المؤمنَ يدعوه إيمانه إلى التوبة]. ثم علَّق على ذٰلك الفلاح، فقال: ﴿لعلَّكم تفلحونَ﴾: فلا سبيلَ إلى الفلاح إلَّا بالتوبة، وهي الرجوع مما يكرهُهُ الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبُّه ظاهراً وباطناً. ودلَّ هٰذا أنَّ كلَّ مؤمن محتاجٌ إلى التوبة؛ لأنَّ الله خاطب المؤمنين جميعاً. وفيه الحثُّ على الإخلاص بالتوبة في قوله: ﴿وتوبوا إلى الله﴾؛ أي: لا لمقصد غير وجهه من سلامةٍ من آفات الدُّنيا أو رياءٍ وسمعة، أو نحو ذٰلك من المقاصد الفاسدة.

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

(١) في (أ): «والذين».

﴿٣٢﴾ يأمر تعالى الأولياء والأسيادَ بإنكاح مَنْ تحتَ ولايَتِهِم من الأيامى، وهم مَنْ لا أزواجَ لهم من رجالٍ ونساءٍ ثَيِّبٍ وأبكارٍ، فيجب على القريب وولي اليتيم أن يزوِّجَ مَنْ يحتاجُ للزواج ممَّن تجبُ نفقته عليه، وإذا كانوا مأمورين بإنكاح مَنْ تحتَ أيديهم؛ كان أمرُهم بالنِّكاح بأنفسهم من باب أولى. ﴿والصالحين من عبادِكُم وإمائِكُم﴾: يُحتمل أنَّ المرادَ بالصالحين صلاحُ الدين، وأنَّ الصالح من العبيد والإماءِ ـ وهو الذي لا يكون فاجراً زانياً ـ مأمورٌ سيِّده بإنكاحه جزاءً له على صلاحِهِ وترغيباً له فيه، ولأنَّ الفاسد بالزِّنا منهيٌّ عن تزوُّجه، فيكون مؤيِّداً للمذكور في أول السورة أنَّ نِكاح الزاني والزانية محرمٌ حتى يتوبَ، ويكون التخصيصُ بالصلاح في العبيد والإماء دونَ الأحرارِ؛ لكثرة وجود ذلك في العبيد عادة.

ويُحتمل أنَّ المرادَ بالصَّالحين الصَّالحين للتزوُّج المحتاجين إليه من العبيد والإماء، يؤيِّدُ هذا المعنى أنَّ السيِّد غير مأمورٍ بتزويج مملوكِهِ قبل حاجتِهِ إلى الزواج، ولا يبعُدُ إرادةُ المعنيينِ كليهما. والله أعلم. وقوله: ﴿إن يكونوا فقراءَ﴾؛ أي: الأزواج والمتزوِّجين، ﴿يُغْنِهِمُ الله من فضلِهِ﴾: فلا يمنعكم ما تتوهَّمون من أنَّه إذا تزوَّج افتقر بسبب كَثْرَةِ العائلة ونحوه.

وفيه حثٌّ على التزوُّج ووعدٌ للمتزوِّج بالغنى بعد الفقر. ﴿والله واسعٌ﴾: كثير الخير عظيمُ الفضل. ﴿عليمٌ﴾: بمن يستحقُّ فضلَه الدينيَّ والدنيويَّ أو أحدَهما ممَّن لا يستحقُّ، فيعطي كلًّا ما علمه، واقتضاه حكمه.

﴿٣٣﴾ ﴿وليستعفِفِ الذين لا يَجِدون نكاحاً حتى يُغنيهم الله من فضلِهِ﴾: هذا حكم العاجز عن النِّكاح، أمره الله أن يستعففَ؛ أنْ يكفَّ عن المحرَّم ويفعلَ الأسبابَ التي تكفُّه عنه، من صرف دواعي قلبه بالأفكارِ التي تخطُرُ بإيقاعِهِ فيه، ويفعل أيضاً كما قال النبيُّ ﷺ: «يا معشر الشباب! من استطاعَ منكم الباءَةَ؛ فليتزوَّجْ، ومن لم يستَطِعْ؛ فعليه بالصَّوم، فإنَّه له وجاء»[١]. وقوله: ﴿الذين لا يَجِدون نكاحاً﴾؛ أي: لا يقدرون نكاحاً: إما لفقرهم، أو فقر أوليائهم وأسيادهم، أو امتناعهم من تزويجهم، وليس لهم قدرةٌ[٢] على إجبارهم على ذلك. وهذا التقدير أحسنُ من تقدير مَنْ قَدَّر لا يجدونَ مهر نكاح، وجعلوا المضاف إليه نائباً

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠) من حديث ابن مسعود.

(٢) في (ب): «من قدرة».

منابَ المضاف؛ فإنَّ في ذٰلك محذورين: أحدهما: الحذفُ في الكلام، والأصل عدم الحذف. والثاني: كون المعنى قاصراً على مَنْ له حالان: حالةُ غنى بمالِهِ، وحالةُ عُـدْم، فيخرُجُ العبيد والإماءُ ومَنْ إنكاحُهُ على وليِّهِ كما ذكرنا، ﴿حتى يُغْنِيَهُمُ اللّهُ من فضلِهِ﴾: وعدٌ للمستعفف أنَّ اللّه سَيُغْنِيه وييسِّرُ له أمره، وأمرٌ له بانتظار الفرج؛ لئلا يشقَّ عليه ما هو فيه.

وقوله: ﴿والذين يبتغونَ الكتاب مما مَلَكَتْ أيمانكُم فكاتِبوهم إن علمتُم فيهم خيراً﴾؛ أي: من ابتغى وطلب منكم الكتابةَ وأن يَشْتَرِي نفسَه من عبيدٍ وإماءٍ؛ فأجيبوه إلى ما طلب، وكاتبوه، ﴿إنْ علمتُم فيهم﴾؛ أي: في الطالبين للكتابة ﴿خيراً﴾؛ أي: قدرة على التكسُّب وصلاحاً في دينه؛ لأنَّ في الكتابة تحصيلَ المصلحتين: مصلحة العِتْقِ والحريَّة، ومصلحة العوض الذي يبذُلُه في فداء نفسه، وربما جدَّ واجتهد وأدرك لسيِّده في مدَّة الكتابة من المال ما لا يحصُلُ في رقِّه، فلا يكون ضررٌ على السيِّد في كتابتِهِ، مع حصول عظيم المنفعة للعبد؛ فلذٰلك أمر اللّه بالكتابة على هٰذا الوجه أمرَ إيجابٍ؛ كما هو الظاهر، أو أمر استحبابٍ على القول الآخر، وأمر بمعاوَنَتِهِم على كتابَتِهِم؛ لكونهم محتاجين لذٰلك؛ بسبب أنَّهم لا مال لهم، فقال: ﴿وآتوهم من مال اللّه الذي آتاكم﴾؛ يدخل في ذٰلك أمر سيده الذي كاتبه أن يعطيه من كتابته أو يسقط عنه منها وأمر الناس بمعونتهم، ولهٰذا جعل اللّه للمكاتبين قسطاً من الزكاة ورغب في إعطائه بقوله: ﴿من مال اللّه الذي آتاكم﴾؛ أي: فكما أن المال مال اللّه، وإنَّما الذي بأيديكم عطيَّةٌ من اللّه لكم ومحضُ مِنَّة؛ فأحسنوا لعباد اللّه كما أحسن اللّه إليكم.

ومفهومُ الآية الكريمة أنَّ العبد إذا لم يطلبِ الكتابة؛ لا يؤمَرُ سيِّدُه أن يبتدئ بكتابته، وأنَّه إذا لم يعلم منه خيراً؛ بأن عَلِمَ منه عكسَه: إمَّا أنَّه يعلم أنه لا كَسْبَ له، فيكون بسبب ذٰلك كَلًّا على الناس ضائعاً، وإمَّا أن يخافَ إذا عُتِقَ وصار في حريَّةِ نفسِهِ أن يتمكَّن من الفسادِ؛ فهٰذا لا يؤمر بكتابتِهِ، بل ينهى عن ذٰلك؛ لما فيه من المحذور المذكور.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم﴾؛ أي: إماءكم ﴿على البِغاءِ﴾؛ أي: أن تكون زانيةً؛ ﴿إنْ أردنَ تحصُّناً﴾: لأنه لا يُتَصَوَّر إكراهُها إلَّا بهٰذه الحال، وأما إذا لم تُرِدْ تحصُّناً؛ فإنها تكونُ بغيًّا يجبُ على سيِّدها منعُها من ذٰلك، وإنما هٰذا نهيٌ لما كانوا يستعمِلونه في الجاهليَّة من كون السيِّد يُجْبِرُ أمَتَه على البغاءِ؛ ليأخذ منها أجرة

ذٰلك، ولهٰذا قال: ﴿لِتَبْتَغوا عَرَضَ الحياةِ الدُّنيا﴾: فلا يَليقُ بكم أن تكونَ إماؤكم خيراً منكم وأعفَّ عن الزِّنا وأنتم تفعلونَ بهنَّ ذٰلك لأجل عَرَضِ الحياة؛ متاع قليل يَعْرِضُ ثم يزولُ؛ فكسبُكم النزاهةَ والنظافةَ والمروءةَ بقطع النظر عن ثوابِ الآخرة وعقابِها أفضلُ من كسبِكُم العَرَضَ القليل الذي يُكْسِبُكُمُ الرذالةَ والخسَّة.

ثم دعا مَنْ جرى منه الإكراه إلى التوبة، فقال: ﴿وَمَن يُكْرِههُنَّ فإنَّ اللّٰه من بعدِ إكراهِهِنَّ غفورٌ رحيمٌ﴾: فليتُبْ إلى اللّٰه، ولْيقلعْ عما صدر منه مما يُغْضِبُه؛ فإذا فَعَلَ ذٰلك؛ غَفَرَ اللّٰه ذنوبَه ورَحِمَه؛ كما رَحِمَ نفسه بفكاكها من العذاب، وكما رَحِمَ أَمَتَهُ بعدم إكراهِها على ما يضرُّها.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٤﴾ هٰذا تعظيمٌ وتفخيمٌ لهٰذه الآيات التي تلاها على عبادِهِ؛ ليعرفوا قَدْرَها ويقوموا بحقِّها، فقال: ﴿ولقد أنْزَلْنا إليكم آياتٍ مُبَيِّناتٍ﴾؛ أي: واضحاتِ الدَّلالةِ على كلِّ أمر تحتاجون إليه من الأصول والفُروع؛ بحيث لا يبقى فيها إشكالٌ ولا شبهةٌ. ﴿و﴾: أنزلنا إليكم أيضاً ﴿مَثَلاً من الذين خَلَوْا من قَبْلِكُم﴾: من أخبار الأوَّلين؛ الصالح منهم والطالح، وصفة أعمالهم، وما جرى لهم وجرى عليهم؛ تعتبِرونَه مثالاً ومعتَبَراً لمن فَعَلَ مثل أعمالهم أنْ يُجازى مثل ما جُوزوا. ﴿وموعظةً للمتَّقين﴾؛ أي: وأنزلنا إليكم موعظةً للمتَّقين؛ من الوعدِ والوعيدِ والترغيبِ والترهيبِ؛ يتَّعِظُ بها المتَّقون، فيكفُّون عما يكره اللّٰه إلى ما يحبُّه اللّٰه.

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٥﴾ ﴿اللّٰه نورُ السمٰواتِ والأرض﴾: الحسيُّ والمعنويُّ. وذٰلك أنَّه تعالى بذاتِهِ نورٌ، وحجابه نورٌ، الذي لو كَشَفَه لأحرقت سُبُحاتُ وجهِهِ ما انتهى إليه بصره من خلقه، وبه استنار العرشُ والكرسيُّ والشمسُ والقمر والنورُ، وبه استنارت الجنةُ. وكذٰلك [النُّور] المعنويُّ يرجِعُ إلى اللّٰه؛ فكتابه نورٌ، وشرعُه نورٌ، والإيمانُ والمعرفةُ في قلوب رسله وعباده المؤمنين نورٌ؛ فلولا نورُهُ تعالى؛ لتراكمتِ الظُّلمات، ولهٰذا كلُّ محلٍّ يفقد نورَه؛ فثمَّ الظُّلمة والحصرُ. ﴿مَثَلُ نورِهِ﴾: الذي

يهدي إليه، وهو نورُ الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين ﴿كمشكاةٍ﴾؛ أي: كوَّة ﴿فيها مصباحٌ﴾: لأنَّ الكوَّة تجمع نورَ المصباح بحيث لا يتفرَّق. ذٰلك ﴿المصباح في زُجاجةٍ الزجاجةُ﴾: من صفائها وبهائها، ﴿كأنَّها كوكبٌ دُرِّيٌّ﴾؛ أي: مضيء إضاءة الدرِّ، ﴿يوقَدُ﴾: ذٰلك المصباح الذي في تلك الزجاجة الدُّرِّيَّةِ ﴿من شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ﴾؛ أي: يوقَد من زيت الزيتون، الذي نارُه من أنور ما يكون ﴿لا شرقيَّةٍ﴾: فقط؛ فلا تصيبُها الشمس آخر النهار ﴿ولا غربيَّةٍ﴾: فقط؛ فلا تصيبها الشمس [آخر][1] النهار. وإذا انتفى عنها الأمران؛ كانت متوسطةً من الأرض؛ كزيتون الشام؛ تصيبُه الشمس أول النهار وآخره، فَيَحْسُنُ ويَطيبُ ويكونُ أصفى لزيتها، ولهٰذا قال: ﴿يكادُ زيتُها﴾: من صفائه ﴿يضيءُ ولو لم تمسَسْهُ نارٌ﴾: فإذا مسَّتْه النار؛ أضاء إضاءةً بليغةً. ﴿نورٌ على نورٍ﴾؛ أي: نور النار ونور الزيت.

ووجه هٰذا المثل الذي ضربه الله وتطبيقُه على حالةِ المؤمن ونورِ الله في قلبه أنَّ فطرتَه التي فُطِرَ عليها بمنزلة الزيتِ الصافي؛ ففطرتُه صافيةٌ مستعدَّة للتعاليم الإلٰهية والعمل المشروع؛ فإذا وصل إليه العلم والإيمان؛ اشتعل ذٰلك النور في قلبه بمنزلة اشتعال النار في فتيلةِ ذٰلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصدِ وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان؛ أضاء إضاءةً عظيمةً لصفائِهِ من الكُدورات، وذٰلك بمنزلة صفاء الزُّجاجة الدُّرِّيَّةِ، فيجتمع له نورُ الفطرة ونورُ الإيمان ونورُ العلم وصفاء المعرفة نورٌ على نورِهِ.

ولما كان هٰذا من نور الله تعالى، وليس كلُّ أحدٍ يَصْلُحُ له ذٰلك؛ قال: ﴿يهدي الله لنورِهِ مَن يشاءُ﴾: ممَّن يعلم زكاءه وطهارته، وأنه يزكي معه وينمو. ﴿ويضرِبُ الله الأمثالَ للناس﴾: ليعقلوا عنه ويفهموا؛ لطفاً منه بهم، وإحساناً إليهم، وليتَّضِحَ الحقُّ من الباطل؛ فإنَّ الأمثال تقرِّبُ المعاني المعقولة من المحسوسة، فيعلمها العبادُ علماً واضحاً. ﴿والله بكلِّ شيءٍ عليم﴾: فعلمُهُ محيطٌ بجميع الأشياء، فَلْتَعْلَموا أنَّ ضربهَ الأمثالَ ضَرْبُ مَن يعلمُ حقائقَ الأشياء وتفاصيلها وأنَّها مصلحةٌ للعباد؛ فليكن اشتغالُكُم بتدبُّرها وتعقُّلها لا بالاعتراض عليها ولا بمعارضتها؛ فإنَّه يعلم وأنتم لا تعلمونَ.

ولما كان نورُ الإيمان والقرآنِ أكثر وقوع أسبابِهِ في المساجد؛ ذكرها منوِّهاً بها، فقال:

---

(١) كذا في النسختين، وقد طمست الكلمة في (أ) وكتب بدلها: أول، بخط مغاير. وهو الصواب.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)﴾.

﴿٣٦﴾ أي: يُتَعَبَّدُ لله ﴿في بيوتٍ﴾: عظيمةٍ فاضلةٍ هي أحبُّ البقاع إليه، وهي المساجد، ﴿أَذِنَ الله﴾؛ أي: أمر ووصَّى ﴿أن تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسمُه﴾: هٰذان مجموع أحكام المساجد، فيدخُلُ في رفعها بناؤها وكنسُها وتنظيفُها من النجاسات والأذى وصونُها عن المجانين والصبيانِ الذين لا يتحرَّزون عن النجاسات وعن الكافرِ وأن تُصان عن اللغوِ فيها ورفع الأصواتِ بغير ذِكْرِ الله. ﴿ويُذْكَرَ فيها اسمُه﴾: يدخلُ في ذٰلك الصلاة كلُّها؛ فرضُها ونفلُها، وقراءةُ القرآن، والتسبيحُ، والتهليلُ، وغيره من أنواع الذِّكر، وتعلُّم العلم وتعليمُه، والمذاكرةُ فيها، والاعتكافُ، وغيرُ ذٰلك من العباداتِ التي تُفْعَلُ في المساجد، ولهٰذا كانت عِمارةُ المساجد على قسمين: عمارةُ بنيانٍ وصيانةٍ لها، وعمارةٌ بذكرِ اسم الله من الصلاة وغيرها، وهٰذا أشرف القسمين، ولهٰذا شُرِعَتِ الصلواتُ الخمس والجمعةُ في المساجد وجوباً عند أكثر العلماء واستحباباً عند آخرين.

﴿٣٧﴾ ثم مدح تعالى عُمَّارها بالعبادة، فقال: ﴿يُسَبِّحُ له﴾: إخلاصاً ﴿بالغدوِّ﴾: أول النهار ﴿والآصالِ﴾: آخره ﴿رجالٌ﴾: خصَّ هذين الوقتين لِشَرَفِهما ولتيسُّر السير فيهما إلى الله وسهولتِهِ، ويدخل في ذٰلك التسبيح في الصلاة وغيرها، ولهٰذا شُرِعَتْ أذكارُ الصباح والمساء وأورادُهما عند الصباح والمساء؛ أي: يسبِّح فيها لله رجالٌ، وأيُّ رجال؟! ليسوا ممَّن يؤثِرُ على ربِّه دنيا ذات لذاتٍ ولا تجارةٍ ومكاسبَ مشغلة عنه. ﴿لا تُلهيهم تجارةٌ﴾: وهٰذا يَشْمَلُ كلَّ تكسُّب يُقصد به العِوَضُ، فيكون قوله: ﴿ولا بَيْعٌ﴾: من باب عطف الخاصِّ على العامِّ؛ لكَثْرة الاشتغال بالبيع على غيره؛ فهٰؤلاء الرجال وإن اتَّجروا وباعوا واشْتَرَوا؛ فإنَّ ذٰلك لا محذور فيه، لٰكنَّه لا تلهيهم تلك بأن يقدِّموها ويؤثِروها على ﴿ذِكْرِ الله وإقام الصَّلاةِ وإيتاءِ الزكاة﴾: بل جعلوا طاعةَ الله وعبادتَه غايةَ مرادِهم ونهايةَ مقصدِهم؛ فما حال بينَهم وبينَها رفضوه.

ولما كان تركُ الدُّنيا شديداً على أكثر النفوس وحبُّ المكاسب بأنواع التجاراتِ محبوباً لها، ويشقُّ عليها تركُه في الغالب وتتكلَّفُ من تقديم حقِّ الله على ذٰلك؛ ذَكَرَ ما يَدْعوها إلى ذٰلك ترغيباً وترهيباً، فقال: ﴿يخافون يوماً تتقلَّبُ فيه القلوبُ

والأبصارُ﴾: من شدَّة هولِهِ وإزعاجِهِ للقلوب والأبدان؛ فلذٰلك خافوا ذٰلك اليوم، فَسَهُلَ عليهم العملُ وتركُ ما يَشْغَلُ عنه.

﴿٣٨﴾ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللّه أحسنَ ما عَمِلوا﴾: والمرادُ بـ ﴿أحسن ما عَمِلوا﴾: أعمالُهم الحسنة الصالحة؛ لأنَّها أحسنُ ما عملوا؛ لأنهم يعملون المباحاتِ وغيرها؛ فالثواب لا يكون إلَّا على العمل الحسن؛ كقوله تعالى: ﴿ليكفِّرَ اللّهُ عنهم أسوأَ الذي عَمِلوا ويَجْزِيَهم أجْرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملون﴾، ﴿ويزيدَهم من فَضْلِهِ﴾: زيادةً كثيرةً عن الجزاء المقابل لأعمالهم. ﴿واللّه يَرْزُقُ مَنْ يشاءُ بغير حساب﴾: بل يُعطيه من الأجر ما لا يبلغُهُ عملُه، بل ولا تبلُغُه أمنيَّتُه، ويعطيه من الأجر بلا عدٍّ ولا كيلٍ، وهٰذا كنايةٌ عن كثرتِهِ جدًّا.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

هٰذان مثلان ضربهما اللّه لأعمال الكفار في بطلانِها وذَهابها سدىً وتحسُّر عامليها منها، فقال:

﴿٣٩﴾ ﴿والذين كفروا﴾: بربِّهم وكذَّبوا رسلَه ﴿أعمالُهم كسرابٍ بِقيعةٍ﴾؛ أي: بقاعٍ لا شَجَرَ فيه ولا نبتَ ﴿يحسبُهُ الظمآنُ ماءً﴾: شديد العطش، الذي يتوهم ما لا يتوهم غيره، بسبب ما معه من العطش، وهٰذا حسبانٌ باطلٌ، فيقصده ليزيل ظمأه ﴿حتى إذا جاءه لم يَجِدْه شيئاً﴾: فندم ندماً شديداً، وازداد ما به من الظمأ بسبب انقطاع رجائه؛ كذٰلك أعمال الكفار بمنزلة السراب، تُرى ويظنُّها الجاهل الذي لا يدري الأمور أعمالاً نافعة، فيغرُّه صورتها، ويخلُبُه خيالُها، ويحسبُها هو أيضاً أعمالاً نافعة لهواه، وهو أيضاً محتاجٌ إليها، بل مضطرٌّ إليها؛ كاحتياج الظمآن للماء، حتى إذا قدم على أعماله يوم الجزاء؛ وجدها ضائعةً، ولم يجدْها شيئاً، والحال أنَّه لم يذهبْ لا له ولا عليه، بل ﴿وجد اللّه عنده فوفَّاه حسابَهُ﴾: لم يَخْفَ عليه من عملِهِ نقيرٌ ولا قِطمير، ولنْ يَعْدَمَ منه قليلاً ولا كثيراً. ﴿واللّه سريعُ الحساب﴾: فلا يَسْتَبْطِىء الجاهلون ذٰلك الوعد؛ فإنَّه لا بدَّ من إتيانه، وَمَثَّلَها اللّه بالسراب الذي ﴿بقيعةٍ﴾؛ أي: لا شجر فيه ولا نبات، وهٰذا مثالٌ لقلوبِهم؛ لا خير

فيها ولا بِرّ فتزكو فيها الأعمال، وذٰلك للسبب المانع، وهو الكفر.

﴿٤٠﴾ **والمثل الثاني** لبطلان أعمال الكفار: ﴿كظُلُماتٍ في بحرٍ لُجِّيٍّ﴾: بعيدِ قعرُهُ طويل مداهُ، ﴿يغشاه موجٌ من فوقِهِ موجٌ من فوقِهِ سحابٌ ظلماتٌ بعضُها فوق بعضٍ﴾: ظلمةُ البحر اللُّجِّيِّ، ثم فوقه ظلمة الأمواج المتراكمة، ثم فوق ذٰلك ظلمة السحب المدلهمَّة، ثم فوق ذٰلك ظلمةُ الليل البهيم، فاشتدَّت الظلمةُ جدًّا؛ بحيث أنَّ الكائن في تلك الحال ﴿إذا أخرجَ يَدَه لم يكدْ يراها﴾: مع قربِها إليه؛ فكيف بغيرها؟! كذٰلك الكفار تراكمت على قلوبهم الظلماتُ؛ ظلمةُ الطبيعة التي لا خير فيها، وفوقها ظلمةُ الكفر، وفوقَ ذٰلك ظلمةُ الجهل، وفوق ذٰلك ظلمةُ الأعمال الصادرة عمَّا ذُكِرَ، فبقوا في الظُّلمة متحيِّرين، وفي غمرتهم يَعْمَهون، وعن الصراط المستقيم مُدْبِرون، وفي طرق الغيِّ والضلال يتردَّدون، وهٰذا لأنَّ الله خَذَلَهم فلم يُعْطِهِم من نوره. ﴿ومَن لم يَجْعَلِ الله له نوراً فما له من نورٍ﴾: لأنَّ نفسَه ظالمةٌ جاهلةٌ، فليس فيها من الخير والنور إلَّا ما أعطاها مولاها ومنحها ربُّها.

يُحْتَمَل أنَّ هٰذين المثالين لأعمال جميع الكفار؛ كلٌّ منهما منطبقٌ عليها، وعدَّدهما لتعدُّد الأوصاف، ويُحتمل أنَّ كلَّ مثال لطائفةٍ وفرقةٍ؛ فالأوَّل للمتبوعين، والثاني للتابعين. والله أعلم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤١﴾ نبَّه[1] تعالى عبادَه على عظمتِهِ وكمال سلطانِهِ وافتقارِ جميع المخلوقاتِ له في ربوبيَّتها وعبادتها، فقال: ﴿ألم تر أنَّ الله يسبِّحُ له مَن في السمٰواتِ والأرضِ﴾: من حيوانٍ وجمادٍ، ﴿والطيرُ صافاتٍ﴾؛ أي: صافات أجنحَتِها في جوِّ السماء تسبِّحُ ربَّها. ﴿كلٌّ﴾: من هٰذه المخلوقات ﴿قد عَلِمَ صلاتَه وتسبيحَه﴾؛ أي: كلٌّ له صلاةٌ وعبادةٌ بحسب حاله اللائقة به، وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح: إما بواسطة الرسل كالجن والإنس والملائكة، وإما بإلهام منه تعالى كسائر المخلوقات غير ذٰلك.

وهٰذا الاحتمال أرجح؛ بدليل قوله: ﴿والله عليمٌ بما يفعلونَ﴾؛ أي: علم جميعَ

---

(١) في (ب): «ينبه».

أفعالها، فلم يخفَ عليه منه شيء، وسيجازيهم بذلك، فيكون على هٰذا قد جَمَعَ بين علمها بأعمالهم، وذٰلك بتعليمه، وبين علمه بأعمالهم المتضمِّن للجزاء. ويُحتمل أنَّ الضمير في قوله: ﴿قد علم صلاتَه وتسبيحَه﴾: يعودُ إلى اللّه، وأنَّ اللّه تعالى قد عَلِمَ عباداتِهِم، وإنْ لم تَعْلَموا أيُّها العبادُ منها إلَّا ما أطلعكم اللّه عليه. وهٰذه الآية كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ له السمٰواتُ السبعُ والأرضُ ومَنْ فيهنَّ وإن من شيءٍ إلَّا يسبِّح بحمدِهِ ولٰكن لا تَفْقَهونَ تسبيحَهم إنَّه كان حليماً غفوراً﴾.

﴿٤٢﴾ فلما بيَّن عبوديَّتهم وافتقارهم إليه من جهة العبادة والتوحيد؛ بيَّن افتقارَهم من جهة الملك والتربية والتدبير، فقال: ﴿ولله ملكُ السمٰواتِ والأرض﴾: خالقهما[1] ورازقهما والمتصرِّفُ فيهما في حكمه الشرعيِّ والقدريِّ في هٰذه الدار وفي حكمه الجزائيِّ بدار القرار؛ بدليل قوله: ﴿وإلى اللّه المصيرُ﴾؛ أي: مرجع الخلق ومآلهم ليجازِيَهم بأعمالهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٣﴾ أي: ألم تشاهدْ ببصرِك عظيمَ قدرةِ اللّه وكيف ﴿يُزجي﴾؛ أي: يسوق ﴿سحاباً﴾: قطعاً متفرقة، ﴿ثم يؤلِّفُ﴾: بين تلك القطع، فيجعلُه سحاباً متراكماً مثل الجبال ﴿فترى الوَدْقَ﴾؛ أي: الوابل والمطر يخرجُ من خلال السحابِ نقطاً متفرِّقة؛ ليحصُلَ بها الانتفاع من دون ضررٍ، فتمتلىء بذلك الغُدران، وتتدفَّق الخُلجان، وتسيل الأوديةُ، وتنبتُ الأرض من كلِّ زوج كريم. وتارةً ينزِّلُ اللّه من ذٰلك السحاب بَرَداً يُتْلِفُ ما يصيبُه ﴿فيصيبُ به من يشاءُ ويصرِفُه عن مَن يشاءُ﴾؛ أي: بحسب اقتضاء حكمه القدريِّ وحكمتِهِ التي يُحْمَدُ عليها، ﴿يكاد سَنا بَرْقِهِ﴾؛ أي: يكادُ ضوءُ برق ذٰلك السحاب من شدَّته ﴿يذهبُ بالأبصارِ﴾؛ أليس الذي أنشأها وساقَها لعبادِهِ المفتقرين وأنزلها على وجهٍ يحصُلُ به النفع وينتفي به الضررُ كاملَ القدرة نافذَ المشيئة واسعَ الرحمة؟!

﴿٤٤﴾ ﴿يقلِّب اللّه الليل والنهار﴾: من حرٍّ إلى برد، ومن بردٍ إلى حرٍّ، ومن ليل

---

(١) في (ب): «خالقها».

إلى نهار، ونهار إلى ليل ويُديلُ الأيام بين عبادِهِ. ﴿إنَّ في ذٰلك لَعبرةً لأولي الأبصار﴾؛ أي: لذوي البصائر والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهَدَة الحسيَّة؛ فالبصير ينظُرُ إلى هٰذه المخلوقات نَظَرَ اعتبار وتفكُّر وتدبُّر لما أريدَ بها ومنها، والمعرضُ الجاهل نَظَرُهُ إليها نظرُ غفلةٍ بمنزلة نَظَرِ البهائم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٥﴾ ينبِّه عباده على ما يشاهدونَه أنَّه خَلَقَ جميع الدوابِّ التي على وجه الأرض ﴿من ماءٍ﴾؛ أي: مادَّتُها كلُّها الماء؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنا من الماءِ كلَّ شيءٍ حيٍّ﴾؛ فالحيوانات التي تتوالد، مادتها ماءُ النطفةِ حين يلقحُ الذَّكر الأنثى، والحيوانات التي تتولَّد من الأرض لا تتولَّد إلَّا من الرطوبات المائيَّة؛ كالحشرات، لا يوجد منها شيءٌ يتولَّد من غير ماء أبداً؛ فالمادَّة واحدةٌ، ولٰكن الخِلْقَةَ مختلفةٌ من وجوه كثيرة. ﴿فمنهم من يمشي على بطنِهِ﴾؛ كالحيَّة ونحوها، ﴿ومنهم مَنْ يمشي على رجلينِ﴾؛ كالآدميِّين وكثيرٍ من الطُّيور، ﴿ومنهم من يمشي على أربعٍ﴾؛ كبهيمة الأنعام ونحوها؛ فاختلافُها مع أنَّ الأصل واحدٌ يدلُّ على نفوذِ مشيئة الله وعموم قدرتِهِ. ولهٰذا قال: ﴿يَخْلُقُ الله ما يشاءُ﴾؛ أي: من المخلوقات على ما يشاؤه من الصفات. ﴿إنَّ الله على كلِّ شيء قديرٌ﴾؛ كما أنزل المطر على الأرض، وهو لقاحٌ واحدٌ، والأمُّ واحدةٌ، وهي الأرضُ، والأولاد مختلفو الأصنافِ والأوصافِ. ﴿وفي الأرض قطعٌ متجاوراتٌ وَجَنَّاتٌ من أعنابٍ وَزَرْعٍ ونَخيلٍ صِنْوانٌ وغَيْرُ صنوانٍ يُسْقى بماءٍ واحدٍ ونُفَضِّلُ بعضَها على بعض في الأُكُلِ إنَّ في ذٰلك لآياتٍ لقوم يعقلونَ﴾.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٦﴾ أي: لقد رَحِمْنا عبادنا وأنزلنا إليهم آياتٍ بيِّناتٍ؛ أي: واضحات الدِّلالة على جميع المقاصد الشرعيَّة والآداب المحمودة والمعارف الرشيدة، فاتَّضحتْ بذٰلك السُّبُل، وتبيَّن الرُّشْدُ من الغيِّ والهُدى من الضلال؛ فلم يبقَ أدنى شبهةٍ لمبطل يتعلَّقُ بها، ولا أدنى إشكال لمريدِ الصواب؛ لأنَّها تنزيلُ مَنْ كَمُلَ علمهُ وكَمُلَتْ رحمتُه وكَمُلَ بيانُه؛ فليس بعد بيانِهِ بيان. لِيَهْلِكَ بعد ذٰلك مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنَةٍ وَيَحْيا مَنْ حَيَّ عن بَيِّنَةٍ. ﴿والله يهدي مَنْ يشاءُ﴾: ممَّن سبقتْ لهم سابقةُ الحسنى وقَدَمُ الصدق

﴿إلى صراطٍ مستقيم﴾؛ أي: طريق واضح مختصر موصِل إليه وإلى دار كرامته متضمِّنٍ العلمَ بالحقِّ وإيثارَه والعملَ به. عمَّمَ البيانَ التامَّ لجميع الخَلْق، وخَصَّصَ بالهدايةِ مَنْ يشاءُ؛ فهٰذا فضلُه وإحسانُه، وما فضلُ الكريم بممنونٍ، وذاك عدلُه، وقَطَعَ الحجَّةَ للمحتجِّ، واللّه أعلم حيثُ يجعل مع مواقع إحسانه.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٧﴾ يخبر تعالى عن حالةِ الظَّالمينَ ممَّن في قلبه مرضٌ وضعفُ إيمانٍ أو نفاقٌ وريْبٌ وضعفٌ، علم أنَّهم يقولون بألسنتهم ويلتزمون الإيمان باللّه والطاعة، ثم لا يقومون بما قالوا، ويتولَّى فريقٌ منهم عن الطاعة تولياً عظيماً؛ بدليل قوله: ﴿وهم معرضونَ﴾؛ فإنَّ المتولِّي قد يكون له نيَّةُ عَوْدٍ ورُجوع إلى ما تولَّى عنه، وهٰذا المتولِّي معرضٌ لا التفات له ولا نَظَرَ لما تولَّى عنه. وتجدُ هٰذه الحالة مطابقةً لحال كثيرٍ ممَّن يَدَّعي الإيمان والطاعة للّه، وهو ضعيفُ الإيمان، تجِدُه لا يقومُ بكثيرٍ من العبادات، خصُوصاً العبادات التي تشقُّ على كثيرٍ من النفوس؛ كالزكوات، والنفقات الواجبة والمستحبَّة، والجهاد في سبيل اللّه، ونحو ذٰلك.

﴿٤٨﴾ ﴿وإذا دُعوا إلى اللّه ورسوله ليحكم بينهم﴾؛ أي: إذا صار بينَهم وبينَ أحدٍ حكومةٌ ودُعوا إلى [حكم] اللّه ورسوله، ﴿إذا فريقٌ منهم معرِضونَ﴾: يريدونَ أحكامَ الجاهليَّة ويفضِّلون أحكام القوانينِ غيرِ الشرعيَّة على الأحكام الشرعيَّة؛ لعلمِهِم أنَّ الحقَّ عليهم، وأنَّ الشرع لا يحكُم إلَّا بما يطابِقُ الواقع.

﴿٤٩﴾ ﴿وإن يكن لهم الحقُّ يأتوا إليه﴾؛ أي: إلى حكم الشرع ﴿مُذْعِنينَ﴾: وليس ذٰلك لأجل أنَّه حكم شرعيٌّ، وإنَّما ذٰلك لأجل موافقة أهوائهم؛ فليسوا ممدوحينَ في هٰذه الحال، ولو أتوا إليه مذعنين؛ لأنَّ العبدَ حقيقةً مَن يتَّبع الحقَّ فيما يحبُّ ويكره، وفيما يسرُّه ويحزنُه. وأما الذي يتَّبع الشرع عند موافقة هواه وينبِذُهُ عند مخالفتِهِ، ويقدِّم الهوى على الشرع؛ فليس بعبدٍ على الحقيقة.

﴿٥٠﴾ قال اللّه في لومهم على الإعراض عن الحكم الشرعي: ﴿أفي قلوبِهِم مرضٌ﴾؛ أي: علَّة أخرجت القلبَ عن صحَّتِهِ وأزالت حاسَّته فصار بمنزلة المريض

الذي يعرِضُ عمَّا ينفعه ويُقْبِلُ على ما يضرُّه. ﴿أم ارتابوا﴾؛ أي: شكُّوا وقلقتْ قلوبُهم من حكم اللّه ورسوله واتَّهموه أنه لا يحكُمُ بالحقِّ. ﴿أم يخافون أن يحيفَ اللّهُ عليهم ورسولُه﴾؛ أي: يحكم عليهم حكماً ظالماً جائراً، وإنَّما هٰذا وصفُهم؛ ﴿بل أولٰئك هم الظالمونَ﴾، وأما حكْم اللّهِ ورسولِهِ؛ ففي غاية العدالةِ والقِسْط وموافقةِ الحكمة، ﴿ومَنْ أحسنُ من اللّه حُكْماً لقوم يوقِنونَ﴾.

وفي هٰذه الآيات دليلٌ على أنَّ الإيمان ليس هو مجرد القول حتى يقترِنَ به العملُ، ولهٰذا نفى الإيمان عمَّنْ تولَّى عن الطاعة ووجوب الانقياد لحكم اللّه ورسولِهِ في كلِّ حال، وأنَّ مَن لم يَنْقَدْ له دلَّ على مرض في قلبِهِ ورَيْبٍ في إيمانِهِ، وأنَّه يحرم إساءة الظنِّ بأحكام الشريعة، وأنْ يظنَّ بها خلاف العدل والحكمة.

ولمَّا ذكرَ حالةَ المعرِضين عن الحكم الشرعيِّ، ذَكَرَ حالة المؤمنين الممدوحين، فقال:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٥١﴾ أي: ﴿إنَّما كان قولَ المؤمنين﴾: حقيقةً، الذين صَدَّقوا إيمانَهم بأعمالهم حين يدعون ﴿إلى اللّه ورسولِهِ لِيَحْكُم بينَهم﴾: سواء وافق أهواءهم أو خالفها، ﴿أنْ يقولوا سَمِعْنا وأطَعْنا﴾؛ أي: سمعنا حكم اللّه ورسولِهِ وأجَبْنا مَنْ دعانا إليه وأطعنا طاعةً تامةً سالمةً من الحرج. ﴿وأولٰئك هم المفلحونَ﴾: حَصَرَ الفلاح فيهم؛ لأنَّ الفلاحَ الفوزُ بالمطلوب والنجاةُ من المكروه، ولا يُفْلِحُ إلَّا مَنْ حَكَّمَ اللّهَ ورسولَه وأطاع اللّهَ ورسولَه.

﴿٥٢﴾ ولما ذَكَرَ فضلَ الطاعة في الحكم خصوصاً؛ ذَكَرَ فضلَها عموماً في جميع الأحوال، فقال: ﴿ومَنْ يُطِعِ اللّهَ ورسولَه﴾: فيصدِّقُ خَبَرَهُما ويمتثلُ أمْرَهُما ﴿ويَخْشَ اللّه﴾؛ أي: يخافه خوفاً مقروناً بمعرفة، فيترُكُ ما نهى عنه، ويكفُّ نفسَه عمَّا تَهْوى، ولهٰذا قال: ﴿ويَتَّقْهِ﴾: بترك المحظور؛ لأن التَّقْوى عند الإطلاق يدخُلُ فيها فعلُ المأمور وتركُ المنهيِّ عنه، وعند اقترانها بالبرِّ أو الطاعة ـ كما في هٰذا الموضع ـ تفسَّر بتوقِّي عذاب اللّه بترك معاصيه. ﴿فأولٰئك﴾: الذين جَمَعوا بين طاعةِ اللّه وطاعةِ رسوله، وخشيةِ اللّه وتقواه ﴿هم الفائزون﴾: بنجاتِهم من العذاب؛ لتركِهم أسبابَه، ووصولِهم إلى الثواب؛ لفعلهم أسبابه؛ فالفوزُ محصورٌ فيهم، وأمَّا

مَنْ لم يتَّصِفْ بوصفِهِم؛ فإنَّه يفوته من الفوز بحسب ما قصَّر عنه من هٰذه الأوصافِ الحميدة.

واشتملتْ هٰذه الآيةُ على الحقِّ المشترك بين اللّه وبين رسوله، وهو الطاعةُ المستلزمةُ للإيمان، والحقِّ المختص باللّه، وهو الخشيةُ والتقوى، وبقي الحقُّ الثالث المختصُّ بالرسول، وهو التعزيرُ والتوقيرُ؛ كما جَمَعَ بين الحقوق الثلاثة في سورة الفتح في قوله: ﴿لِتُؤمِنوا باللّهِ ورسولِهِ وتعزِّروهُ وتوقِّروهُ وتسبِّحوهُ بُكْرَةً وأصيلاً﴾.

﴿۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٣﴾ يخبِرُ تعالى عن حالة المتخلِّفين عن الرسول ﷺ في الجهادِ من المنافقين ومَن في قلوبِهِم مرضٌ وضَعْفُ إيمان أنَّهم يقسِمون باللّه: ﴿لئن أمَرْتَهم﴾: فيما يُسْتَقْبَلُ أو لئنْ نصصتَ عليهم حين خرجتَ؛ ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ والمعنى الأولُ أولى. قال اللّه رادًّا عليهم: ﴿قُلْ لا تقسِموا﴾؛ أي: لا نحتاج إلى إقسامكم وإلى أعذاركم؛ فإنَّ اللّه قد نبَّأنا من أخباركم. وطاعتُكم معروفةٌ لا تَخفى علينا، قد كُنَّا نعرِفُ منكم التثاقلَ والكسلَ من غير عذرٍ؛ فلا وجهَ لِعُذْرِكم وقَسَمِكم، إنَّما يحتاجُ إلى ذٰلك من كان أمرُهُ محتملاً وحاله مُشتبهةً؛ فهٰذا ربما يفيدُه العذر براءةً، وأمَّا أنتم؛ فكلَّا ولمَّا، وإنَّما يُنْتَظَرُ بكم ويُخاف عليكم حلول بأس اللّه ونقمته، ولهٰذا توعَّدهم بقوله: ﴿إنَّ اللّه خبيرٌ بما تعملون﴾: فيجازِيكم عليها أتمَّ الجزاء.

﴿٥٤﴾ هٰذه حالُهم في نفس الأمر، وأمَّا الرسولُ عليه الصلاة والسلام؛ فوظيفتُهُ أنْ يأمُرَكم وينهاكُم، ولهٰذا قال: ﴿قُلْ أطيعوا اللّهَ وأطيعوا الرسولَ فإن﴾: امتثلوا؛ كان حظُّكم وسعادَتكم، وإنْ ﴿تَوَلَّوْا فإنَّما عليه ما حُمِّلَ﴾: من الرسالة، وقد أدَّاها، ﴿وعليكُم ما حُمِّلْتُم﴾: من الطاعة، وقد بانت حالُكم وظهرتْ، فبان ضلالُكم وغيُّكم واستحقاقُكم العذاب. ﴿وإن تُطيعوه تَهْتَدوا﴾: إلى الصراط المستقيم قولاً وعملاً؛ فلا سبيلَ لكم إلى الهداية إلَّا بطاعتِهِ، وبدون ذٰلك لا يمكنُ، بل هو محالٌ. ﴿وما على الرسول إلَّا البلاغُ المُبينُ﴾؛ أي: تبليغُكُم البيِّنُ الذي لا يُبقي لأحدٍ شَكًّا ولا شبهةً، وقد فعل ﷺ؛ بَلَّغَ البلاغَ المُبين، وإنَّما الذي يحاسِبُكم ويجازيكم هو اللّه تعالى؛ فالرسول ليس له من الأمرِ شيءٌ، وقد قام بوظيفتِهِ.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥٥﴾ هٰذا من أوعاده الصادقةِ التي شوهِدَ تأويلُها ومَخْبَرُها؛ فإنَّه وعد مَنْ قام بالإيمان والعمل الصالح من هٰذه الأمة أن يَسْتَخْلِفَهم في الأرض، يكونونَ هم الخلفاءَ فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يمكِّن ﴿لهم دينَهُمُ الذي ارتضى لهم﴾، وهو دينُ الإسلام الذي فاقَ الأديانَ كلَّها، ارتضاه لهٰذه الأمة لفضلِها وشرفِها ونعمتِهِ عليها بأن يتمكَّنوا من إقامتِهِ وإقامةِ شرائعِهِ الظاهرةِ والباطنةِ في أنفسهم وفي غيرِهم؛ لكونِ غيرِهم من أهل الأديان وسائرِ الكفَّار مغلوبينَ ذليلينَ، وأنَّه يبدِّلُهم ﴿من بعدِ خوفِهم﴾؛ الذي كان الواحد منهم لا يتمكَّنُ من إظهار دينِهِ وما هو عليه إلَّا بأذى كثيرٍ من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلينَ جدًّا بالنسبة إلى غيرهم، وقد رماهُم أهلُ الأرض عن قوسٍ واحدةٍ، وبَغَوْا لهم الغوائلَ، فوعَدَهم اللّه هٰذه الأمورَ وقت نزول الآية، وهي لم تشاهد الاستخلافَ في الأرض والتمكينَ فيها والتمكينَ من إقامةِ الدينِ الإسلاميِّ والأمنَ التامَّ بحيثُ يعبُدون اللّه ولا يشرِكون به شيئاً ولا يخافون أحداً إلَّا اللّه، فقام صدرُ هٰذه الأمة من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقُ[1] على غيرهم، فمكَّنهم من البلاد والعباد، وفُتِحَتْ مشارقُ الأرض ومغاربُها، وحصل الأمنُ التامُّ والتمكين التامُّ؛ فهٰذا من آيات اللّه العجيبة الباهرة، ولا يزالُ الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح؛ فلا بدَّ أن يوجَدَ ما وَعَدَهُم اللّه، وإنَّما يسلِّطُ عليهم الكفار والمنافقين ويُديلُهم في بعض الأحيان بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح. ﴿ومَن كَفَرَ بعد ذٰلك﴾: التمكين والسلطنة التامَّة لكم يا معشرَ المسلمينَ، ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾: الذين خرجوا عن طاعة اللّه وفسدوا، فلم يصلحوا لصالح، ولم يكنْ فيهم أهليَّةٌ للخير؛ لأنَّ الذي يَتْرُكُ الإيمانَ في حال عزِّه وقهرِهِ وعدم وجودِ الأسباب المانعة منه يدلُّ على فساد نيَّته وخُبث طويَّته؛ لأنَّه لا داعي له لترك الدين إلَّا ذٰلك.

ودلت هٰذه الآية أنَّ اللّه قد مكَّن مَنْ قبلَنا واستخلَفَهم في الأرض؛ كما قال موسى لقومه: ﴿ويَسْتَخْلِفكُم في الأرضِ فَيَنْظُرَ كيف تعملونَ﴾، وقال تعالى:

(١) في (ب): «يفوقون».

﴿ونريدُ أن نَمُنَّ على الذين استُضْعِفوا في الأرض [ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين] ونـمكِّنَ لهم في الأرض﴾.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿٥٦﴾ يأمر تعالى بإقامة الصلاة بأركانها وشروطها وآدابها ظاهراً وباطناً، وبإيتاء الزكاة من الأموال التي استَخْلَفَ الله عليها العباد وأعطاهم إياها؛ بأن يُؤتوها الفقراء وغيرهم ممَّن ذَكَرَهُم الله لمصرِفِ الزكاة؛ فهٰذان أكبرُ الطاعات وأجلُّهما، جامعتان لحقِّه وحقِّ خلقِهِ، للإخلاص للمعبود وللإحسان إلى العبيد. ثم عَطَفَ عليهما الأمرَ العامَّ، فقال: ﴿وأطيعوا الرَّسولَ﴾: وذٰلك بامتثال أوامرِهِ واجتناب نواهيه، ﴿ومَن يُطِعِ الرسولَ فَقَدْ أطاع اللّه﴾، ﴿لعلَّكم﴾: حين تقومون بذٰلك ﴿تُرْحَمون﴾: فمن أرادَ الرحمةَ؛ فهٰذا طريقُها، ومَنْ رجاها من دون إقامة الصلاة وإيتاء الزَّكاة وإطاعة[1] الرسول؛ فهو متمنٍّ كاذبٌ، وقد منَّته نفسُه الأمانيَّ الكاذبة.

﴿٥٧﴾ ﴿لا تحسبنَّ الذين كفروا مُعْجِزينَ في الأرض﴾: فلا يَغْرُرْكَ ما مُتِّعوا به في الحياة الدُّنيا؛ فإنَّ اللّه وإنْ أمْهَلَهم؛ فإنَّه لا يُهْمِلُهم؛ ﴿نمتِّعُهم قليلاً ثم نضطرُّهم إلى عذابٍ غليظٍ﴾. ولهٰذا قال هنا: ﴿ومأواهُمُ النارُ ولبئسَ المصيرُ﴾؛ أي: بئس المآلُ مآلُ الكافرين؛ مآل الشرِّ والحسرة والعقوبة الأبديَّة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥٨﴾ أمر المؤمنين أن يستأذِنَهم مماليكُهم والذين لم يبلُغوا الحُلُمَ منهم، قد ذَكَرَ اللّه حكمتَه، وأنَّه ثلاثُ عوارتٍ للمستأذَنِ عليهم؛ وقتَ نومِهم بالليل بعد العشاء، وعند انْتِباهِهم قبل صلاة الفجر؛ فهٰذا في الغالب أنَّ النائم يستعمل للنوم

(١) في (ب): «وطاعة».

في الليل ثوباً غير ثوبِهِ المعتاد، وأمَّا نومُ النهار؛ [فلمّا][١] كان في الغالب قليلاً قد ينام فيه العبد بثيابِهِ المعتادة؛ قيَّده بقوله: ﴿وحين تَضَعون ثيابَكم من الظهيرةِ﴾؛ أي: للقائلة وسط النهار؛ ففي ثلاث[٢] هٰذه الأحوال يكون المماليكُ والأولادُ الصغارُ كغيرهم لا يمكَّنون من الدُّخول إلَّا بإذنٍ، وأمَّا ما عدا هٰذه الأحوالُ الثلاثة؛ فقال: ﴿ليس عليكُم ولا عليهِم جُناح بعدهنَّ﴾؛ أي: ليسوا كغيرِهم؛ فإنَّهم يُحتاج إليهم دائماً، فيشقُّ الاستئذان منهم في كلِّ وقتٍ، ولهٰذا قال: ﴿طوَّافونَ عليكم بعضُكم على بعضٍ﴾؛ أي: يتردَّدون عليكم في قضاء أشغالكم وحوائجكم. ﴿كذٰلك يبيِّنُ الله لكم الآياتِ﴾: بياناً مقروناً بحكمتِهِ؛ ليتأكَّدَ ويتقوَّى ويعرفَ به رحمةَ شارِعِه وحكمتَه، ولهٰذا قال: ﴿والله عليمٌ حكيمٌ﴾: له العلم المحيطُ بالواجبات و[المستحيلات][٣] والممكنات والحكمة التي وَضَعَتْ كلَّ شيءٍ موضِعَه، فأعطى كلَّ مخلوق خَلْقَه اللائق به، وأعطى كلَّ حكم شرعيٍّ حكمه اللائقَ به، ومنه هٰذه الأحكام التي بَيَّنَها وبيَّنَ مآخِذَها وحُسْنَها.

﴿٥٩﴾ ﴿وإذا بَلَغَ الأطفالُ منكم الحُلُمَ﴾: وهو إنزالُ المنيِّ يقظةً أو مناماً؛ ﴿فَلْيَسْتَأذِنوا كما استأذنَ الذين من قبلِهم﴾؛ أي: في سائر الأوقات، والذين مِنْ قبلِهِم هم الذين ذَكَرَهُمُ اللهُ بقوله: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تَدْخُلوا بيوتاً غير بيوتِكُم حتى تَسْتَأنِسوا...﴾ الآية. ﴿كذٰلك يبيِّنُ الله لكم آياتِهِ﴾: ويوضِّحُها ويفصِّلُ أحكامها. ﴿والله عليم حكيم﴾.

وفي هاتين الآيتين فوائدُ:

منها: أنَّ السيِّد وولي الصغير مخاطبان بتعليم عبيدِهم ومَنْ تحتَ ولايَتِهِم من الأولاد العلمَ والآدابَ الشرعيَّة؛ لأنَّ الله وجَّه الخطاب إليهم بقوله: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لِيَسْتَأذِنكُمُ الذين ملكت أيمانكم والذين لم يَبْلُغوا الحُلُم...﴾ الآية، ولا يمكنُ ذٰلك إلَّا بالتعليم والتأديب، ولقوله: ﴿ليس عليكُم ولا عليهِم جُناح بَعْدَهُنَّ﴾.

ومنها: الأمر بحفظِ العورات والاحتياط لذٰلك من كلِّ وجه، وأنَّ المحلَّ والمكانَ الذي مَظِنَّةٌ لرؤيةِ عورة الإنسان فيه، أنَّه منهيٌّ عن الاغتسال فيه والاستنجاء ونحو ذٰلك.

---

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «فلو». (٢) في (ب): «ثلاثة».

(٣) كذا في (ب). وفي (أ): «المستحبات». والصواب ما أثبت من (ب).

ومنها: جوازُ كشفِ العورة لحاجةٍ؛ كالحاجة عند النوم وعند البول والغائط ونحو ذٰلك.

ومنها: أنَّ المسلمين كانوا معتادين القَيْلولة وسطَ النهار؛ كما اعتادوا نومَ الليل؛ لأنَّ اللّه خاطَبَهم ببيانِ حالِهِم الموجودةِ.

ومنها: أنَّ الصغير الذي دون البلوغ لا يجوزُ أن يمكَّنَ من رؤية العورة، ولا يجوزُ أن تُرى عورتُهُ؛ لأنَّ اللّه لم يأمُرْ باستئذانِهِم إلَّا عن أمرٍ ما يجوز.

ومنها: أنَّ المملوك أيضاً لا يجوزُ أن يرى عورةَ سيِّده؛ كما أنَّ سيِّده لا يجوز أن يرى عورتَه؛ كما ذكرنا في الصغير.

ومنها: أنَّه ينبغي للواعظ والمعلِّم ونحوهم ممَّن يتكلَّم في مسائل العلم الشرعيِّ أن يقرِنَ بالحكم بيانَ مأخذِهِ ووجهِهِ، ولا يُلقيه مجرَّداً عن الدليل والتَّعليل؛ لأنَّ اللّه لما بيَّن الحكم المذكور؛ علَّله بقوله: ﴿ثلاثُ عوراتٍ لكم﴾.

ومنها: أنَّ الصَّغيرَ والعبدَ مخاطبان كما أنَّ وليَّهما مخاطبٌ؛ لقوله: ﴿ليس عليكُم ولا عليهم جناحٌ بَعْدَهُنَّ﴾.

ومنها: أنَّ ريق الصبيِّ طاهرٌ، ولو كان بعد نجاسةٍ؛ كالقيء؛ لقوله تعالى: ﴿طوَّافونَ عليكُم﴾؛ مع قول النبيِّ ﷺ حين سُئِلَ عن الهرة: «إنها ليست بِنَجَسٍ، إنَّها من الطَّوَّافينَ عليكم والطَّوَّافاتِ»[1].

ومنها: جوازُ استخدام الإنسان مَنْ تحت يدِهِ من الأطفال على وجهٍ معتادٍ لا يشقُّ على الطفل؛ لقوله: ﴿طوَّافونَ عليكم﴾. **ومنها**: أنَّ الحكم المذكورَ المفصَّل إنَّما هو لما دونَ البلوغ، وأمَّا[2] ما بعدَ البلوغ؛ فليس إلَّا الاستئذان.

ومنها: أنَّ البلوغَ يحصُلُ بالإنزال، فكلُّ حكمٍ شرعيٍّ رُتِّبَ على البلوغ؛ حصل بالإنزال، وهٰذا مجمعٌ عليه، وإنَّما الخلاف هل يَحْصُلُ البلوغُ بالسنِّ أو الإنباتِ للعانةِ. واللّه أعلم.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٦٠﴾ ﴿والقواعدُ من النساء﴾؛ [أي]: اللاتي قَعَدْنَ عن الاستمتاع والشهوةِ، ﴿اللاتي لا يَرْجونَ نِكاحاً﴾؛ أي: لا يَطْمَعْنَ في النكاح ولا يُطْمَعُ فيهن، وذٰلك لكونها

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٥)، والترمذي (٩٢)، والنسائي (١/ ٥٥)، وابن ماجة (٣٦٧)، والحديث صححه جماعة من أهل العلم. انظر «الإرواء» (١٧٣).

(٢) في (ب): «فأما».

عجوزاً لا تشتهي أو دميمةَ الخِلْقَةِ لا تُشْتَهى ولا تَشْتَهي. ﴿فليس عليهنَّ جُناحٌ﴾؛ أي: حرجٌ وإثمٌ، ﴿أن يَضَعْنَ ثيابَهُنَّ﴾؛ أي: الثياب الظاهرة كالخمار ونحوه، الذي قال الله فيه للنساء: ﴿وَلْيَضرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيوبِهِنَّ﴾؛ فهٰؤلاء يجوز لهنَّ أن يَكْشِفْنَ وجوهَهُنَّ لأمن المحذور منها وعليها.

ولما كان نفيُ الحرج عنهنَّ في وضع الثياب ربَّما تُوُهِّمَ منه جوازُ استعمالها لكلِّ شيءٍ؛ دَفَعَ هٰذا الاحتراز بقوله: ﴿غيرَ مُتَبَرِّجات بزينةٍ﴾؛ أي: غير مظهراتٍ للناس زينةً من تجمُّلٍ بثيابٍ ظاهرةٍ، وتَسَتُّرُ وجهها، ومن ضربِ الأرض ليعلم ما تُخفي من زينتها؛ لأنَّ مجرَّد الزينة على الأنثى، ولو مع تستُّرها، ولو كانت لا تُشتهى؛ يفتن فيها ويوقِعُ الناظر إليها في الحرج. ﴿وأن يَسْتَعْفِفْنَ خيرٌ لهنَّ﴾: والاستعفافُ طلبُ العفَّة بفعل الأسباب المقتضية لذٰلك من تزوُّج وتركٍ لما يُخْشى منه الفتنة. ﴿والله سميعٌ﴾: لجميع الأصوات. ﴿عليمٌ﴾: بالنيَّات والمقاصدِ؛ فليحذَرْن من كلِّ قول وقصدٍ فاسدٍ، ويَعْلَمْنَ أنَّ الله يُجازي على ذٰلك.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿٦١﴾ يخبر تعالى عن منَّته على عبادِهِ، وأنَّه لم يجعلْ عليهم في الدين من حرج، بل يسَّره غاية التيسير، فقال: ﴿ليس على الأعمى حَرَجٌ ولا على الأعرجِ حَرَجٌ ولا على المريضِ حَرَجٌ﴾؛ أي: ليس على هٰؤلاء جُناح في ترك الأمور الواجبَة التي تتوقَّف على واحدٍ منها، وذٰلك كالجهاد ونحوه مما يتوقَّف على بصر الأعمى أو سلامة الأعرج أو صِحَّة المريض، ولهٰذا المعنى العامِّ الذي ذَكَرْناه؛ أطلقَ الكلامَ في ذٰلك، ولم يقيِّدْ؛ كما قيَّدَ قوله: ﴿ولا على أنفسكم﴾؛ أي: حرج، ﴿أن تأكلوا مِن بيوتكم﴾؛ أي: بيوت أولادكم. وهٰذا موافقٌ للحديث الثابت: «أنت ومالُكَ لأبيك»[1]،

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٩)، وأبو داود (٣٥٣٠)، وابن ماجه (٢٢٩١)، والحديث صححه الألباني في «الإرواء» (٨٣٨).

والحديث الآخر: «إنَّ أطيبَ ما أكلتُم من كسبِكُم، وإنَّ أولادَكم من كسبِكُم»[١].

وليس المرادُ من قولِهِ: ﴿من بيوتِكُم﴾: بيت الإنسان نفسه؛ فإنَّ هٰذا من باب تحصيل الحاصل، الذي يُنَزَّهُ عنه كلامُ اللّه، ولأنَّه نفي الحرج عمَّا يُظَنُّ أو يتوهَّمُ فيه الإثمُ من هٰؤلاء المذكورين، وأمَّا بيتُ الإنسان نفسه؛ فليس فيه أدنى توهُّم. ﴿أو بيوتِ آبائِكُم أو بيوت أمَّهاتِكم أو بيوتِ إخوانِكم أو بيوت أخَواتِكُم أو بيوتِ أعمامِكُم أو بيوتِ عمَّاتِكُم أو بيوتِ أخوالِكُم أو بيوتِ خالاتكم﴾: وهٰؤلاء معروفون. ﴿أو ما مَلَكْتُم مفاتِحَهُ﴾؛ أي: البيوت التي أنتم متصرِّفون فيها بوكالةٍ أو ولايةٍ ونحو ذٰلك، وأمَّا تفسيرُها بالمملوك؛ فليس بوجيه؛ لوجهين: **أحدِهما**: أنَّ المملوكَ لا يُقال فيه: ملكتَ مفاتِحَهُ، بل يقال: ما ملكْتُموه، أو: ما ملكت أيمانُكم؛ لأنَّهم مالكونَ له جملةً، لا لمفاتِحِهِ فقط. **والثاني**: أنَّ بيوتَ المماليك غيرُ خارجةٍ عن بيت الإنسان نفسه؛ لأنَّ المملوك وما مَلَكه لسيِّده؛ فلا وجه لنفي الحَرَج عنه.

﴿أو صديقِكُم﴾: وهٰذا الحرج المنفيُّ من[٢] الأكل من هٰذه البيوت؛ كلُّ ذٰلك إذا كان بدون إذنٍ، والحكمةُ فيه معلومةٌ من السياق؛ فإن هٰؤلاء المسمَّيْن قد جرتِ العادةُ والعرفُ بالمسامحة في الأكل منها؛ لأجل القرابة القريبة أو التصرُّف التامِّ أو الصَّداقة؛ فلو قُدِّرَ في أحدٍ من هٰؤلاء عدم المسامحة والشحُّ في الأكل المذكور؛ لم يَجُزِ الأكلُ ولم يرتَفِعِ الحرجُ نظراً للحكمة والمعنى. وقوله: ﴿ليس عليكم جُناحٌ أن تأكُلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾؛ فكلُّ ذٰلك جائزٌ؛ أكلُ أهل البيت الواحد جميعاً، أو أكلُ كلِّ واحدٍ منهم وحدَه، وهٰذا نفيٌ للحرج لا نفيٌ للفضيلة، وإلَّا؛ فالأفضل الاجتماع على الطعام. ﴿فإذا دَخَلْتُم بيوتاً﴾: نكرة في سياق الشرط؛ يشمَلُ بيتَ الإنسان وبيتَ غيرِهِ، سواء كان في البيت ساكنٌ أم لا؛ فإذا دَخَلَها الإنسان؛ ﴿فسلِّموا على أنفُسِكُم﴾؛ أي: فَلْيُسَلِّمْ بعضُكم على بعضٍ؛ لأنَّ المسلمين كأنَّهم شخصٌ واحدٌ من توادِّهم وتراحُمِهِم وتعاطُفِهِم؛ فالسلامُ مشروعٌ لدخول سائر البيوت؛ من غير فرقٍ بين بيتٍ وبيتٍ، والاستئذانُ تقدَّم أن فيه تفصيلاً في أحكامه، ثم مدح هٰذا السلام، فقال: ﴿تحيَّةً من عند اللّه مباركةً طيبةً﴾؛ أي: سلامكم بقولِكم: السلامُ عليكُم ورحمةُ اللّه وبركاتُه، أو: السلامُ علينا وعلى عباد اللّه الصالحين؛ إذ تدخُلون البيوتَ ﴿تحيةً من عند اللّه﴾؛ أي: قد شرعها لكم وجعلها تحيَّتَكُم، ﴿مباركةً﴾: لاشتمالها على

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣١)، وأبو داود (٣٥٢٨)، والنسائي (٧/ ٢٤٠). وانظر ما قبله.

(٢) في (ب): «عن».

السلامة من النقص وحصول الرحمة والبركة والنَّماء والزيادة، ﴿طيبة﴾: لأنها من الكَلِم الطيِّب المحبوب عند الله، الذي فيه طيبُ نفس للمحيًا ومحبَّة وجلب مودَّة.

لما بيَّن لنا هٰذه الأحكام الجليلة؛ قال: ﴿كذٰلك يبيِّنُ الله لكم الآياتِ﴾: الدَّالَّات على أحكامِهِ الشرعيَّة وحِكَمِها ﴿لعلَّكم تعقلونَ﴾: عنه؛ فتفهَمونها وتعقِلونها بقُلوبكم، ولتكونوا من أهل العقول والألباب الرَّزينةِ؛ فإنَّ معرفة أحكامه الشرعيَّة على وجهها يزيدُ في[1] العقل ويَنمو به اللُّبُّ؛ لكون معانيها أجلَّ المعاني وآدابها أجلَّ الآداب، ولأنَّ الجزاء من جنس العمل؛ فكما استعمل عقلَه للعقل عن ربِّه وللتفكُّر في آياته التي دعاه إليها؛ زاده من ذٰلك.

وفي هٰذه الآيات دليلٌ على قاعدةٍ عامَّةٍ كليَّةٍ، وهي: أنَّ العرف والعادة مخصِّص للألفاظ؛ كتخصيص اللفظ للفظ؛ فإنَّ الأصل أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره مع أنَّ الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء للعُرف والعادةِ؛ فكلُّ مسألة تتوقَّف على الإذن من مالك الشيء إذا عُلِمَ إذنُه بالقول أو العُرف؛ جاز الإقدام عليه.

وفيها: دليلٌ على أنَّ الأب يجوزُ له أن يأخُذَ ويتملَّك من مال ولدِهِ ما لا يضرُّه؛ لأنَّ الله سمَّى بيتَه بيتاً للإنسان.

وفيها: دليلٌ على أن المتصرِّفَ في بيت الإنسان كزوجتِهِ وأختِهِ ونحوِهما يجوزُ لهما الأكل عادةً وإطعامُ السائل المعتاد.

وفيها: دليلٌ على جوازِ المشاركة في الطعام، سواء أكلوا مجتمعينَ أو متفرِّقين، ولو أفضى ذٰلك إلى أن يأكُلَ بعضُهم أكثر من بعض.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

(١) في (ب): «به».

﴿٦٢﴾ هٰذا إرشادٌ من اللّه لعبادِهِ المؤمنين أنَّهم إذا كانوا مع الرسول ﷺ على أمرٍ جامع؛ أي: من ضرورتِهِ أو مصلحتِهِ أن يكونوا فيه جميعاً؛ كالجهاد والمشاورة ونحو ذٰلك من الأمور التي يشتركُ فيها المؤمنون؛ فإنَّ المصلحة تقتضي اجتماعُهم عليه وعدمُ تفرُّقهم؛ فالمؤمنُ باللّه ورسوله حقًّا لا يذهبُ لأمرٍ من الأمور؛ لا يرجعُ لأهلِهِ، ولا يذهبُ لبعض الحوائج التي يشذُّ بها عنهم؛ إلَّا بإذنٍ من الرسول أو نائبِهِ من بعدِهِ، فجعل موجَبَ الإيمان عدمَ الذَّهاب إلَّا بإذنٍ، ومَدَحَهم على فعلهم هٰذا وأدَبِهِم مع رسولِهِ وولي الأمر منهم، فقال: ﴿إنَّ الذين يستأذِنونك أولٰئك الذين يؤمِنون باللّهِ ورسولِهِ﴾: ولٰكنْ؛ هل يأذنُ لهم أم لا؟ ذكر لإذنِهِ لهم شرطين: أحدَهما: أن يكون لشأنٍ من شؤونهم وشغلٍ من أشغالهم، فأما مَنْ يستأذنُ من غيرِ عذرٍ؛ فلا يُؤذَنُ له. والثاني: أن يشاءَ الإذنَ، فتقتضيه المصلحةُ من دونِ مضرَّةٍ بالآذنِ؛ قال: ﴿فإذا استأذنوكَ لبعض شأنِهِم فأذَن لِمَن شئتَ منهُم﴾: فإذا كان له عذرٌ، واستأذنَ؛ فإنْ كان في قعودِهِ وعدم ذَهابه مصلحةٌ برأيِهِ أو شجاعته ونحو ذٰلك؛ لم يأذنْ له. ومع هٰذا؛ إذا استأذنَ وأذِنَ له بشرطيه؛ أمر اللّه رسولَه أن يَسْتَغْفِرَ له لما عسى أن يكون مقصراً في الاستئذان، ولهٰذا قال: ﴿فاسْتَغْفِرْ لهم اللّهَ إنَّ اللّه غفورٌ رحيمٌ﴾: يغفرُ لهم الذنوبَ، ويرحمُهم؛ بأن جوَّز لهم الاستئذان مع العذر.

﴿٦٣﴾ ﴿لا تجعلوا دُعاءَ الرسول بينَكم كدعاءِ بعضِكُم بعضاً﴾؛ [أي لا تجعلوا دُعاءَ الرَّسولِ إيَّاكُم، ودُعَاءَكم للرَّسولِ كَدُعاءِ بَعْضِكم بَعْضاً]، فإذا دعاكم؛ فأجيبوه وجوباً، حتى إنه تجبُ إجابة الرسول ﷺ في حال الصلاة، وليس أحدٌ إذا قال قولاً يجبُ على الأمَّة قَبولُ قولِهِ والعملُ به إلَّا الرسول؛ لعصمتِهِ، وكونِنا مخاطَبينَ باتِّباعه؛ قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا اسْتَجيبوا للّهِ وللرسولِ إذا دَعاكُم لِما يُحْييكُم﴾. وكذٰلك لا تجعلوا دعاءكم للرَّسول كدُعاءِ بعضِكُم بعضاً؛ فلا تقولوا: يا محمدُ عند ندائِكم، أو: يا محمد بن عبد اللّه! كما يقولُ ذٰلك بعضُكم لبعض، بل من شرفِهِ وفضلِهِ وتميُّزِهِ ﷺ عن غيرِهِ أنْ يُقال: يا رسولَ اللّه! يا نبيَّ اللّه! ﴿قد يعلم اللّه الذين يتسلَّلونَ منكم لِواذاً﴾. لما مَدَحَ المؤمنين باللّه ورسولِهِ الذين إذا كانوا معه على أمرٍ جامع لم يَذْهبوا حتى يستأذِنوه؛ توعَّدَ مَنْ لم يفعلْ ذٰلك وذَهَبَ من غير استئذانٍ؛ فهو؛ وإن خفي عليكم بذَهابه على وجهٍ خفيٍّ، وهو المراد بقوله: ﴿يتسلَّلون مِنكم لِواذاً﴾؛ أي: يلوذون وقتَ تسلُّلهم وانطلاقهم بشيء يحجُبُهم عن العيون؛ فاللّه يعلمهم، وسيجازيهم على ذٰلك أتمَّ الجزاء، ولهٰذا توعَّدهم بقولِهِ:

﴿فليحذرِ الذين يخالفونَ عن أمرِهِ﴾؛ أي: يذهبون إلى بعض شؤونهم عن أمرِ الله ورسولِهِ؛ فكيف بمَنْ لم يذهبْ إلى شأن من شؤونه، وإنَّما تركَ أمرَ الله من دون شغل له؛ ﴿أن تُصيبَهم فتنةٌ﴾؛ أي: شركٌ وشرٌّ، ﴿أو يُصيبَهم عذابٌ أليمٌ﴾.

﴿٦٤﴾ ﴿ألا إنَّ للّه ما في السمٰواتِ والأرض﴾: مُلكاً وعبيداً يتصرَّف فيهم بحكمِهِ القدريِّ وحكمه الشرعيِّ. ﴿قد يعلم ما أنتُم عليه﴾؛ أي: قد أحاط علمُه بما أنتُم عليه من خيرٍ وشرٍّ، وعلم جميعَ أعمالكم؛ أحصاها علمُه، وجرى بها قلمُه، وكتبتْها عليكم الحفظةُ الكرام الكاتِبون. ﴿ويومَ يُرْجَعون إليه﴾؛ أي[1]: يوم القيامة ﴿فيُنَبِّئُهم بما عَمِلوا﴾: يخبرُهم بجميع أعمالِهم؛ دقيقِها وجليلِها؛ إخباراً مطابقاً لما وَقَعَ منهم، ويستشهدُ عليهم أعضاءَهم؛ فلا يعدَمون منه فَضْلاً أو عدلاً. ولما قيَّد علمَه بأعمالهم؛ ذكر العمومَ بعد الخُصوص، فقال: ﴿واللّهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الفرقان

وهي مكية عند الجمهور

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾.

﴿١﴾ هٰذا بيانٌ لعظمته الكاملة وتفرُّده بالوَحْدانية من كلِّ وجه وكثرةِ خيراتِهِ وإحسانِهِ، فقال: ﴿تبارك﴾؛ أي: تعاظم، وكَمُلَتْ أوصافُه، وكَثُرَتْ خيراتُه، الذي من أعظم خيراتِهِ ونعمه أن نَزَّلَ هٰذا القرآن الفارقَ بين الحلال والحرام والهدى والضلال وأهل السعادة من أهل الشقاوة، ﴿على عبدِهِ﴾: محمدٍ ﷺ، الذي كمَّلَ مراتبَ العبوديَّة وفاق جميع المرسلين؛ ﴿ليكونَ﴾: ذٰلك الإنزال للفرقانِ على عبده ﴿للعالمينَ نَذيراً﴾: ينذِرُهم بأسَ الله ونِقَمَهُ ويبيِّنُ لهم مواقعَ رضا الله من سَخَطِهِ، حتى إنَّ مَنْ قَبِلَ نِذارَتَه وعمل بها؛ كان من الناجين في الدنيا والآخرة، الذين حَصَلَتْ لهم السعادةُ الأبديَّة والمُلك السَّرْمَدِيُّ؛ فهل فوق هٰذه النعمةِ وهٰذا الفضل

---

(١) في (ب): «في».

والإحسان شيءٌ؟! فتبارك الذي هٰذا [من] بعض إحسانِهِ وبركاتِهِ.

﴿٢﴾ ﴿الذي له مُلْكُ السمٰواتِ والأرضِ﴾؛ أي: له التصرُّف فيهما[1] وحدَه، وجميع مَنْ فيهما[1] مماليكُ وعبيدٌ له مذعِنون لعظمتِهِ خاضعون لربوبيَّتِهِ فقراءُ إلى رحمته، الذي ﴿لم يَتَّخِذْ ولداً ولم يكن له شريكٌ في الملكِ﴾: وكيف يكونُ له ولدٌ أو شريكٌ؛ وهو المالكُ وغيرُه مملوكٌ، وهو القاهرُ وغيرُه مقهورٌ، وهو الغنيُّ بذاتِهِ من جميع الوجوه والمخلوقونَ مفتَقِرون إليه [فقراً ذاتياً][2] من جميع الوجوه؟! وكيف يكونُ له شريكٌ في الملك ونواصي العبادِ كلِّهم بيديهِ؛ فلا يتحرَّكون أو يسكُنون ولا يتصرَّفون إلَّا بإذنِهِ؛ فتعالى اللّٰه عن ذٰلك علوًّا قديراً؛ فلم يَقْدِرْهُ حقَّ قَدْرِهِ مَنْ قال فيه ذٰلك، ولهٰذا قال: ﴿وخَلَقَ كلَّ شيءٍ﴾: شمل العالم العلويَّ والعالم السفليَّ من حيواناتِهِ ونباتاتِهِ وجماداتِهِ، ﴿فقدَّره تقديراً﴾؛ أي: أعطى كلَّ مخلوقٍ منها ما يَليقُ به ويناسبُه من الخلقِ وما تقتضيه حكمتُه من ذٰلك؛ بحيث صار كلُّ مخلوقٍ لا يَتَصَوَّرُ العقلُ الصحيحُ أن يكونَ بخلاف شكلِهِ وصورتِهِ المشاهَدَة، بل كلُّ جزءٍ وعضوٍ من المخلوق الواحد لا يناسبُه غير محلِّه الذي هو فيه؛ قال تعالى: ﴿سبِّح اسمَ ربِّك الأعلى الذي خَلَقَ فسوَّى. والذي قَدَّرَ فَهَدى﴾، وقال تعالى: ﴿ربُّنا الذي أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَه ثم هَدى﴾.

ولما بيَّن كمالَه وعظمتَه وكثرةَ إحسانِهِ؛ كان ذٰلك مقتضياً لأن يكونَ وحدَه المحبوبَ المألوه المعظَّم المفردَ بالإخلاص وحدَه لا شريك له؛ ناسبَ أن يذكُرَ بطلانَ عبادةِ ما سواه، فقال:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾.

﴿٣﴾ أي: من أعجب العجائب وأدلِّ الدليل على سَفَهِهم ونقص عقولهم، بل أدلُّ على ظلمهم وجراءتهم على ربِّهم: أنِ اتَّخذوا آلهةً بهٰذه الصفة، في غاية[3] العجز أنَّها لا تَقْدِرُ على خلق شيء، بل هم مخلوقون، بل بعضهم مما عملته أيديهم، ﴿ولا يملِكون لأنفُسِهِم ضرًّا ولا نفعاً﴾؛ أي: لا قليلاً ولا كثيراً؛ لأنه نكرةٌ في سياق النفي. ﴿ولا يملِكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً﴾؛ أي: بعثاً بعد الموت.

---

(١) في (ب): «فيها».
(٢) في (أ): «فقراء».
(٣) في (ب): «كمال».

فأعظمُ أحكام العقل بطلانُ إلٰهيتها وفسادُها وفسادُ عقل من اتّخذها آلهةً وشركاءَ للخالق لسائرِ المخلوقات من غير مشاركةٍ له في ذٰلك، الذي بيده النفع والضرُّ والعطاء والمنع، الذي يُحيي ويميتُ ويبعثُ مَنْ في القبور ويجمعُهُم يومَ النشور، وقد جَعَلَ لهم دارين: دار الشقاءِ والخزي والنَّكال لمن اتَّخذ معه آلهةً أخرى، ودار الفوز والسعادة والنعيم المقيم لمن اتَّخذه وحدَه معبوداً.

ولما قرَّر بالدليل القاطع الواضح صحَّة التوحيد وبطلان ضدِّه؛ قرَّر صحَّة الرسالة وبطلان قول من عارَضَها واعترضَها، فقال:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾.

﴿٤﴾ أي: وقال الكافرون باللّه، الذي أوجب لَهم كُفْرُهم أنْ قالوا في القرآن والرسول: إنَّ هٰذا القرآنَ كذبٌ كَذَبه محمد، وإفكٌ افتراه على اللّه، وأعانه على ذٰلك قومٌ آخرون؛ فردَّ اللّه عليهم ذٰلك بأنَّ هٰذا مكابرةٌ منهم وإقدامٌ على الظُّلم والزُّور الذي لا يمكن أن يدخلَ عقلَ أحدٍ؛ وهم أشدُّ الناس معرفةً بحالة الرسول ﷺ وكمال صدقِهِ وأمانتِهِ وبرِّه التامِّ، وأنَّه لا يمكِنُه لا هو ولا سائرُ الخلق أن يأتوا بهٰذا القرآنِ الذي هو أجلُّ الكلام وأعلاه، وأنَّه لم يجتمعْ بأحدٍ يُعينه على ذٰلك؛ ﴿فقد جاؤوا﴾ بهٰذا القول ظلماً ﴿وزوراً﴾.

﴿٥﴾ ومن جملة أقاويلهم فيه أنْ قالوا: هٰذا الذي جاء به محمدٌ ﴿أساطيرُ الأولينَ اكْتَتَبَها﴾؛ أي: هٰذا قَصَص الأولين وأساطيرُهم، التي تتلقَّاها الأفواه وينقلُها كلُّ أحدٍ، استَنْسَخَها محمدٌ؛ ﴿فهِيَ تُملى عليه بُكرةً وأصيلاً﴾: وهٰذا القول منهم فيه عدةُ عظائم:

منها: رميُهم الرسولَ الذي هو أبرُّ الناس وأصدقُهم بالكذب والجرأة العظيمة.

ومنها: إخبارُهم عن هٰذا القرآن الذي هو أصدقُ الكلام وأعظمُه وأجلُّه بأنه كذبٌ وافتراءٌ.

ومنها: أنَّ في ضمن ذٰلك أنَّهم قادرون أن يأتوا بمثلِهِ، وأن يضاهيء المخلوقُ الناقصُ من كلِّ وجه للخالق الكامل من كلِّ وجه بصفةٍ من صفاته، وهي الكلام.

ومنها: أنَّ الرسول قد عُلِمَتْ حالُه[1]، وهم أشدُّ الناس علماً بها؛ أنَّه لا يكتبُ ولا يجتمعُ بمن يكتبُ له؛ وهم قد زعموا ذٰلك.

﴿٦﴾ فلذٰلك ردَّ عليهم ذٰلك بقوله: ﴿قُلْ أنزَلَه الذي يعلم السرَّ في السمٰواتِ والأرضِ﴾؛ أي: أنزله مَنْ أحاط علمهُ بما في السماواتِ وما في الأرض من الغيب والشهادة والجهر والسرِّ؛ كقوله: ﴿وإنَّه لَتنزيلُ ربِّ العالمينَ. نَزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ. على قَلْبِكَ لتكونَ من المنذِرين﴾. ووجهُ إقامة الحجة عليهم أنَّ الذي أنزله هو المحيطُ علمُه بكلِّ شيء، فيستحيلُ ويمتنعُ أن يقولَ مخلوقٌ ويتقوَّل عليه هٰذا القرآن، ويقولَ: هو من عند اللّه، وما هو من عندِهِ، ويستحلُّ دماء مَنْ خالفَه وأموالَهم، ويزعمُ أنَّ اللّه قال له ذٰلك، واللّه يعلمُ كلَّ شيء، ومع ذٰلك؛ فهو يؤيِّده وينصرُهُ على أعدائه ويمكِّنُه من رقابهم وبلادهم؛ فلا يمكن أحداً أنْ يُنْكِرَ هٰذا القرآن إلَّا بعد إنكارِ علم اللّه، وهٰذا لا يقول به طائفةٌ من بني آدم سوى الفلاسفة الدُّهرية.

وأيضاً: فإنَّ ذكر علمِهِ تعالى العام ينبِّههم ويحضُّهم على تدبُّر القرآن، وأنَّهم لو تدبَّروا؛ لرأوا فيه من علمِهِ وأحكامِهِ ما يدلُّ دلالةً قاطعةً على أنَّه لا يكون إلا من عالم الغيب والشهادة.

ومع إنكارهم للتوحيد والرسالة؛ من لطفِ اللّه بهم أنَّه لم يَدَعْهُم وظُلْمَهم، بل دعاهم إلى التوبة والإنابة إليه، ووعدهم بالمغفرة والرحمة إنْ هم تابوا ورجعوا، فقال: ﴿إنَّه كان غَفوراً﴾؛ أي: وصفُه المغفرةُ لأهل الجرائم والذُّنوب إذا فعلوا أسباب المغفرةِ، وهي الرجوع عن معاصيه والتوبة منها. ﴿رحيماً﴾: بهم؛ حيثُ لم يعاجِلْهم بالعقوبة وقد فعلوا مقتضاها وحيث قبِلَ توبتَهم بعد المعاصي، وحيث محا ما سلف من سيئاتهم، وحيث قبل حسناتِهم، وحيث أعاد الراجع إليه بعد شروده والمقبل عليه بعد إعراضه إلى حالة المطيعين المنيبين إليه.

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

---

(١) في (ب): «حالته».

ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿٧﴾ هٰذا من مقالة المكذِّبين للرسول، التي قَدَحوا [بها] في رسالتِهِ، وهو أنهم اعترضوا بأنَّه هلاَّ كان مَلَكاً أو مَلِكاً أو يساعِدُه مَلَك؛ فقالوا: ﴿مال هٰذا الرسول﴾؛ أي: ما لهٰذا الذي ادَّعى الرسالة تهكُّماً منهم واستهزاء ﴿يأكل الطعام﴾: وهٰذا من خصائص البشر؛ فهلاَّ كان مَلَكاً لا يأكُل الطعام ولا يحتاجُ إلى ما يحتاج إليه البشر، ﴿ويمشي في الأسواق﴾: للبيع والشراء، وهٰذا بزعمِهِم لا يَليقُ بمَنْ يكون رسولاً؛ مع أن اللّه قال: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾. ﴿لولا أُنزِلَ إليه مَلَكٌ﴾؛ أي: هلاَّ أنزل معه مَلَكٌ يساعده ويعاونُه ﴿فيكونَ معه نذيراً﴾: وبزعمهم أنَّه غير كافٍ للرسالة، ولا بطوقه وقدرته القيام بها.

﴿٨﴾ ﴿أو يُلْقى إليه كنزٌ﴾؛ أي: مالٌ مجموع من غير تعب، ﴿أو تكون له جنَّةٌ يأكُلُ منها﴾: فيستغني بذٰلك عن مشيه في الأسواق لطلب الرزق، ﴿وقال الظالمون﴾: حملهم على القول ظُلْمهُم، لا اشتباه منهم: ﴿إن تَتَّبِعونَ إلَّا رَجُلاً مَسْحوراً﴾: هٰذا وقد علموا كمال عقله وحسن حديثه وسلامته من جميع المطاعن.

﴿٩﴾ ولما كانت هٰذه الأقوال منهم عجيبةً جدًّا؛ قال تعالى: ﴿انظُرْ كيفَ ضربوا لك الأمثالَ﴾: وهي: هلاَّ كان مَلَكاً وزالتْ عنه خصائصُ البشر، أو معهُ مَلَكٌ لأنه غير قادرٍ على ما قال، أو أنزلَ عليه كنزٌ، أو جُعِلَتْ له جنةٌ تُغنيه عن المشي في الأسواق، أو أنه كان مسحوراً. ﴿فضلُّوا فلا [يستطيعون][1] سبيلاً﴾: قالوا: أقوالاً متناقضةً، كلُّها جهلٌ وضلالٌ وسفهٌ، ليس في شيء منها هدايةٌ، بل ولا في شيء منها أدنى شبهةٍ تقدحُ في الرسالة، فبمجرَّدِ النظرِ إليها وتصوُّرِها يجزم العاقل ببطلانها، ويكفيه عن ردِّها. ولهٰذا أمر تعالى بالنظر إليها وتدبُّرِها والنظرِ: هل توجِبُ التوقُّف عن الجزم للرسول بالرسالة والصدق؟!

﴿١٠﴾ ولهٰذا أخبر أنه قادر على أن يعطيك خيراً كثيراً في الدُّنيا، فقال: ﴿تبارك الذي إن شاء جَعَلَ لك خيراً من ذٰلك﴾؛ أي: خيراً مما قالوا، ثم فسَّره بقوله:

---

(١) في النسختين: «يهتدون».

﴿جنَّاتٍ تَجْري من تَحْتِها الأنهار ويَجْعَلْ لك قُصوراً﴾: مرتفعة مزخرفةً؛ فقدرتُهُ ومشيئتُهُ لا تقصُرُ عن ذٰلك، ولٰكنَّه تعالى لما كانت الدُّنيا عنده في غاية البعد والحقارة؛ أعطى منها أولياءه ورسله ما اقتضتْه حكمتُه منها، واقتراحُ أعدائهم بأنَّهم هلَّا رُزِقوا منها رزقاً كثيراً جدًّا ظلمٌ وجراءةٌ.

﴿١١﴾ ولمَّا كانت تلك الأقوالُ التي قالوها معلومةَ الفسادِ؛ أخبر تعالى أنَّها لم تصدُرْ منهم لطلبِ الحقِّ ولا لاتِّباع البرهان، وإنما صدرت منهم تعنُّتاً وظلماً وتكذيباً بالحق، فقالوا ما في قلوبهم من ذٰلك، ولهٰذا قال: ﴿بل كذَّبوا بالساعةِ﴾: والمكذِّبُ المتعنِّتُ الذي ليس له قصدٌ في اتِّباع الحق لا سبيلَ إلى هدايتِهِ ولا حيلةَ في مجادلتِهِ، وإنَّما له حيلةٌ واحدةٌ، وهي[1] نزولُ العذاب به؛ فلهٰذا قال: ﴿وأعْتَدْنا لمن كَذَّبَ بالساعةِ سعيراً﴾؛ أي: ناراً عظيمةً قد اشتدَّ سعيرُها وتغيَّظَتْ على أهلها واشتدَّ زفيرُها.

﴿١٢﴾ ﴿إذا رأتْهُم من مكانٍ بعيدٍ﴾؛ أي: قبل وصولهم ووصولها إليها؛ ﴿سمعوا لها تغيُّظاً﴾: عليهم ﴿وزفيراً﴾: تقلقُ منهم الأفئدةُ، وتتصدَّعُ القلوبُ، ويكادُ الواحدُ منهم يموتُ خوفاً منها وذُعراً، قد غضبتْ عليهم لغضَبِ خالِقِها، وقد زاد لهبُها لزيادةِ كفرهم وشرهم.

﴿١٣﴾ ﴿وإذا أُلْقوا منها مكاناً ضيِّقاً مقرَّنينَ﴾؛ أي: وقت عذابهم[2] وهم في وسطها جمعٌ في مكان، بين ضِيق المكان وتزاحُم السُّكان وتقرِينِهم بالسَّلاسل والأغلال؛ فإذا وَصَلوا لذٰلك المكان النحس وحُبِسوا في أشرِّ حبس؛ ﴿دَعَوا هنالك ثُبوراً﴾: دعوا على أنفسِهِم بالثُّبور والخزي والفضيحةِ، وعلموا أنَّهم ظالمونَ معتدون، قد عَدَلَ فيهم الخالقُ حيث أنزلهم بأعمالهم هٰذا المنزل.

﴿١٤﴾ وليس ذٰلك الدعاء والاستغاثة بنافعةٍ لهم ولا مغنيةٍ من عذاب اللّٰه، بل يُقالُ لهم: ﴿لا تدعوا اليوم ثُبوراً واحداً وادعوا ثُبوراً كثيراً﴾؛ أي: لو زاد ما قلتُم أضعاف أضعافِهِ؛ ما أفادكم إلَّا الهمَّ والغمَّ والحزنَ.

لمَّا بيَّن جزاء الظالمين؛ ناسَبَ أن يَذْكُرَ جزاءَ المتَّقين، فقال:

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

---

(١) في (ب): «وهو».

(٢) في (ب): «أي عذابهم».

﴿١٥﴾ أي: قُلْ لهم مبيِّناً لسفاهة رأيهم واختيارهم الضارّ على النافع: ﴿أذٰلك﴾: الذي وَصَفْتُ لكم من العذاب ﴿خيرٌ أم جنَّةُ الخُلْدِ التي وُعِدَ المتَّقون﴾: التي زادُها تقوى اللّه؛ فمن قام بالتقوى؛ فاللّه قد وَعَدَه إيَّاها، ﴿كانت لهم جزاءً﴾: على تقواهم، ﴿ومصيراً﴾: موئلاً يرجعون إليها، ويستقرُّون فيها، ويخلُدون دائماً أبداً.

﴿١٦﴾ ﴿لهم فيها ما يشاؤون﴾؛ أي: يطلبون وتتعلَّق به أمانيهم ومشيئتهم؛ من المطاعم، والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والنساء الجميلات، والقصور العاليات، والجنَّات والحدائق المرجحنَّة[1]، والفواكة التي تسر ناظريها وآكليها من حسنها وتنوُّعها وكثرة أصنافها، والأنهار التي تجري في رياض الجنَّة وبساتينها حيث شاؤوا يصرِّفونها ويفجِّرونها أنهاراً من ماءٍ غير آسنٍ، وأنهارٌ من لبن لم يتغيَّر طعمُه، وأنهارٌ من خمر لذَّةٍ للشاربين، وأنهارٌ من عسلٍ مصفًّى وروائح طيِّبة، ومساكن مزخرفة، وأصواتٌ شجيَّة تأخُذُ من حسنها بالقلوب، ومزاورة الإخوان، والتمتُّع بلقاء الأحباب، وأعلى من ذٰلك كلِّه التمتُّع بالنظر إلى وجه الربِّ الرحيم، وسماع كلامِهِ والحظوة بقربه والسعادة برضاه، والأمن من سَخَطه واستمرار هٰذا النعيم ودوامه وزيادته على ممرِّ الأوقات وتعاقب الآنات. ﴿كان﴾: دخولُها والوصولُ إليها ﴿على ربِّك وعداً مسؤولاً﴾: يسأله إيَّاها عبادُه المتَّقون بلسان حالهم ولسان مقالهم.

فأيُّ الدارين المذكورتين خيرٌ وأولى بالإيثارِ؟! وأيُّ العاملين عُمَّال دار الشقاء أو عمال دار السعادة أولى بالفضل والعقل والفخر يا أولي الألباب؟! لقد وَضَح الحقُّ واستنار السبيل، فلم يبق للمفرِّط عذرٌ في تركه الدليل؛ فنرجوك يا من قضيتَ على أقوام بالشقاءِ وأقوام بالسعادةِ أن تَجْعَلَنا ممَّنْ كتبتَ لهم الحسنى وزيادة، ونستغيثُ بك اللهمَّ من حالة الأشقياء ونسألك المعافاة منها.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ
ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن
مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا
تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ

(١) أي: المتسعة المنبسطة.

مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿١٧﴾ يخبر تعالى عن حالة المشركين وشركائهم يوم القيامة وتبرِّيهم منهم وبطلان سعيهم، فقال: ﴿ويوم يحشُرُهم﴾؛ أي: المكذِّبين المشركين، ﴿وما يَعْبُدون من دونِ اللّه فيقولُ﴾: اللّه مخاطباً للمعبودينَ على وجه التقريع لمن عَبَدَهم: ﴿أأنتم أضلَلْتم عبادي هٰؤلاء أم هم ضَلُّوا السبيل﴾: هل أمرتُموهم بعبادتكم وزيَّنْتُم لهم ذٰلك أم ذٰلك من تلقاءِ أنفسهم؟

﴿١٨﴾ ﴿قالوا سبحانك﴾: نزَّهوا اللّه عن شركِ المشركين به، وبرَّؤوا أنفسَهم من ذٰلك، ﴿ما كان يَنبَغِي لنا﴾؛ أي: لا يليق بنا ولا يَحْسُن منَّا أن نتَّخِذَ من دونك من أولياءَ نتولَّاهم ونعبُدُهم وندعوهم؛ فإذا كنَّا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك ومتبرِّين من عبادة غيرِك؛ فكيف تأمر أحداً بعبادتنا؟! هٰذا لا يكون. أو: سبحانك أنْ نُتَّخَذَ ﴿من دونِكَ من أولياءَ﴾: وهٰذا كقول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿وإذْ قالَ اللّهُ يا عيسى ابنَ مريمَ أأنتَ قلتَ للناس اتَّخِذوني وأمِّيَ إلٰهين من دونِ اللّه قال سبحانَكَ ما يكونُ لي أنْ أقولَ ما ليسَ لي بِحَقٍّ إن كُنْتُ قلتُهُ فقدْ علِمْتَه تعلمُ ما في نفسي ولا أعلمُ ما في نَفْسِكَ إنَّك أنتَ عَلَّامُ الغُيوبِ. ما قلتُ لَهُمْ إلَّا ما أمَرْتَني به أنِ اعْبُدوا اللّهَ ربِّي وَرَبَّكُم...﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ويَوْمَ يَحْشُرُهم جميعاً ثم يقولُ للملائِكَةِ أهٰؤلاءِ إيَّاكُم كانوا يَعْبُدونَ. قالوا سبحانَكَ أنتَ وَلِيُّنا مِن دونِهِم بل كانوا يَعْبُدونَ الجِنَّ أكْثَرُهُم بهم مؤمنونَ﴾، ﴿وإذا حُشِرَ الناسُ كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادَتِهِم كافرينَ﴾.

فلما نزَّهوا أنفسهم أن يَدْعوا لعبادةِ غيرِ اللّه أو يكونوا أضَلُّوهم؛ ذَكَروا السبب الموجب لإضلال المشركينَ، فقالوا: ﴿ولٰكن مَتَّعْتَهُمْ وآباءَهُم﴾: في لَذَّاتِ الدُّنيا وشهواتها ومطالِبِها النفسِيَّةِ، ﴿حتى نَسوا الذِّكْرَ﴾: اشتغالاً في لَذَّاتِ الدُّنيا وإكباباً على شَهَواتها؛ فحافَظوا على دُنياهم وضيَّعوا دينَهم، ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾؛ أي: بائرين، لا خير فيهم، ولا يَصْلُحون لصالح، لا يصلُحون إلَّا للهلاك والبوار، فذكروا المانعَ من اتِّباعهم الهُدى، وهو التمتُّع في الدُّنيا، الذي صرفهم عن الهدى، وعدم المقتضي للهدى، وهو أنَّهم لا خير فيهم؛ فإذا عدموا[1] المقتضي ووُجِدَ

---

(١) في (ب): عدم

المانعُ؛ فلا تشاءُ من شرٍّ وهلاكٍ إلَّا وجَدْتَهُ فيهم.

﴿١٩﴾ فلما تبرَّؤوا منهم؛ قال الله توبيخاً وتقريعاً للمعاندين: ﴿فقد كَذَّبوكُم بما تقولونَ﴾: إنَّهم أمروكم بعبادتهم ورَضوا فِعْلَكم وإنَّهم شفعاء لكم عند ربكم؛ كذَّبوكم في ذٰلك الزعم، وصاروا من أكبر أعدائِكم، فحقَّ عليكم العذاب. ﴿فما تستطيعونَ صرفاً﴾: للعذابِ عنكم بفِعْلِكم أو بفداءٍ أو غيرِ ذٰلك ﴿ولا نصراً﴾: لعجزكم وعدم ناصِرِكم. هٰذا حكم الضالِّين المقلِّدين الجاهلين كما رأيت، أسوأُ حكم وأشرُّ مصير. وأما المعاند منهم الذي عَرَفَ الحقَّ وصَدَفَ عنه؛ فقال في حقِّه: ﴿ومَن يَظْلِم منكُم﴾: بترك الحقِّ ظلماً وعناداً؛ ﴿نُذِقْه عذاباً كبيراً﴾: لا يُقادَرُ قَدْرُهُ ولا يُبْلَغ أمرُه.

﴿٢٠﴾ ثم قال تعالى جواباً لقول المكذبين ـ: ﴿ما لهٰذا الرسولِ يأكُلُ الطعام ويمشي في الأسواقِ﴾ ـ: [﴿وما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ من الْمُرْسَلِينَ إلاَّ إنَّهم لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ في الأَسْوَاقِ﴾]: فما جَعَلناهم جسداً لا يأكلونَ الطعامَ وما جَعَلْناهم ملائكةً؛ فلك فيهم أسوةٌ، وأمَّا الغنى والفقرُ؛ فهو فتنةٌ وحكمةٌ من الله تعالى؛ كما قال: ﴿وجَعَلْنا بعضَكم لبعضٍ فتنةً﴾: الرسولُ فتنةٌ للمرسَلِ إليهم واختبارٌ للمطيعين من العاصين، والرُّسُل فَتَنَّاهم بدعوة الخلق، والغنيُّ فتنةٌ للفقير، والفقير فتنةٌ للغنيِّ، وهٰكذا سائر أصناف الخلق في هٰذه الدار دار الفتن والابتلاء والاختبار، والقصد من تلك الفتنةِ: ﴿أتصبِرونَ﴾، فتقومون بما هو وظيفتُكُم اللازمةُ الراتبةُ، فيثيبُكم مولاكم، أم لا تصبِرونَ فتستحقُّون المعاقبة؟ ﴿وكان ربُّك بصيراً﴾: يعلم أحوالَكم، ويَصْطَفي من يَعْلَمُهُ يَصْلُحُ لرسالتِهِ، ويختصُّه بتفضيلِهِ ويعلم أعمالَكم فيجازيكم عليها إنْ خيراً فخير وإن شرًّا فشر.

﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿٢١﴾ أي: قال المكذبون للرسول، المكذِّبون بوعد الله ووعيده، الذين ليس في قلوبهم خوفُ الوعيد ولا رجاءُ لقاء الخالق: ﴿لولا أُنزِلَ علينا الملائكةُ أو نرى ربَّنا﴾؛ أي: هلاَّ نزلت الملائكة تشهدُ لك بالرسالةِ وتؤيِّدُك عليها، أو تنزلُ رسلاً مستقلِّين، أو نرى ربَّنا فيكلِّمنا ويقول: هٰذا رسولي؛ فاتَّبعوه! وهٰذا معارضةٌ للرسول

بما ليس بمعارِضٍ، بل بالتكبُّر والعلوِّ والعتوِّ. ﴿لقدِ استَكْبَروا في أنفُسِهِم﴾: حيث اقترحوا هٰذا الاقتراح وتجرؤوا هٰذه الجرأةَ؛ فمن أنتم يا فقراءُ ويا مساكينُ حتى تطلبوا رؤيةَ الله وتزعُموا[1] أن الرسالة متوقِّف ثبوتُها على ذٰلك؟! وأيُّ كِبْرٍ أعظم من هٰذا؟! ﴿وعَتَوْا عُتُوًّا كبيراً﴾؛ أي: قسوا وصلبوا عن الحقِّ قساوةً عظيمة؛ فقلوبهم أشدُّ من الأحجار وأصلبُ من الحديد، لا تَلين للحقِّ ولا تُصْغي للناصحين؛ فلذٰلك لم ينجعْ فيهم وعظٌ ولا تذكيرٌ، ولا اتَّبعوا الحقَّ حين جاءهم النذيرُ، بل قابلوا أصدقَ الخَلْقِ وأنصَحَهم وآياتِ الله البيناتِ بالإعراض والتكذيب [والمعارضة]؛ فأيُّ عتوٍّ أكبرُ من هٰذا العتوِّ؟! ولذٰلك بَطَلَتْ أعمالُهم، واضمحلَّتْ، وخسروا أشدَّ الخسران، [وحرموا غايةَ الحرمانِ].

﴿٢٢﴾ ﴿يوم يرون الملائكةَ﴾: [التي اقترحوا نُزُولَها]، ﴿لا بُشْرى يومئذٍ للمجرِمين﴾: وذٰلك أنَّهم لا يَرَوْنَها مع استمرارِهم على جُرْمِهِم وعنادِهم إلَّا لعقوبتِهِم وحلول البأسِ بهم: فأولُ ذٰلك عند الموت إذا تنزَّلت عليهم الملائكةُ؛ قال الله تعالى: ﴿ولو تَرى إذِ الظالمونَ في غمراتِ الموتِ والملائكةُ باسطو أيديهم أخْرِجُوا أنفُسَكُمُ اليَوْمَ تُجْزَوْنَ عذابَ الهُونِ بما كنتُم تقولونَ على الله غيرَ الحقِّ وكنتُم عن آياتِهِ تَسْتَكْبِرونَ﴾. ثم في القبر حيث[2] يأتيهم منكرٌ ونكيرٌ، فيسألُهم عن ربِّهم ونبيِّهم ودينهم، فلا يجيبونَ جواباً يُنجيهم، فيحلُّون بهم النقمةَ وتزول عنهم بهم الرحمة.

ثم يوم القيامة حين تسوقُهُم الملائكةُ إلى النار، ثم يسلِّمونَهم لخزنة جهنَّم، الذين يتولَّوْن عذابَهم ويباشِرون عقابَهم. فهٰذا الذي اقترحوه وهٰذا الذي طلبوه إنِ استمرُّوا على إجرامِهِم لا بدَّ أن يَرَوْهُ ويَلْقَوْه، وحينئذٍ يتعوَّذونَ من الملائكة ويفرُّون، ولٰكن لا مفرَّ لهم، ﴿ويقولون حِجْراً مَحْجوراً﴾: ﴿يا معشرَ الجنِّ والإنسِ إنِ استَطَعْتُم أن تَنْفُذوا من أقطارِ السمٰواتِ والأرضِ فانفُذوا لا تَنفُذونَ إلَّا بسُلْطانٍ﴾.

﴿٢٣﴾ ﴿وقَدِمْنا إلى ما عملوا من عمل﴾؛ أي: أعمالهم التي رَجَوْا أن تكونَ خيراً وتعبوا فيها، ﴿فجَعَلْناه هباءً منثوراً﴾؛ أي: باطلاً مضمحلاً قد خسروه وحُرِموا أجره وعوقبوا عليه، وذٰلك لفقدِهِ الإيمان وصدورِهِ عن مكذِّب لله ورسله؛ فالعمل الذي يقبلُهُ الله ما صَدَرَ من المؤمن المخلصِ المصدِّق للرسل المتَّبِع لهم فيه.

---

(١) في (ب): «وتزعمون». (٢) في (ب): «حين».

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٤﴾ أي: في ذٰلك اليوم الهائل كثير البلابل، ﴿أصحابُ الجنَّة﴾: الذين آمنوا باللّه وعملوا صالحاً واتَّقوا ربَّهم ﴿خيرٌ مستقرًّا﴾: من أهل النار، ﴿وأحسنُ مَقيلاً﴾؛ أي: مستقرُّهم في الجنة وراحتُهم التي هي القيلولة هو المستقرُّ النافع والراحةُ التامَّة؛ لاشتمال ذٰلك على تمام النعيم الذي لا يَشوبه كَدَرٌ؛ بخلاف أصحاب النار؛ فإنَّ جهنَّم مستقرُّهم ساءت مستقرًّا ومقيلاً، وهٰذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر منهُ شيءٌ؛ لأنَّه لا خير في مَقيل أهل النارِ ومستقرِّهم؛ كقوله: ﴿آللَّهُ خيرٌ أمَّا يُشرِكونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٥ ـ ٢٦﴾ يُخبر تعالى عن عَظَمَةِ يوم القيامة وما فيه من الشدَّة والكُروب ومزعجات القلوب، فقال: ﴿ويوم تَشَقَّقُ السماءُ بالغمام﴾: وذٰلك الغمام الذي ينزل اللّه فيه؛ ينزلُ من فوق السماوات، فَتَنْفَطِرُ له السماواتُ وتشقَّق وتنزِلُ [ملائكةُ][1] كلِّ سماء، فيقفون صفًّا صفًّا، إمّا صفًّا واحداً محيطاً بالخلائق، وإمّا كلُّ سماء يكونون صفًّا، ثم السماء التي تليها صفًّا[2]، وهٰكذا القصدُ أنَّ الملائكةَ على كَثْرَتِهم وقوَّتِهم ينزلون محيطين بالخَلْق مذعِنين لأمرِ ربِّهم لا يتكلَّم منهم أحدٌ إلَّا بإذن من اللّه؛ فما ظنُّك بالآدميِّ الضعيف، خصوصاً الذي بارز مالِكَه بالعظائم، وأقدم على مساخطِهِ، ثم قدم عليه بذُنوبٍ وخطايا لم يتبْ منها، فيحكُمُ فيه الملكُ الخلَّاقُ[3] بالحكم الذي لا يجورُ ولا يظلِمُ مثقالَ ذرَّةٍ، ولهٰذا قال: ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾: لصعوبتِهِ الشَّديدة وتعسُّرِ أمورِهِ عليه؛ بخلاف المؤمن؛ فإنَّه

---

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «الملائكة».

(٢) رواه الحاكم (٤/ ٥٦٩ و ٥٧٠) عن ابن عباس موقوفاً، وقال الذهبي: «إسناده قوي». ورواه الدارمي في «الرد على الجهمية» (١٤٢ و ١٤٣)، وانظر «الدر المنثور» (٥/ ١٢٣).

(٣) في (ب): «الحق».

يسيرٌ عليه خفيفُ الحمل: ﴿ويَوْمَ نحشُرُ المتَّقينَ إلى الرحمٰن وفداً. ونَسوقُ المجْرمين إلى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾. وقوله: ﴿الملك يومئذٍ﴾؛ أي: يوم القيامةِ، ﴿الحقُّ للرحمٰن﴾: لا يبقى لأحدٍ من المخلوقين مُلْكٌ ولا صورةُ مُلْكٍ؛ كما كانوا في الدنيا، بل قد تساوتِ الملوكُ ورعاياهم والأحرارُ والعبيدُ والأشرافُ وغيرهم.

وممَّا يرتاحُ له القلبُ وتطمئنُّ به النفس وينشرحُ له الصدرُ أنَّه أضاف الملك في يوم القيامة لاسمِهِ الرحمٰن؛ الذي وسعتْ رحمتُهُ كلَّ شيءٍ، وعمَّت كلَّ حيٍّ، وملأتِ الكائناتِ، وعمرت بها الدُّنيا والآخرة، وتمَّ بها كلُّ ناقص، وزال بها كلُّ نقص، وغلبت الأسماءُ الدالَّةُ عليه الأسماءَ الدالَّة على الغضب، وسبقت رحمتُه غضَبَه وغلبتْه؛ فلها السبق والغلبة، وخَلَقَ هٰذا الآدميَّ الضعيف وشرَّفَه وكرَّمه لِيُتِمَّ عليه نعمته وليتغمَّدَه برحمته، وقد حضروا في موقف الذلِّ والخضوع والاستكانة بين يديه؛ ينتظرون ما يحكم فيهم وما يُجري عليهم، وهو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم؛ فما ظنُّك بما يعامِلُهم به، ولا يَهْلِكُ على الله إلَّا هالكٌ، ولا يخرج من رحمتِهِ إلَّا من غلبتْ عليه الشَّقاوة، وحقَّتْ عليه كلمةُ العذاب.

﴿٢٧﴾ ﴿ويوم يَعَضُّ الظالمُ﴾: بشركِهِ وكفرِهِ وتكذيبِهِ للرسل ﴿على يديه﴾: تأسُّفاً وتحسُّراً وحزناً وأسفاً، ﴿يقولُ يا ليتني اتَّخَذْتُ مع الرسول سبيلاً﴾؛ أي: طريقاً بالإيمان به وتصديقِهِ واتِّباعِهِ.

﴿٢٨﴾ ﴿يا ويلتى ليتني لم أتَّخِذْ فلاناً﴾: وهو الشيطانُ الإنسيُّ أو الجنيُّ ﴿خليلاً﴾؛ أي: حبيباً مصافياً، عاديتُ أنصحَ الناس لي وأبرَّهم بي وأرفَقَهم بي، وواليتُ أعدى عدوٍّ لي، الذي لم تُفِدْني ولايتُهُ إلَّا الشقاءَ والخسارَ والخِزْيَ والبَوارَ.

﴿٢٩﴾ ﴿لقد أضلَّني عن الذِّكْرِ بعد إذْ جاءَني﴾: حيثُ زين له ما هو عليه من الضَّلال بخدعِهِ وتسويله، ﴿وكان الشيطانُ للإنسانِ خَذولاً﴾: يزيِّن له الباطلَ ويقبِّحُ له الحقَّ ويَعِدُه الأماني ثم يتخلَّى عنه ويتبرَّأ منه؛ كما قال لجميع أتباعه حين قُضِيَ الأمرُ وفَرَغَ اللهُ من حساب الخلق: ﴿وقالَ الشيطانُ لمّا قُضِيَ الأمرُ إنَّ اللهَ وَعَدَكُم وَعْدَ الحقِّ ووعَدْتُكم فأخلَفْتُكم وما كان لي عليكم من سلطانٍ إلَّا أن دَعَوْتُكم فاستجَبْتُم لي فلا تلوموني ولوموا أنفُسَكم ما أنا بِمُصْرِخِكم وما أنتم بمُصْرِخِيَّ إنِّي كفرتُ بما أشْرَكْتُموني من قبل...﴾ الآية؛ فلينظر العبد لنفسِهِ وقتَ الإمكان،

وليَتدارِكْ[١] الممكنَ قبل أن لا يمكنَ، ولْيوالي مَن ولايتُهُ فيها سعادتُهُ، ويعادي مَنْ تنفعُهُ عداوتُهُ وتضرُّه صداقتُه. واللّه الموفقُ.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿وقال الرسولُ﴾: منادياً لربِّه وشاكياً عليه إعراض قومِهِ عمَّا جاء به ومتأسفاً على ذٰلك منهم: ﴿يا ربِّ إنَّ قومي﴾: الذي أرسلْتَني لهدايتهم وتبليغهم ﴿اتَّخذوا هٰذه القرآن مَهجوراً﴾؛ أي: قد أعرضوا عنه وهجروه وتركوه، مع أنَّ الواجب عليهم الانقيادُ لحكمه والإقبال على أحكامه والمشي خلفه.

﴿٣١﴾ قال اللّه مسلياً لرسولِهِ ومخبراً: إنَّ هٰؤلاء الخلق لهم سلفٌ صنعوا كصنيعِهِم، فقال: ﴿وكذٰلك جَعَلْنا لكلِّ نبيٍّ عدوًّا من المجرمين﴾؛ أي: من الذين لا يصلحون للخير ولا يزكون عليه؛ يعارضونهم، ويردُّون عليهم، ويجادلونهم بالباطل. من بعض فوائد ذٰلك أنْ يعلوَ الحقُّ على الباطل، وأن يتبيَّن الحقُّ ويتَّضح اتِّضاحاً عظيماً؛ لأنَّ معارضة الباطل للحقِّ مما تزيدُهُ وضوحاً وبياناً وكمالَ استدلال، وأن نتبيَّن ما يفعل اللّه بأهل الحقِّ من الكرامة، وبأهل الباطل من العقوبة؛ فلا تحزنْ عليهم، ولا تَذْهَبْ نفسُك عليهم حسراتٍ، ﴿وكفى بربِّك هادياً﴾: يهديك فيحصُلُ لك المطلوبُ ومصالحُ دينك ودنياك، ﴿ونَصيراً﴾: ينصُرُك على أعدائِكَ، ويدفعُ عنك كلَّ مكروه في أمر الدين والدُّنيا؛ فاكتف به وتوكَّلْ عليه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣٢﴾ هٰذا من جملة مقترحات الكفَّار الذي توحيه إليهم أنفسُهُم، فقالوا: ﴿لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدةً﴾؛ أي: كَمَا أُنزِلَت الكتبُ قبلَه. وأيُّ محذورٍ من نزوله على هٰذا الوجه؟! بل نزوله على هٰذا الوجه أكملُ وأحسن، ولهٰذا قال: ﴿كذٰلك﴾: أنزلناه متفرقاً ﴿لِنُثَبِّتَ به فؤادَكَ﴾: لأنَّه كلَّما نزلَ عليه شيء من القرآن؛ ازداد طمأنينةً وثباتاً، وخصوصاً عند ورود أسباب القلق؛ فإنَّ نزول القرآن عند حدوثه يكون له موقعٌ عظيمٌ وتثبيتٌ كثيرٌ أبلغ مما لو كان نازلاً قبل ذٰلك ثم تذكَّره

---

(١) في (ب): «وليتداك».

عند حلول سببه، ﴿ورتَّلْناه ترتيلاً﴾؛ أي: مَهَّلْناه، ودرَّجْناك فيه تدريجاً.

وهٰذا كلُّه يدلُّ على اعتناء اللّه بكتابه القرآن وبرسولِهِ محمدٍ ﷺ؛ حيث جعل إنزال كتابه جارياً على أحوال الرسول ومصالحِهِ الدينيَّةِ.

﴿٣٣﴾ ولهٰذا قال: ﴿ولا يأتونَكَ بِمَثَلٍ﴾: يعارضون به الحقَّ ويدفعون به رسالتك، ﴿إلَّا جئناك بالحقِّ وأحسنَ تفسيراً﴾؛ أي: أنزلنا عليك قرآناً جامعاً للحقِّ في معانيه والوضوح والبيان التامِّ في ألفاظِهِ؛ فمعانيه كلُّها حقٌّ وصدقٌ لا يشوبها باطلٌ ولا شبهةٌ بوجه من الوجوه، وألفاظُهُ وحدودُهُ للأشياء أوضحُ ألفاظاً وأحسنُ تفسيراً، مبين للمعاني بياناً كاملاً.

وفي هٰذه الآية دليلٌ على أنَّه ينبغي للمتكلِّم في العلم من محدِّث ومعلِّم وواعظٍ أن يقتدي بربِّه في تدبيره حال رسوله، كذٰلك العالم يدبِّر أمر الخلق، وكلَّما حدث موجبٌ أو حصل موسمٌ؛ أتى بما يناسب ذٰلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبويَّة والمواعظ الموافقة لذٰلك.

وفيه ردٌّ على المتكلِّفين من الجهميَّة ونحوهم ممَّن يرى أنَّ كثيراً من نصوص القرآن محمولةٌ على غير ظاهرها، ولها معانٍ غير ما يُفْهَم منها؛ فإذاً على قولهم لا يكون القرآن أحسنَ تفسيراً من غيره، وإنما التفسير الأحسن على زعمهم تفسيرُهم الذي حرَّفوا له المعاني تحريفاً!

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٤﴾ يخبر تعالى عن حال المشركين الذين كذَّبوا رسوله وسوءَ مآلهم وأنهم ﴿يُحْشَرون على وجوهِهِم﴾: في أشنع مرأى وأفظع منظرٍ، تسحبُهُم ملائكةُ العذاب ويجرُّونهم ﴿إلى جهنَّم﴾: الجامعة لكلِّ عذابٍ وعقوبةٍ، ﴿أولئك﴾: الذين بهٰذه الحال ﴿شرٌّ مكاناً﴾: ممَّن آمن باللّه وصدَّق رسلَه ﴿وأضلُّ سبيلاً﴾: وهٰذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ فإنَّ المؤمنين حسنٌ مكانهم ومستقرُّهم، واهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم، وفي الآخرة إلى الوصول إلى جنات النعيم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا

بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿٣٥ ـ ٤٠﴾ أشار تعالى إلى هٰذه القَصَص، وقد بسطها في آياتٍ أخرَ؛ ليحذِّرَ المخاطبين من استمرارِهم على تكذيب رسولهم، فيصيبُهم ما أصاب هٰؤلاء الأمم الذين كانوا[1] قريباً منهم ويعرفون قَصصهم بما استفاض واشتُهِر عنهم، ومنهم مَنْ يَرَوْن آثارَهم عياناً؛ كقوم صالح في الحجر، وكالقريةِ التي[2] أُمطِرَتْ مَطَرَ السَّوْء بحجارة من سِجِّيل؛ يمرُّون عليهم مصبحين وبالليل في أسفارهم؛ فإنَّ أولٰئك الأمم ليسوا شرًّا منهم، ورسلهم ليسوا خيراً من رسول هٰؤلاء؛ ﴿أكُفَّارُكُم خيرٌ من أولٰئكم أمْ لكم براءةٌ في الزُّبُر﴾، ولٰكنَّ الذي منع هٰؤلاء من الإيمان مع ما شاهدوا من الآيات أنَّهم كانوا لا يَرْجون بعثاً ولا نُشوراً؛ فلا يرجون لقاء ربِّهم، ولا يَخْشَوْن نَكاله؛ فلذٰلك استمرُّوا على عنادهم، وإلَّا؛ فقد جاءهم من الآيات ما لا يبقى معه شكٌّ ولا شبهةٌ ولا إشكالٌ ولا ارتيابٌ.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿٤١﴾ أي: ﴿وإذا رَأَوْكَ﴾: يا محمد؛ هٰؤلاء المكذِّبون لك، المعاندون لآيات اللّه، المستكبرون في الأرض؛ استهزؤوا بك، واحتقروك، وقالوا على وجه الاحتقار والاستصغار: ﴿أهٰذا الذي بَعَثَ الله رسولاً﴾؛ أي: غير مناسب ولا لائق أن يَبْعَثَ الله هٰذا الرجل! وهٰذه من شدَّة ظلمِهم وعنادِهم وقلبهم الحقائق؛ فإنَّ كلامَهم هٰذا يُفهِمُ أنَّ الرسولَ ـ حاشاه ـ في غاية الخِسَّة والحقارة، وأنَّه لو كانتِ الرسالةُ لغيره؛ لكان أنسب. ﴿وقالوا لولا نُزِّلَ هٰذا القرآنُ على رجل من القريتينِ عظيم﴾؛ فهٰذا الكلام لا يصدُرُ إلَّا من أجهل الناس وأضلِّهم، أو من أعظمهم عناداً، وهو متجاهلٌ، قصدُه ترويج ما معه من الباطل بالقدح بالحقِّ وبمن جاء به، وإلَّا؛ فمنْ تدبَّر أحوال محمد بن عبداللّه ﷺ؛ وَجَدَه رجل العالم وهمامهم ومقدَّمهم في العقل والعلم واللُّبِّ والرَّزانة ومكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والعفة

(١) في (ب): «الذين قريباً».

(٢) كذا في (ب). وفي (أ): «الذي».

والشجاعة والكرم وكلِّ خُلُقٍ فاضلٍ. وأنَّ المحتقرَ له والشانيء له قد جمع من السَّفَه والجهلِ والضلال والتَّناقُض والظُّلم والعدوان ما لا يجمعُه غيره. وحسبه جهلاً وضلالاً أن يَقْدَحَ بهٰذا الرسول العظيم والهُمام الكريم، والقصد من قدحِهِم فيه واستهزائِهِم به؛ تصلُّبهم على باطلهم وغُروراً لِضُعَفاءِ العقول.

﴿٤٢﴾ ولهٰذا قالوا: ﴿إن كاد لَيُضِلُّنا عن آلهتنا﴾ [هذا الرجل]: بأن يجعل الآلهة إلٰهاً واحداً، ﴿لولا أن صَبَرْنا عليها﴾: لأضلَّنا. زعموا قبَّحهم اللّه أنَّ الضَّلال هو التوحيد، وأنَّ الهُدى ما هم عليه من الشرك؛ فلهٰذا تواصَوْا بالصبر عليه، ﴿وانْطَلَقَ الملأُ منهم أنِ امْشوا واصبِروا على آلهتكم﴾، وهنا قالوا: ﴿لولا أن صَبَرْنا عليها﴾: والصبر يُحمد في المواضع كلِّها؛ إلَّا في هٰذا الموضع؛ فإنه صبرٌ على أسباب الغضب، وعلى الاستكثار من حطب جهنَّم، وأما المؤمنون؛ فهم كما قال اللّه عنهم: ﴿وتواصَوْا بالحقِّ وتواصَوْا بالصبرِ﴾، ولما كان هٰذا حكماً منهم بأنَّهم المهتدون والرسول ضالٌّ، وقد تقرَّر أنَّهم لا حيلة فيهم توعَّدهم بالعذاب، وأخبر أنهم في ذٰلك الوقت، ﴿حين يَرَوْنَ العذاب﴾: يعلمون علماً حقيقيًّا، ﴿مَنْ﴾ هو ﴿أضَلُّ سبيلاً﴾. ﴿ويوم يَعَضُّ الظالم على يديهِ يقولُ يا ليتني اتَّخَذْتُ مع الرسول سبيلاً. . .﴾ الآيات.

﴿٤٣﴾ وهل فوق ضلال مَنْ جعل إلٰهه معبودَه[1]؛ فما هويه فعله؟! فلهٰذا قال: ﴿أرأيتَ مَنِ اتَّخَذَ إلٰهه هواه﴾: ألا تعجبُ من حاله وتنظُر ما هو فيه من الضلال وهو يحكُم لنفسِهِ بالمنازل الرفيعة، ﴿أفأنتَ تكون عليه وكيلاً﴾؛ أي: لست عليه بمسيطرٍ مسلَّط، بل إنما أنت منذرٌ قد[2] قمتَ بوظيفتِك. وحسابُهُ على اللّه.

﴿٤٤﴾ ثمَّ سجَّل تعالى على ضلالهم البليغ بأنْ سَلَبَهُمُ العقولَ والأسماع، وشبَّههم في ضلالهم بالأنعام السائمة التي لا تسمعُ إلَّا دعاءً ونداءً ﴿صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقِلونَ﴾، بل هم أضلُّ من الأنعام؛ فإنَّ[3] الأنعام يهديها راعيها فتهتدي، وتعرف طريق هلاكها فتجتنبه، وهي أيضاً أسلم عاقبةً من هٰؤلاء، فتبيَّن بهٰذا أن الرامي للرسول بالضَّلال أحقُّ بهٰذا الوصف، وأنَّ كلَّ حيوان بهيم؛ فهو أهدى منه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

---

(١) كذا في النسختين.

(٢) في (ب): «وقد».

(٣) في (ب): «لأن».

﴿٤٥ ـ ٤٦﴾ أي: ألم تشاهِدْ ببصرك وبصيرتِك كمالَ قدرةِ ربِّك وسَعَةِ رحمتِهِ: أنَّه مدَّ على العباد الظلَّ، وذٰلك قبل طلوع الشمس، ﴿ثم جَعَلْنا الشمس عليه﴾؛ أي: على الظلِّ ﴿دليلاً﴾: فلولا وجودُ الشمس؛ لما عُرِفَ الظلُّ؛ فإنَّ الضدَّ يعرف بضده، ﴿ثم قَبَضْناه إلينا قبضاً يسيراً﴾؛ فكلَّما ارتفعتِ الشمس؛ تقلَّص الظِّلُّ شيئاً فشيئاً، حتى يذهب بالكُلِّيَّة. فتوالي الظل والشمس على الخلق الذي يشاهدونه عياناً، وما يترتَّب على ذٰلك من اختلاف الليل والنهار وتعاقُبِهما وتعاقُبِ الفصول وحصول المصالح الكثيرة بسبب ذٰلك؛ من أدلِّ دليل على قدرةِ الله وعظمتِهِ، وكمال رحمتِهِ وعنايتِهِ بعبادِهِ، وأنَّه وحدَه المعبودُ المحمودُ المحبوب المعظَّم ذو الجلال والإكرام.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿٤٧﴾ أي: من رحمته بكم ولُطْفِهِ أن جَعَلَ الليل لكم بمنزلةِ اللِّباس الذي يَغْشاكم حتى تستقرُّوا فيه، وتهدؤوا بالنوم وتسبُتَ حركاتُكم؛ أي: تنقطع عند النوم؛ فلولا الليل؛ لما سكن العبادُ، ولا استمرُّوا في تصرُّفهم، فضرَّهم ذٰلك غاية الضرر، ولو استمرَّ أيضاً الظلام؛ لتعطَّلت عليهم معايِشُهم ومصالِحُهم، ولٰكنه جعل النهار نُشوراً؛ ينتشرون فيه لتجاراتهم وأسفارهم وأعمالهم، فيقوم بذٰلك ما يقوم من المصالح.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٨ ـ ٤٩﴾ أي: هو وحده الذي رحم عبادَه وأدرَّ عليهم رزقَه بأن أرسل الرياح مبشراتٍ بين يدي رحمته، وهو المطر، فثار بها السحاب وتألَّف، وصار كِسَفاً وألْقَحَتْهُ وأدرَّتْه بإذن آمرها والمتصرِّف فيها؛ ليقع استبشار العباد بالمطر قبل نزوله، وليستعدُّوا له قبل أن يَفْجَأهم دفعةً واحدةً، ﴿وأنْزَلْنا من السماءِ ماءً طَهوراً﴾: يطهِّر من الحدث والخَبَث، ويطهِّر من الغش والأدناس، وفيه بركةٌ من بركتِهِ؛ أنه أنزله ليحيي به بلدةً ميتاً، فتختلف أصناف النوابت والأشجار فيها مما يأكل الناس والأنعام، ﴿ونُسْقِيَه مما خَلَقْنا أنعاماً وأناسِيَّ كثيراً﴾؛ أي: نسقيكموه أنتم وأنعامكم؛ أليس الذي أرسل الرياح المبشِّرات، وجعلها في عملها متنوِّعات، وأنزل

من السماء ماء طهوراً مباركاً، فيه رزقُ العباد ورزقُ بهائمهم؛ هو الذي يستحقُّ أن يُعْبَدَ وحدَه ولا يُشْرَكَ معه غيره؟!

﴿٥٠﴾ ولما ذكر تعالى هٰذه الآيات العيانيَّة المشاهدة، وصرفها للعباد ليعرفوه ويشكروه ويذكروه؛ مع ذٰلك: أبى ﴿أكثرُ الناس إلا كُفوراً﴾: لفساد أخلاقهم وطبائعهم.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٥١﴾ يخبر تعالى عن نفوذ مشيئتِهِ، وأنَّه لو شاء؛ لبعثَ في كلِّ قرية نذيراً؛ أي: رسولاً ينذِرُهم ويحذِّرهم؛ فمشيئتُهُ غير قاصرة عن ذٰلك، ولكنِ اقتضتْ حكمتُهُ ورحمتُهُ بك وبالعباد يا محمدُ أنْ أرسَلَك إلى جميعهم؛ أحمرِهم وأسودِهم، عربيِّهم وعجميِّهم، إنسهم وجنهم.

﴿٥٢﴾ ﴿فلا تُطِعِ الكافرينَ﴾: في تركِ شيءٍ مما أرسِلْتَ به، بلِ ابذلْ جهدكَ في تبليغ ما أُرْسِلْتَ به، ﴿وجاهِدْهم﴾: بالقرآن ﴿جهاداً كبيراً﴾؛ أي: لا تُبْقِ من مجهودك في نصر الحقِّ وقمع الباطل إلَّا بذلته، ولو رأيتَ منهم من التكذيب والجراءة ما رأيت؛ فابذل جهدك، واستفرغْ وُسْعَكَ، ولا تيأسْ من هدايَتِهِم، ولا تترُكْ إبلاغَهم لأهوائهم.

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿٥٣﴾ أي: ﴿وهو﴾: وحدَه ﴿الذي مَرَجَ البحرين﴾: يلتقيانِ؛ البحر العذبُ، وهي الأنهار السارحة على وجه الأرض، والبحر الملحُ، وجعل منفعةَ كلِّ واحدٍ منهما مصلحةً للعباد. ﴿وجعل بينهما برزخاً﴾؛ أي: حاجزاً يحجُزُ من اختلاط أحدِهما بالآخر، فتذهب المنفعةُ المقصودةُ منها ﴿وحجراً محجوراً﴾؛ أي: حاجزاً حصيناً.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٤﴾ أي: وهو اللّٰه وحدَه لا شريكَ له الذي خلق الآدميَّ من ماءٍ مَهينٍ، ثم نشر منه ذُرِّيَّةً كثيرةً، وجعلهم أنساباً وأصهاراً، متفرِّقين ومجتمعين، والمادةُ كلُّها من

ذٰلك الماء المَهين؛ فهٰذا يدلُّ على كمال اقتداره؛ لقوله: ﴿وكان ربُّك قديراً﴾، ويدلُّ على أنَّ عبادته هي الحقُّ وعبادة غيره باطلة؛ لقوله:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥٥﴾ أي: يعبدون أصناماً وأمواتاً لا تضرُّ ولا تنفع، ويجعلونها أنداداً لمالك النفع والضر والعطاء والمنع؛ مع أنَّ الواجب عليهم أن يكونوا مُقْتَدين بإرشادات ربِّهم، ذابِّين عن دينه، ولكنَّهم عكسوا القضية، ﴿وكان الكافر على ربِّه ظهيراً﴾: فالباطل الذي هو الأوثانُ والأندادُ أعداءٌ للّٰه؛ فالكافرُ عاوَنَها وظاهرَهَا على ربِّها، وصار عدوًّا لربِّه مبارزاً له في العداوة والحرب؛ هٰذا هو الذي خلقَه ورزقَه وأنعم عليه بالنِّعَم الظاهرة والباطنة، وليس يخرُجُ عن ملكِهِ وسلطانِهِ وقبضتِهِ، واللّٰه لم يقطَعْ عنه إحسانَه وبرَّه، وهو بجهله مستمرٌّ على هٰذه المعاداة والمبارزة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٥٦﴾ يخبر تعالى أنَّه ما أرسل رسولَه محمداً ﷺ مسيطراً على الخلق، ولا جعله مَلَكاً، ولا عندَه خزائن الأشياء، وإنما أرسله ﴿مبشراً﴾: يبشِّر من أطاع اللّٰه بالثواب العاجل والآجل. ﴿ونذيراً﴾: ينذر من عصى اللّٰه بالعقاب العاجل والآجل، وذٰلك مستلزمٌ لتبيينِ ما بِهِ البِشارةُ، وما تحصُلُ به النِّذارةُ من الأوامر والنواهي.

﴿٥٧﴾ وإنَّك يا محمدُ لا تسألُهم على إبلاغِهِم القرآنَ والهدى أجراً حتى يَمْنَعَهم ذٰلك من اتِّباعك ويتكلَّفون من الغرامة، ﴿إلَّا مَن شاء أن يَتَّخِذَ إلى رَبِّه سبيلاً﴾؛ أي: إلَّا مَن شاء أن يُنْفِقَ نفقةً في مرضاة ربِّه وسبيله؛ فهٰذا؛ وإن رغبتُكم فيه؛ فلستُ أجْبِرُكم عليه، وليس أيضاً أجراً لي عليكم، وإنَّما هو راجعٌ لمصلحتِكم وسلوكِكم للسبيل الموصلة إلى ربكم.

﴿٥٨﴾ ثم أمره أن يتوكَّلَ عليه ويستعينَ به، فقال: ﴿وتوكَّلْ على الحيِّ﴾: الذي له الحياة الكاملة المطلقة ﴿الذي لا يموتُ وسَبِّحْ بحمدِهِ﴾؛ أي: اعبُدْه وتوكَّلْ عليه

في الأمور المتعلِّقة بك والمتعلِّقة بالخلق، ﴿وكفى به بذنوبِ عبادِهِ خبيراً﴾: يَعْلَمها ويجازي عليها؛ فأنتَ ليس عليك من هداهم شيءٌ، وليس عليك حفظُ أعمالهم، وإنَّما ذٰلك كلُّه بيد اللّه.

﴿٥٩﴾ ﴿الذي خلقَ السمٰواتِ والأرضَ وما بينهما في ستَّةِ أيام ثم استوى﴾: بعد ذٰلك ﴿على العرش﴾: الذي هو سقفُ المخلوقات وأعلاها وأوسعُها وأجملُها، ﴿الرحمٰن﴾: استوى على عرشِهِ الذي وَسِعَ السماواتِ والأرض باسمه الرحمٰن الذي وسعتْ رحمتُهُ كلَّ شيءٍ، فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفاتِ، فأثبت بهٰذه الآية خَلْقَه للمخلوقاتِ واطِّلاعَه على ظاهِرِهم وباطِنِهم وعُلُوَّه فوق العرش ومبايَنَتَهُ إيَّاهم. ﴿فاسألْ به خبيراً﴾؛ يعني: بذٰلك نفسَه الكريمة؛ فهو الذي يعلم أوصافَه وعظمتَه وجلاله، وقد أخبركم بذٰلك، وأبان لكم من عظمتِهِ ما [تسعدون][(١)] به من معرفتِهِ، فعرفه العارفونَ وخَضَعوا لجلالِهِ، واستكبر عن عبادتِهِ الكافرون، واستَنْكَفوا عن ذٰلك.

﴿٦٠﴾ ولهٰذا قال: ﴿وإذا قيلَ لهم اسجُدوا للرحمٰن﴾؛ أي: وحده، الذي أنعم عليكم بسائر النعم، ودفع عنكم جميع النقم، ﴿قالوا﴾ جحداً وكفراً: ﴿وما الرحمٰن﴾: بزعمِهِم الفاسدُ أنَّهم لا يعرِفون الرحمٰن، وجعلوا من جملةِ قوادِحِهِم في الرسول أنْ قالوا: ينهانا عن اتِّخاذ آلهة مع اللّه، وهو يدعو معه إلٰهاً آخر؛ يقول: يا رحمٰن[(٢)]! ونحو ذٰلك؛ كما قال تعالى: ﴿قلِ ادْعوا اللّهَ أو ادْعوا الرحمٰنَ أيًّا ما تَدْعو فله الأسماءُ الحسنى﴾: فأسماؤه تعالى كثيرةٌ لكَثْرَة أوصافِهِ وتعدُّد كمالِهِ؛ فكلُّ واحد منها دلَّ[(٣)] على صفة كمال، ﴿أنسجُدُ لما تأمُرُنا﴾؛ أي: لمجرَّد أمرِك إيَّانا، وهٰذا مبنيٌّ منهم على التكذيب بالرسول واستكبارِهِم عن طاعته، ﴿وزادَهم﴾: دعوتُهم إلى السجود للرحمٰن ﴿نُفوراً﴾: هرباً من الحقِّ إلى الباطل وزيادة كفر وشقاء.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

---

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «تستعدون».

(٢) أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (٣٥٥). وانظر «تفسير الطبري» (١٧/ ٥٨٠).

(٣) في (ب): «دال».

كرَّر تعالى في هٰذه السورة الكريمة قوله: ﴿تبارك﴾؛ ثلاث مرَّاتٍ؛ لأنَّ معناها كما تقدَّم أنَّها تدلُّ على عظمة الباري وكَثْرة أوصافِهِ وكَثْرة خيراتِهِ وإحسانِهِ.

وهٰذه السورةُ فيها من الاستدلال على عظمتِهِ وسَعة سلطانِهِ ونفوذِ مشيئتِهِ وعموم علمِهِ وقدرتِهِ وإحاطةِ ملكِهِ في الأحكام الأمريَّة والأحكام الجزائيَّة وكمال حكمته.

وفيها: ما يدلُّ على سعة رحمتِهِ وواسع جودِهِ وكثرةِ خيراتِهِ الدينيَّة والدنيويَّة ما هو مقتضٍ لتكرار هٰذا الوصف الحسن.

﴿٦١﴾ فقال: **﴿تبارك الذي جَعَلَ في السماء بروجاً﴾**: وهي النجوم عمومها أو منازل الشمس والقمر التي [تنزلها][1] منزلةً منزلة، وهي بمنزلة البروج والقلاع للمدن في حفظها، كذٰلك النجوم بمنزلة البروج المجعولة للحراسة؛ فإنَّها رجومٌ للشياطين، **﴿وجعل فيها سِراجاً﴾**: فيه النور والحرارة، وهي[2] الشمس **﴿وقمراً منيراً﴾**: فيه النُّورُ لا الحرارة، وهٰذا من أدلَّة عظمتِهِ وكثرة إحسانِهِ؛ فإنَّ ما فيها من الخَلْقِ الباهر والتَّدْبير المنتظم والجمال العظيم دالٌّ على عظمة خالِقِها في أوصافه كلِّها، وما فيها من المصالح للخَلْق والمنافع دليلٌ على كثرةِ خيراتِهِ.

﴿٦٢﴾ **﴿وهو الذي جَعَلَ الليلَ والنَّهار خِلْفَةً﴾**؛ أي: يذهبُ أحدُهما؛ فيخلُفُه الآخر، هٰكذا أبداً لا يجتمعان ولا يرتفعان، **﴿لِمَنْ أرادَ أن يَذَّكَّرَ أو أرادَ شُكوراً﴾**؛ أي: لمن أراد أن يتذكَّر بهما ويعتبر ويستدلَّ بهما على كثيرٍ من المطالب الإلٰهيَّة ويشكر اللّه على ذٰلك، ولمن أراد أن يَذْكُرَ اللّه ويشكُرَهُ، وله وردٌ من الليل أو النهار؛ فَمَنْ فاتَه وردُه من أحدهما؛ أدركه في الآخر، وأيضاً؛ فإنَّ القلوب تتقلَّب وتنتقل في ساعات الليل والنهار، فيحدث لها النشاط والكسل والذِّكْر والغفلة والقبض والبسط والإقبال والإعراض، فجعلَ اللّهُ الليل والنهار يتوالى على العباد ويتكرران؛ ليحدثَ لهما الذِّكْرُ والنشاط والشكر للّه في وقت آخر، ولأنَّ أوقات[3] العبادات تتكرَّر بتكرُّر الليل والنهار؛ فكلَّما تكرَّرت الأوقات؛ أحدث للعبد همَّةً غير همَّته التي كسلت في الوقت المتقدم، فزاد في تذكرها وشكرها، فوظائفُ الطاعاتِ بمنزلة سقي الإيمان الذي يمدُّه؛ فلولا ذٰلك؛ لذوى غرسُ الإيمان ويبس، فللّه أتمُّ حمدٍ وأكملُهُ على ذٰلك.

---

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «تنزل». (٢) في (ب): «وهو».
(٣) في (ب): «أوراد».

ثم ذكر من جملة كثرة خيره، منّته على عباده الصالحين وتوفيقهم للأعمال الصالحات التي أكسبتْهم المنازلَ العالياتِ في غرف الجنات، فقال:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾[1] وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾.

﴿٦٣﴾ العبوديَّةُ للّه نوعان: **عبوديَّةٌ لربوبيَّتِهِ**؛ فهٰذه يشتركُ فيها سائرُ الخلق؛ مسلمهُم وكافرُهم، برُّهم وفاجرُهم؛ فكلُّهم عبيدٌ للّه مربوبون مدبرون، ﴿إن كُلُّ مَنْ في السمٰواتِ والأرضِ إلَّا آتي الرحمٰنِ عَبْداً﴾.

وعبوديَّةٌ لألوهيَّتِهِ وعبادتِهِ ورحمتِهِ، وهي عبوديَّةُ أنبيائِهِ وأوليائِهِ، وهي المرادُ هنا، ولهٰذا أضافها إلى اسمه الرحمٰن؛ إشارةً إلى أنَّهم إنَّما وصلوا إلى هٰذه الحال بسبب رحمته، فَذَكَرَ [أنَّ] صفاتِهم أكملُ الصفات ونعوتَهم أفضلُ النعوتِ، فوصَفَهم بأنَّهم ﴿**يَمْشونَ على الأرضِ هَوْناً**﴾؛ أي: ساكنين متواضعين للّه وللخلق؛ فهٰذا وصفٌ لهم بالوقارِ والسَّكينةِ والتَّواضُع للّه ولعبادِهِ، ﴿**وإذا خاطَبَهُمُ الجاهلونَ**﴾؛ أي: خطابَ جهل؛ بدليل إضافةِ الفعل وإسناده لهٰذا الوصفِ، ﴿**قالوا سلاماً**﴾؛ أي:

---

(١) في النسختين إلى آخر السورة الكريمة.

خاطَبوهم خطاباً يَسْلمونَ فيه من الإثم، ويَسْلَمونَ من مقابلة الجاهل بجهلِهِ، وهٰذا مدحٌ لهم بالحِلْم الكثير ومقابلة المسيء بالإحسان والعفو عن الجاهل ورزانةِ العقل الذي أوصلهم إلى هٰذه الحال.

﴿٦٤﴾ ﴿والذين يَبيتونَ لربِّهم سُجَّداً وقياماً﴾؛ أي: يكثِرون من صلاةِ الليل مخلِصين فيها لربِّهم متذلِّلين له؛ كما قال تعالى: ﴿تتجافى جُنوبُهم عن المضاجِع يَدْعونَ رَبَّهم خَوْفاً وطَمَعاً ومما رَزَقْناهم يُنفِقون. فلا تَعْلم نفسٌ ما أُخْفِي لهم مِن قُرَّةِ أعْيُنٍ جزاءً بما كانوا يَعْمَلونَ﴾.

﴿٦٥﴾ ﴿والذين يقولونَ ربَّنا اصرِفْ عنَّا عذابَ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: ادفعه عنا بالعصمةِ من أسبابِهِ ومغفرةِ ما وَقَعَ منَّا مما هو مقتضٍ للعذاب، ﴿إنَّ عَذابها كانَ غراماً﴾؛ أي: ملازماً لأهلها بمنزلة ملازمةِ الغريم لغريمه.

﴿٦٦﴾ ﴿إنَّها ساءتْ مُستقرًا ومُقاماً﴾: وهٰذا منهم على وجه التضرُّع لربِّهم، وبيانِ شدَّةِ حاجتهم إليه، وأنَّهم ليس في طاقتهم احتمالُ هٰذا العذاب، وليتذكَّروا مِنَّةَ الله عليهم؛ فإنَّ صرف الشدَّةِ بحسب شدتها وفظاعتها يعظُمُ وقعُها، ويشتدُّ الفرحُ بصرفها.

﴿٦٧﴾ ﴿والذين إذا أنفَقوا﴾: النفقاتِ الواجبةَ والمستحبةَ ﴿لم يُسْرِفوا﴾: بأن يَزيدوا على الحدِّ فيدخُلوا في قسم التبذير، ﴿ولم يَقْتُروا﴾: فيدخلوا في باب البُخْل والشُّحِّ، وإهمال الحقوق الواجبة، ﴿وكان﴾: إنفاقُهم ﴿بينَ ذٰلك﴾: بين الإسراف والتقتير ﴿قَواماً﴾: يبذُلون في الواجبات من الزَّكَواتِ والكفاراتِ والنفقاتِ الواجبةِ وفيما ينبغي على الوجه الذي يَنْبَغي من غير ضررٍ ولا ضِرارٍ، وهٰذا من عدلهم واقتصادهم.

﴿٦٨﴾ ﴿والذين لا يَدْعونَ مع اللهِ إلٰهاً آخر﴾: بل يَعْبُدونَه وحدَه مخلصين له الدين حنفاءَ مقبلينَ عليه معرِضين عمَّا سواه، ﴿ولا يَقْتُلونَ النفسَ التي حرَّمَ اللهُ﴾: وهي نفسُ المسلم والكافرِ المعاهَد ﴿إلَّا بالحقِّ﴾: كقتل النفس بالنفس، وقتل الزاني المحصَن والكافر الذي يَحِلُّ قتله، ﴿ولا يَزْنونَ﴾: بل يحفَظون فروجَهم؛ إلَّا على أزواجِهِم أوْما مَلَكَتْ أيمانُهم، ﴿ومَنْ يَفْعَلْ ذٰلك﴾؛ أي: الشرك بالله أو قتل النفس التي حرَّم الله بغير حقٍّ أو الزِّنا؛ فسوف ﴿يَلْقَ أثاما﴾.

﴿٦٩﴾ ثم فسَّره بقوله: ﴿يُضاعَفْ له العذابُ يوم القيامةِ ويَخْلُدْ فيه﴾؛ أي: في العذاب ﴿مهاناً﴾، فالوعيد بالخلودِ لمن فعلها كلِّها ثابتٌ لا شكَّ فيه، وكذٰلك لمن

أشركَ بالله، وكذٰلك الوعيد بالعذاب الشديد على كلِّ واحدٍ من هٰذه الثلاثة؛ لكونها إمَّا شرك وإمَّا من أكبر الكبائر، وأما خلود القاتل والزاني في العذاب؛ فإنَّه لا يتناوله الخلودُ؛ لأنه قد دلَّت النصوصُ القرآنيَّة والسنَّة النبويَّة أنَّ جميع المؤمنين سيخرُجون من النار، ولا يخلُدُ فيها مؤمنٌ، ولو فعل من المعاصي ما فعل. ونصَّ تعالى على هٰذه الثلاثة لأنها أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتلُ فيه فسادُ الأبدان، والزِّنا فيه فساد الأعراض.

﴿٧٠﴾ ﴿إلَّا مَن تابَ﴾: عن هٰذه المعاصي وغيرِها بأنْ أقْلَعَ عنها في الحال، وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزماً جازماً أنْ لا يعود، ﴿وآمنَ﴾ بالله إيماناً صحيحاً يقتضي تركَ المعاصي وفعل الطاعات، ﴿وعمل صالحاً﴾: مما أمر به الشارعُ إذا قَصَدَ به وجه الله؛ ﴿فأولٰئك يبدِّلُ الله سيئاتِهم حسناتٍ﴾؛ أي: تتبدَّل أفعالُهم وأقوالُهم التي كانت مستعدَّة لعمل السيئات، تتبدَّلُ حسناتٍ، فيتبدَّل شِرْكُهم إيماناً، ومعصيتُهم طاعةً، وتتبدَّلُ نفس السيئات التي عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنبٍ منها توبةً وإنابةً وطاعةً، تبدَّلُ حسناتٍ كما هو ظاهر الآية، وورد في ذٰلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه، فعدَّدها عليه، ثم أبدل مكان كلِّ سيئةٍ حسنةً، فقال: يا ربِّ! إنَّ لي سيئاتٍ لا أراها هاهنا[1]. والله أعلم. ﴿وكان الله غفوراً﴾: لمن تاب يغفر الذُّنوب العظيمة. ﴿رحيماً﴾: بعبادِهِ؛ حيثُ دعاهم إلى التوبة بعد مبارزتِهِ بالعظائم، ثم وَفَّقهم لها، ثم قَبِلَها منهم.

﴿٧١﴾ ﴿ومن تاب وعَمِلَ صالحاً فإنَّه يتوبُ إلى الله مَتاباً﴾؛ أي: فليعلم أنَّ توبتَه في غاية الكمال؛ لأنَّها رجوعٌ إلى الطريق الموصل إلى الله، الذي هو عينُ سعادة العبد وفلاحه؛ فَلْيُخْلِصْ فيها، ولْيُخَلِّصْها من شوائب الأغراض الفاسدة. فالمقصودُ من هٰذا الحثُّ على تكميل التوبة واتِّباعها على أفضل الوجوه وأجلها؛ ليقدم على من تاب إليه، فيوفيه أجره بحسب كمالها.

﴿٧٢﴾ ﴿والذين لا يشهدون الزُّورَ﴾؛ أي: لا يحضُرونَ الزُّورَ؛ أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على الأقوال المحرَّمة أو الأفعال المحرَّمة؛ كالخوض في آيات الله، والجدال الباطل، والغيبة، والنميمة، والسب، والقذف، والاستهزاء، والغناء المحرم، وشرب الخمر، وفرش الحرير

(١) أخرجه مسلم (١٩٠) من حديث أبي ذر.

والصور... ونحو ذٰلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور؛ فمن باب أولى وأحرى أنْ لا يقولوه ويفعلوه، وشهادة الزُّور داخلة في قول الزُّور، تدخل في هٰذه الآية بالأولوية، ﴿وإذا مَرُّوا باللغوِ﴾: وهو الكلام الذي لا خيرَ فيه ولا فيه فائدةٌ دينيةٌ ولا دنيويةٌ؛ ككلام السفهاء ونحوهم ﴿مَرُّوا كِراماً﴾؛ أي: نَزَّهوا أنْفُسَهم، وأكرموها عن الخوض فيه، ورأوا الخوضَ فيها وإن كان لا إثم فيه؛ فإنَّه سفهٌ ونقصٌ للإنسانيَّة والمروءة؛ فربؤوا بأنفسهم عنه. وفي قوله: ﴿إذا مَرُّوا باللغوِ﴾: إشارة إلى أنهم لا يقصدون حُضورَه ولا سماعَه، ولٰكن عند المصادفةِ التي من غير قصدٍ يُكْرِمونَ أنفسهم عنه.

﴿٧٣﴾ ﴿والذين إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهم﴾: التي أمَرَهم باستماعها والاهتداء بها ﴿لم يَخِرُّوا عليها صُمًّا وعُمياناً﴾؛ أي: لم يقابلوها بالإعراض عنها، والصمم عن سماعها، وصرف النظر والقلوب عنها كما يفعله من لم يؤمن بها ويصدق، وإنَّما حالهم فيها وعند سماعها كما قال تعالى: ﴿إنَّما يؤمنُ بآياتنا الذين إذا ذُكِّروا بها خَرُّوا سُجَّداً وسَبَّحوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وهُم لا يَسْتَكْبِرونَ﴾: يقابلونها بالقَبول والافتقار إليها والانقيادِ والتسليم لها، وتجِدُ عندَهم آذاناً سامعةً وقلوباً واعيةً، فيزداد بها إيمانُهم، ويتمُّ بها إيقانُهم، وتُحْدِثُ لهم نشاطاً، ويفرحون بها سروراً واغتباطاً.

﴿٧٤﴾ ﴿والذين يقولونَ ربَّنا هَبْ لنا من أزواجِنا﴾؛ أي: قُرَنائِنا من أصحابٍ وأقرانٍ وزوجاتٍ، ﴿وذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أعينٍ﴾؛ أي: تَقَرُّ بهم أعيننا، وإذا اسْتَقْرأنا حالَهم وصفاتِهم؛ عَرَفْنا من هِمَمِهِم وعلوِّ مرتبتِهِم [أنَّهم لا تَقَرُّ أَعْيُنُهم حَتَّى يَرَوهُم مُطِيعين لربِّهم عَالِمين عَامِلين وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم] وذُرِّيَّاتِهِم في صلاحهم؛ فإنَّه دعاءٌ لأنفسهم؛ لأنَّ نفعه يعودُ عليهم، ولهٰذا جعلوا ذٰلك هبةً لهم، فقالوا: ﴿هَبْ لنا﴾، بل دعاؤهم يعودُ إلى نفع عموم المسلمين؛ لأنَّ بِصَلاحِ مَنْ ذُكِرَ يكونُ سبباً لصلاح كثيرٍ ممَّن يتعلَّق بهم وينتفعُ بهم.

﴿واجعَلْنا للمتَّقين إماماً﴾؛ أي: أوْصِلْنا يا ربَّنا إلى هٰذه الدرجة العالية؛ درجة الصديقين والكُمَّل من عباد اللّه الصالحين، وهي درجة الإمامة في الدين، وأنْ يكونوا قدوةً للمتَّقين في أقوالهم وأفعالهم، يُقتدى بأفعالهم ويطمئنُّ لأقوالهم ويسير أهل الخير خلفَهم، فيهدون ويهتدون. ومن المعلوم أنَّ الدعاءَ ببلوغ شيء دعاءٌ بما لا يتمُّ إلَّا به، وهٰذه الدرجة ـ درجة الإمامة في الدين ـ لا تتمُّ إلَّا بالصبر واليقين؛ كما قال تعالى: ﴿وجعلناهم أئِمَّةً يهدونَ بأمرِنا لمَّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنونَ﴾:

فهٰذا الدُّعاء يستلزم من الأعمال والصبر على طاعةِ اللّه وعن معصيتِهِ وأقدارِهِ المؤلمة ومن العلم التامُّ الذي يوصل صاحِبَه إلى درجة اليقين خيراً كثيراً وعطاءً جزيلاً، وأنْ يكونوا في أعلى ما يمكن من درجاتِ الخَلْقِ بعد الرسل.

﴿٧٥ ـ ٧٦﴾ ولهٰذا لما كانت هِمَمُهُم ومطالِبُهم عالية، كان الجزاء من جنس العمل، فجازاهم بالمنازل العاليات، فقال: ﴿أولٰئك يُجْزَوْنَ الغرفةَ بما صبروا﴾؛ أي: المنازل الرفيعة والمساكن الأنيقة الجامعة لكلِّ ما يشتهَى وتلذُّه الأعين، وذٰلك بسبب صبرِهِم نالوا ما نالوا؛ كما قال تعالى: ﴿والملائكةُ يَدْخُلون عليهم مِن كلِّ بابٍ. سلامٌ عليكم بما صَبَرْتُم فنعمَ عُقْبى الدَّار﴾، ولهٰذا قال هنا: ﴿ويُلَقَّوْنَ فيها تحيَّةً وسلاماً﴾: من ربِّهم ومن ملائكتِهِ الكرام ومن بعضٍ على بعضٍ، ويَسْلَمون من جميع المنغِّصات والمكدِّرات.

والحاصل أنَّ اللّه وَصَفَهم بالوَقار، والسَّكينة، والتَّواضع له ولعبادِهِ، وحسنِ الأدبِ، والحلم، وسعةِ الخُلُق، والعفوِ عن الجاهلين، والإعراض عنهم، ومقابلة إساءتهم بالإحسان، وقيام الليل، والإخلاص فيه، والخوف من النار، والتضرُّع لربِّهم أن يُنَجِّيَهم منها، وإخراج الواجب والمستحبِّ في النفقات، والاقتصاد في ذٰلك. وإذا كانوا مقتصدينَ في الإنفاق الذي جَرَتِ العادةُ بالتفريط فيه أو الإفراط؛ فاقتصادُهُم وتوسُّطُهم في غيره من باب أولى، والسلامةُ من كبائِر الذُّنوب، والاتِّصاف بالإخلاص للّه في عبادتِهِ، والعِفَّةِ عن الدِّماء والأعراضِ، والتوبة عند صدور شيءٍ من ذٰلك، وأنهم لا يحضُرون مجالس المنكر والفسوق القوليَّة والفعليَّة، ولا يفعلونها بأنفسهم، وأنَّهم يتنزَّهون من اللغو والأفعال الرديَّة، التي لا خير فيها، وذٰلك يستلزمُ مروءتهم وإنسانيَّتَهم وكمالَهم ورفعةَ أنفسِهم عن كلِّ خسيس قوليٍّ وفعليٍّ، وأنَّهم يقابِلون آياتِ اللّه بالقَبول لها والتفهُّم لمعانيها والعمل بها والاجتهاد في تنفيذِ أحكامها، وأنَّهم يَدْعون اللّه تعالى بأكمل الدُّعاء في الدُّعاءِ الذي ينتفعونَ به، وينتفع به من يتعلَّقُ بهم، وينتفعُ به المسلمون من صلاح أزواجِهِم وذُرِّيَّتِهِم، ومن لوازم ذٰلك سعيُهم في تعليمهم ووعظِهِم ونُصْحِهِم؛ لأنَّ مَنْ حَرَصَ على شيءٍ ودعا اللّه فيه؛ لا بدَّ أن يكون متسبباً فيه، وأنَّهم دَعَوا اللّه ببلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم، وهي درجة الإمامة والصديقيَّة؛ فللّه ما أعلى هٰذه الصفات، وأرفع هٰذه الهمم، وأجل هٰذه المطالب، وأزكى تلك النفوس، وأطهر تيك القلوبِ، وأصفى هٰؤلاء الصفوةِ، وأتقى هٰؤلاء السادة. وللّه فضلُ اللّه عليهم، ونعمتُهُ، ورحمتُهُ التي جلَّلتهم، ولطفُه الذي أوصلهم إلى هٰذه المنازل.

ولله مِنَّةُ الله على عبادِهِ أنْ بَيَّنَ لهم أوصافَهم ونعتَ لهم هيئاتِهِم، وبيَّن لهم هِمَمَهم وأوضحَ لهم أجورَهم؛ ليشتاقوا إلى الاتِّصاف بأوصافهم، ويبذُلوا جهدهم في ذُلك، ويسألوا الذي منَّ عليهم وأكرمهم، الذي فضلُهُ في كل زمان ومكان وفي كل وقت وأوان أنْ يَهْدِيَهم كما هداهم، ويتولَّاهم بتربيته الخاصَّة كما تولَّاهم.

فاللهمَّ لك الحمدُ، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلَّا بك، لا نملِكُ لأنفسنا نفعاً ولا ضرًّا، ولا نقدر على مثقال ذرَّةٍ من الخير إن لم تُيَسِّرْ ذُلك لنا؛ فإنَّا ضعفاء عاجزون من كلِّ وجه، نشهد أنَّك إن وَكَلْتَنا إلى أنفسنا طرفة عين؛ وَكَلْتَنا إلى ضعفٍ وعجزٍ وخطيئةٍ؛ فلا نثق يا ربَّنا إلَّا برحمتك، التي بها خلقتنا ورزَقْتَنا وأنعمتَ علينا بما أنعمتَ من النعم الظاهرة والباطنة، وصرفت عنا من النقم؛ فارحمنا رحمةً تُغنينا بها عن رحمةِ مَنْ سواك، فلا خاب من سألَكَ ورجاك.

﴿٧٧﴾ ولما كان الله تعالى قد أضاف هٰؤلاء العبادَ إلى رحمتِهِ واختصَّهم بعبوديَّتِهِ لشرفهم وفضلِهِم، ربَّما توهَّم متوهِّم أنَّه وأيضاً غيرهم؛ فَلِمَ لا يدخل في العبوديَّة؟! فأخبر تعالى أنَّه لا يبالي ولا يعبأ بغيرِ هٰؤلاء، وأنَّه لولا دعاؤكم إيَّاه دعاء العبادة ودعاء المسألة؛ ما عبأ بكم ولا أحبَّكم، فقال: ﴿قُلْ ما يَعْبَأُ بكم رَبِّي لولا دُعاؤُكم فقدْ كَذَّبْتُم فسوفَ يكون لِزاماً﴾؛ أي: عذاباً يَلْزَمُكُم لزومَ الغريم لغريمه، وسوف يحكُمُ اللهُ بينكم وبين عبادِهِ المؤمنين.

تم تفسير سورة الفرقان. فلله الحمد والثناء والشكر أبدا.

تفسير سورة الشعراء

وهي مكية عند الجمهور

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾.

﴿١ ـ ٢﴾ يشير الباري تعالى إشارةً تدلُّ على التعظيم لآياتِ الكتاب المُبين البيِّن الواضح الدالِّ على جميعِ المطالب الإلٰهيَّةِ والمقاصدِ الشرعيَّة؛ بحيث لا يبقى عند الناظر فيه شكٌّ ولا شبهةٌ فيما أخبر به أو حكم به؛ لوضوحِهِ ودلالتِهِ على أشرف المعاني وارتباطِ الأحكام بحُكْمِها وتعليقِها بمناسبِها، فكان رسولُ اللّه ﷺ يُنْذِرُ به الناس، ويَهْدي به الصراطَ المستقيمَ، فيهتدي بذلك عبادُ اللّه المتَّقون، ويعرِضُ عنه من كُتِبَ عليه الشقاء، فكان يحزنُ حزناً شديداً على عدم إيمانهم؛ حرصاً منه على الخير، ونُصحاً لهم.

﴿٣﴾ فلهٰذا قال تعالى لنبيه: ﴿لَعَلَّكَ باخعٌ نفسَك﴾؛ أي: مهلكها وشاقٌّ عليها ﴿ألّا يكونوا مؤمنينَ﴾؛ أي: فلا تفعل ولا تُذْهِبْ نفسَكَ عليهم حسراتٍ؛ فإنَّ الهداية بيد اللّه، وقد أدَّيْت ما عليك من التبليغ، وليس فوقَ هٰذا القرآن المُبين آيةٌ حتى نُنْزِلَها ليؤمنوا بها؛ فإنَّه كافٍ شافٍ لمن يريدُ الهداية.

﴿٤﴾ ولهٰذا قال: ﴿إن نَشَأ نُنَزِّلْ عليهم من السماءِ آيَةً﴾؛ أي: من آيات الاقتراح ﴿فَظَلَّتْ أعناقُهم﴾؛ أي: أعناق المكذِّبين ﴿لها خاضعينَ﴾: ولكن لا حاجة إلى ذٰلك ولا مصلحة فيه؛ فإنَّه إذ ذاك الوقت يكون الإيمان غير نافع، وإنَّما الإيمانُ النافعُ الإيمانُ بالغيب؛ كما قال تعالى: ﴿هل يَنظُرون إلَّا أن تَأتِيَهُمُ الملائكةُ أو يأتِيَ رَبُّكَ أو يأتِيَ بعضُ آياتِ ربِّكَ يومَ يأتي بعضُ آياتِ ربِّكَ لا يَنفَعُ نفساً إيمانُها. . .﴾ الآية.

﴿٥﴾ ﴿وما يأتيهم من ذِكرٍ من الرحمٰن مُحْدَثٍ﴾: يأمرُهُم وينهاهُم ويذكِّرهم ما ينفعُهم ويضرُّهم ﴿إلَّا كانوا عنه معرِضينَ﴾: بقلوبِهِم وأبدانِهِم. هٰذا إعراضُهم عن الذكر المحدَث الذي جرت العادةُ أنَّه يكون موقِعُهُ أبلغَ من غيرِهِ؛ فكيف بإعراضهم عن غيرِهِ؟! وهٰذا لأنَّهم لا خير فيهم، ولا تنجَعُ فيهم المواعظُ.

﴿٦﴾ ولهٰذا قال: ﴿فقد كذَّبوا﴾؛ أي: بالحقِّ، وصار التكذيبُ لهم سجيَّةً لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ، ﴿فسيأتيهم أنباءُ ما كانوا به يستهزئونَ﴾؛ أي: سيقع بهم العذابُ ويحلُّ بهم ما كذَّبوا به؛ فإنَّهم قد حقَّتْ عليهم كلمةُ العذاب.

﴿٧﴾ قال اللّه منبهاً على التفكُّر الذي ينفع صاحبَه: ﴿أوَلَم يَرَوْا إلى الأرض كم أنبَتْنا فيها من كلِّ زوجٍ كريمٍ﴾: من جميع أصناف النباتات، حسنة المنظر، كريمة في نفعها.

﴿٨﴾ ﴿إنَّ في ذٰلك لآيةً﴾: على إحياء اللّه الموتى بعد موتِهِم؛ كما أحيا

الأرض بعد موتها، ﴿وما كان أكثرُهم مؤمنينَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وما أكثرُ الناس ولو حَرَصْتَ بمؤمنينَ﴾.

﴿٩﴾ ﴿وإنَّ ربَّكَ لهو العزيزُ﴾: الذي قد قهرَ كلَّ مخلوقٍ، ودان له العالَمُ العلويُّ والسفليُّ. ﴿الرحيمُ﴾: الذي وسعتْ رحمتُهُ كلَّ شيءٍ، ووصل جودُهُ إلى كلِّ حيٍّ، العزيز الذي أهلك الأشقياء بأنواع العقوبات، الرحيم بالسعداء؛ حيث أنجاهم من كل شرٍّ وبلاءٍ.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ[1] ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ
أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ
فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا
رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ
عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ
ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ
تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ
ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ
وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ
جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ
مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ
أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ
﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ
هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ
أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟

---

(١) في النسختين: إلى آخر القصة. قوله: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ
مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ
فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا
مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ
مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ
قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ
وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ
قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ
ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾
وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾.

أعاد الباري تعالى قِصَّةَ موسى وثنّاها في القرآن ما لم يُثْنِ غيرها؛ لكونها مشتملة على حكم عظيمةٍ وعبرٍ، وفيها نبؤه مع الظالمين والمؤمنين، وهو صاحب الشريعة الكُبرى، وصاحب التوراة أفضل الكتب بعد القرآن، فقال:

﴿١٠ ـ ١١﴾ واذكُرْ حالة موسى الفاضلة وقت نداء الله إيَّاه حين كلَّمه ونبَّأه وأرسله، فقال: ﴿أنِ ائتِ القومَ الظَّالمين﴾: الذين تَكَبَّروا في الأرض وعَلَوْا على أهلها وادَّعى كبيرُهم الربوبيَّة، ﴿قومَ فرعونَ ألا يَتَّقونَ﴾؛ أي: قُلْ لهم بلينِ قولٍ ولطفِ عبارةٍ: ألا تتَّقونَ اللهَ الذي خَلَقَكم ورَزَقَكم فتترُكون ما أنتم عليه من الكفر.

﴿١٢ ـ ١٤﴾ فقال موسى عليه السلام معتذراً من ربِّه ومبيِّناً لعذرِهِ وسائلاً له المعونةَ على هذا الحمل الثقيل: ﴿قال ربِّ إنِّي أخافُ أن يكذِّبونِ. ويضيقُ صَدْري ولا يَنطَلِقُ لساني﴾، فقال: ﴿ربِّ اشْرَحْ لي صَدْري. ويَسِّرْ لي أمري. واحْلُلْ عُقْدَةً من لساني. يَفْقَهوا قولي واجْعَلْ لي وزيراً من أهلي. هارونَ أخي﴾، ﴿فأرسِلْ إلى هارونَ﴾: فأجاب الله طلبتَهُ ونبَّأ أخاه [هارون] كما نبَّأه، ﴿فأرْسِلْهُ معي رِدْأً﴾؛ أي: معاوناً لي على أمري. ﴿ولهم عليَّ ذنبٌ﴾؛ أي: في قتل القبطيِّ، ﴿فأخافُ أن يقتُلونِ﴾.

﴿١٥ ـ ١٧﴾ ﴿قال كلا﴾؛ أي: لا يتمكَّنون من قتلِكَ؛ فإنَّا سنجعلُ لكما سلطاناً؛ فلا يصِلون إليكُما [بآياتنا] أنتما ومن اتَّبَعَكما الغالبون، ولهٰذا لم يتمكَّنْ فرعونُ من قتلِ موسى مع منابذتِهِ له غايةَ المنابذةِ وتسفيه رأيِهِ وتضليلِهِ وقومه، ﴿فاذهبا بآياتنا﴾: الدالَّةِ على صدقِكُما وصحَّةِ ما جئتما به، ﴿إنَّا معكم مستمعونَ﴾: أحفظُكُما وأكلؤُكُما، ﴿فأتِيا فرعونَ فقولا إنَّا رسولُ ربِّ العالمينَ﴾؛ أي: أرسلنا إليك لِتُؤْمِنَ به وبنا، وتنقادَ لعبادتِهِ وتذعنَ لتوحيدِهِ. ﴿أنْ أرسِلْ مَعَنا بني إسرائيلَ﴾: فكُفَّ عنهم عذابَكَ، وارْفَعْ عنهم يَدَكَ؛ ليَعْبُدوا ربَّهم، ويُقيموا أمر دينِهِم.

﴿١٨ ـ ١٩﴾ فلما جاءا لفرعونَ وقالا له ما قالَ اللّه لهما؛ لم يؤمنْ فرعونُ، ولم يَلِنْ، وجعل يعارض موسى، فقال: ﴿ألم نُرَبِّكَ فينا وليداً﴾؛ أي: ألم ننعم عليكَ ونقوم بتربيتِكَ منذ كنت وليداً في مهدِكَ ولم تزل كذٰلك، ﴿ولَبِثْتَ فينا من عُمُرِكَ سنينَ. وفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ﴾: وهي قتلُ موسى للقبطيِّ حين ﴿استغاثَهُ الذي من شيعتِهِ على الذي من عَدُوِّه فَوَكَزَهُ موسى فقضى عليه...﴾ الآية. ﴿وأنت من الكافرين﴾؛ أي: وأنت إذ ذاك طريقُك طريقُنا وسبيلُك سبيلُنا في الكفر، فأقرَّ على نفسِهِ بالكفرِ من حيث لا يدري.

﴿٢٠ ـ ٢٢﴾ فقال موسى: ﴿فعلتُها إذاً وأنا من الضَّالِّين﴾؛ أي: عن غير كفرٍ، وإنَّما كان عن ضلال وسَفَهٍ، فاستغفرتُ ربي فغفر لي، ﴿ففررتُ منكم لـمَّا خِفْتُكم﴾: حين تراجعتُم بقتلي، فهربتُ إلى مدينَ، ومكثتُ سنينَ، ثم جئتُكم وقد وهب ﴿لي ربِّي حُكماً وجَعَلني من المرسلين﴾.

فالحاصلُ أنَّ اعتراضَ فرعونَ على موسى اعتراضُ جاهل أو متجاهل؛ فإنَّه جَعَلَ المانعَ من كونِهِ رسولاً أن جرى منه القتلُ، فبيَّن له موسى أن قَتْلَه على وجهِ الضلال والخطأ الذي لم يقصِدْ نفسَ القتل، وأنَّ فضل اللّه تعالى غيرُ ممنوع منه أحدٌ؛ فلم منعتُم ما منحني اللّه من الحكم والرسالة؟

بقي عليك يا فرعون إدلاؤُكَ بقولِكَ: ﴿ألم نربِّكَ فينا وليداً﴾؟ وعند التحقيق يتبيَّن أن لا مِنَّةَ لك فيها، ولهٰذا قال موسى: ﴿وتلك نعمةٌ﴾ تمنُّ بها ﴿عليَّ أن عَبَّدْتَ بني إسرائيلَ﴾؛ أي: تدلي عليَّ بهٰذه المنَّة لأنَّك سَخَّرْتَ بني إسرائيلَ، وجعلتَهم لك بمنزلةِ العبيدِ، وأنا قد أسْلَمْتَني من تعبيدِكَ وتسخيرِكَ، وجعلتها عليَّ نعمةً؛ فعند التصوُّرِ يتبيَّنُ أنَّ الحقيقةَ أنَّك ظلمتَ هٰذا الشعب الفاضل، وعذَّبْتَهم

وسخَّرتَهم بأعمالك، وأنا قد سلَّمني اللّه من أذاك، مع وصول أذاك لقومي؛ فما هٰذه المنة التي تَمُتُّ[1] بها وتُذلي بها؟!

﴿٢٣ ـ ٢٥﴾ ﴿قال فرعونُ وما ربُّ العالمينَ﴾: وهٰذا إنكارٌ منه لربِّه ظلماً وعلوًّا، مع تيقُّن صحة ما دعاه إليه موسى، ﴿قال ربُّ السمٰواتِ والأرض وما بينهما﴾؛ أي: الذي خَلَقَ العالم العلويَّ والسفليَّ، ودبَّره بأنوع التدبير، وربَّاه بأنواع التربية، ومن جملة ذٰلك أنتم أيُّها المخاطبون؛ فكيف تنكِرونَ خالقَ المخلوقات وفاطرَ الأرض والسماواتِ، ﴿إنْ كنتُم موقِنينَ﴾، فقال فرعون متجرهماً ومعجباً لقوله: ﴿ألا تستمعونَ﴾: ما يقوله هٰذا الرجل.

﴿٢٦ ـ ٢٧﴾ فقال موسى: ﴿ربُّكم وربُّ آبائِكُمُ الأوَّلين﴾: تعجَّبْتُم أم لا، استكبرتُم أم أذعنتُم، فقال فرعون معانداً للحقِّ قادحاً بمن جاء به: ﴿إنَّ رسولَكُم الذي أرسِلَ إليكم لمجنونٌ﴾: حيث قال خلاف ما نحنُ عليه، وخالَفَنا فيما ذهبنا إليه؛ فالعقل عنده وأهل العقل مَنْ زَعموا أنَّهم لم يُخْلَقوا، أو أن السماواتِ والأرض ما زالتا موجودتين من غير موجِدٍ، وأنهم بأنفسهم خُلِقوا من غير خالق! والعقلُ عنده أن يُعْبَدَ المخلوقُ الناقصُ من جميع الوجوه! والجنون عندَه أن يُثْبَتَ الربُّ الخالق للعالم العلويِّ والسفليِّ والمنعمُ بالنِّعم الظاهرةِ والباطنةِ ويُدْعى إلى عبادتِهِ! وزيَّنَ لقومِهِ هٰذا القول، وكانوا سفهاء الأحلام خفيفي العقول، ﴿فاستخفَّ قومَه فأطاعوه إنَّهم كانوا قوماً فاسقينَ﴾.

﴿٢٨﴾ فقال موسى عليه السلام مجيباً لإنكار فرعون وتعطيلِهِ لربِّ العالمين: ﴿ربُّ المشرقِ والمغربِ وما بينَهما﴾: من سائر المخلوقات، ﴿إنْ كنتُم تعقِلونَ﴾: فقد أدَّيْتُ لكم من البيان والتبيينِ ما يفهمُهُ كلُّ من له أدنى مُسْكَةٍ من عقل؛ فما بالُكم تتجاهلون فيما أخاطبكم به؟! وفيه إيماءٌ وتنبيهٌ إلى أنَّ الذي رميتُم به موسى من الجنون أنَّه داؤُكم، فرميتُم أزكى الخلق عقلاً وأكملهم علماً [بالجنون]!، والحالُ أنَّكم أنتم المجانين؛ حيث ذهبتْ عقولُكم عن إنكار أظهر الموجودات؛ خالق الأرض والسماوات وما بينهما؛ فإذا جَحَدْتُموه؛ فأيُّ شيءٍ تثبتون؟! وإذا جهلتموه؛ فأيُّ شيءٍ تعلمون؟! وإذا لم تؤمنوا به وبآياته؛ فبأيِّ شيء بعد اللّه وآياته تؤمنون؟! تاللّه؛ إنَّ المجانين الذين بمنزلة البهائم أعقل منكم، وإنَّ الأنعام السارحةَ أهدى منكم.

(١) في (ب): «كلمة غير واضحة من حيث الخط».

﴿٢٩ ـ ٣٣﴾ فلما خنقت فرعونَ الحجةُ وعجزت قدرتُهُ وبيانُه عن المعارضة؛ ﴿قال﴾: متوعداً لموسى بسلطانه: ﴿لَئِنِ اتَّخذتَ إلٰهاً غيري لأجعَلَنَّكَ من المسجونينَ﴾: زعم قبَّحه اللّه أنَّه قد طمع في إضلال موسى، وأنْ لا يتَّخِذَ إلٰهاً غيرَه، وإلَّا؛ فقد تقرَّر أنه هو ومن معه على بصيرةٍ من أمرهم، فقال له موسى: ﴿أولو جئتُك بشيءٍ مُبين﴾؛ أي: آيةٍ ظاهرةٍ جليَّةٍ على صحَّة ما جئتُ به من خوارق العادات، ﴿قال فأتِ به إن كنتَ من الصادقينَ. فألقى عصاه فإذا هي ثُعبانٌ﴾؛ أي: ذكر الحيات. ﴿مبينٌ﴾: ظاهرٌ لكلِّ أحدٍ لا خيالٌ ولا تشبيهٌ، ﴿ونَزَعَ يدَه﴾: من جيبه، ﴿فإذا هي بيضاءُ للنَّاظِرينَ﴾؛ أي: لها نورٌ عظيم لا نقصَ فيه لمن نظر إليها.

﴿٣٤ ـ ٣٧﴾ ﴿قال﴾ فرعون ﴿للملأ حولَه﴾: معارضاً للحقِّ ومَنْ جاء به: ﴿إنَّ هٰذا لساحرٌ عليمٌ. يريدُ أنْ يُخرِجَكم من أرضِكُم﴾: موَّه عليهم لعلمِهِ بضَعْفِ عقولهم أنَّ هٰذا من جنس ما يأتي به السحرةُ؛ لأنَّه من المتقرِّر عندَهم أنَّ السحرة يأتون من العجائب بما لا يقدِرُ عليه الناس، وخوَّفَهم أنَّه قصدُهُ بهٰذا السحر التوصُّل إلى إخراجهم من وطنهم؛ ليجدُّوا ويجتهدوا في معاداةِ مَنْ يريدُ إجلاءهم عن أولادِهِم وديارِهِم، ﴿فماذا تأمرونَ﴾ أن نَفْعَلَ به؟ ﴿قالوا أرْجِهْ وأخاهُ﴾؛ أي: أخِّرْهما، ﴿وابْعَثْ في المدائن حاشرينَ﴾: جامعين للناس، يأتوكَ أولئك [الحاشرون] ﴿بكلِّ سَحَّارٍ عليم﴾؛ أي: ابعثْ في جميع مُدُنِكَ التي هي مقرُّ العلم ومعدنُ السحر مَنْ يجمعُ لك كلَّ ساحرٍ ماهرٍ عليم في سحرِهِ؛ فإنَّ الساحرَ يُقَابَلُ بسحرٍ من جنس سحرِهِ، وهٰذا من لطفِ اللّه؛ أن يريَ العبادَ بطلانَ ما موَّه به فرعونُ الجاهلُ الضالُّ المضلُّ أنَّ ما جاء به موسى سحرٌ؛ قيضهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر؛ لينعقد المجلسُ عن حضرةِ الخلق العظيم، فيظهر الحقُّ على الباطل، ويقر أهل العلم وأهل الصناعة بصحَّةِ ما جاء به موسى، وأنَّه ليس بسحر.

﴿٣٨ ـ ٤٠﴾ فعمل فرعون برأيهم، فأرسل في المدائن من يَجْمَعُ السحرةَ، واجتهدَ في ذٰلك وجدَّ، ﴿فَجُمِعَ السحرةُ لميقاتِ يوم معلوم﴾: قد واعَدَهم إيَّاه موسى، وهو يوم الزينةِ الذي يتفرَّغون فيه من أشغالهم، ﴿وقيلَ للناس هل أنتم مُجْتَمِعونَ﴾؛ أي: نودي بعموم الناس بالاجتماع في ذٰلك اليوم الموعود، ﴿لعلَّنا نَتَّبِعُ السحرةَ إن كانوا هم الغالبينَ﴾؛ أي: قالوا للناس: اجتَمِعوا لِتَنْظُروا غلبةَ السحرة لموسى، وأنَّهم ماهرون في صناعتِهِم، فنتَّبِعَهم ونعظِّمَهم ونعرفَ فضيلة علم

السحر. فلو وُفِّقوا للحقِّ؛ لقالوا: لعلَّنا نتَّبِعُ المحقَّ منهم، ونعرفُ الصوابَ؛ فلذٰلك ما أفاد فيهم ذٰلك إلَّا قيامَ الحجة عليهم.

﴿٤١ ـ ٤٢﴾ ﴿فلما جاء السحرةُ﴾: ووصلوا لفرعونَ؛ قالوا له: ﴿أإنَّ لنا لأجراً إنْ كنَّا نحنُ الغالبينَ﴾: لموسى، ﴿قال نعم﴾: لكم أجر وثواب، وإنَّكم لَمِنَ المقرَّبينَ عندي؛ وعَدَهم الأجرَ والقربةَ منه؛ ليزدادَ نشاطُهم ويأتوا بكلِّ مقدورِهم في معارضة ما جاء به موسى.

﴿٤٣ ـ ٤٥﴾ فلما اجتمعوا للموعدِ هم وموسى وأهلُ مصر؛ وعَظَهم موسى وذكَّرهم وقال: ﴿ويلَكُم لا تفتروا على الله كذباً فيُسْحِتَكم بعذابٍ وقد خابَ مَنِ افْتَرى﴾، فتنازعوا وتخاصموا، ثم شجَّعهم فرعونُ وشجَّع بعضُهم بعضاً، ﴿قال لهم موسى ألقوا ما أنتم مُلقونَ﴾؛ أي: ألقوا كل ما في خواطركم إلقاؤه ولم يقيده بشيءٍ دون شيءٍ لجزمه ببطلان ما جاؤوا به من معارضة الحقِّ، ﴿فألقَوْا حبالَهُم وعِصِيَّهم﴾: فإذا هي حياتٌ تسعى، وسَحَروا بذٰلك أعين الناس. ﴿وقالوا بعزَّة فرعونَ إنَّا لنحنُ الغالبونَ﴾: فاستعانوا بعزَّةِ عبدٍ ضعيفٍ عاجزٍ من كلِّ وجهٍ؛ إلَّا أنَّه قد تجبَّر وحصلَ له صورة مُلْكٍ وجنودٍ، فغرَّتهم تلك الأبهة، ولم تنفذ بصائرُهم إلى حقيقة الأمر، أو أنَّ هٰذا قَسَمٌ منهم بعزَّةِ فرعونَ، والمقسَم عليه أنَّهم غالبون، ﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي تَلْقَفُ﴾: تبتلعُ وتأخذُ ﴿ما يأفِكونَ﴾: فَالْتَفَّتْ جميعَ ما ألقَوْا من الحبال والعصيِّ؛ لأنَّها إفكٌ وكذبٌ وزورٌ، وذٰلك كلُّه باطلٌ لا يقوم للحقِّ ولا يقاومُه.

﴿٤٦ ـ ٤٨﴾ فلما رأى السحرةُ هٰذه الآية العظيمةَ؛ تيقَّنوا لعلمِهِم أن هٰذا ليس بسحرٍ، وإنَّما هو آيةٌ من آياتِ الله ومعجزةٌ تنبىء بصدق موسى وصحَّة ما جاء به، ﴿فأُلْقِيَ السحرةُ ساجدينَ﴾: لربِّهم، ﴿قالوا آمنَّا بربِّ العالمينَ. ربِّ موسى وهارونَ﴾: وانقمع الباطلُ في ذٰلك المجمع، وأقرَّ رؤساؤُهُ ببطلانِهِ، ووضَحَ الحقُّ وظهر، حتى رأى ذٰلك الناظرون بأبصارهم.

﴿٤٩ ـ ٥١﴾ ولٰكنْ أبى فرعونُ إلَّا عتوًّا وضلالاً وتمادياً في غيِّه وعناداً، فقال للسحرة: ﴿آمنتُم له قبلَ أنْ آذَنَ لكم﴾ يتعجَّبُ ويُعَجِّبُ قومَه من جراءتهم عليه وإقدامِهم على الإيمانِ من غير إذنِهِ ومؤامرتِهِ، ﴿إنَّه لَكبيرُكُم الذي علَّمَكُمُ السحرَ﴾: هٰذا؛ وهو الذي جمع السحرةَ، وملؤه الذين أشاروا عليه بجمعِهِم من مدائنِهِم، وقد علموا أنَّهم ما اجتمعوا بموسى ولا رأوه قبل ذٰلك، وأنهم جاؤوا من السحر بما

يحيِّرُ الناظرين ويُهيلُهم، ومع ذٰلك؛ فراجَ عليهم هٰذا القولُ الذي هم بأنفُسِهم وقفوا على بطلانِهِ؛ فلا يُسْتَنْكَرُ على أهل هٰذه العقول أن لا يُؤمنوا بالحقِّ الواضح والآيات الباهرةِ؛ لأنَّهم لو قال لهم فرعون عن أيِّ شيءٍ كان، أنَّه على خلاف حقيقته؛ صدَّقوه. ثم توعَّد السحرةَ، فقال: ﴿لأُقَطِّعَنَّ أيْدِيَكُم وأرْجُلَكُم من خِلافٍ﴾؛ أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى؛ كما يفعل بالمُفسِدِ في الأرض، ﴿ولأُصَلِّبَنَّكُم أجمعينَ﴾: لتختزوا وتذلُّوا، فقال السحرةُ حين وجدوا حلاوةَ الإيمان وذاقوا لَذَّتَه: ﴿لا ضَيْرَ﴾؛ أي: لا نُبالي بما توعَّدْتَنا به، ﴿إنَّا إلى ربِّنا مُنقَلِبونَ. إنَّا نطمعُ أن يَغْفِرَ لنا ربُّنا خطايانا﴾: من الكفر والسحر وغيرهما ﴿أنْ كُنَّا أولَ المؤمنينَ﴾: بموسى من هٰؤلاء الجنود. فثبَّتَهم اللّهُ وصبَّرهم؛ فيُحْتَمَلُ أنَّ فرعون فعل [بهم] ما توعدهم به لسلطانه واقتداره إذ ذاك، ويحتمل أنَّ اللّه منعه منهم.

﴿٥٢﴾ ثم لم يزل فرعونُ وقومُهُ مستمرِّين على كفرِهِم؛ يأتيهم موسى بالآيات البيناتِ، وكلما جاءتهم آيةٌ وبلغت منهم كلَّ مبلغ؛ وعدوا موسى وعاهَدوه لَئِنْ كشفَ اللّهُ عنهم؛ ليؤمننَّ به وليرسلنَّ معه بني إسرائيل، فيكشِفُه اللّه، ثم ينكثونَ. فلمَّا يَئِسَ موسى من إيمانِهِم، وحقَّتْ عليهم كلمةُ العذاب، وآن لبني إسرائيل أن ينجيهم من أسرِهِم ويمكِّنَ لهم في الأرض؛ أوحى اللّه إلى موسى: ﴿أنْ أسْرِ بعبادي﴾؛ أي: اخرُجْ ببني إسرائيلَ أولَ الليل؛ ليتمادَوْا ويتمَهَّلوا في ذَهابهم ﴿إنَّكُم مُتَّبَعونَ﴾؛ أي: سيتبعُكم فرعونُ وجنودُه. ووقع كما أخبر؛ فإنَّهم لما أصبحوا، وإذا بنو إسرائيل قد سَرَوْا كلُّهم مع موسى.

﴿٥٣ ـ ٥٦﴾ ﴿فأرسَلَ فرعونُ في المدائن حاشرينَ﴾: يجمعون الناس؛ ليوقع ببني إسرائيل، ويقولُ مشجعاً لقومه: ﴿إنَّ هٰؤلاءِ﴾؛ أي: بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قليلونَ. وإنَّهم لَنا لَغائِظونَ﴾: فنريد أن ننفذَ غيظَنا في هٰؤلاء العبيدِ الذين أبقُوا منَّا، ﴿وإنَّا لجميعٌ حاذِرونَ﴾؛ أي: الحذر على الجميع منهم، وهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركةٌ.

﴿٥٧ ـ ٥٩﴾ فخرج فرعونُ وجنودُه في جيش عظيم ونفيرٍ عامٍّ، لم يتخلَّف منهم سوى أهل الأعذار الذين منعهم العجزُ؛ قال اللّه تعالى: ﴿فأخرَجْناهم من جنَّاتٍ وعيونٍ﴾؛ أي: بساتين مصر وجنانها الفائقة وعيونها المتدفِّقة وزروع قد ملأت أراضيهم وعمرت بها حاضرتهم وبواديهم، ﴿ومقام كريم﴾: يُعْجِبُ الناظرين ويُلْهي المتأمِّلين؛ تمتَّعوا به دهراً طويلاً، وقضوا بلذَّاتِهِ وشهواتِهِ عمراً مديداً على الكفر

والعناد والتكبُّر على العباد والتيه العظيم، ﴿كذٰلك وأورَثْناها﴾؛ أي: هٰذه البساتين والعيون والزُّروع والمقام الكريم ﴿بني إسرائيلَ﴾: الذين جَعَلوهم من قَبْلُ عبيدَهم وسُخِّروا في أعمالهم الشاقَّة؛ فسبحان مَنْ يؤتي الملكَ مَنْ يشاءُ وينزِعُه عمَّن يشاءُ ويعزُّ من يشاءُ بطاعتِهِ، ويذلُّ من يشاء بمعصيتِهِ.

﴿٦٠ ـ ٦٢﴾ ﴿فأتْبَعوهم مشرقينَ﴾؛ أي: اتَّبع قومُ فرعون قومَ موسى وقتَ شُروقِ الشمس، وساقوا خلفَهم مُحِثِّينَ على غيظٍ وحنقٍ قادرين. ﴿فلما تراءى الجمعانِ﴾؛ أي: رأى كلٌّ منهما صاحبه، ﴿قال أصحابُ موسى﴾: شاكِينَ لموسى وحزنين: ﴿إنَّا لَمُدْرَكونَ﴾. فقال موسى مثبِّتاً لهم ومخبراً لهم بوعدِ ربِّه الصادق: ﴿كلاَّ﴾؛ أي: ليس الأمر كما ذكرتُم أنَّكم مُدْرَكون، ﴿إنَّ معي ربِّي سَيَهْدِينِ﴾: لما فيه نجاتي ونجاتُكم.

﴿٦٣ ـ ٦٨﴾ ﴿فأوْحَينا إلى موسى أنِ اضْرِب بعصاك البحرَ﴾: فضربه، ﴿فانفَلَقَ﴾: اثني عشر طريقاً، ﴿فكانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطودِ﴾؛ أي: الجبل ﴿العظيم﴾: فدخله موسى وقومُهُ، ﴿وأزْلَفْنا ثَمَّ﴾: في ذٰلك المكان ﴿الآخَرينَ﴾؛ أي: فرعون [و]قومه، وقرَّبْناهم، وأدخَلْناهم في ذٰلك الطريق الذي سلك منه موسى وقومه، ﴿وأنجَينا موسى ومَن معه أجمعين﴾: استَكْمَلوا خارجين، لم يتخلَّفْ منهم أحدٌ، ﴿ثم أغْرَقْنا الآخَرينَ﴾: لم يتخلَّفْ منهم عن الغرقِ أحدٌ. ﴿إنَّ في ذٰلك لآيةً﴾: عظيمةً على صدقِ ما جاء به موسى عليه السلام وبطلانِ ما عليه فرعونُ وقومُه، ﴿وما كان أكثرُهُم مؤمنينَ﴾: مع هٰذه الآيات المقتضيةِ للإيمان؛ لفسادِ قلوبِكم، ﴿وإنَّ ربَّكَ لهو العزيزُ الرحيمُ﴾: بعزَّتِهِ أهلكَ الكافرين المكذِّبين، وبرحمتِهِ نجَّى موسى ومن معه أجمعين.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ(١) ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا
فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ
وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ
﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي
وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن

---

(١) في النسختين إلى آخر هٰذه القصة: ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ
صِدْقٍ فِي ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا
تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ
أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ
﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ
﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿٦٩ ـ ٧١﴾ أي: وَاتْلُ يا محمدُ على الناس نبأ إبراهيم الخليل وخَبَرَه الجليل في هٰذه الحالة بخصوصها، وإلَّا؛ فله أنباءٌ كثيرة، ولٰكن من أعجب أنبائِهِ وأفضلِها هٰذا النبأُ المتضمنُ لرسالتِهِ ودعوتِهِ قومَه ومحاجَّتِهِ إيَّاهم و[إبطاله][(1)] ما هم عليه، ولذٰلك قيَّدَه بالظرفِ فقال: ﴿إذ قال لأبيهِ وقومِهِ ما تَعْبُدونَ. قالوا﴾: متبجِّحين بعباداتِهِم: ﴿نعبدُ أصناماً﴾: ننحِتُها ونَعْمَلُها بأيدينا، ﴿فنظلُّ لها عاكفينَ﴾؛ أي: مقيمين على عبادتها في كثيرٍ من أوقاتنا.

﴿٧٢ ـ ٧٤﴾ فقال لهم إبراهيمُ مبيناً لعدم استحقاقِها للعبادةِ: ﴿هل يسمعونَكم إذ تَدْعونَ﴾: فيستجيبونَ دعاءَكم ويفرِّجونَ كَرْبَكُم ويزيلون عنكم كلَّ مكروه، ﴿أو يَنفَعونَكم أو يَضُرُّونَ﴾: فأقرُّوا أنَّ ذٰلك كُلَّه غيرُ موجودٍ فيها؛ فلا تسمع دعاءً، ولا تنفع، ولا تضر! ولهٰذا لما كسَّرها وقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كبيرُهم هٰذا فاسْألوهم إن كانوا يَنطِقونَ﴾؛ قالوا له: ﴿لقد عَلِمْتَ ما هٰؤلاء ينطِقونَ﴾؛ أي: هٰذا أمر متقررٌ من حالها، لا يقبلُ الإشكالَ والشكَّ. فلجؤوا إلى تقليد آبائهم الضالين، فقالوا: ﴿بل وَجَدْنا آباءنا كذٰلك يفعلونَ﴾: فتبِعْناهم على ذٰلك، وسَلَكْنا سبيلَهم، وحافَظْنا على عاداتهم.

﴿٧٥ ـ ٨٢﴾ فقال لهم إبراهيمُ: أنتُم وآباؤكم كلُّكم خصومٌ في [هذا] الأمر، والكلامُ مع الجميع واحدٌ: ﴿أفرأيتُم ما كنتُم تعبُدونَ. أنتُم وآباؤكم الأقْدَمونَ. فإنَّهم

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «وإبطالهم».

عدوٌّ لي﴾: فَلْيَضُرُّونِ بأدنى شيءٍ من الضَّرر، ولْيَكيدونِ فلا يقدرونَ. ﴿إلَّا رَبَّ العالمينَ. الذي خَلَقَني فهو يهديني﴾: هو [المنفَرِدُ][١] بنعمةِ الخَلْق ونعمةِ الهداية للمصالح الدينيَّة والدنيويَّة، ثم خصَّص منها بعضَ الضروريَّات، فقال: ﴿والذي هو يُطْعِمُني ويسقينِ. وإذا مرضت فهو يشفينِ. والذي يُميتُني ثم يحيينِ. والذي أطمَعُ أن يَغْفِرَ لي خطيئتي يومَ الدينِ﴾: فهٰذا هو وحدَه المنفردُ بذٰلك، فيجبُ أنْ يُفْرَدَ بالعبادةِ والطاعةِ، وتُتْرَكَ هٰذه الأصنام التي لا تخلقُ ولا تهدي، ولا تمرِضُ ولا تشفي، ولا تطعِمُ ولا تسقي، ولا تميت ولا تحيي، ولا تنفع عابديها بكشفِ الكروب ولا مغفرةِ الذنوب؛ فهٰذا دليلٌ قاطعٌ وحجةٌ باهرةٌ لا تقدرون أنتم وآباؤكم على معارضتها، فدلَّ على اشتراكِكُم في الضلال وترككُم طريق الهدى والرشد. قال الله تعالى: ﴿وحاجَّهُ قومُهُ قالَ أتحاجُّونِّي في اللّه وقد هدانِ. . .﴾ الآيات.

﴿٨٣ ـ ٨٤﴾ ثم دعا عليه السلام ربَّه، فقال: ﴿ربِّ هَبْ لي حُكْماً﴾؛ أي: علماً كثيراً أعرِفُ به الأحكامَ والحلالَ والحرام، وأحكُمُ به بين الأنام، ﴿وألْحِقْني بالصالحينَ﴾: من إخوانِهِ الأنبياء والمرسلين، ﴿واجْعَلْ لي لسانَ صِدْقٍ في الآخرينَ﴾؛ أي: اجعل لي ثناء صدقٍ مستمرٌ إلى آخر الدهر. فاستجاب اللّه دعاءَه، فوهب له من العلم والحكم ما كان به مِن أفضلِ المرسلينَ، وألحقه بإخوانِهِ المرسلينَ، وجعلَه محبوباً مقبولاً معظماً مثنياً عليه في جميع الملل في كلِّ الأوقات، قال تعالى: ﴿وتَرَكْنا عليه في الآخِرينَ سلامٌ على إبراهيمَ. إنَّا كذٰلك نَجْزي المُحْسِنينَ. إنَّه مِن عبادِنا المؤمنينَ﴾.

﴿٨٥﴾ ﴿واجْعَلْني من وَرَثَةِ جنَّةِ النعيم﴾؛ أي: من أهل الجنَّةِ التي يورِثُهم اللّهُ إيَّاها. فأجاب اللّه دعاءَه، فرفَعَ منزلتَه في جنات النعيم.

﴿٨٦﴾ ﴿واغْفِرْ لأبي إنَّه كان من الضَّالِّينَ﴾: وهٰذا الدعاء بسبب الوعد الذي قال لأبيه: ﴿سأستغفر لك ربِّي إنَّه كانَ بي حَفِيًّا﴾، قال تعالى: ﴿وما كانَ استغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ إلَّا عن مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إيَّاه فَلَمَّا تَبَيَّنَ له أنه عدوٌّ للّه تبرَّأ منه إنَّ إبراهيم لأوَّاهٌ حليمٌ﴾.

﴿٨٧ ـ ٨٩﴾ ﴿ولا تُخْزِني يَوْمَ يُبْعَثونَ﴾؛ أي: بالتوبيخ على بعض الذُّنوب والعقوبةِ عليها والفضيحة، بل أسْعِدْني في ذٰلك اليوم الذي لا يَنْفَعُ فيه مالٌ ولا

---

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «المتفرد».

بنونٌ؛ ﴿إلَّا مَنْ أتى اللَّه بقلبٍ سليم﴾: فهٰذا الذي ينفعُهُ عندَك، وهٰذا الذي ينجو من العقاب ويستحقُّ جزيل الثواب.

والقلبُ السليمُ: معناهُ: الذي سَلِمَ من الشركِ والشكِّ ومحبة الشرِّ والإصرار على البدعةِ والذُّنوب، ويلزم من سلامتِهِ ممَّا ذُكِرَ اتِّصافُهُ بأضدادِها من الإخلاص والعلم واليقين ومحبَّة الخير وتزيينه في قلبِهِ، وأن تكون إرادتُهُ ومحبتُهُ تابعةً لمحبَّةِ اللَّه، وهواه تبعاً لما جاء عن اللَّه.

﴿٩٠ ـ ٩٥﴾ ثم ذكر من صفات ذٰلك اليوم العظيم وما فيه من الثوابِ والعقاب، فقال: ﴿وأُزْلِفَتِ الجنَّةُ﴾؛ أي: قُرِّبَتْ ﴿للمتَّقينَ﴾: ربَّهم، الذين امتثلوا أوامره، واجتنبوا زواجِرَه واتَّقوا سَخَطَهُ وعقابَه. ﴿وبُرِّزَتِ الجحيمُ﴾؛ أي: بُرِّزَتْ واستَعَدَّتْ بجميع ما فيها من العذاب ﴿للغاوينَ﴾: الذين أوْضَعوا في معاصي اللَّه، وتجرؤوا على محارِمِهِ، وكذَّبوا رسلَه، وردُّوا ما جاؤوهم به من الحقِّ، ﴿وقيلَ لهم أينَ ما كنتُم تعبُدونَ. من دونِ اللَّه هل يَنصُرونَكم أو يَنتَصِرونَ﴾: بأنفسِهِم؛ أي: فلم يكن من ذٰلك من شيءٍ، وظهر كَذِبُهم وخِزْيُهم، ولاحتْ خسارتُهم وفضيحتُهم، وبان ندمُهم، وضلَّ سعيهم. ﴿فكُبْكِبوا فيها﴾؛ أي: ألقوا في النار ﴿هم﴾؛ أي: ما كانوا يعبدون، ﴿والغاوونَ﴾: العابدونَ لها، ﴿وجنودُ إبليسَ أجْمعونَ﴾: من الإنس والجنِّ، الذين أزَّهم إلى المعاصي أزًّا، وتسلَّط عليهم بشركِهِم وعدم إيمانهم، فصاروا من دعاتِهِ والساعينَ في مرضاتِهِ، وهم ما بين داعٍ لطاعتِهِ ومجيبٍ لهم ومقلدٍ لهم على شركهم.

﴿٩٦ ـ ١٠٤﴾ ﴿قالوا﴾؛ أي: جنود إبليسِ الغاوون لأصنامِهِم وأوثانِهِم التي عبدوها: ﴿تاللَّهِ إن كُنَّا لفي ضلالٍ مبينٍ. إذْ نُسَوِّيكُم بربِّ العالَمينَ﴾: في العبادة والمحبَّة والخوفِ والرجاءِ، وندعوكم كما ندعوهُ. فتبيَّن لهم حينئذٍ ضلالُهم، وأقرُّوا بعدل اللَّه في عقوبتِهِم، وأنَّها في محلِّها، وهم لم يُسَوُّوهم بربِّ العالمين؛ إلَّا في العبادةِ، لا في الخلق؛ بدليل قولهم: ﴿بربِّ العالمينَ﴾؛ أنَّهم مقرُّون أنَّ اللَّه ربُّ العالمين كلِّهم، الذين من جملتهم أصنامهم وأوثانهم، ﴿وما أضَلَّنا﴾: عن طريق الهُدى والرُّشد ودعانا إلى طريق الغَيِّ والفِسْقِ ﴿إلَّا المُجْرِمونَ﴾: وهم الأئمة الذين يدعونَ إلى النار، ﴿فما لنا﴾: حينئذٍ ﴿من شافعينَ﴾: يشفعونَ لنا لِيُنْقِذَنا من عذابه ﴿ولا صديقٍ حَميمٍ﴾؛ أي: قريب مصافٍ ينفعنا بأدنى نفعٍ؛ كما جرت العادةُ بذٰلك في الدُّنيا؛ فأيِسوا من كلِّ خيرٍ، وأبلسوا بما كسبوا، وتمنَّوا العودة إلى الدُّنيا ليعملوا

صالحاً؛ ﴿فلو أنَّ لنا كَرَّةً﴾؛ أي: رجعةً إلى الدُّنيا وإعادةً إليها، ﴿فنكونَ من المؤمنين﴾: لنسلمَ من العقابِ ونستحقَّ الثواب. هيهاتَ هيهاتَ؛ قد حيلَ بينَهم وبين ما يشتهونَ، وقد غُلِّقَتْ منهم الرُّهون. ﴿إنَّ في ذٰلك﴾: الذي ذَكَرْنا لكم ووصَفْنا ﴿لآيةً﴾: لكم، ﴿وما كان أكثرُهم مؤمنينَ﴾: مع نزول الآياتِ.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ[(١)] ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا
نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾
فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ
﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿١٠٥ ـ ١١٠﴾ يذكر تعالى تكذيبَ قوم نوح لرسولهم نوح، وما ردَّ عليهم وردُّوا عليه، وعاقبة الجميع، فقال: ﴿كذَّبتْ قومُ نوح المرسلينَ﴾: جمعهم، لأنَّ[(٢)] تكذيبَ نوح كتكذيب جميع المرسلين؛ لأنَّهم كلَّهم اتَّفقوا على دعوة واحدةٍ وأخبارٍ واحدةٍ؛ فتكذيبُ أحدِهم كتكذيبٍ بجميع ما جاؤوا به من الحقِّ. كذبوه ﴿إذْ قال لهم أخوهم﴾: في النسب ﴿نوحٌ﴾: وإنَّما ابتعثَ الله الرسل مِن نسب مَنْ أرسل إليهم؛ لئلاَّ يشمئزُّوا من الانقياد له، ولأنَّهم يعرِفون حقيقتَه؛ فلا يحتاجون أن يبحثوا عنه، فقال لهم مخاطباً بألطف خطاب؛ كما هي طريقة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم: ﴿ألا تَتَّقونَ﴾: الله تعالى، فتترُكون ما أنتم مقيمونَ عليه من عبادةِ الأوثان، وتُخلِصون العبادةَ لله وحدَه. ﴿إنِّي لكم رسولٌ أمينٌ﴾: فكونه رسولاً إليهم بالخصوص يوجب لهم تلقي ما أُرسِلَ به إليهم، والإيمان به، وأنْ يشكُروا الله تعالى على أنْ خَصَّهم بهٰذا الرسول الكريم. وكونُهُ أميناً يقتضي أنَّه لا يقول[(٣)] على الله، ولا يزيدُ في وحيه ولا يَنقصُ. وهٰذا يوجب لهمُ التصديقَ بخبرِهِ

---

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.
(٢) في (ب): «وجعل».
(٣) في (ب): «يتقول».

والطاعةَ لأمره، ﴿فاتقوا اللّه وأطيعونِ﴾: فيما أمركم به ونهاكم[١] عنه؛ فإنَّ هٰذا هو الذي يترتَّبَ على كونِهِ رسولاً إليهم أميناً؛ فلذٰلك رتَّبه بالفاء الدالَّة على السبب، فذكر السبب الموجب، ثم ذكر انتفاء المانع، فقال: ﴿وما أسألُكم عليه من أجرٍ﴾: فتتكلَّفون من المَغْرَم الثقيل ﴿إنْ أجرِيَ إلَّا على ربِّ العالَمينَ﴾: أرجو بذٰلك القُرْبَ منه والثواب الجزيل، وأمَّا أنتم؛ فمُنْيَتي ومُنتهى إرادتي منكم النُّصحُ لكم وسلوكُكُم الصراط المستقيم، ﴿فاتَّقوا اللّهَ وأطيعونِ﴾: كرَّر ذٰلك عليه السلام؛ لتكريره دعوةَ قومِهِ وطول مَكْثِهِ في ذٰلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فيهم ألف سنةٍ إلَّا خمسين عاماً﴾، و﴿قال ربِّ إنِّي دعوتُ قومي ليلاً ونهاراً. فلم يَزِدْهُم دعائي إلَّا فراراً. . .﴾ الآيات.

﴿١١١﴾ فقالوا ردًّا لدعوته ومعارضةً له بما ليس يَصْلُحُ للمعارضة: ﴿أنؤمنُ لك واتَّبَعَكَ الأرذلونَ﴾؛ أي: كيف نتَّبِعُك ونحن لا نرى أتباعَكَ إلَّا أسافل الناس وأراذِلَهم وسَقَطَهم. بهٰذا يُعْرَفُ تكبُّرهم عن الحقِّ وجهلُهُم بالحقائق؛ فإنَّهم لو كان قصدُهُم الحقَّ؛ لقالوا ـ إنْ كان عندَهم إشكالٌ وشكٌّ في دعوته ـ: بيِّنْ لنا صحةَ ما جئتَ به بالطُّرق الموصلة إلى ذٰلك! ولو تأمَّلوا حقَّ التأمُّل؛ لعلموا أنَّ أتباعه هم الأعْلَوْنَ، خيار الخلق، أهل العقول الرزينة والأخلاق الفاضلة، وأنَّ الأرذل مَنْ سُلِبَ خاصيَّةَ عقلِهِ، فاستحسن عبادةَ الأحجار، ورضي أن يَسْجُدَ لها ويَدْعُوَها، وأبى الانقيادَ لدعوة الرُّسل الكُمَّل. وبمجرَّد ما يتكلَّم أحدُ الخصمين في الكلام الباطل؛ يُعْرَفُ فساد ما عنده؛ بقطع النظر عن صحة دعوى خصمِهِ؛ فقوم نوح لمَّا سمعنا عنهم أنهم قالوا في ردِّهم دعوةَ نوح: ﴿أنؤمنُ لك واتَّبَعَكَ الأرذلونَ﴾: فبَنَوْا على هٰذا الأصل الذي كلُّ أحدٍ يعرف فسادَهُ ردَّ دعوتِهِ؛ عرفنا أنَّهم ضالُّون مخطئون، ولو لم نشاهِدْ من آيات نوح ودعوتِهِ العظيمةِ ما يفيدُ الجزم واليقينَ بصدقِهِ وصحَّة ما جاء به.

﴿١١٢ ـ ١١٥﴾ فقال نوحٌ عليه السلام: ﴿وما علمي بما كانوا يَعْمَلونَ. إنْ حسابهم إلَّا على ربِّي لو تشعُرونَ﴾؛ أي: أعمالُهم وحسابُهم على اللّه، إنَّما عليَّ التبليغُ، وأنتم دعوهم عنكم؛ إنْ كان ما جئتُكم به الحقَّ؛ فانقادوا له، وكلٌّ له عملُه، ﴿وما أنا بطاردِ المؤمنينَ﴾: كأنَّهم ـ قبَّحهم اللّه ـ طلبوا منه أن يَطْرُدَهم عنه

---

(١) في (ب): «وأنهاكم».

تكبُّراً وتجبُّراً ليؤمنوا، فقال: ﴿وما أنا بطاردِ المؤمنينَ﴾؛ فإنَّهم لا يستحقُّون الطردَ والإهانةَ، وإنَّما يستحقُّون الإكرامَ القوليَّ والفعليَّ؛ كما قال تعالى: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنونَ بآياتِنا فَقُلْ سلامٌ عليكم كَتَبَ ربُّكم على نفسِهِ الرحمةَ﴾. ﴿إنْ أنا إلَّا نذيرٌ مبينٌ﴾؛ أي: ما أنا إلَّا منذر ومبلغ عن اللّه، ومجتهد في نصح العباد وليس لي من الأمر شيء إن الأمر إلا لله.

﴿١١٦﴾ فاستمر نوح عليه الصلاة والسلام على دعوتهم ليلاً ونهاراً، سرًّا وجهاراً، فلم يزدادوا إلَّا نفوراً، و﴿قالوا لَئِن لم تَنتهِ يا نوحُ﴾: من دعوتِكَ إيَّانا إلى اللّه وحده؛ ﴿لتكونَنَّ من المَرْجومينَ﴾؛ أي: لنقتُلَنَّكَ شرَّ قِتْلة؛ بالرمي بالحجارة؛ كما يُقْتَلُ الكلبُ فتبًّا لهم! ما أقبح هٰذه المقابلةَ! يقابلون الناصحَ الأمين الذي هو أشفقُ عليهم من أنفسهم بشرِّ مقابلة.

﴿١١٧ ـ ١١٨﴾ لا جَرَمَ لـمَّا انتهى ظلمُهم واشتدَّ كفرُهم؛ دعا عليهم نبيُّهم بدعوةٍ أحاطت بهم، فقال: ﴿ربِّ لا تَذَرْ على الأرضِ من الكافرينَ دَيَّاراً. . .﴾ الآيات، وهنا قال: ﴿ربِّ إنَّ قومي كذَّبونِ فافْتَحْ بيني وبينَهم فَتْحاً﴾؛ أي: أهْلِكِ الباغي منَّا، وهو يعلم أنَّهم البغاةُ الظلمة، ولهٰذا قال: ﴿ونَجِّني ومَن مَعِيَ من المؤمنين﴾.

﴿١١٩ ـ ١٢٢﴾ ﴿فأنجَيْناه ومَن معه في الفُلْكِ﴾؛ أي: السفينة ﴿المشحونِ﴾: من الخَلْق والحيوانات، ﴿ثم أغرَقْنا بعدُ﴾؛ أي: بعد نوح ومن معه من المؤمنين ﴿الباقينَ﴾؛ أي: جميع قومه. ﴿إنَّ في ذٰلك﴾؛ أي: نجاة نوح وأتباعه وإهلاك مَنْ كَذَّبه ﴿لآيةً﴾: دالَّة على صِدق رُسُلِنا وصحَّة ما جاؤوا به وبطلانِ ما عليه أعداؤهم المكذِّبون بهم. ﴿وإنَّ ربَّك لهو العزيزُ﴾: الذي قهر بعزِّهِ أعداءَه فأغرقهم بالطُّوفان ﴿الرحيمُ﴾: بأوليائه؛ حيث نجَّى نوحاً ومن معه من أهل الإيمان.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ(١) ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ

---

(١) في النسختين إلى آخر القصة.

وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ
ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

﴿١٢٣ ـ ١٢٧﴾ أي: كذَّبتِ القبيلةُ المسماةُ عاداً رسولهم هوداً، وتكذيبُهم له تكذيبٌ لغيره؛ لاتفاقِ الدعوة، ﴿إذ قال لهم أخوهم﴾: في النسبِ ﴿هودٌ﴾: بلطفِ وحسنِ خطابٍ: ﴿ألا تتقونَ﴾: اللّه، فتترُكون الشركَ وعبادةَ غيره، ﴿إنّي لكم رسولٌ أمينٌ﴾؛ أي: أرسلني اللّه إليكم رحمةً بكم واعتناءً بكم، وأنا أمينٌ؛ تعرفون ذلك منّي. رتَّب على ذلك قولَه: ﴿فاتَّقوا اللّه وأطيعونِ﴾؛ أي: أدُّوا حقَّ اللّه تعالى، وهو التَّقوى، وأدُّوا حقِّي؛ بطاعتي فيما آمركم به وأنهاكم عنه؛ فهٰذا موجبٌ لأن تتَّبِعوني وتُطيعوني، وليس ثَمَّ مانعٌ يمنعُكم من الإيمان، فلستُ أسألُكم على تبليغي إيَّاكم ونُصحي لكم أجراً حتى تَسْتَثْقِلوا ذلك المغرم. ﴿إنْ أجرِيَ إلَّا على ربِّ العالمينَ﴾: الذي ربَّاهم بنِعَمِهِ وأدرَّ عليهم فضلَه وكرمه؛ خصوصاً ما ربَّى به أولياءه وأنبياءه.

﴿١٢٨ ـ ١٣٥﴾ ﴿أتبنونَ بكلِّ رِيعٍ﴾؛ أي: مدخل بين الجبال ﴿آيةً﴾؛ أي: علامة ﴿تَعْبَثونَ﴾؛ أي: تفعلون ذلك عَبَثاً لغير فائدةٍ تعود بمصالح دينكم ودنياكم، ﴿وتتَّخِذونَ مصانعَ﴾؛ أي: بركاً ومجابي للمياه؛ ﴿لعلَّكم تَخْلُدون﴾: والحال أنَّه لا سبيلَ إلى الخلود لأحدٍ. ﴿وإذا بطشتُم﴾: بالخَلْق ﴿بطَشْتُم جبَّارينَ﴾: قتلاً وضرباً وأخذَ أموال. وكان اللّهُ تعالى قد أعطاهم قوةً عظيمةً، وكان الواجب عليهم أنْ يَسْتَعينوا بقوَّتِهم على طاعةِ اللّه، ولٰكنَّهم فخروا واستكبروا وقالوا: مَنْ أشدُّ منَّا قوَّةً؟ واستعملوا قوَّتَهم في معاصي اللّه وفي العبث والسفه؛ فلذلك نهاهم نبيُّهم عن ذلك. ﴿فاتَّقوا اللّه﴾: واتركوا شِرْكَكم وبَطَرَكم ﴿وأطيعونِ﴾: حيثُ علمتُم أنِّي رسولُ اللّه إليكم أمينٌ ناصحٌ. ﴿واتَّقوا الذي أمدَّكم﴾؛ أي: أعطاكم ﴿بما تَعْلَمون﴾؛ أي: أمدَّكم بما لا يُجْهَلُ ولا يُنْكَرُ من الأنعام، ﴿أمدَّكم بأنعام﴾: من إبلٍ وبقرٍ وغنم، ﴿وبنينَ﴾؛ أي: وكثرة نسل؛ كثَّرَ أموالَكم وكثَّرَ أولادَكم؛ خصوصاً الذكورَ؛ أفضلَ القسمين. هٰذا تذكيرُهم بالنِّعم، ثم ذكَّرهم حلولَ عذاب اللّه فقال: ﴿إنِّي أخافُ عليكم عذابَ يوم عظيم﴾؛ أي: إني من شفقتي عليكُم، وبِرِّي بكم أخافُ أن ينزِلَ بكم عذابٌ عظيمٌ. إذا نَزَلَ لا يُرَدُّ إنِ استمْرَيْتُم على كفرِكم وبغْيِكم.

﴿١٣٦ ـ ١٣٨﴾ فقالوا معاندينَ للحقّ مكذِّبين لنبيِّهم: ﴿سواءٌ علينا أوعظتَ أمْ لم تكن من الواعظينَ﴾؛ أي: الجميع على حدٍّ سواء! وهٰذا غاية العتوِّ؛ فإنَّ قوماً بلغتْ بهم الحالُ إلى أن صارتْ مواعظُ الله التي تُذيبُ الجبالَ الصُّمَّ الصِّلابَ، وتتصدَّعُ لها أفئدةُ أولي الألباب، وجودُها وعدمُها عندهم على حدٍّ سواء؛ لَقَوْمٌ انتهى ظلمُهم واشتدَّ شقاؤُهم وانقطعَ الرجاءُ من هدايتِهِم، ولهٰذا قالوا: ﴿إنْ هٰذا إلَّا خُلُقُ الأوَّلينَ﴾؛ أي: هٰذه الأحوال والنعم ونحو ذٰلك عادةُ الأولينَ؛ تارةً يستغنون، وتارةً يفتقرونَ، وهٰذه أحوال الدَّهر؛ لأنَّ هٰذه محنٌ ومنحٌ من الله تعالى وابتلاءٌ لعباده. ﴿وما نحن بمُعَذَّبينَ﴾: وهٰذا إنكارٌ منهم للبعث، أو تنزُّلٌ مع نبيِّهم وتهكُّمٌ به؛ أنَّنا على فرض أنَّنا نُبْعَثُ؛ فإنَّنا كما أُدِرَّتْ علينا النعمُ في الدنيا؛ كذٰلك لا تزال مستمرةً علينا إذا بُعِثْنا.

﴿١٣٩ ـ ١٤٠﴾ ﴿فكذَّبوه﴾؛ أي: صار التكذيب سجيَّةً لهم وخُلُقاً لا يردعُهم عنه رادعٌ؛ ﴿فأهلَكْناهم﴾: ﴿بريح صرصرٍ عاتيةٍ. سخَّرَها عليهم سبع ليال وثمانيةَ أيَّام حسوماً فترى القومَ فيها صَرعى كأنَّهم أعجازُ نخل خاوية﴾. ﴿إنَّ في ذٰلك لآيةً﴾: على صِدْق نبيِّنا هودٍ عليه السلام، وصحَّة ما جاء به، وبطلانِ ما عليه قومُه من الشرك والجبروت. ﴿وما كان أكثرُهم مؤمنينَ﴾: مع وجود الآياتِ المقتضيةِ للإيمان، ﴿وإنَّ ربَّك لهو العزيزُ﴾: الذي أهلكَ بقوتِهِ قومَ هودٍ على قوَّتِهِم وبطشِهِم. ﴿الرحيم﴾: بنبيِّه هودٍ حيث نجَّاه ومَنْ معه من المؤمنين.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ⁽¹⁾ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾
أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾
وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ
يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ
بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا
تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

---

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.

﴿١٤١ ـ ١٤٤﴾ ﴿كذبت ثمودُ﴾ القبيلةُ المعروفةُ في مدائن الحِجْر ﴿المرسلينَ﴾: كذَّبوا صالحاً عليه السلام، الذي جاء بالتوحيد، الذي دعتْ إليه المرسلون، فكان تكذيبُهم له تكذيباً للجميع، ﴿إذ قال لهم أخوهم صالحٌ﴾: في النسب برفقٍ ولينٍ: ﴿ألا تتَّقون﴾: اللّه تعالى وَتَدَعون الشركَ والمعاصي. ﴿إنِّي لكم رسولٌ﴾: من اللّه ربِّكم، أرسَلَني إليكُم لطفاً بكم ورحمةً، فتلَقَّوا رحمته بالقَبول، وقابِلوها بالإذعان. ﴿أمينٌ﴾: تعرفون ذٰلك منِّي، وذٰلك يوجِبُ عليكم أن تؤمِنوا بي وبما جئتُ به، ﴿وما أسألُكم عليه من أجرٍ﴾: فتقولون: يمنعُنا من اتِّباعكَ أنَّك تريدُ أخذَ أموالنا. ﴿إنْ أجرِيَ إلَّا على ربِّ العالمينَ﴾؛ أي: لا أطلبُ الثوابَ إلَّا منه.

﴿١٤٥ ـ ١٥٢﴾ ﴿أتُتْرَكونَ في ما هاهنا آمنينَ. في جناتٍ وعيونٍ. وزُروعٍ ونَخْلٍ طَلْعُها هَضيمٌ﴾؛ أي: نضيدٌ كثيرٌ؛ أي: أتحسبونَ أنَّكم تُتْرَكونَ في هٰذه الخيرات والنِّعم سدىً تتنعَّمون وتمتعون كما تتمتَّع الأنعام؟ وتُتْركون سدىً لا تُؤْمَرون ولا تُنهَوْن، وتستعينونَ بهٰذه النعم على معاصي اللّه، ﴿وَتَنْحِتونَ من الجبالِ بيُوتاً فارهينَ﴾؛ أي: بلغتْ بكم الفراهةُ والحِذْق إلى أن اتَّخذتُم بيوتاً من الجبال الصمِّ الصلابِ. ﴿فاتقوا اللّه وأطيعونِ. ولا تُطيعوا أمرَ المسرفينَ﴾: الذين تجاوزوا الحدَّ، ﴿الذين يُفسِدونَ في الأرض ولا يُصْلِحونَ﴾؛ أي: الذين وصفُهم ودأبهم الإفسادُ في الأرض بعمل المعاصي والدعوةِ إليها إفساداً لا إصلاحَ فيه، وهٰذا أضرُّ ما يكون؛ لأنَّه شرٌّ محضٌ، وكأنَّ أناساً عندَهم مستعدُّون لمعارضة نبيِّهم. موضِعون في الدعوة لسبيل الغَيِّ، فنهاهم صالحٌ عن الاغترارِ بهم، ولعلَّهم الذين قال اللّه فيهم: ﴿وكانَ في المدينةِ تسعةُ رَهْطٍ يُفْسِدونَ في الأرضِ ولا يُصْلِحونَ﴾.

﴿١٥٣ ـ ١٥٤﴾ فلم يُفِدْ فيهم هٰذا النهيُ والوعظُ شيئاً، فقالوا لصالح: ﴿إنَّما أنتَ من المسحَّرينَ﴾؛ أي: قد سُحِرْتَ فأنت تهذي بما لا معنى له، و﴿ما[1] أنت إلَّا بشرٌ مثلُنا﴾؛ فأيُّ فضيلة فُقْتَنا بها حتى تَدْعُوَنا إلى اتِّباعك، ﴿فأتِ بآيةٍ إن كنتَ من الصادقين﴾؛ هٰذا مع أن مجرَّدَ اعتبار حالته وحالةِ ما دعا إليه من أكبر الآيات البيناتِ على صحَّةِ ما جاء به وصدقِهِ، ولٰكنَّهم من قسوتهم سألوا آياتِ الاقتراح التي في الغالب لا يُفْلِحُ مَنْ طَلَبها؛ لكونِ طلبه مبنيًّا على التعنُّتِ لا على الاسترشاد.

---

(١) في (ب): شطبت «الواو».

﴿١٥٥ ـ ١٥٦﴾ فقال صالح: ﴿هٰذه ناقةٌ﴾: تخرُجُ من صخرةٍ صماءَ ملساءَ ـ تابَعْنا في هٰذا كثيراً من المفسرين، ولا مانع من ذٰلك ـ تَرَوْنَها وتشاهِدونها بأجْمَعِكم، ﴿لها شِرْبٌ ولكم شِرْبُ يوم معلوم﴾؛ أي: تشربُ ماء البئر يوماً، وأنتم تشربونَ لَبَنَها، ثم تصدُرُ عنكم اليوم الآخر، وتشربون أنتم ماء البئر، ﴿ولا تَمَسُّوها بسوءٍ﴾: بعقرٍ أو غيره؛ ﴿فيأخُذَكُم عذابُ يومٍ عظيمٍ﴾.

﴿١٥٧ ـ ١٥٩﴾ فخرجتْ، واستمرَّتْ عندَهم بتلك الحال، فلم يؤمنوا، واستمرُّوا على طغيانهم، ﴿فعقروها فأصبحوا نادمينَ. فأخَذَهُم العذابُ﴾: وهي صيحةٌ نزلت عليهم فدمَّرتهم أجمعينَ. ﴿إنَّ في ذٰلك لآيةً﴾: على صدق ما جاءت به رُسُلُنا وبطلانِ قول معارضيهم. ﴿وما كان أكثرُهُم مؤمنينَ. وإنَّ ربَّك لهو العزيزُ الرحيم﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ[(١)] ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾
قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي
وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ
﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿١٦٠ ـ ١٦٧﴾ قالَ لهم وقالوا كما قالَ مَنْ قَبْلَهم، تشابهتْ قلوبُهُم في الكفر، فتشابهتْ أقوالُهم، وكانوا مع شِرْكِهِم يأتون فاحشةً لم يسبِقْهم إليها أحدٌ من العالمين؛ يختارون نكاحَ الذُّكرانِ المستقذَرِ الخبيث، ويرغبون عمَّا خُلِقَ لهم من أزواجهم؛ لإسرافهم وعدوانِهِم، فلم يزل ينهاهم حتى ﴿قالوا لَئِن لم تَنتَهِ يا لوطُ لَتَكونَنَّ من المُخْرَجينَ﴾؛ أي: من البلد.

﴿١٦٨ ـ ١٧٥﴾ فلما رأى استمرارَهم عليه؛ ﴿قال إنِّي لِعَمَلِكُم من القالينَ﴾؛ أي: المبغضينَ [له] الناهينَ عنه المحذِّرين، قال: ﴿ربِّ نَجِّني وأهلي مِمَّا

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.

يعملونَ﴾: من فعلِهِ وعقوبتِهِ، فاستجابَ اللّهُ له ﴿فنجَّيناه وأهلَه أجمعينَ. إلَّا عَجوزاً في الغابِرينَ﴾؛ أي: الباقين في العذاب، وهي امرأتُهُ. ﴿ثم دمَّرْنا الآخرينَ. وأمْطَرْنا عليهم مَطَراً﴾؛ أي حجارة من سِجِّيل، ﴿فَساءَ مَطَرُ المُنْذَرينَ﴾: أهلكهم اللّه عن آخِرِهم. ﴿إنَّ في ذٰلك لآيةً وما كان أكثرُهم مؤمنينَ. وإنَّ ربَّك لَهو العزيزُ الرحيمُ﴾.

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ[1] ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

﴿١٧٦ ـ ١٨٠﴾ أصحابُ الأيكة؛ أي: البساتين الملتفَّة الأشجار[2]، وهم أصحابُ مَدْيَنَ، فكذبوا نبيَّهم شُعيباً الذي جاء بما جاء به المرسلونَ. ﴿إذ قال لهم شعيبٌ ألا تتَّقونَ﴾: اللّه تعالى فتترُكونَ ما يُسْخِطُه ويُغْضِبُه من الكفر والمعاصي، ﴿إنِّي لكم رسولٌ أمينٌ﴾: يترتَّب على ذٰلك أن تتَّقوا اللّه، وتُطيعونِ.

﴿١٨١ ـ ١٨٤﴾ وكانوا مع شِرْكِهِم يَبْخَسون المكاييل والموازينَ؛ فلذٰلك قال لهم: ﴿أوفوا الكَيل﴾؛ أي: أتمُّوه وأكملوه، ﴿ولا تكونوا من المُخْسِرينَ﴾: الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها ببَخْسِ المكيال والميزان، ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾؛ أي: بالميزان العادل الذي لا يميل، ﴿واتَّقوا الذي خَلَقَكُم والجِبِلَّةَ الأولينَ﴾؛ أي: الخليقة الأولينَ؛ فكما انفرد بخلقِكُم وخلقِ من قَبْلَكُم من غير مشاركةٍ له في ذٰلك؛ فأفرِدوه بالعبادة والتوحيد، وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم؛ فقابلوه بشكره.

---

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.
(٢) في (ب): «أشجاره».

﴿١٨٥ ـ ١٨٧﴾ قالوا له مكذِّبين له رادِّين لقوله: ﴿إنَّما أنتَ من المسحَّرينَ﴾: فأنت تَهْذي وتتكَلَّم كلامَ المسحور الذي غايتُهُ أن لا يؤاخَذَ به، ﴿وما أنت إلَّا بشرٌ مثلُنا﴾: فليس فيك فضيلةٌ اختصصتَ بها علينا حتى تَدْعُوَنا إلى اتِّباعك. وهٰذا مثل قول من قبلَهم ومَنْ بعدَهم، ممَّن عارضوا الرسل بهٰذه الشبهة، التي لم يزالوا يُدْلون بها ويَصولون ويتَّفِقون عليها؛ لاتفاقِهِم على الكفر، وتشابُهِ قلوبِهِم، وقد أجابتْ عنها الرسلُ بقولِهِم: ﴿إنْ نَحْنُ إلَّا بشرٌ مثلُكُم ولٰكن اللّه يمنُّ على مَن يشاءُ من عبادِهِ﴾. ﴿وإن نَظُنُّكَ لَمِنَ الكاذبين﴾: وهٰذا جراءةٌ منهم وظلمٌ وقولُ زورٍ، قد انطووا على خلافِهِ؛ فإنه ما من رسول من الرسل واجَهَ قومَه ودعاهم وجادلهم وجادلوه؛ إلَّا وقد أظهر اللّه على يديه من الآيات ما به يتيقَّنون صدقَه وأمانتَه، خصوصاً شعيباً عليه السلام، الذي يسمَّى خطيبَ الأنبياء؛ لحسن مراجعتِهِ قومه ومجادلَتِهِم بالتي هي أحسنُ؛ فإنَّ قومَه قد تيقَّنوا صدقَه وأنَّ ما جاء به حقٌّ، ولكنَّ إخبارَهم عن ظنِّ كذبِهِ كذبٌ منهم. ﴿فأسْقِطْ علينا كِسَفاً من السماءِ﴾؛ أي: قطع عذاب تستأصلنا، ﴿إن كنتَ من الصادقينَ﴾؛ كقول إخوانهم: ﴿وإذْ قالوا اللهمَّ إن كان هٰذا هو الحقَّ من عندِكَ فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء أو ائْتِنا بعذابٍ أليمٍ﴾، أو أنَّهم طلبوا بعضَ آيات الاقتراح التي لا يلزمُ تتميمُ مطلوبِ مَنْ سَألها.

﴿١٨٨﴾ ﴿قال﴾ شعيبٌ عليه السلام: ﴿ربِّي أعلمُ بما تعملونَ﴾؛ أي: نزول العذاب ووقوعُ آياتِ الاقتراح لستُ أنا الذي آتي بها وأُنْزِلُها بكم، وليس عليَّ إلَّا تبليغُكم ونُصحكم، وقد فعلتُ، وإنَّما الذي يأتي بها ربي، العالِم بأعمالكم وأحوالكم، الذي يجازيكم ويحاسبكم.

﴿١٨٩ ـ ١٩١﴾ ﴿فكذَّبوه﴾؛ أي: صار التكذيب لهم وصفاً، والكفر لهم ديدناً، بحيث لا تفيدهم الآياتُ، وليس بهم حيلةٌ إلَّا نزول العذاب، ﴿فأخَذَهُم عذابُ يوم الظُّلَّة﴾: أظلَّتهم سحابةٌ، فاجتمعوا تحتَها مستلذِّين لظلِّها غير الظليل، فأحرقتهم بالعذاب، فظلُّوا تحتها خامدين، ولديارهم مفارقين، ولدار الشقاء والعذاب نازلين، ﴿إنَّه كان عذابَ يوم عظيم﴾: لا كَرَّةَ لهم إلى الدنيا فيستأنفوا العمل، ولا يُفَتَّرُ عنهم العذابُ ساعةً ولا هم يُنظَرون. ﴿إنَّ في ذٰلك لآيةً﴾: دالَّة على صدق شُعيب وصحَّةِ ما دعا إليه وبطلان ردِّ قومه عليه، ﴿وما كان أكثرُهُم مؤمنينَ﴾: مع رؤيَتِهِم الآيات؛ لأنَّهم لا زكاءَ فيهم ولا خير لديهم؛ ﴿وما أكثرُ الناس ولَوْ حرصتَ بمؤمنين﴾. ﴿وإنَّ ربَّكَ لهو العزيزُ﴾: الذي امتنعَ بقوته عن إدراك أحدٍ وقهرِ كلِّ مخلوقٍ.

﴿الرحيم﴾: الذي الرحمةُ وصفُه، ومن آثارها جميعُ الخيرات في الدُّنيا والآخرةِ، من حين أوجدَ اللّهُ العالَمَ إلى ما نهايةَ له، ومن عزَّتِهِ أن أهلَكَ أعداءَه حين كذَّبوا رسلَه، ومن رحمتِهِ أن نَجَّى أولياءَه ومَنِ اتَّبعهم من المؤمنين.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾
بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَٰٓؤُا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ
سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

﴿١٩٢﴾ لمَّا ذَكَرَ قَصَصَ الأنبياءِ مع أممهم، وكيف دَعَوْهم وردُّوا عليهم به، وكيف أهلك اللّهُ أعداءَهم وصارت لهم العاقبةُ؛ ذكر هٰذا الرسول الكريم والنبيَّ المصطفى العظيم وما جاء به من الكتابِ الذي فيه هدايةٌ لأولي الألباب، فقال: ﴿وإنَّه لتنزيلُ ربِّ العالمين﴾: فالذي أنزله فاطرُ الأرض والسماوات، المربي جميعَ العالمِ العلويِّ والسفليِّ، وكما أنه ربَّاهم بهدايتهم لمصالح دنياهم وأبدانهم؛ فإنَّه يربِّيهم أيضاً بهدايتهم لمصالح دينهم وأخراهم، ومن أعظم ما ربَّاهم به إنزالُ هٰذا الكتاب الكريم، الذي اشتمل على الخير الكثير والبرِّ الغزير، وفيه من الهدايةِ لمصالح الدارينِ والأخلاق الفاضلةِ ما ليس في غيره، [و] في قوله: ﴿إنَّه لَتنزيلُ ربِّ العالمين﴾ من تعظيمه وشدَّة الاهتمام فيه من كونه نَزَلَ من اللّه لا من غيره مقصوداً فيه نفعكم وهدايتكم.

﴿١٩٣ ـ ١٩٥﴾ ﴿نزل به الرُّوحُ الأمينُ﴾: وهو جبريلُ عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة وأقواهم، الأمين الذي قد أمِنَ أن يزيدَ فيه أو يَنْقُصَ ﴿على قلبك﴾: يا محمدُ ﴿لتكونَ من المُنذِرينَ﴾: تهدي به إلى طريق الرشادِ وتنذِرُ به عن طريق الغي، ﴿بلسانٍ عربيٍّ﴾: وهو أفضل الألسنة، بلغة مَن بُعِثَ إليهم وباشر دعوتهم أصلاً، اللسان البيِّن الواضح.

وتأمَّل كيف اجتمعت هٰذه الفضائِل الفاخرة في هٰذا الكتاب الكريم؛ فإنَّه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بَضْعَةٍ فيه، وهي قلبُهُ على أفضل أمَّة أخرجت للناس، بأفضل الألسنةِ وأفصحِها وأوسعِها، وهو اللسانُ العربيُّ المبينُ.

﴿١٩٦﴾ ﴿وإنَّه لفي زُبُرِ الأوَّلين﴾؛ أي: قد بشرت به كتبُ الأوَّلين وصدَّقَته، وهو لمَّا نزل طِبْقَ ما أخبرتْ به، صدَّقها، بل جاء بالحقِّ وصدَّق المرسلينَ.

﴿١٩٧﴾ ﴿أوَلَمْ يكن لهم آيةً﴾: على صحته وأنَّه من الله ﴿أن يَعْلَمَهُ علماءُ بني إسرائيل﴾: الذين قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم الناس، وهم أهل الصنف؛ فإنَّ كلَّ شيءٍ يحصُلُ به اشتباهٌ يُرْجَعُ فيه إلى أهل الخبرة والدِّراية، فيكون قولهم حجَّةً على غيرهم؛ كما عرف السحرة الذين مَهَروا في علم السحر صدقَ معجزة موسى، وأنَّه ليس بسحرٍ؛ فقول الجاهلين بعد هٰذا لا يُؤْبَهُ به.

﴿١٩٨ ـ ١٩٩﴾ ﴿ولو نَزَّلْناه على بعضِ الأعجمينَ﴾: الذين لا يفقهونَ لسانَهم ولا يقدِرون على التعبير لهم كما ينبغي. ﴿فقَرَأهُ عليهم ما كانوا به مؤمنينَ﴾: يقولونَ ما نَفْقَهُ ما يقولُ ولا ندري ما يدعو إليه! فَلْيَحْمَدوا ربَّهم أن جاءهم على لسانِ أفصح الخَلْقِ وأقدَرِهم على التعبيرِ على المقاصد بالعبارات الواضحةِ وأنصحهم، ولْيبادروا إلى التصديق به وتلقِّيه بالتَّسليم والقَبول.

﴿٢٠٠ ـ ٢٠٣﴾ ولكنَّ تكذيبَهم له من غير شبهةٍ إنْ هو إلا محضُ الكفرِ والعنادِ وأمرٌ قد توارثَته الأممُ المكذبةُ؛ فلهٰذا قال: ﴿كذٰلك سَلَكْناه في قلوب المجرمين﴾؛ أي: أدخَلْنا التكذيبَ وأنظمناهُ في قلوب أهل الإجرام؛ كما يَدْخُلُ السلكُ في الإبرة، فتشرَّبَتْه، وصار وصفاً لها، وذٰلك بسبب ظلمهم وجرمهم؛ فلذٰلك ﴿لا يؤمنونَ به حتى يَرَوا العذابَ الأليم﴾: على تكذيبهم، ﴿فيأتيهم بَغْتَةً وهم لا يشعرونَ﴾؛ أي: يأتيهم على حين غفلةٍ وعدم إحساس منهم ولا استشعارٍ بنزوله؛ ليكون أبلغ في عقوبتهم والنَّكال بهم، ﴿فيقولوا﴾: إذ ذاك: ﴿هل نحنُ مُنْظَرونَ﴾؛ أي: يطلبون أن يُنْظَروا ويُمْهَلوا، والحال أنه قد فات الوقت، وحلَّ بهم العذابُ الذي لا يُرْفَع عنهم، ولا يُفَتَّرُ ساعةً.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾.

﴿٢٠٤﴾ يقول تعالى: ﴿أفبعذابنا﴾: الذي هو العذاب الأليم العظيم الذي لا يُستهانُ به ولا يُحْتَقَرُ ﴿يستعجلونَ﴾؟! فما الذي غرَّهم؟! هل فيهم قوَّةٌ وطاقةٌ للصبر عليه؟! أم عندهم قوةٌ يقدرونَ على دفعه أو رفعِهِ إذا نزل؟! أم يُعْجِزوننا ويظنُّون أنَّنا لا نقدر على ذٰلك؟!

﴿٢٠٥ ـ ٢٠٧﴾ ﴿أفرأيتَ إن متَّعْناهم سنينَ﴾؛ أي: أفرأيت إذا لم نستعجِلْ عليهم بإنزال العذاب وأمهَلْناهم عدَّةَ سنين يتمتَّعون في الدُّنيا، ﴿ثم جاءَهُمْ ما كانوا يوعَدونَ﴾: من العذاب، ﴿ما أغنى عنهم ما كانوا يُمَتَّعونَ﴾: من اللذَّاتِ والشَّهواتِ؛ أي: أيُّ شيءٍ تغني عنهم وتفيدُهم، وقد مضت وبطلتْ واضمحلَّتْ، وأعقبتْ تَبِعاتها، وضوعفَ لهم العذاب عند طول المدَّةِ. القصدُ أنَّ الحذر من وقوع العذاب واستحقاقهم له، وأما تعجيله [أو][1] تأخيره؛ فلا أهميَّةَ تحتَه، ولا جدوى عنده.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾.

﴿٢٠٨ ـ ٢٠٩﴾ يُخبرُ تعالى عن كمالِ عدلِهِ في إهلاك المكذِّبين، وأنَّه ما أوقع بقريةٍ هلاكاً وعذاباً إلَّا بعد أن يُعْذِرَ منهم، ويبعثَ فيهم النُّذُرَ بالآيات البيناتِ، فيدعونهم إلى الهدى، وينهونهم عن الردى، ويذكِّرونَهم بآيات اللّه، وينبِّهونَهم على أيَّامِهِ في نعمه ونقمه. ﴿ذكرى﴾: لهم وإقامة حُجَّة عليهم، ﴿وما كنَّا ظالمين﴾: فنهلكَ القرى قبل أن نُنْذِرَهم ونأخُذَهم وهم غافلون عن النُّذُر؛ كما قال تعالى: ﴿وما كُنَّا معذِّبينَ حتى نبعثَ رسولاً﴾، ﴿رسلاً مبشِّرينَ ومنذِرينَ لئلاَّ يكونَ للناس على اللّهِ حُجَّةٌ بعد الرسل﴾.

﴿٢١٠ ـ ٢١٢﴾ ولما بيَّنَ تعالى كمالَ القرآنِ وجلالَتِهِ؛ نزَّهه عن كلِّ صفةِ نقص، وحماه وقتَ نزولِهِ وبعد نزولِهِ من شياطين الجنِّ والإنس، فقال: ﴿وما تَنَزَّلَتْ به الشياطينُ وما ينبغي لهم﴾؛ أي: لا يَليق بحالهم ولا يناسبهم، ﴿وما يستطيعونَ﴾: ذلك ﴿إنَّهم عن السَّمْع لَمَعْزولونَ﴾: قد أبعدوا عنه، وأُعِدَّتْ لهم الرُّجوم لحفظِهِ، ونزل به جبريلُ أقوى الملائكة، الذي لا يقدر شيطانٌ أن يَقْرَبَه أو يَحومَ حولَ ساحتِهِ، وهٰذا كقوله: ﴿إنَّا نحنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وإنَّا له لَحافظونَ﴾.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

﴿٢١٣﴾ ينهى تعالى رسولَه أصلاً وأمَّته أسوةً له في ذلك عن دعاءِ غيرِ اللّه من

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «و».

جميع المخلوقين، وأنَّ ذٰلك موجبٌ للعذاب الدائم والعقاب السرمديِّ؛ لكونِهِ شركاً، ومن يشرِكْ باللّه؛ فقد حرَّمَ اللّه عليه الجنَّةَ، ومأواه النار، والنهيِ عن الشيء أمرٌ بضدِّه؛ فالنهيُ عن الشرك أمرٌ بإخلاص العبادة للّه وحدَه لا شريكَ له؛ محبَّةً وخوفاً ورجاءً وذلًّا وإنابةً إليه في جميع الأوقات.

﴿٢١٤﴾ ولـمَّا أمره بما فيه كمالُ نفسه؛ أمَرَه بتكميل غيره، فقال: ﴿وأنذِرْ عشيرتَكَ الأقربينَ﴾: الذين هم أقربُ الناس إليك، وأحقُّهم بإحسانك الدينيِّ والدنيويِّ، وهٰذا لا ينافي أمره بإنذار جميع الناس؛ كما إذا أُمِرَ الإنسان بعموم الإحسان، ثم قيل له: أحسن إلى قرابتِكَ؛ فيكون هٰذا الخصوص[(١)] دالًّا على التأكيد وزيادة الحثِّ. فامتثلَ ﷺ هٰذا الأمرَ الإلهيَّ، فدعا سائرَ بطون قريش، فعمَّم وخصَّص، وذكَّرهم ووعظهم، ولم يُبْقِ ﷺ من مقدوره شيئاً من نصحهم وهدايتهم إلَّا فعلَه، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض.

﴿٢١٥﴾ ﴿واخْفِضْ جناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ من المؤمنينَ﴾: بلين جانبك، ولطفِ خطابِك لهم وتودُّدك وتحبُّبك إليهم وحُسنِ خُلُقِك والإحسان التامِّ بهم، وقد فعل ﷺ ذٰلك؛ كما قال تعالى: ﴿فبما رحمةٍ من اللّه لِنتَ لهم ولو كنتَ فَظًّا غليظَ القلب لانفَضُّوا من حولِكَ فاعفُ عنهم واستَغْفِرْ لهم وشاوِرْهم في الأمر﴾؛ فهٰذه أخلاقُه ﷺ أكملُ الأخلاق التي يحصُلُ بها من المصالح العظيمة ودفع المضارِّ ما هو مشاهدٌ؛ فهل يَليقُ بمؤمن باللّه ورسوله يدَّعي اتِّباعَه والاقتداء به أن يكون كَلًّا على المسلمين، شرسَ الأخلاقِ، شديدَ الشَّكيمةِ [عليهم]، غليظَ القلبِ، فظَّ القول فظيعَه، وإنْ رأى منهم معصيةً أو سوءَ أدبٍ؛ هَجَرَهُم ومَقَتَهم وأبْغَضَهم، لا لينَ عنده، ولا أدبَ لديه، ولا توفيقَ؛ قد حصل من هٰذه المعاملة من المفاسِدِ وتعطيل المصالح ما حَصَلَ، ومع ذٰلك تَجِدُهُ محتقراً لِمَنِ اتَّصفَ بصفات الرسول الكريم، وقد[(٢)] رماه بالنِّفاق والمداهنةِ، وذكر نفسَه ورفَعَها وأُعْجِبَ بعمله؟! فهل يعدُّ هٰذا[(٣)] إلَّا من جهله وتزيين الشيطان وخدعه له؟!

﴿٢١٦﴾ ولهٰذا قال اللّه لرسوله: ﴿فإنْ عَصَوْكَ﴾: في أمر من الأمور؛ فلا تتبرَّأْ منهم، ولا تتركْ معاملتهم بخفض الجناح ولين الجانب، بل تبرَّأْ من عملهم؛

---

(١) في (ب): «خصوصاً».
(٢) في (ب): «قد».
(٣) في (ب): «فهل هذا».

فعِظْهُم عليه، وانصَحْهم، وابذُلْ قدرتَكَ في ردِّهم عنه وتوبَتِهِم منه. وهٰذا الدفع احتراز وَهْم من يتوهَّم أنَّ قوله: ﴿واخفِضْ جناحك للمؤمنين﴾: يقتضي الرضاء بجميع ما يصدُرُ منهم ما داموا مؤمنينَ، فدفع هٰذا بهٰذا. واللّه أعلم.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾.

﴿٢١٧﴾ أعظم مساعدٍ للعبد على القيام بما أُمِرَ به الاعتمادُ على ربِّه والاستعانةُ بمولاه على توفيقِهِ للقيام بالمأمور؛ فلذٰلك أمر اللّه تعالى بالتوكُّل عليه، فقال: ﴿وتوكَّلْ على العزيز الرحيم﴾: والتوكُّل هو اعتمادُ القلب على اللّه تعالى في جلب المنافع ودفع المضارِّ، مع ثقتِهِ به وحسنِ ظنِّه بحصولِ مطلوبِهِ؛ فإنَّه عزيزٌ رحيم؛ بعزَّته يقدرُ على إيصال الخير ودفع الشرِّ عن عبده، وبرحمتِهِ به يفعلُ ذٰلك.

﴿٢١٨ ـ ٢٢٠﴾ ثم نبَّهه على الاستعانة باستحضارِ قُرْبِ اللّه والنُّزول في منزل الإحسان، فقال: ﴿الذي يراك حين تقومُ. وتَقَلُّبَكَ في الساجدين﴾؛ أي: يراك في هٰذه العبادة العظيمة، التي هي الصلاة؛ وقت قيامِكَ وتقلُّبِكَ راكعاً وساجداً؛ خصَّها بالذِّكْرِ لفضلها وشرفها، ولأنَّ من استحضر فيها قربَ ربِّه؛ خَشَعَ وذلَّ وأكملها، وبتكميلها يَكْمُلُ سائرُ عملِهِ، ويستعينُ بها على جميع أموره. ﴿إنَّه هو السميعُ﴾: لسائر الأصوات على اختلافها وتشتُّتها وتنوُّعها. ﴿العليمُ﴾: الذي أحاط بالظواهرِ والبواطنِ والغيبِ والشهادةِ. فاستحضارُ العبد رؤيةَ اللّه له في جميع أحواله، وسمعَه لكلِّ ما ينطِقُ به، وعلمَه بما ينطوي عليه قلبُه من الهمِّ والعزم والنيَّاتِ؛ مما يعينُه على منزلة الإحسان.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

هٰذا جوابٌ لمن قال مِنْ مكذِّبي الرسول: إنَّ محمداً ينزلُ عليه شيطانٌ، وقول من قال: إنَّه شاعرٌ.

﴿٢٢١ ـ ٢٢٣﴾ فقال: ﴿هل أنبِّئُكم﴾؛ أي: أخبركم الخبر الحقيقيَّ الذي لا

شكَّ فيه ولا شبهةَ عن[(١)] مَنْ تَنَزَّلُ الشياطين عليه؛ أي: بصفة الأشخاص الذين تَنَزَّلُ عليهم الشياطين. ﴿تنزَّلُ على كُلِّ أفاكٍ﴾؛ أي: كذابٍ كثير القول للزُّورِ والإفك بالباطل، ﴿أثيم﴾: في فعلِهِ كثير المعاصي. هٰذا الذي تَنْزِلُ عليه الشياطين وتناسبُ حالُه حالَهم. ﴿يُلقونَ﴾: عليه ﴿السمعَ﴾: الذي يَسْتَرِقونه من السماء، ﴿وأكثَرُهُم كاذبونَ﴾؛ أي: أكثر ما يُلقون إليه كذباً، فَيَصْدُقُ واحدةً ويَكْذِبُ معها مائةً، فيختلط الحقُّ بالباطل، ويضمحلُّ الحقُّ بسبب قلتِهِ وعدم علمِهِ. فهٰذه صفة الأشخاص الذين تَنَزَّلُ عليهم الشياطين، وهٰذه صفةُ وحيِهِم له.

وأمَّا محمدٌ ﷺ؛ فحالُه مباينةٌ لهٰذه الأحوال أعظمَ مباينةٍ؛ لأنه الصادق الأمين البارُّ الراشدُ، الذي جمع بين برِّ القلب وصدق اللهجة ونزاهة الأفعال من المحرَّم، والوحيُ الذي ينزِلُ عليه من عند اللّه ينزِلُ محروساً محفوظاً مشتملاً على الصدق العظيم الذي لا شكَّ فيه ولا ريبَ؛ فهل يستوي يا أهلَ العقول هذا وأولئك؟! وهل يشتبهانِ إلَّا على مجنونٍ لا يميِّزُ ولا يفرِّقُ بين الأشياء؟!

﴿٢٢٤ ـ ٢٢٦﴾ فلما نزَّهه عن نزول الشياطين عليه؛ برَّأه أيضاً من الشعر، فقال: ﴿والشعراءُ﴾؛ أي: هل أنبئكم أيضاً عن حالة الشعراء ووصفِهِم الثابتُ؛ فإنَّهم ﴿يَتَّبِعُهُمُ الغاوونَ﴾: عن طريق الهدى، المقبِلون على طريق الغَيِّ والرَّدى؛ فهم في أنفسهم غاوونَ، وتجدُ أتباعَهم كلَّ غاوٍ ضالٍّ فاسدٍ. ﴿ألم ترَ﴾: غوايَتَهم وشدَّةَ ضلالهم، ﴿أنَّهم في كلِّ وادٍ﴾: من أودية الشعر ﴿يَهيمون﴾: فتارةً في مدح، وتارةً في قدح، وتارةً في صدق، وتارةً في كذب، وتارةً يتغزَّلون، وأخرى يَسْخَرون، ومرَّة يمرحون، وآونةً يحزنون؛ فلا يستقرُّ لهم قرارٌ، ولا يثبُتونَ على حالٍ من الأحوال. ﴿وأنَّهم يقولون ما لا يفعلون﴾؛ أي: هٰذا وصف الشعراء: أنَّهم تخالفُ أقوالُهم أفعالَهم؛ فإذا سمعتَ الشاعر يتغزَّل بالغزل الرقيق؛ قلتَ: هٰذا أشدُّ الناس غراماً، وقلبُهُ فارغٌ من ذاك، وإذا سمعتَه يمدحُ أو يذمُّ؛ قلت: هذا صِدْقٌ! وهو كذبٌ. وتارةً يتمدَّح بأفعال لم يَفْعَلْها، وتروكٍ لم يَتْرُكْها، وكرم لم يَحُمْ حول ساحتِهِ، وشجاعةٍ يعلو بها على الفرسان، وتراه أجبنَ من كلِّ جبان. هٰذا وصفُهم؛ فانْظُرْ هل يطابقُ حالةَ الرسول محمدٍ ﷺ الراشدِ البارِّ، الذي يَتَّبِعُهُ كلُّ راشد ومهتدٍ، الذي قد استقام على الهدى وجانَبَ الرَّدى ولم تتناقَضْ أفعاله، [ولَمْ

(١) في (ب): «على».

تُخَالِفُ أَقْوَالُه أَفْعَالَه][(١)]؛ الذي لا يأمُرُ إلَّا بالخير، ولا ينهى إلَّا عن الشرِّ، ولا أخبر بشيءٍ إلَّا صدق، ولا أمر بشيءٍ إلَّا كان أول الفاعلين له، ولا نهى عن شيءٍ إلَّا كان أول التاركين له؛ فهل تناسب حالُهُ حالةَ الشعراء أو يقارِبُهم؟ أم هو مخالفٌ لهم من جميع الوجوه؟ فصلواتُ الله وسلامه على هٰذا الرسول الأكمل، والهمام الأفضل، أبدَ الآبدين، ودهرَ الدَّاهرين، الذي ليس بشاعرٍ ولا ساحرٍ ولا مجنونٍ، ولا يَليقُ به إلَّا كلُّ كمال.

﴿٢٢٧﴾ ولما وَصَفَ الشعراء بما وَصَفَهم به؛ استثنى منهم مَنْ آمنَ بالله ورسولِهِ وعَمِلَ صالحاً وأكثر من ذِكْر الله وانتصر من أعدائِهِ المشركين من بعدِ ما ظلموهم، فصار شعرُهُم من أعمالهم الصالحة وآثار إيمانهم؛ لاشتمالِهِ على مدح أهل الإيمان والانتصار من أهل الشرك والكفر والذبِّ عن دين الله وتبيينِ العلوم النافعةِ والحثِّ على الأخلاق الفاضلة، فقال: ﴿إلَّا الذين آمَنوا وعَمِلوا الصالحاتِ وذَكَروا الله كثيراً وانتَصروا من بعدِ ما ظُلِموا وسَيَعْلَمُ الذين ظَلَموا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنقَلِبونَ﴾: إلى موقفٍ وحسابٍ لا يغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلَّا أحصاها ولا حقًّا إلَّا استوفاه. والحمد لله ربِّ العالمين.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة النمل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ
أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾
وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ (عَلِيمٍ) ﴿٦﴾﴾.

﴿١﴾ ينبِّه تعالى عباده على عظمة القرآن، ويشيرُ إليه إشارة دالَّة على التعظيم، فقال: ﴿تلك آياتُ القرآنِ وكتابٍ مبين﴾؛ أي: هي أعلى الآيات وأقوى البيِّنات

(١) زيادة من (ب) لا توجد في (أ).

وأوضح الدِّلالات وأبينها على أجلِّ المطالب وأفضل المقاصد وخير الأعمال وأزكى الأخلاق؛ آياتٌ تدلُّ على الأخبار الصَّادقة والأوامرِ الحسنةِ والنَّهي عن كلِّ عمل وخيم وخُلُقٍ ذَميم، آياتٌ بلغتْ في وضوحِها وبيانها للبصائر النيِّرة مبلغ الشمس للأبصار، آياتٌ دلَّت على الإيمان ودعت للوصول إلى الإيقان وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلة [على] طبق ما كان ويكون، آياتٌ دعت إلى معرفة الربِّ العظيم بأسمائِهِ الحسنى وصفاتِهِ العليا وأفعاله الكاملة، آياتٌ عرَّفتنا برسله وأوليائِهِ ووصفتهم حتى كأنَّنا ننظرُ إليهم بأبصارنا.

﴿٢﴾ ولٰكن مع هٰذا؛ لم ينتفعْ بها كثيرٌ من العالمين، ولم يهتدِ بها جميع المعاندين؛ صوناً لها عن من لا خير فيه ولا صلاح ولا زكاء في قلبه، وإنما اهتدى بها من خصَّهم اللّه بالإيمان واستنارتْ بذٰلك قلوبهم وصَفَتْ سرائرُهم، فلهٰذا قال: ﴿هدىً وبُشرى للمؤمنينَ﴾؛ أي: تهديهم إلى سلوكِ الصراط المستقيم، وتبيِّن لهم ما ينبغي أن يَسْلُكوه أو يَتْرُكوه، وتبشِّرهم بثواب اللّه. المرتَّب على الهداية لهٰذا الطريق.

﴿٣﴾ ربَّما قيل: لعلَّه يكثُر مدعو الإيمان؛ فهل يُقبل من كلِّ أحدٍ ادَّعى أنه مؤمنٌ ذٰلك؟ أم لا بدَّ لذٰلك من دليل وهو الحقُّ؟ فلذٰلك بيَّن تعالى صفة المؤمنين، فقال: ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾: فرضَها ونفلَها؛ فيأتون بأفعالها الظاهرة من أركانها وشروطها وواجباتها [بل] ومستحبَّاتها وأفعالها الباطنة وهو الخشوع الذي هو روحها ولبُّها؛ باستحضار قرب اللّه وتدبُّر ما يقوله المصلي ويفعلُه، ﴿ويؤتون الزَّكاة﴾: المفروضة لمستحقِّها. ﴿وهم بالآخرة هم يوقِنونَ﴾؛ أي: قد بلغ معهم الإيمانُ إلى أن وَصَلَ إلى درجة اليقين، وهو العلم التامُّ الواصل إلى القلب الدَّاعي إلى العمل، ويقينهم بالآخرة يقتضي كمال سعيِهِم لها وحَذَرِهم من أسباب العذاب وموجبات العقاب، وهٰذا أصلُ كلِّ خير.

﴿٤﴾ ﴿إنَّ الذين لا يؤمنونَ بالآخرةِ﴾: ويكذِّبون بها ويكذِّبون مَن جاء بإثباتها؛ ﴿زيَّنَّا لهم أعمالهم فهم يَعْمَهونَ﴾: حائرين، متردِّدين، مؤثِرين سَخَطَ اللّه على رضاه، قد انقلبتْ عليهم الحقائقُ، فرأوا الباطل حقًّا والحقَّ باطلاً.

﴿٥﴾ ﴿أولٰئك الذين لهم سوء العذاب﴾؛ أي: أشدُّه وأسوؤه وأعظمه. ﴿وهم﴾ بالآخرةِ ﴿هم الأخسرونَ﴾: حَصَرَ الخَسارَ فيهم لكونِهِم خَسِروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وخسروا الإيمان الذي دعتهم إليه الرسل.

﴿٦﴾ ﴿وإنَّكَ لَتُلَقَّى القرآنَ مِن لَدُنْ حكيم [عليم](١)﴾؛ أي: وإنَّ هٰذا القرآن الذي ينزِلُ عليك، وتتلقَّنُهُ ينزل من عند حكيم، يَضَعُ الأشياءَ مواضعَها، وينزِلُها منازلها، [خبير](٢) بأسرار الأحوال(٣) وبواطنها كظواهرها. وإذا كان من عند حكيم [خبير](٢)؛ علم أنه كلَّه حكمةٌ ومصالحُ للعباد من الذي أعلم بمصالحهم منهم.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا(٤) سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿٧﴾ يعني: اذكر هٰذه الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال موسى بن عمران ابتداء الوحي إليه واصطفائه برسالته وتكليم الله إياه، وذٰلك أنَّه لمَّا مَكَثَ في مدين عدة سنين، وسار بأهله من مدين متوجهاً إلى مصر، فلما كان في أثناء الطريق؛ ضلَّ، وكان في ليلةٍ مظلمةٍ باردةٍ، فقال لهم: ﴿إني آنستُ ناراً﴾؛ أي: أبصرتُ ناراً من بعيد، ﴿سآتيكم منها بخبرٍ﴾: عن الطريق، ﴿أو آتيكم بشهابٍ قَبَسٍ لعلَّكم تصطلونَ﴾؛ أي: تستدفِئون، وهٰذا دليلٌ على أنَّه تائهٌ ومشتدٌّ بردُه هو وأهله.

﴿٨﴾ ﴿فلما جاءها نودي أن بورِكَ مَنْ في النار ومن حولها﴾؛ أي: ناداه الله تعالى وأخبره أنَّ هٰذا محلٌّ مقدسٌ مباركٌ، ومن بركتِهِ أن جَعَلَهُ الله موضعاً لتكليم الله لموسى وندائه وإرساله. ﴿وسبحان الله ربِّ العالمين﴾: عن أن يُظَنَّ به نقصٌ أو سوءٌ، بل هو الكامل في وصفه وفعله.

﴿٩﴾ ﴿يا موسى إنَّه أنا اللهُ العزيز الحكيم﴾؛ أي: أخبره الله أنَّه اللهُ المستحقُّ للعبادة وحدَه لا شريك له؛ كما في الآية الأخرى: ﴿إنِّي أنا الله لا إله إلَّا أنا

(١) في النسختين: «خبير».
(٢) كذا في النسختين.
(٣) في (ب): «الأمور».
(٤) في النسختين إلى آخر قصته.

فاعْبُدْني وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْري﴾. ﴿العزيز﴾: الذي قَهَرَ جميع الأشياء وأذعنتْ له كلُّ المخلوقات. ﴿الحكيمُ﴾: في أمره وخَلْقِهِ، ومن حكمتِهِ أنْ أرسلَ عبده موسى بن عمران، الذي عَلِمَ اللّٰهُ منه أنَّه أهلٌ لرسالته ووحيه وتكليمه، ومن عزَّتِهِ أن تعتمد عليه ولا تستوحش من انفرادك وكثرة أعدائِكَ وجبروتِهم؛ فإنَّ نواصيهم بيد اللّٰه وحركاتهم وسكونهم بتدبيره.

﴿١٠﴾ ﴿وألقِ عصاك﴾: فألقاها، ﴿فلمَّا رآها تهتزُّ كأنَّها جانٌّ﴾: وهو ذكر الحيات سريعُ الحركة؛ ﴿وَلَّى مُدْبِراً ولم يُعَقِّبْ﴾: ذُعراً من الحية التي رأى على مقتضى الطبائع البشرية، فقال اللّٰه له: ﴿يا موسى لا تخفْ﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿أقبِلْ ولا تَخَفْ إنَّكَ من الآمِنينَ﴾. ﴿إنِّي لا يخافُ لديَّ المرسلونَ﴾: لأنَّ جميع المخاوف مندرجةٌ في قضائِهِ وقدرِهِ وتصريفِهِ وأمرِهِ، فالذين اختصَّهم اللّٰه برسالتِهِ واصطفاهم لوحيِهِ لا ينبغي لهم أن يخافوا غيرَ اللّٰه؛ خصوصاً عند زيادة القُرْبِ منهم والحظوة بتكليمه.

﴿١١﴾ ﴿إلَّا مَن ظلمَ ثمَّ بَدَّلَ حسناً بعد سوء﴾؛ أي: فهٰذا الذي هو محلُّ الخوف والوحشة؛ بسبب ما أسدى من الظُّلم وما تقدَّم له من الجرم، وأما المرسلون؛ فما لهم وللوحشةِ والخوفِ؟! ومع هٰذا؛ من ظَلَمَ نفسَه بمعاصي اللّٰه و(١)تاب وأناب فبدَّلَ سيئاتِهِ حسناتٍ ومعاصيه طاعاتٍ؛ فإنَّ اللّٰه غفورٌ رحيمٌ؛ فلا ييأسْ أحدٌ من رحمته ومغفرتِهِ؛ فإنَّه يغفر الذنوبَ جميعاً، وهو أرحمُ بعباده من الوالدة بولدها.

﴿١٢﴾ ﴿وأدخلْ يَدَكَ في جيبِك تَخرُجْ بيضاءَ من غير سوءٍ﴾: لا برصَ ولا نقصَ، بل بياضٌ يبهر الناظرين شعاعه ﴿في تسع آياتٍ إلى فرعونَ وقومِهِ﴾؛ أي: هاتان الآيتان ـ انقلابُ العصا حيَّةً تسعى وإخراجُ اليدِ من الجيب فتخرجُ بيضاءَ ـ في جملة تسع آياتٍ تذهبُ بها وتدعو فرعون وقومه. ﴿إنَّهم كانوا قوماً فاسقين﴾: فَسَقوا بشركِهِم وعتوِّهم وعلوِّهم على عباد اللّٰه واستكبارِهِم في الأرض بغير الحقِّ.

﴿١٣﴾ فذهب موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه، ودعاهم إلى اللّٰه تعالى، وأراهم الآيات، ﴿فلمَّا جاءتهم آياتُنا مبصرةً﴾: مضيئةً تدلُّ على الحقِّ ويُبْصَرُ بها كما تُبْصِرُ الأبصارُ بالشمس، ﴿قالوا هٰذا سحرٌ مبين﴾: لم يكفِهِم مجرَّدُ القول بأنه

---

(١) في (ب): «ثم».

سحرٌ، بل قالوا: مبينٌ ظاهرٌ لكلِّ أحدٍ! وهٰذا من أعجب العجائب؛ الآيات المبصرات والأنوار الساطعات تُجْعَلُ من أبينِ الخُزَعْبِلات وأظهر السحرِ، هل هٰذا إلَّا من أعظم المكابرة وأوقح السفسطة؟!

﴿١٤﴾ ﴿وجحدوا بها﴾؛ أي: كفروا بآيات الله جاحدين لها، ﴿واستيقَنَتْها أنفسُهم﴾؛ أي: ليس جحدهم مستنداً إلى الشك والريبِ، وإنَّما جحدُهم مع علمهم وتيقُّنهم بصحَّتها ﴿ظلماً﴾: منهم لحقِّ ربهم ولأنفسهم، ﴿وعلوًّا﴾: على الحقِّ وعلى العباد وعلى الانقياد للرسل. ﴿فانظُرْ كيفَ كان عاقبةُ المفسدين﴾: أسوأ عاقبة؛ دمَّرهم الله، وغرَّقهم في البحر، وأخزاهم، وأورث مساكِنَهم المستضعفين من عباده.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ(١) وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ
ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ
أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ
وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ
ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ
لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ
وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ
عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞
قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ
فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ

---

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي
أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ
فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ
وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ
سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ۚ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ
إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ
يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ
مَقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ
طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ
الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ
﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا
رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ
نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿١٥﴾ يذكر في هٰذا القرآن وينوِّه بمنَّته على داود وسليمان ابنه بالعلم الواسع الكثير؛ بدليل التَّنْكير؛ كما قال تعالى: ﴿وداودَ وسليمانَ إذْ يَحْكُمانِ في الحَرْثِ إذْ نَفَشَتْ فيه غنمُ القومِ وكُنَّا لحكمِهِم شاهدينَ. ففَهَّمْناها سليمانَ وكلًّا آتَيْنا حكماً وعلماً...﴾ الآية. وقالا شاكرين لربهما منَّته الكُبرى بتعليمهما: ﴿الحمدُ للَّه الذي فَضَّلَنا على كثيرٍ من عبادِهِ المؤمنين﴾: فحمدا اللَّه على جَعْلِهما من المؤمنين أهل السعادة، وأنَّهم كانوا من خواصِّهم. ولا شكَّ أن المؤمنين أربع درجات: الصالحون، ثم فوقهم الشهداء، ثم فوقهم الصديقونَ، ثم فوقهم الأنبياء. وداود وسليمان من خواصِّ الرسل، وإن كانوا دون درجة أولي العزم الخمسة، لكنَّهم من جملة الرسل الفضلاء الكرام، الذين نوَّه اللَّه بذكرهم ومدحهم في كتابه مدحاً عظيماً، فحمدوا اللَّه على بلوغ هٰذه المنزلة، وهٰذا عنوان سعادةِ العبد: أنْ يكون شاكراً للَّه على نعمه الدينيَّة والدنيويَّة، وأن يرى جميع النعم من ربِّه؛ فلا يفخرُ بها ولا يُعْجَبُ بها، بل يرى أنها تستحقُّ عليه شكراً كثيراً.

﴿١٦﴾ فلما مدحهما مشتركين؛ خصَّ سليمان بما خصَّه به لكون اللّٰه أعطاه ملكاً عظيماً وصار له من الماجريات ما لم يكن لأبيه صلى اللّٰه عليهما وسلم، فقال: ﴿وورث سليمانُ داودَ﴾؛ أي: ورث علمه ونبوَّته، وانضمَّ علم أبيه إلى علمه، فلعلَّه تعلَّم من أبيه ما عنده من العلم مع ما كان عليه من العلم وقتَ أبيه؛ كما تقدَّم من قوله: ﴿ففهَّمْناها سليمانَ﴾. ﴿وقال﴾: شكراً للّٰه وتبجُّحاً بإحسانه وتحدُّثاً بنعمتِهِ: ﴿يا أيُّها الناس عُلِّمْنا منطقَ الطير﴾: فكان عليه الصلاة والسلام يفقهُ ما تقولُ وتتكلَّمُ به؛ كما راجعَ الهدهدَ وراجَعَه، وكما فهم قول النملةِ للنمل كما يأتي، وهٰذا لم يكن لأحدٍ غير سليمان عليه السلام، ﴿وأوتينا من كلِّ شيءٍ﴾؛ أي: أعطانا اللّٰه من النعم ومن أسباب الملك ومن السلطنة والقهر ما لم يؤتِ أحداً من الآدميين، ولهٰذا دعا ربَّه، فقال: ﴿ربِّ هَبْ لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي﴾: فسخَّر اللّٰه له الشياطينَ يَعْمَلونَ له كلَّ ما شاء من الأعمال التي يَعْجَزُ عنها غيرُهم، وسخَّر له الريح غُدُوُّها شهرٌ ورَواحها شهرٌ. ﴿إنَّ هٰذا﴾: الذي أعطانا اللّٰه، وفضَّلنا، واختصَّنا به ﴿لهو الفضلُ المبين﴾: الواضح الجليُّ، فاعترف أكمل اعترافٍ بنعمة اللّٰه تعالى.

﴿١٧﴾ ﴿وحُشِرَ لسليمانَ جنودُهُ من الجنِّ والإنس والطير فهم يوزَعونَ﴾: أي جُمِعَ له جنودُه الكثيرةُ الهائلة المتنوِّعة من بني آدم ومن الجنِّ والشياطين ومن الطيور. ﴿فهُم يوزَعون﴾: يُدَبَّرون ويردُّ أولُهم على آخرهم وينظَّمون غاية التنظيم في سيرهم ونزولهم وحَلِّهم وتَرْحالهم، قد استعدَّ لذٰلك وأعدَّ له عدَّته، وكلُّ هٰذه الجنود مؤتمرةٌ بأمرِهِ لا تقدرُ على عصيانِهِ ولا تتمرَّد عليه؛ كما قال تعالى: ﴿هٰذا عطاؤنا فامْنُنْ أو أمْسِكْ﴾؛ أي: أعط بغير حساب.

﴿١٨﴾ فسار بهٰذه الجنودِ الضخمةِ في بعض أسفاره، ﴿حتى إذا أتَوْا على وادي النمل قالت نملةٌ﴾: منبهةٌ لرفقتها وبني جنسها: ﴿يا أيُّها النملُ ادخُلوا مساكِنَكم لا يَحْطِمَنَّكُم سليمانُ وجنودُه وهم لا يشعرونَ﴾: فنصحت هٰذه النملة وأسمعتِ النمل: إما بنفسِها، ويكون اللّٰه قد أعطى النملَ أسماعاً خارقةً للعادة؛ لأنَّ التنبيه للنمل الذي قد ملأ الوادي بصوت نملةٍ واحدة من أعجب العجائب. وإما بأنَّها أخْبَرَتْ مَنْ حولَها من النمل ثم سرى الخبرُ من بعضهنَّ لبعضٍ حتى بَلَغَ الجميع وأمَرَتْهُنَّ بالحذر والطريق في ذٰلك، وهو دخول مساكنهنَّ، وعرفت حالة سليمان وجنوده وعظمة سلطانِهِ، واعتذرتْ عنهم أنَّهم إنْ حَطَموكم؛ فليس عن قصدٍ منهم ولا شعورٍ.

﴿١٩﴾ فسمع سليمانُ عليه الصلاة والسلامُ قولَها وفَهِمَهُ، ﴿فتبسَّمَ ضاحكاً من

قولها﴾: إعجاباً منه بفصاحتها ونُصحها وحسن تعبيرها، وهٰذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ الأدبُ الكاملُ، والتعجُّب في موضعه، وأنْ لا يبلغَ بهم الضَّحِك إلَّا إلى التبسُّم؛ كما كان الرسول ﷺ جُلُّ ضَحِكِهِ التبسُّمُ[1]؛ فإنَّ القهقهةَ تدلُّ على خفة العقل وسوء الأدب، وعدم التبسُّم والعجب مما يُتَعَجَّب منه يدلُّ على شراسةِ الخلق والجبروت، والرسل منزَّهون عن ذٰلك. وقال شاكراً للّه الذي أوصله إلى هٰذه الحال: ﴿ربِّ أوزِعْني﴾؛ أي: ألهمني ووفقني ﴿أنْ أشكُرَ نعمتَكَ التي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ﴾: فإنَّ النعمةَ على الوالدين نعمةٌ على الولد، فسأل ربَّه التوفيق للقيام بشكر نعمتِهِ الدينيَّة والدنيويَّة عليه وعلى والديه، ﴿وأنْ أعملَ صالحاً ترضاه﴾؛ أي: ووفِّقْني أن أعمل صالحاً ترضاه؛ لكونه موافقاً لأمرك مخلصاً فيه سالماً من المفسدات والمنقصات، ﴿وأدخلني برحمتِكَ﴾: التي منها الجنة، ﴿في﴾: جملةِ ﴿عبادِكَ الصالحين﴾: فإنَّ الرحمةَ مجعولةٌ للصالحين على اختلاف درجاتهم ومنازلهم. فهٰذا نموذجٌ ذَكَره اللّه من حالة سليمان عند سماع خطابِ النملة وندائها.

﴿٢٠﴾ ثم ذَكَرَ نموذجاً آخر من مخاطبته للطير، فقال: ﴿وتفقَّدَ الطيرَ﴾: دلَّ هٰذا على كمال عزمِهِ وحزمِهِ وحسن تنظيمِهِ لجنودِهِ وتدبيرِهِ بنفسه للأمور الصغار والكبار، حتى إنَّه لم يُهْمِلْ هٰذا الأمر، وهو تفقُّد الطيور، والنظرُ هل هي موجودةٌ كلُّها أم مفقودٌ منها شيء؟ وهٰذا هو المعنى للآية.

ولم يصنع شيئاً مَنْ قال: إنَّه تفقَّد الطير لينظرَ أين الهدهد منه ليدلَّه على بعدِ الماء وقربِهِ؛ كما زعموا عن الهدهد أنَّه يبصِرُ الماء تحت الأرض الكثيفة؛ فإنَّ هٰذا القول لا يدلُّ عليه دليلٌ، بل الدليلُ العقليُّ واللفظيُّ دالٌّ على بطلانِهِ: أما العقليُّ؛ فإنَّه قد عُرِفَ بالعادة والتجارب والمشاهدات أنَّ هٰذه الحيوانات كلَّها ليس منها شيءٌ يبصر هٰذا البصرَ الخارقَ للعادة وينظر الماءَ تحت الأرض الكثيفة، ولو كان كذٰلك؛ لَذَكَرَهُ اللّه؛ لأنَّه من أكبر الآيات. وأما الدليلُ اللفظيُّ؛ فلو أريد هٰذا المعنى؛ لقال: وطلب الهدهدَ لينظر له الماء، فلمَّا فقده؛ قال ما قال، أو: فَفَتَّش عن الهدهد، أو: بحث عنه. ونحو ذٰلك من العبارات. وإنَّما تفقَّد الطيرَ لينظرَ الحاضر منها والغائبَ ولزومَها للمراكز والمواضع التي عيَّنها لها. وأيضاً؛ فإنَّ سليمان عليه

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٠)، والترمذي (٣٦٤٥)، والحديث صححه الألباني في «مختصر الشمائل» (١٩٤).

السلام لا يحتاج ولا يضطرُّ إلى الماء بحيث يحتاج لهندسةِ الهدهدِ؛ فإنَّ عنده من الشياطين والعفاريت ما يحفرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ، وسخَّر اللّه له الريح غُدُوُّها شهرٌ ورَواحها شهرٌ؛ فكيف مع ذٰلك يحتاجُ إلى الهدهد؟!

وهٰذه التفاسير التي توجد وتشتهر بها أقوالٌ لا يُعْرَفُ غيرُها تَنْقِلُ هٰذه الأقوال عن بني إسرائيل مجرَّدة، ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة وتطبيقِها على الأقوال، ثم لا تزال تَتَناقل وينقُلُها المتأخِّر مسلِّماً للمتقدِّم، حتى يُظَنَّ أنَّها الحقُّ، فيقع من الأقوال الرديَّة في التفاسير ما يقعُ، واللبيبُ الفطنُ يعرِف أنَّ هٰذا القرآن الكريم العربيَّ المبينَ الذي خاطب اللّه به الخلقَ كلَّهم عالمهم وجاهلهم وأمَرَهم بالتفكُّر في معانيه وتطبيقها على ألفاظه العربيَّة المعروفة المعاني التي لا تجهلُها العربُ العرباءُ، وإذا وَجَدَ أقوالاً منقولة عن غير رسول اللّه ﷺ، رَدَّها إلى هٰذا الأصل؛ فإن وافقه؛ قبلها؛ لكون اللفظ دالًّا عليها، وإنْ خالفتْه لفظاً ومعنىً أو لفظاً أو معنىً؛ ردَّها وجزم ببطلانِها؛ لأنَّ عنده أصلاً معلوماً مناقضاً لها، وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته.

والشاهدُ أنَّ تفقُّدَ سليمان عليه السلام للطير وفَقْدَهُ الهدهدَ يدلُّ على كمال حزمِهِ وتدبيرِهِ للمُلك بنفسه وكمال فطنتِهِ، حتى فَقَدَ هٰذا الطائر الصغير، ﴿فقال ما لي لا أرى الهُدْهُدَ أم كان من الغائبين﴾؛ أي: هل عدم رؤيتي إيَّاه لقلَّة فطنتي به لكونه خفيًّا بين هٰذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها بأن كان غائباً من غير إذني ولا أمري؟!

﴿٢١﴾ فحينئذٍ تغيَّظَ عليه وتوعَّده فقال: ﴿لأعذِّبَنَّه عذاباً شديداً﴾: دون القتل ﴿أو لأذْبَحَنَّه أو ليأتِيَنِّي بسلطانٍ مبينٍ﴾؛ أي: حجة واضحة على تخلُّفه. وهٰذا من كمال ورعِهِ وإنصافِهِ؛ أنَّه لم يقسم على مجرَّد عقوبته بالعذاب أو القتل؛ لأنَّ ذٰلك لا يكون إلَّا من ذنبٍ، وغيبته قد تحتمل أنها لعذرٍ واضح؛ فلذٰلك استثناه لورعه وفطنته.

﴿٢٢﴾ ﴿فمكث غير بعيدٍ﴾: ثم جاء، وهٰذا يدلُّ على هيبة جنوده منه وشدَّة ائتمارهم لأمره، حتى إن هٰذا الهدهد الذي خَلَّفَه العذرُ الواضح لم يقدِرْ على التخلُّف زمناً كثيراً، ﴿فقال﴾ لسليمانَ: ﴿أحطتُ بما لم تُحِطْ به﴾؛ أي: عندي من العلم علمٌ ما أحطتَ به على علمك الواسع وعلوِّ درجتك فيه، ﴿وجئتُك من سبأ﴾: القبيلة المعروفة في اليمن ﴿بنبأ يقين﴾؛ أي: خبر متيقن.

﴿٢٣﴾ ثم فسَّر هٰذا النبأ فقال: ﴿إني وجدتُ امرأةً تملِكُهم﴾؛ أي: تملك قبيلة

سبأ، وهي امرأة، ﴿وأوتِيَتْ من كلِّ شيءٍ﴾: يؤتاه الملوكُ من الأموال والسلاح والجنود والحصون وقلاع ونحو ذلك، ﴿ولها عرشٌ عظيمٌ﴾؛ أي: كرسي ملكها الذي تجلس عليه عرشٌ هائلٌ، وعِظَمُ العروش تدلُّ على عظمة المملكة وقوة السلطان وكثرة رجال الشورى.

﴿٢٤﴾ ﴿وجدتُها وقَوْمَها يسجُدون للشمس من دونِ اللّه﴾؛ أي: هم مشرِكون يعبُدون الشمس، ﴿وزيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم﴾: فرأوا ما هم عليه هو الحقَّ، ﴿فهم لا يهتدونَ﴾: لأنَّ الذي يرى أنَّ الذي عليه حقٌّ لا مطمعَ في هدايته حتى تتغيَّر عقيدتُه.

﴿٢٥﴾ ثم قال: ﴿ألَّا﴾؛ أي: هلاَّ ﴿يسجدوا للّه الذي يُخْرِجُ الخَبْءَ في السمٰواتِ والأرض﴾؛ أي: يعلم الخفي الخبيء في أقطار السماوات وأنحاء الأرض من صغارِ المخلوقات وبذور النباتات وخفايا الصدور، ويخرج خَبْءَ الأرض والسماء بإنزال المطر وإنبات النبات، ويخرِجُ خَبْءَ الأرض عند النفخ في الصور وإخراج الأموات من الأرض ليجازِيَهم بأعمالهم، ﴿ويعلم ما تُخفون وما تُعْلِنون﴾.

﴿٢٦﴾ ﴿اللّه لا إله إلَّا هو﴾؛ أي: لا تنبغي العبادة والإنابة والذلُّ والحبُّ إلَّا له؛ لأنَّه المألوه؛ لما له من الصفات الكاملة والنعم الموجبة لذٰلك. ﴿ربُّ العرش العظيم﴾: الذي هو سقفُ المخلوقات، ووسع الأرضَ والسماوات. فهٰذا الملك عظيم السلطان كبير الشأن هو الذي يُذَلُّ له ويُخْضعُ ويُسْجَدُ له ويُرْكَع.

﴿٢٧ ـ ٢٨﴾ فسلم الهدهدُ حين ألقى إليه هٰذا النبأ العظيم، وتعجَّب سليمان كيف خفي عليه، وقال مثبتاً لكمال عقله ورزانته: ﴿سننظُرُ أصَدَقْتَ أم كنتَ من الكاذِبينَ. اذهبْ بكتابي هٰذا﴾: وسيأتي نصُّه، ﴿فألْقِهِ إليهم ثم تولَّ عنهم﴾؛ أي: استأخِرْ غير بعيد، ﴿فانظُرْ ماذا يرجِعونَ﴾: إليك وما يتراجَعون به.

﴿٢٩ ـ ٣١﴾ فذهب به، فألقاه عليها، فقالت لقومها: ﴿إني أُلْقِي إليَّ كتابٌ كريمٌ﴾؛ أي: جليل المقدار، من أكبر ملوك الأرض، ثم بيَّنت مضمونَه، فقالت: ﴿إنَّه من سليمانَ وإنَّه بِسْمِ اللّه الرحمٰن الرحيم. أن لا تَعْلوا عليَّ وأْتوني مسلمينَ﴾؛ أي: لا تكونوا فوقي، بل اخضعوا تحت سلطاني، وانقادوا لأوامري، وأقبلوا إليَّ مسلمين. وهٰذا في غاية الوجازة مع البيان التامِّ؛ فإنَّه تضمَّن نهيَه[1] عن

(١) في (ب): «نهيهم».

العلوِّ عليه والبقاء على حالهم التي هم عليها، والانقيادَ لأمرِهِ والدخول تحت طاعته، ومجيئَهم إليه ودعوتهم إلى الإسلام. وفيه استحبابُ ابتداء الكتب بالبسملة كاملةً، وتقديمُ الاسم في أول عنوان الكتاب.

﴿٣٢ ـ ٣٣﴾ فمن حزمها وعقلها أنْ جمعت كبارَ دولتها ورجال مملكَتِها وقالت: ﴿يا أيُها الملأ أفتوني في أمري﴾؛ أي: أخبروني ماذا نجيبُه به؟! وهل ندخُلُ تحت طاعتِهِ وننقادُ أم ماذا نفعل؟! ﴿ما كنتُ قاطعةً أمراً حتى تَشهَدونِ﴾؛ أي: ما كنتُ مستبدَّةً بأمرٍ دون رأيكم ومشورَتِكم، ﴿قالوا نحنُ أولو قوَّةٍ وأولو بأس شديدٍ﴾؛ أي: إن رددتِ عليه قولَه، ولم تدخُلي في طاعتِهِ؛ فإنَّا أقوياء على القتال. فكأنَّهم مالوا إلى هٰذا الرأي الذي لو تمَّ، لكان فيه دمارُهم، ولكنَّهم أيضاً لم يستقرُّوا عليه، بل قالوا: ﴿والأمرُ إليكِ﴾؛ أي: الرأي ما رأيتِ؛ لعلمهم بعقلِها وحزمِها ونُصحها لهم، ﴿فانظُري﴾: نظر فكرٍ وتدبُّر ﴿ماذا تأمُرينَ﴾.

﴿٣٤ ـ ٣٥﴾ فقالت لهم مقنعةً لهم عن رأيِهِم، ومبيِّنة سوء مغبَّة القتال: ﴿إنَّ الملوكَ إذا دخلوا قريةً أفسَدوها﴾: قتلاً وأسراً ونهباً لأموالها وتخريباً لديارها، ﴿وجعلوا أعِزَّةَ أهلِها أذِلَّةً﴾؛ أي: جعلوا الرؤساء السادة أشراف الناس من الأرذلين[1]؛ أي: فهٰذا رأيٌ غير سديد، وأيضاً؛ فلست بمطيعةٍ له قبل الاختبار وإرسال مَنْ يكشِفُ عن أحواله ويتدبَّرُها، وحينئذٍ نكونُ على بصيرةٍ من أمرِنا. فقالت: ﴿وإنِّي مرسلةٌ إليهم بهديَّةٍ فناظرةٌ بم يَرْجِعُ المرسلونَ﴾: منه؛ هل يستمرُّ على رأيِهِ وقولِهِ؟ أم تخدعُهُ الهديةُ وتُبَدِّلُ فكرتَه؟! وكيف أحوالُه وجنودُه؟!

﴿٣٦﴾ فأرسلت إليه بهديَّةٍ[2] مع رسل من عقلاء قومها وذوي الرأي منهم. ﴿فلمَّا جاءَ سليمانُ﴾؛ أي: جاءه الرسل بالهديةِ، ﴿قال﴾: منكراً عليهم ومتغيِّظاً على عدم إجابتهم: ﴿أتُمِدُّونَنِ بمالٍ فما آتانِيَ اللّهُ خيرٌ مما آتاكم﴾: فليست تقع عندي موقعاً، ولا أفرح بها، قد أغناني اللّه عنها، وأكثر عليَّ النعم، ﴿بل أنتم بهديَّتِكم تفرحونَ﴾: لحبِّكُم للدُّنيا، وقلَّة ما بأيديكم بالنسبة لما أعطاني اللّه.

﴿٣٧﴾ ثم أوصى الرسول من غير كتاب لما رأى من عقلِهِ وأنَّه سينقُلُ كلامَه على وجهه، فقال: ﴿ارجِعْ إليهم﴾؛ أي: بهديَّتك، ﴿فَلَنَأتِيَنَّهم بجنودٍ لا قِبَلَ لهم﴾؛ أي: لا طاقة لهم ﴿بها وَلَنُخرِجَنَّهم منها أذِلَّةً وهم صاغرونَ﴾: فرجع إليهم

(١) في (ب): «الأذلين».
(٢) في (ب): «له هدية».

وأبلَغَهم ما قال سليمانُ، وتجهَّزوا للمسير إلى سليمانَ.

﴿٣٨ ـ ٤٠﴾ وعلم سليمانُ أنَّهم لا بدَّ أن يسيروا إليه، فقال لمن حَضَرَه من الجنِّ والإنس: ﴿أيُّكم يأتيني بعرشِها قبلَ أن يأتوني مسلمينَ﴾؛ أي: لأجل أن نتصرَّف فيه قبل أن يُسْلِموا فتكونَ أموالُهم محترمةً، ﴿قال عفريتٌ من الجنِّ﴾: والعفريتُ هو القويُّ النشيطُ جدًّا، ﴿أنا آتيكَ به قبلَ أن تقومَ من مقامِكَ وإنِّي عليه لقويٌّ أمينٌ﴾: والظاهر أن سليمان إذ ذاك في الشام، فيكون بينَه وبين سبأ نحو مسيرة أربعة أشهر؛ شهرانِ ذهاباً وشهران إياباً، ومع ذٰلك يقولُ هٰذا العفريت: أنا ألتزمُ بالمجيء به على كبرهِ وثقلِهِ وبُعْدِه قبل أن تقومَ من مجلسِكَ الذي أنت فيه، والمعتادُ من المجالس الطويلة أن تكونَ معظمَ الضُّحى نحو ثُلُثِ يوم، هٰذا نهايةُ المعتاد، وقد يكونُ دونَ ذٰلك أو أكثر، وهٰذا المَلِكُ العظيم الذي عند آحادِ رعيَّتِهِ هٰذه القوَّة والقدرةُ.

وأبلغُ من ذٰلك أنْ ﴿قال الذي عندَه علمٌ من الكتابِ﴾: قال المفسِّرون: هو رجلٌ عالمٌ صالحٌ عند سليمان، يُقالُ له: آصف بن برخيا، كان يعرفُ اسم اللّه الأعظم، الذي إذا دُعي به؛ أجابَ، وإذا سُئِل به أعطى: ﴿أنا آتيكَ به قبلَ أنْ يَرْتَدَّ إليك طرفُكَ﴾: بأن يدعوَ اللّه بذٰلك الاسم، فيحضرَ حالاً، وأنَّه دعا اللّه، فحضر. فاللّه أعلم؛ هل هٰذا المرادُ، أم أنَّ عندَه علماً من الكتابِ يقتدِرُ به على جلب البعيدِ وتحصيل الشديد؟! ﴿فلمَّا رآه﴾ سليمان ﴿مستقرًّا عنده﴾: حمد اللّه تعالى على أقدارِهِ وملكِهِ وتيسيرِ الأمور له، و﴿قال هٰذا مِن فضلِ ربِّي لِيَبْلُوَني أأشكُرُ أمْ أكفُرُ﴾؛ أي: ليختبِرَني بذٰلك، فلم يغترَّ عليه السلام بِمُلْكِهِ وسلطانِهِ وقدرتِهِ كما هو دأبُ الملوك الجاهلين، بل علم أنَّ ذٰلك اختبارٌ من ربِّه، فخاف أنْ لا يقومَ بشكرِ هٰذه النعمة، ثم بيَّنَ أنَّ هٰذا الشكر لا ينتفعُ اللّه به، وإنَّما يرجِعُ نفعُه إلى صاحبه، فقال: ﴿ومَن شَكَرَ فإنَّما يشكُرُ لنفسه ومَن كَفَرَ فإنَّ ربِّي غنيٌّ كريمٌ﴾: غنيٌّ عن أعماله، كريمٌ كثير الخير، يعمُّ به الشاكر والكافر؛ إلَّا أنَّ شكر نعمِهِ داعٍ للمزيد منها، وكفرَها داعٍ لزوالِها.

﴿٤١﴾ ثم قال لِمَنْ عندَه: ﴿نَكِّروا لها عرشَها﴾؛ أي: غيروه بزيادةٍ ونقص، ونحن في ذٰلك[1]: ﴿ننظُرْ﴾: مختبرينَ لعقلِها: ﴿أتهتدي﴾ للصوابِ ويكونُ عندَها

---

(١) في (ب): «ونحو ذلك».

ذكاءً وفطنةً تَليقُ بملكها، ﴿أم تكونُ من الذين لا يهتدونَ﴾.

﴿٤٢﴾ ﴿فلما جاءت﴾: قادمةً على سليمان؛ عرض عليها عرشَها، وكان عهدُها به قد خلَّفته في بلدها، و﴿قيلَ لها أهٰكذا عرشُك﴾؛ أي: أنَّه استقرَّ عندنا أنَّ لك عرشاً عظيماً؛ فهل هو كهٰذا العرش الذي أحضَرْناه لك؟ ﴿قالتْ كأنَّه هو﴾: وهٰذا من ذكائِها وفطنتِها: لم تَقُلْ هو لوجود التغيير فيه والتنكير، ولم تَنْفِ أنَّه هو لأنها عَرَفَتْه، فأتت بلفظٍ محتمل للأمرين، صادقٍ على الحالين.

فقال سليمان متعجِّباً من هدايتها وعقلِها وشاكراً للّه أن أعطاه أعظَمَ منها: ﴿وأوتينا العلمَ مِن قبلِها﴾؛ أي: الهدايةَ والعقلَ والحزم من قبل هٰذه الملكة، ﴿وكُنَّا مسلمينَ﴾: وهي الهدايةُ النافعة الأصليَّة.

ويُحتمل أنَّ هٰذا من قول ملكة سبأ: وأوتينا العلمَ عن مُلْكِ سليمانَ وسلطانِهِ وزيادةِ اقتدارِهِ من قبلِ هٰذه الحالة التي رأيْنا فيها قدرتَه على إحضار العرش من المسافة البعيدة، فأذْعَنَّا له وجِئْنا مسلمينَ له خاضعينَ لسلطانه.

﴿٤٣﴾ قال اللّه تعالى: ﴿وصدَّها ما كانتْ تعبُدُ من دونِ اللّه﴾؛ أي: عن الإسلام، وإلَّا؛ فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرفُ الحقَّ من الباطل، ولكنَّ العقائدَ الباطلة تُذْهِبُ بصيرة القلب. ﴿إنَّها كانت من قوم كافرين﴾: فاستمرَّتْ على دينهم، وانفرادُ الواحد عن أهل الدِّين والعادة المستمرَّة بأمرٍ يراه بعقلِهِ من ضلالهم وخطئهم من أندرِ ما يكون؛ فلهٰذا لايُسْتَغْرَبُ بقاؤُها على الكفرِ.

﴿٤٤﴾ ثم إنَّ سليمان أراد أن ترى من سلطانِهِ ما يَبْهَرُ العقولَ، فأمرها أن تَدْخُلَ الصرحَ، وهو[1] المجلسُ المرتفع المتَّسع، وكان مجلساً من قوارير، تجري تحتَه الأنهار. ﴿قيلَ لها ادخُلي الصرحَ فلمَّا رأته حَسِبَتْه لُجَّةً﴾: ماءً؛ لأنَّ القوارير شفَّافةٌ يرى الماء الذي تحتها كأنه بذاته يجري ليس دونَه شيءٌ، ﴿وكَشَفَتْ عن ساقَيْها﴾: للخياضةِ، وهٰذا أيضاً من عقلِها وأدبها؛ فإنَّها لم تمتَنِعْ من الدُّخول للمحلِّ الذي أُمِرَتْ بدخولِهِ لعلِمها أنَّها لم تُسْتَدْعَ إلَّا للإكرام، وأنَّ ملكَ سليمان وتنظيمَه قد بناه على الحكمةِ، ولم يكنْ في قلبها أدنى شكٍّ من حالة السوء بعدما رأت ما رأت، فلما استعدَّت للخوض؛ قيل لها: ﴿إنَّه صرحٌ مُمَرَّدٌ﴾؛ أي: مجلس ﴿من قوارير﴾: فلا حاجةَ منك لكشفِ الساقين؛ فحينئذٍ لما وصلتْ إلى سليمان وشاهدتْ ما

(١) في (ب): «وهي».

شاهدتْ وعلمت نبوَّته ورسالتَهُ؛ تابتْ ورجعتْ عن كفرها و﴿قالتْ ربِّ إنِّي ظلمتُ نفسي وأسلمتُ مع سليمانَ لله ربِّ العالمين﴾.

فهٰذا ما قصَّه الله علينا من قصَّة ملكة سبأ وما جرى لها مع سليمانَ، وما عدا ذٰلك من الفروع المولَّدة والقصص الإسرائيليَّة؛ فإنَّه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله، وهو من الأمورِ التي يقف الجزم بها على الدليل المعلوم المعصوم، والمنقولات في هٰذا الباب كلها أو أكثرها ليس كذٰلك؛ فالحزمُ كلُّ الحزم الإعراضُ عنها وعدم إدخالِها في التفاسير. والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ[1] ﴿٤٥﴾
قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾
قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ
تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ
لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿٤٥﴾ يخبرُ تعالى أنَّه أرسل إلى ثمود القبيلة المعروفة أخاهم في النسب صالحاً، وأنَّه أمرهم أن يعبُدوا الله وحدَه، ويترُكوا الأنداد والأوثان؛ ﴿فإذا هم فريقان يختصمون﴾: منهم المؤمن، ومنهم الكافر ـ وهم معظمهم ـ.

﴿٤٦﴾ ﴿قال يا قوم لم تستعجلونَ بالسيئة قبل الحسنة﴾؛ أي: لم تبادرونَ فعل السيئاتِ وتحرصونَ عليها قبل فعل الحسناتِ التي بها تحسُنُ أحوالُكم وتصلُحُ أمورُكم الدينيَّة والدنيويَّة، والحالُ أنَّه لا موجبَ لكم إلى الذَّهاب لفعل السيئات ﴿لولا تستغفِرون اللهَ﴾: بأن تتوبوا من شِرْكِكُم وعِصْيانِكم وتَدْعونَ أن يغفر لكم، ﴿لعلَّكم تُرحمون﴾: فإنَّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين، والتائبُ من الذُّنوب هو من المحسنين.

---

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.

﴿٤٧﴾ ﴿قالوا﴾: لنبيِّهم صالح مكذِّبين ومعارضينَ: ﴿اطَّيَّرْنا بك وبمن معك﴾: زعموا قَبَّحَهُمُ الله أنهم لم يَرَوْا على وجهِ صالح خيراً، وأنَّه هو ومن معه من المؤمنين صاروا سبباً لمنع بعضِ مطالبهم الدنيويَّة! فقال لهم صالحٌ: ﴿طائِرُكم عند الله﴾؛ أي: ما أصابكم إلَّا بذنوبكم. ﴿بل أنتم قومٌ تُفْتَنون﴾: بالسَّراء والضرَّاء، والخير والشرِّ؛ لينظر هل تُقْلِعون وتتوبون أم لا؛ فهٰذا دأبُهم في تكذيبِ نبيِّهم وما قابَلوه به.

﴿٤٨﴾ ﴿وكان في المدينةِ﴾: التي فيها صالحٌ، الجامعة لمعظم قومه ﴿تسعةُ رهطٍ يفسِدون في الأرض ولا يُصْلِحونَ﴾؛ أي: وصفُهُم الإفساد في الأرض، ولا لهم قصدٌ ولا فعلٌ بالإصلاح، قد استعدُّوا لمعاداةِ صالح والطعنِ في دينِهِ ودعوةِ قومهم إلى ذٰلك؛ كما قال تعالى: ﴿فاتقوا اللهَ وأطيعونِ. ولا تُطيعوا أمر المسرِفينَ. الذين يُفْسِدونَ في الأرض ولا يُصْلِحونَ﴾.

﴿٤٩﴾ فلم يزالوا بهٰذه الحال الشنيعةِ حتى أنَّهم من عداوتهم ﴿تقاسموا﴾ فيما بينَهم؛ كلُّ واحدٍ أقسم للآخر: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وأهلَه﴾؛ أي: لنأتِيَنَّهم[1] ليلاً هو وأهله، فلنقتلنَّهم، ﴿ثم لنقولَنَّ لوليِّه﴾: إذا قام علينا وادَّعى علينا أنَّا قَتَلْناهم؛ ننكِرُ ذٰلك وننفيه ونحلفُ: ﴿إنَّا لَصادِقونَ﴾.

﴿٥٠﴾ فتواطؤوا على ذٰلك، ﴿ومكروا مكراً﴾: دبَّروا أمرهم على قتل صالح وأهله على وجه الخُفْيَةِ حتى من قومهم[2] خوفاً من أوليائه، ﴿ومَكَرْنا مكراً﴾: بنصرِ نبيِّنا صالح عليه السلام وتيسيرِ أمرِهِ وإهلاكِ قومِهِ المكذِّبين. ﴿وهم لا يشعُرونَ﴾.

﴿٥١﴾ ﴿فانظرْ كيف كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِم﴾: هل حصل مقصودُهم وأدركوا بذٰلك المكر مطلوبَهم؟ أم انتقضَ عليهم الأمر؟! ولهٰذا قال: ﴿أنَّا دَمَّرْناهم وقومَهم أجمعينَ﴾: أهلَكْناهم واستأصَلْنا شأفَتَهم فجاءتهم صيحةُ عذابٍ فأُهْلِكوا عن آخرهم.

﴿٥٢﴾ ﴿فتلك بيوتُهم خاويةً﴾: قد تهدَّمت جدرانُها على سقوفِها، وأوحشتْ من ساكِنِها، وعطِّلَتْ من نازليها ﴿بما ظَلَموا﴾؛ أي: هٰذا عاقبةُ ظلمهم وشِرْكِهم بالله وبغيِهِم في الأرض. ﴿إنَّ في ذٰلك لآيةً لقومٍ يعلمونَ﴾: الحقائق، ويتدبَّرون

(١) في (ب): «نأتيهم».

(٢) في (ب): «حتى قومهم».

وقائعَ اللّه في أوليائِهِ وأعدائِهِ، فيعتبِرون بذٰلك، ويعلمون أنَّ عاقبة الظُّلم الدَّمار والهلاك، وأنَّ عاقبة الإيمان والعدل النجاة والفوز.

﴿٥٣﴾ ولهٰذا قال: ﴿وأنجَينا الذين آمنوا وكانوا يتَّقونَ﴾؛ أي: أنجينا المؤمنين باللّه وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليوم الآخر والقدَرِ خيرِهِ وشرِّه، وكانوا يتَّقون الشرك باللّه والمعاصيَ، ويعملونَ بطاعتِهِ وطاعةِ رسلِهِ.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ(١) ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٤﴾ أي: واذكرْ عبدَنا ورسولَنا لوطاً ونبأه الفاضلَ حين قال لقومِهِ داعياً لهم إلى اللّه وناصحاً: ﴿أتأتونَ الفاحشةَ﴾؛ أي: الفَعْلَةَ الشنعاء التي تستفحِشُها العقولُ والفطرُ وتستقبِحُها الشرائع. ﴿وأنتُم تبصِرونَ﴾: ذٰلك وتعلمونَ قُبحَه، فعاندتم وارتكَبْتُم ذٰلك ظلماً منكم وجرأةً على اللّه.

﴿٥٥﴾ ثم فسَّر تلك الفاحشةَ فقال: ﴿أإنَّكم لتأتونَ الرجالَ شهوةً من دون النساء﴾؛ أي: كيف توصَّلْتم إلى هٰذه الحال، فصارت شهوتُكم للرجال وأدبارِهم محلِّ الغائط والنجوِ والخبثِ، وتركتُم ما خلقَ اللّهُ لكم من النساء من المحالِّ الطيِّبة التي جُبِلَتِ النفوس إلى الميل إليها، وأنتم انقلبَ عليكم الأمرُ، فاستحسنْتُم القبيح، واستقبحْتُم الحسن؟! ﴿بل أنتم قومٌ [مسرفون](٢)﴾: متجاوِزون لحدود اللّه متجرِّئون على محارمه.

﴿٥٦﴾ ﴿فما كان جوابَ قومِهِ﴾: قبولٌ ولا انزجارٌ ولا تذكُّرٌ وادِّكارٌ، إنَّما كان جوابُهم المعارضةَ والمناقضةَ والتوعُّد لنبيِّهم الناصح ورسولِهم الأمين بالإجلاء عن وطنِهِ والتشريدِ عن بلدِهِ؛ فما كان جوابَ قومِهِ ﴿إلَّا أن قالوا أخرجوا آلَ لوطٍ من قريَتِكُم﴾: فكأنَّه قيل: ما نقمتُم منهم وما ذنبُهم الذي أوجبَ لهم الإخراج؟ فقالوا: ﴿إنَّهم أناسٌ يتطهَّرونَ﴾؛ أي: يتنزَّهون عن اللُّواط وأدبارِ الذُّكور!! فقبَّحهم اللّه؛

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.

(٢) كذا في النسختين. وصواب الآية ﴿تجهلون﴾.

جعلوا أفضلَ الحسناتِ بمنزلة أقبح السيئات، ولم يكتفوا بمعصيَتِهم لنبيِّهم فيما وعظهم به، حتى وصلوا إلى إخراجِهِ، والبلاءُ موكلٌ بالمنطق؛ فهم قالوا: أخرجوهم من قريَتِكُم إنَّهم أناسٌ يتطهَّرون! ومفهوم هٰذا الكلام: وأنتُم متلوِّثون بالخبثِ والقذارةِ المقتضي لنزول العقوبة بقريَتِكم ونجاةِ من خَرَجَ منها.

﴿٥٧ ـ ٥٨﴾ ولهٰذا قال تعالى: ﴿فأنجَيناه وأهلَهَ إلَّا امرأتَه قَدَّرناها من الغابرينَ﴾: وذٰلك لمَّا جاءته الملائكةُ في صورة أضيافٍ، وسمع بهم قومُه، فجاؤوا إليه يريدونَهم بالشرِّ، وأغلق الباب دونَهم، واشتدَّ الأمر عليه، ثم أخبرتْهم الملائكةُ عن جليَّة الحال، وأنَّهم جاؤوا لاستنقاذِهِ وإخراجِهِ من بين أظهُرِهم، وأنَّهم يريدون إهلاكَهم، وأنَّ موعِدَهم الصبح، وأمروه أن يسريَ بأهلِهِ ليلاً إلَّا امرأتَهَ؛ فإنَّه سيصيبُها ما أصابهم، فخرج بأهلِهِ ليلاً، فنجوا، وصبَّحَهم العذابُ، فقلبَ اللّٰه عليهم ديارَهم، وجعل أعلاها أسفلها، وأمطر عليهم حجارةً من سجِّيلٍ منضودٍ مسوَّمَةً عند ربِّك، ولهٰذا قال هنا: ﴿وأمطَرْنا عليهم مطراً فساء مَطَرُ المُنْذَرين﴾؛ أي: بئس المطرُ مطرُهم، وبئس العذابُ عذابُهم؛ لأنَّهم أُنْذِروا وخوِّفوا فلم ينزَجِروا ولم يرتَدِعوا، فأحلَّ اللّٰه بهم عقابَه الشديد.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥٩﴾ أي: قل الحمدُ للّٰه الذي يستحقُّ كمالَ الحمدِ والمدح والثناءِ؛ لكمال أوصافه وجميلِ معروفه وهباتِهِ وعدلِهِ وحكمتِهِ في عقوبته المكذِّبين وتعذيب الظالمين، وسلِّمْ أيضاً على عبادِهِ الذين تخيَّرهم واصطفاهم على العالمين من الأنبياء والمرسلين وصفوة اللّٰه ربِّ العالمين، وذٰلك لرفع ذِكْرِهم وتنويهاً بقَدْرِهم وسلامتهم من الشرِّ والأدناس وسلامةِ ما قالوه في ربِّهم من النقائص والعيوب. ﴿آللّٰهُ خيرٌ أمْ ما يُشرِكون﴾: وهٰذا استفهامٌ قد تقرَّر وعُرِفَ؛ أي: اللّٰه الربُّ العظيم كاملُ الأوصاف عظيمُ الألطاف خيرٌ أم الأصنامُ والأوثانُ التي عَبَدوها معه وهي ناقصةٌ من كلِّ وجه؛ لا تنفعُ ولا تضرُّ ولا تملِكُ لأنفسها ولا لِعابديها مثقالَ ذرَّةٍ من الخير؛ فاللّٰهُ خيرٌ مما يُشْرِكون.

ثم ذكر تفاصيل ما به يُعْرَفُ ويتعيَّنُ أنَّه الإلٰهُ المعبودُ، وأنَّ عبادَتَه هي الحقُّ وعبادةَ ما سواه هي الباطلُ، فقال:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ

بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٦٠﴾ أي: أمَّن خَلَقَ السماواتِ وما فيها من الشمسِ والقمر والنجوم والملائكة والأرض وما فيها من جبالٍ وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك، ﴿وأنزل لكم﴾؛ أي: لأجلكم ﴿من السماءِ ماءً فأنْبَتْنا به حدائقَ﴾؛ أي: بساتين ﴿ذاتَ بهجةٍ﴾؛ أي: حسن منظر من كثرة أشجارها وتنوُّعها وحسنِ ثمارها. ﴿ما كانَ لكُم أن تُنبتوا شَجَرَها﴾: لولا مِنَّةُ اللّه عليكم بإنزال المطر. ﴿أإلهٌ مع اللّهِ﴾: فَعَلَ هذه الأفعالَ حتى يُعبد معه ويُشرَك به، ﴿بل هم قوم يعدِلونَ﴾: به غيره، ويسوُّون به سواه، مع علمِهم أنَّه وحده خالقُ العالم العلويِّ والسفليِّ ومنزلُ الرزق.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿٦١﴾ أي: هل الأصنام والأوثان الناقصة من كلِّ وجه التي لا فعلَ منها ولا رزقَ ولا نفعَ خيرٌ أم اللّه الذي ﴿جعل الأرضَ قراراً﴾: يستقرُّ عليها العبادُ ويتمكَّنون من السكنى والحرث والبناء والذَّهاب والإياب، ﴿وجَعَلَ خلالها أنهاراً﴾؛ أي: جعل في خلال الأرضِ أنهاراً ينتفعُ بها العبادُ في زُروعهم وأشجارهم وشُربهم وشربِ مواشيهم، ﴿وجَعَلَ لها رَواسي﴾؛ أي: جبالاً تُرسيها وتُثبتها لئلاَّ تميدَ وتكون أوتاداً لها لئلا تضطرِبَ، ﴿وجعل بين البحرينِ﴾: البحر المالح والبحر العذب ﴿حاجزاً﴾: يمنعُ من اختلاطِهما فتفوت المنفعةُ المقصودة من كل منهما، بل جعل بينَهما حاجزاً من الأرض؛ جعل مجرى الأنهار في الأرض مبعدة عن البحار، فيحصُلُ منها مقاصدُها ومصالحها. ﴿أإلهٌ مع اللّه﴾: فعل ذلك حتى يُعْدَلَ بِهِ اللّهُ ويُشْرَكَ به معه، ﴿بل أكثرُهم لا يعلمون﴾: فيشركون باللّه تقليداً لرؤسائهم، وإلَّا؛ فلو علموا حقَّ العلم لم يشركوا به شيئاً.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿٦٢﴾ أي: هل يجيبُ المضطرَّ الذي أقلقتْه الكروبُ وتعسَّر عليه المطلوبُ واضطرَّ للخلاص بما هو فيه إلَّا اللّه وحدَه؟! ومن يكشِفُ السوءَ؛ أي: البلاء والشرَّ والنقمةَ؛ إلَّا اللّه وحده؟! ومن يجعلُكم خلفاء الأرض يمكِّنُكم منها ويمدُّ لكم بالرزق ويوصل إليكم نعمه وتكونون خلفاء مَنْ قبلَكم كما أنَّه سيميتُكم ويأتي

بقوم بعدكم؟! أإلٰهٌ مع اللّه يفعل هٰذه الأفعالَ؟! لا أحد يفعلُ مع اللّه شيئاً من ذٰلك، حتى بإقرارِكم أيُّها المشركون، ولهٰذا كانوا إذا مسَّهم الضُّرُّ دَعَوا اللّه مخلصين له الدين؛ لعلمِهم أنَّه وحدَه المقتدر على دفعه وإزالته، ﴿قليلاً ما تَذَكَّرونَ﴾؛ أي: قليلاً تذكُّركم وتدبُّركم للأمور التي إذا تذكَّرتموها ادَّكرتُم ورجعتُم إلى الهدى، ولكن الغفلة والإعراض شاملٌ لكم؛ فلذٰلك ما ارْعَوَيْتم ولا اهتديتم.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿٦٣﴾ أي: من هو الذي يهديكم حين تكونون في ظُلُمات البرِّ والبحرِ حيث لا دليل ولا مَعْلَمَ يُرى ولا وسيلةَ إلى النجاة إلَّا هدايتُه لكم وتيسيرُهُ الطريق وجعل ما جعل لكم من الأسباب التي تهتدون بها؟! ﴿ومَن يرسِلُ الرياح بُشراً بين يدي رحمتِهِ﴾؛ أي: بين يدي المطر، فيرسِلُها، فتثيرُ السحاب، ثم تؤلِّفُه، ثم تجمعُه، ثم تُلْقِحُه، ثم تُدِرُّه، فيستبشر بذٰلك العباد قبل نزول المطر. ﴿أإلٰهٌ مع اللّه﴾: فعل ذٰلك؟! أم هو وحده الذي انفرد به؟! فلم أشركتُم معه غيرَه وعبدتُم سواه؟! ﴿تعالى اللّه عما يشرِكون﴾: تعاظم وتنزَّه وتقدَّس عن شِرْكِهم وتسوِيَتِهم به غيره.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿٦٤﴾ أي: من هو الذي يبدأُ الخَلْقَ وينشىء المخلوقاتِ ويبتدي خلقَها ثم يعيدُ الخَلْقَ يوم البعث والنشور؟! ﴿ومن يرزقُكم من السماء والأرض﴾ بالمطر والنبات؟! ﴿أإلٰهٌ مع اللّه﴾: يفعلُ ذٰلك ويقدر عليه، ﴿قل هاتوا برهانكم﴾؛ أي: حجَّتكم ودليلكم على ما قلتم: ﴿إن كنتُم صادقين﴾ وإلَّا؛ فبتقدير أنَّكم تقولون: إنَّ الأصنام لها مشاركة له في شيء من ذٰلك؛ فذٰلك مجرَّد دعوى صَدِّقُوهَا بالبرهان، وإلَّا؛ فاعرفوا أنَّكم مبطلون لا حجَّة لكم، فارجِعوا إلى الأدلَّة اليقينيَّة والبراهين القطعيَّة الدالَّة على أنَّ اللّه هو المتفرِّد بجميع التصرُّفات وأنَّه المستحقُّ أن يُصْرَفَ(١) له جميع أنواع العبادات.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا

---

(١) في (ب): «تصرف».

تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ [قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾][(١)]﴾.

﴿٦٥﴾ يخبر تعالى أنه المنفردُ بعلم غيب السماواتِ والأرض؛ كقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتِحُ الغيبِ لا يَعْلَمُها إلَّا هو ويَعْلَمُ ما في البرِّ والبحرِ وما تسقُطُ من ورقةٍ إلَّا يعلمُها ولا حبَّةٍ في ظلمات الأرضِ ولا رطبٍ ولا يابس إلَّا في كتابٍ مبين﴾، وكقوله: ﴿إنَّ اللّه عندَه علمُ الساعةِ وينزِّلُ الغيثَ ويعلم ما في الأرحام...﴾ إلى آخر السورة؛ فهٰذه الغيوب ونحوها اختصَّ اللّه بعلمِها، فلم يعلَمْها مَلَكٌ مقرَّب ولا نبيٌّ مرسلٌ، وإذا كان هو المنفردُ بعلم ذٰلك، والمحيط علمه بالسرائر والبواطن والخفايا؛ فهو الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له.

ثم أخبر تعالى عن ضَعْفِ علم المكذِّبين بالآخرة، منتقلاً من شيء إلى ما هو أبلغ منه، فقال: ﴿وما يشعُرونَ﴾؛ أي: وما يدرون ﴿أيانَ يُبْعَثونَ﴾؛ أي: متى البعث والنشور والقيام من القبور؛ أي: فلذٰلك لم يستعدوا.

﴿٦٦﴾ ﴿بل ادَّارَكَ علمُهم في الآخرة﴾؛ أي: بل ضَعُفَ وقلَّ ولم يكن يقيناً ولا علماً واصلاً إلى القلب، وهٰذا أقلُّ وأدنى درجة للعلم، ضعفه ووهاؤه، بل ليس عندهم علمٌ ولا ضعيفٌ، وإنما ﴿هم في شكٍّ منها﴾؛ أي: من الآخرة، والشكُّ زال به العلم؛ لأنَّ العلم بجميع مراتبه لا يُجامِعُ الشكَّ. ﴿بل هم منها﴾؛ أي: من الآخرة ﴿عَمونَ﴾: قد عَمِيَتْ عنها بصائِرُهم، ولم يكنْ في قلوبهم من وقوعها، ولا احتمالٌ، بل أنكروها واستبعَدوها.

﴿٦٧﴾ ولهٰذا قال: ﴿وقال الذين كفروا أإذا كُنَّا تراباً وآباؤنا أإنَّا لَمُخْرَجونَ﴾؛ أي: هٰذا بعيدٌ غير ممكن؛ قاسوا قدرة كامل القدرة بقُدَرِهم الضعيفة.

﴿٦٨﴾ ﴿لقد وُعِدْنا هٰذا﴾؛ أي: البعث ﴿نحنُ وآباؤنا من قبلُ﴾؛ أي: فلم يجئنا ولا رأينا منه شيئاً. ﴿إن هٰذا إلَّا أساطيرُ الأولينَ﴾؛ أي: قَصصهم وأخبارهم التي تُقطع بها الأوقات، وليس لها أصل، ولا صِدْقَ فيها. فانتقل في الإخبار عن أحوال المكذِّبين بالإخبار أنَّهم لا يدرونَ متى وقتُ الآخرة، ثم الإخبار بضَعْفِ علمِهِم فيها، ثم الإخبار بأنَّه شكٌّ، ثم الإخبار بأنه عمىً، ثم الإخبار بإنكارِهم

---

(١) الآية ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

لذلك واستبعادِهم وقوعَه؛ أي: وبسبب هذه الأحوال؛ تَرَحَّلَ خوفُ الآخرة من قلوبهم، فأقدموا على معاصي الله، وسَهُلَ عليهم تكذيب الحقِّ والتصديق بالباطل، واستحلُّوا الشهواتِ على القيام بالعبادات، فخسروا دُنياهم وأخراهم.

﴿٦٩﴾ ثمَّ نبَّههم على صدق ما أخبرت به الرسل، فقال: ﴿**قل سيروا في الأرض فانظُروا كيف كانَ عاقبةُ المجرمينَ**﴾؛ فلا تجدون مجرماً قد استمرَّ على إجرامه إلَّا وعاقبتُه شرُّ عاقبة، وقد أحلَّ الله به من الشرِّ والعقوبة ما يَليق بحاله.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿٧٠﴾ أي: لا تحزنْ يا محمدُ على هؤلاء المكذِّبين وعدم إيمانهم؛ فإنَّك لو علمتَ ما فيهم من الشرِّ وأنَّهم لا يَصْلُحون للخير؛ لم تأسَ ولم تحزنْ، ولا يضيق صدرك ولا تقلق نفسك بمكرِهم؛ فإنَّ مكرَهم سيعود عاقبته عليهم، ﴿ويمكُرون ويَمْكُرُ اللهُ واللهُ خيرُ الماكرينَ﴾.

﴿٧١﴾ ويقولُ المكذِّبون بالمَعاد وبالحقِّ الذي جاء به الرسولُ مستعجلينَ للعذاب: ﴿**متى هذا الوعدُ إن كنتُم صادقينَ**﴾: وهذا من سفاهة رأيِهم وجهلِهم؛ فإنَّ وقوعَه ووقتَه قد أجَّله الله بأجَلِهِ وقَدَّرَه بقدرٍ؛ فلا يدلُّ عدم استعجاله على بعض مطلوبهم، ولكن مع هذا قال تعالى محذِّراً لهم وقوعَ ما يستعجِلون[1]:

﴿٧٢﴾ ﴿**قل عسى أن يكونَ رَدِفَ لكم**﴾؛ أي: قرب منكم وأوشك أن يقعَ بكم ﴿**بعضُ الذي تستعجِلونَ**﴾: من العذاب.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿٧٣﴾ ينبِّه عباده على سَعَةِ جوده وكَثْرَةِ أفضاله، ويحثُّهم على شكرِها، ومع هذا؛ فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر، واشتغلوا بالنعم عن المنعم.

﴿٧٤﴾ ﴿**وإنَّ ربَّك لَيعلمُ ما تُكِنُّ**﴾؛ أي: تنطوي عليه ﴿**صدورُهم وما يُعْلِنون**﴾: فليحذروا من عالم السَّرائر والظَّواهر وليراقبوه.

---

(١) في (ب): «ما استعجلوه».

﴿٧٥﴾ ﴿وما من غائبةٍ في السماء والأرض﴾؛ أي: خفيَّةٍ وسرٌّ من أسرار العالم العلويِّ والسفليِّ ﴿إلَّا في كتابٍ مبينٍ﴾: قد أحاط ذٰلك الكتابُ بجميع ما كان ويكون إلى أن تقومَ الساعةُ؛ فكل حادث يحدث جليٌّ أو خفيٌّ؛ إلَّا وهو مطابقٌ لما كتب في اللوح المحفوظ.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿٧٦﴾ وهٰذا خبر عن هيمنةِ القرآن على الكتبِ السابقةِ وتفصيله وتوضيحه لما كان فيها قد وقع فيه اشتباهٌ واختلافٌ عند بني إسرائيل، فقصَّه هٰذا القرآن قصًّا زال به الإشكال، وبيَّن الصوابَ من المسائل المختلَف فيها.

﴿٧٧﴾ وإذا كان بهٰذه المثابة من الجلالة والوضوح وإزالةِ كلِّ خلافٍ وفَصْل كلِّ مشكلٍ؛ كان أعظم نعم الله على العباد، ولكن ما كل أحدٍ يقابلُ النعمةَ بالشُّكر، ولهٰذا بيَّن أن نفعه ونورَه وهُداه مختصٌّ بالمؤمنين، فقال: ﴿وإنَّه لهدى﴾: من الضلالة والغيِّ والشبه، ﴿ورحمةٌ﴾: تنثلج له صدورُهم وتستقيمُ به أمورهم الدينيَّة والدنيويَّة، ﴿للمؤمنين﴾: به المصدِّقين له المتلقِّين له بالقبول المقبِلين على تدبُّره المتفكِّرين في معانيه؛ فهٰؤلاء تحصُلُ لهم به الهدايةُ إلى الصراط المستقيم والرحمة المتضمِّنة للسعادةِ والفوزِ والفلاح.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿٧٨﴾ أي: إنَّ الله تعالى سيفصِلُ بين المختصمين وسيحكُم بين المختلفين بحكمِهِ العدل وقضائِهِ القسط؛ فالأمور؛ وإنْ حَصَلَ فيها اشتباهٌ في الدُّنيا بين المختلفين لخفاء الدليل أو لبعض المقاصد؛ فإنَّه سيبين فيها الحقُّ المطابقُ للواقع حين يحكُمُ الله فيها. ﴿وهو العزيزُ﴾: الذي قهر الخلائق فأذعنوا له. ﴿العليم﴾: بجميع الأشياء، العليم بأقوال المختلفين، وعن ماذا صدرت، وعن غاياتها ومقاصدها، وسيجازي كلًّا بما علمه فيه.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿٧٩﴾ أي: اعتمدْ على ربِّك في جلب المصالح ودفع المضارِّ وفي تبليغ الرسالة وإقامة الدين وجهاد الأعداء. ﴿إنَّك على الحقِّ المُبين﴾: الواضح، والذي على الحقِّ يدعو إليه ويقوم بنصرته أحقُّ من غيرِهِ بالتوكُّل؛ فإنَّه يسعى في أمر مجزوم به، معلوم صدقه، لا شكَّ فيه ولامِرْيَةَ، وأيضاً؛ فهو حقٌّ في غاية البيان، لا خفاء به ولا اشتباه.

﴿٨٠﴾ وإذا قمتَ بما حملت وتوكَّلْت على الله في ذلك؛ فلا يضرُّك ضلالُ مَن ضلَّ وليس عليك هداهم؛ فلهذا قال: ﴿إنَّك لا تُسْمِعُ الموتى ولا تُسْمِعُ الصمَّ الدُّعاء﴾؛ أي: حين تدعوهم وتناديهم، وخصوصاً: ﴿إذا وَلَّوْا مُدْبِرينَ﴾: فإنه يكون أبلغَ في عدم إسماعهم.

﴿٨١﴾ ﴿وما أنت بهادي العُمْي عن ضلالتهم﴾: كما قال تعالى: ﴿إنَّك لا تَهْدي مَنْ أحببتَ ولكنَّ الله يَهْدي مَن يشاءُ﴾. ﴿إن تُسْمِعُ إلَّا مَن يؤمنُ بآياتنا فهم مسلمونَ﴾؛ أي: هؤلاء الذين ينقادون لك، الذين يؤمنون بآيات الله وينقادون لها بأعمالهم واستسلامهم؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّما يستجيبُ الذين يسمعونَ. والموتى يبعثُهُم اللهُ ثم إليه يُرْجَعون﴾.

﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿٨٢﴾ أي: إذا وقع على الناس ﴿القولُ﴾ الذي حَتَّمهُ الله وفرضَ وقته؛ ﴿أخرجنا لهم دابَّةً﴾ خارجةً ﴿من الأرض﴾، أو دابةً من دوابِّ الأرض، ليست من السماء، وهذه الدابَّة ﴿تكلِّمهم﴾؛ أي: تكلِّم العباد ﴿أنَّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾؛ أي: لأجل أنَّ الناس ضَعُفَ علمهم ويقينهم بآيات الله؛ فإظهار[1] الله هذه الدابة من آياتِ الله العجيبة؛ ليبيِّن للناس ما كانوا فيه يمترون. وهذه الدابَّة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراط الساعة؛ كما تكاثرت بذلك الأحاديث[2]، [لم يذكر الله ورسوله كيفيَّة هذه الدابة، وإنَّما ذكر أثرها والمقصود منها، وأنَّها من آيات الله؛ تكلِّم الناسَ كلاماً خارقاً للعادة حين يقعُ القول على الناس

---

(١) في (ب): «فأظهر».

(٢) كما في «صحيح مسلم» (١٥٨ و٢٩٤٧)، و«مسند الإمام أحمد» (٥/ ٢٦٨)، وانظر كتاب «أشراط الساعة» للشيخ يوسف الوابل وفقه الله.

وحين يمترونَ بآياتِ الله، فتكون حجّة وبرهاناً للمؤمنين، وحجّة على المعاندين][(١)].

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿٨٣﴾ يخبر تعالى عن حالة المكذِّبين في موقف القيامة، وأنَّ الله يجمَعُهم ويحشُرُ من كلِّ أمةٍ من الأمم فوجاً وطائفةً، ﴿ممَّن يكذِّبُ بآياتِنا فهم يُوزَعون﴾: يُجْمَعُ أوَّلُهم على آخرهم، وآخرهم على أولهم؛ ليعمَّهم السؤال والتوبيخ واللوم.

﴿٨٤﴾ ﴿حتى إذا جاؤوا﴾: وحضروا؛ قال لهم موبِّخاً ومقرِّعاً: ﴿أكذَّبْتُم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً﴾؛ أي: الواجب عليكم التوقف حتى ينكشف لكم الحقُّ، وأن لا تتكلَّموا إلا بعلم؛ فكيف كذبتم بأمر لم تحيطوا به علماً. ﴿أم ماذا كنتم تعملونَ﴾؛ أي: يسألهم عن علمهم وعن عملهم، فيجد علمهم تكذيباً بالحق وعَمَلَهم لغير الله، أو على غير سنة رسولهم.

﴿٨٥﴾ ﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا﴾؛ أي: حقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم الذي استمرُّوا عليه وتوجهت عليهم الحجة، ﴿فهم لا ينطِقونَ﴾: لأنه لا حجة لهم.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿٨٦﴾ أي: ألم يشاهِدوا هٰذه الآية العظيمة والنعمةَ الجسيمةَ، وهو تسخيرُ الله لهم الليل والنهار، هٰذا بظلمتِهِ لِيَسْكُنوا فيه ويستريحوا من التعب ويستعدُّوا للعمل، وهٰذا بضيائه لينتَشِروا فيه في معاشهم وتصرُّفاتهم. ﴿إنَّ في ذٰلك لآياتٍ لقوم يؤمنونَ﴾: على كمالِ وحدانيَّة الله وسبوغ نعمتِهِ.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة من هامش (أ) وفي هامش (ب): «ولم يأت دليل يدل على كيفيتها، ولا من أي نوع، وإنما دلت الآية الكريمة على أن الله يخرجها للناس، وأن هذا التكليم منها خارق للعوائد المألوفة، وأنه من الأدلة على صدق ما أخبر الله به في كتابه. والله أعلم».

خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿٨٧﴾ يخوِّفُ تعالى عبادَه ما أمامهم من يوم القيامة وما فيه من المحنِ والكروبِ ومزعجات القلوب، فقال: ﴿ويوم يُنفَخُ في الصور فَفَزِعَ﴾: بسبب النفخ فيه ﴿مَن في السمٰواتِ ومن في الأرض﴾؛ أي: انزعجوا وارتاعوا وماج بعضُهم ببعض خوفاً مما هو مقدِّمة له ﴿إلَّا مَن شاء اللّه﴾: ممَّن أكرمه اللّه وثبَّته وحَفِظَه من الفزع. ﴿وكلٌّ﴾ من الخلق عند النفخ في الصور ﴿أتَوْه داخِرينَ﴾: صاغِرين ذليلينَ؛ كما قال تعالى: ﴿إن كلُّ مَن في السمٰواتِ والأرضِ إلَّا آتي الرحمٰن عبداً﴾. ففي ذٰلك اليوم يتساوى الرؤساءُ والمرؤوسون في الذُّلِّ والخضوع لمالك الملك.

﴿٨٨﴾ ومن هَوْلِهِ أنَّك ﴿ترى الجبال تَحْسَبُها جامدةً﴾: لا تفقد شيئاً منها[1]، وتظنُّها باقية على الحال المعهودة، وهي قد بلغت منها الشدائدُ والأهوالُ كلَّ مبلغ، وقد تفتَّت، ثم تضمحلُّ وتكون هباءً منبثًّا، ولهٰذا قال: ﴿وهي تَمُرُّ مَرَّ السحاب﴾: من خفَّتها وشدَّة ذٰلك الخوف، وذٰلك ﴿صُنْعَ اللّهِ الذي أتقنَ كلَّ شيءٍ إنه خبيرٌ بما [تفعلونَ][2]﴾: فيجازيكم بأعمالكم.

﴿٨٩﴾ ثم بيَّن كيفيَّة جزائِهِ، فقال: ﴿من جاء بالحسنةِ﴾: اسم جنس، يشملُ كلَّ حسنةٍ قوليةٍ أو فعليةٍ أو قلبيةٍ، [فله عشر أمثالها][3]: هٰذا أقلُّ التفضيل. ﴿وهم من فزع يومئذٍ آمنونَ﴾؛ أي: من الأمر الذي فَزِعَ الخلقُ لأجله آمنون، وإنْ كانوا يفزعون معهم.

﴿٩٠﴾ ﴿ومن جاء بالسيئةِ﴾: اسم جنس يشملُ كلَّ سيئةٍ، ﴿فكُبَّتْ وجوهُهُم في النارِ﴾؛ أي: أُلقوا في النار على وجوههم، ويُقالُ لهم: ﴿هل تُجْزَوْنَ إلَّا ما كنتُم تعْمَلونَ﴾.

﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ

(١) في (ب): «لا تفقد منها». (٢) في النسختين: «تعملون».
(٣) كذا في النسختين؛ والآية: ﴿فله خير منها﴾.

﴿ٱلْمُنذِرِينَ ۝٩٢ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾.

﴿٩١﴾ أي: قل لهم يا محمدُ: ﴿إنَّما أمرتُ أن أعْبُدَ ربَّ هٰذه البلدةِ﴾؛ أي: مكةَ المكرمةَ ﴿الذي[1] حرَّمها﴾ وأنعم على أهلِها؛ فيجبُ أن يقابِلوا ذٰلك بالشكر والقبول، ﴿وله كلُّ شيءٍ﴾: من العلويَّات والسفليَّات؛ أتى به لئلَّا يُتَوَهَّم اختصاصُ ربوبيَّتِهِ بالبيت وحدَه. وأُمِرْتُ لأن ﴿أكونَ من المسلمينَ﴾[2]؛ أي: أبادر إلى الإسلام. وقد فعل ﷺ؛ فإنَّه أول هٰذه الأمة إسلاماً، وأعظمها استسلاماً.

﴿٩٢﴾ ﴿و﴾ أُمِرْتُ أيضاً ﴿أنْ أتْلُوَ﴾ عليكم ﴿القرآنَ﴾: لِتَهْتَدوا به وتَقْتَدوا وتعلموا ألفاظَه ومعانِيَه؛ فهٰذا الذي عليَّ، وقد أدَّيته، ﴿فَمَنِ اهتَدى فإنَّما يهتدي لنفسِهِ﴾: نفعُهُ يعود عليه، وثمرتُهُ عائدةٌ إليه، ﴿ومَن ضلَّ فقُل إنَّما أنا من المنذِرينَ﴾: وليس بيدي من الهداية شيءٌ.

﴿٩٣﴾ ﴿وقلِ الحمدُ لله﴾: الذي له الحمد في الأولى والآخرة، ومن جميع الخلق، خصوصاً أهل الاختصاص والصفوةِ من عباده؛ فإنَّ الذي وقع والذي ينبغي أن يَقَعَ[3] منهم من الحمدِ والثناءِ على ربِّهم أعظمُ مما يقعُ من غيرهم؛ لرفعةِ درجاتهم وكمال قُربهم منه وكثرةِ خيراتِهِ عليهم، ﴿سيريكم آياتِهِ فتعرِفونها﴾: معرفةً تدلُّكم على الحق والباطل؛ فلا بدَّ أن يريكم من آياته ما تستنيرون به في الظلمات؛ ليهلك من هَلَكَ عن بيِّنة ويحيا مَنْ حَيَّ عن بيِّنة. ﴿وما ربُّك بغافل عما تعملون﴾: بل قد علم ما أنتم عليه من الأعمال والأحوال، وعلم مقدارَ جزاء تلك الأعمال، وسيحكم بينكم حكماً تحمَدونه عليه، ولا يكون لكم حجَّةٌ بوجه من الوجوهِ عليه.

تم تفسير سورة النمل بفضل الله وإعانته وتيسيره، ونسأله تعالى أن لا تزال ألطافه ومعونته مستمرة علينا وواصلة منه إلينا، فهو أكرم الأكرمين، وخير الراحمين، وموصل المنقطعين، ومجيب السائلين، ميسر الأمور العسيرة، وفاتح أبواب بركاته، ومجزل في جميع الأوقات هباته، ميسر القرآن للمتذكِّرين، ومسهِّل طرقه وأبوابه للمقبلين، ويمد مائدة خيراته ومَبَرَّاته للمتفكِّرين. والحمد لله ربِّ العالمين. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

على يد جامعه وممليه عبد الرحمٰن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له

---

(١) في (ب): «التي».

(٢) في النسختين: «أول المسلمين».

(٣) فإن الذي ينبغي أن يقع.

ولوالديه ولجميع المسلمين. وذٰلك في ٢٢ رمضان سنة ١٣٤٣. وتمَّ تحريره من خط مؤلفه في ٢٩ ذي الحجة سنة ١٣٤٦.

* * *

تم الجزء الخامس من «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان»، ويليه الجزء السادس، أوله تفسير سورة القصص.

ويليه في النشر عقب هٰذا أصول من أصول التفسير وتفسير ألفاظ عامَّة يكثُرُ في القرآن مرورها، ويحتاجُ الناس إلى معرفتها[1].

---

(١) انظر مقدمة الكتاب.